

Princeton University Library



32101 074067800

الدكتور
عبد الرحمن الكيلاني

أضواء وآراء

الجزء الأول

١٩٥٩



al-Kayyālī, Abd al-Rahmān

Adwā' wa-ārā'

أدواء وآراء

الجزء الأول

للدكتور عبد الرحمن الكيالي

١٩٥٩



1871

1872

1873

1874

1875

1876

المقدمة

« وفي أنفسكم أفلا تبصرون »
- قرآن -

ان الانسان كثيراً ما يجد اثناء بحثه العلمي ، وأثناء مطالعته الادبية والاجتماعية ، وأثناء حياته المهنية ، قضايا تحتاج الاضائة والشرح والحل وفقاً لمقاييس التحري والعلم .

و كنت فيما مضى أقيت عدة محاضرات عن قضايا شتى تناولت علم النفس ، والدين والاجتماع والتربية والصحة ، قصدت من وراءها اثاراً ما غمض وشرح ما أوجز في موضوعات تلك القضايا .

ثم وجدت من المفيد جمع هذه المحاضرات في كتاب أضعه بين أيدي القراء من محبي العلم والاطلاع أملاً أن يكون ما أوردته في أبحاثي باعثاً لتفكيرهم وحاثاً لهم على تحقيق ما اهتمت اليه من حلول وقناعات ونتائج ، وما قررته من حقائق وآراء .

والمرء مهما تقدم في علمه ، ومهما اتسعت أبحاثه في آفاق المعرفة ، ومهما كانت حياته في أدوار نموها وتقدمها تبقى في قرارات نفسه أمور تنساب أحياناً الى محيط وعيه فتوقظ اهتمامه ، وتثير انتباهه ، وتدعوه للتفكير . فان استجاب لدوافعها ونظر في غوامضها ووجد لها الحلول بحسب ما لديه من مبادئ ومقاييس هدأت نفسه وتوجه عقله الى البحث في قضايا أخرى مستقرة في عقله الباطن ، وان لم يستجب ولم يفعل أشغلته وأورثته الشكوك والخيرة ، والهواجس ، وحالت بينه وبين ما يريد من هناة الفكر وراحة النفس .

ولما كانت القوى الذهنية في حاجة دائمة الى الهدأة بعد اشتغال مرير ، وكانت هذه الهدأة ضرورة من ضرورات حياتنا العقلية والروحية ولن يتم الوصول الى تحقيقها ، ما لم نبحث عن قرارات النفس ونفهم غوامض العقل الباطن ، ونفهم كيفية حدوث الوعي من الناحية الفيسيولوجية ، رأيت ان ابدأ الكتاب ، بالمحاضرة التي بحثت فيها عن قرارات النفس ثم اتبعها بالمحاضرة التي تبحث عن الواعية وكيفية حدوث الوعي فينا ، ثم انتقلت منهما الى المحاضرة التي أوجزت فيها « مذهب فرويد » وما قاله عن العقل الواعي والعقل الباطن ، وعن الغرائز وتأثيرها في تفكيرنا وأعمالنا ، ومنها تحولت الى المقالة التي تبين نشأة الدين وبدء ظهور فكرة الالهية وتذكر التثليث من أين أتى ، ولماذا اتخذ رمزاً يتجلى اثره في العبادات والطقوس والنقوش والتصوير والنحت والبناء .

ومن هذه المواضيع تدرجت الى البحث عن « الشخصية » وهي محاضرة شرحت فيها ماهية الشخصية وعناصر تكوينها في الفرد والجماعات . ولوجود العلاقة بين الشخصية والدوافع المرضية ذكرت المحاضرة التي عنوانها « الدوافع المرضية والشذوذات الاخلاقية » . وفي هذه المحاضرة الهامة عدت أنواع الدوافع المرضية وشرحت تأثيراتها على علاقات الانسان مع نفسه وغيره ووصفت ماهي هذه الشذوذات التي قد تبدأ درجاتها بالنبوغ وتنتهي بالجنون .

ونظراً لأن الجماعات لها عقلية خاصة ووعي خاص كما للأفراد تناولت في محاضرة خاصة موضوع « وعي الافراد والجماعات وتطوره » وأكملت البحث « عن المدنية ومقاييسها » بمحاضرة تبين لنا تلك المقاييس وما هو مفهوم المدنية حتى لا ننسى المعرفة في تقدير قيم الأمم في مدنياتها وحضارتها وندعي ان هذه متمدنة وتلك متوحشة ، وهذه متقدمة ، والاخرى متأخرة ، ونحن على جهل من المقاييس التي تمكنا من الحكم .

ولما كنا في عصر تعددت فيه انواع الحكومات ومذاهب الحكم بين « الديمقراطية ، والاشتراكية ، والشيوعية » بينت في محاضرة أخرى ما هي الديمقراطية ومبادئها ، وتطورها ، واتبعها بمحاضرة عن التطور الاجتماعي في

ع. سوري يحاضرة أخرى عما افاده العلم للانسان ، ثم خصصت محاضرة للبحث عن التعليم واهدافه وتطور التربية ، ثم محاضرة عن هياجين العقل ، وما هي المبادئ التي يجب ان يوجه اليها الطلاب والمعلمون وذلك استكمالاً لهذه القضايا التي تناولت شتى النواحي من مظاهر الحياة والعقل .

وكيلا ازيد الموضوعات ابحاثاً اخرى — وما اكثر ما في النفس من قرارات وما في محيط العقل من موضوعات — اكتفيت بما اتيت حسبما اضاءت لي المعرفة ، وغايتي كما قلت استرعاء الذهن واثارة الانتباه لبحث هذه القضايا وغيرها لعل من يطلع عليها يستمرىء التجوال في نفسه ويعلم ما فيها ويحل غوامضها لتحلوا له الحياة ويتمتع بهدوء النوازع الباطنية .

والحياة مهما تكن لا تطيب والعقل تتقاذفه امواج الشك والريبة والقلق وهو يسبح في لجج الجهالة والغموض والحيرة ، فاذا اردنا السلامة والهناء فلنعلم انفسنا ، ولنحكم العقل في الكشف عما فيها من قضايا مستقرة في عقلنا الباطن ، ولنجد لها المنافذ والحلول ونعي حقائقها كما هي ، وقد لا نستطيع حل كل ما يثار فينا ولكن ذلك لا يمنعنا من السعي والاهتمام مع العلم ان معرفتنا بالنسبة لما نجهله عن خضم الحقائق لا تزيد عن معرفة النملة بما هو داخل خطواتها وامامها جبال شاهقة تعلو عنها آلاف وآلاف الأُميال وهي تحاول ان ترى وتعلم ما وراء القمم وهيئات ان يتم لها ما تريد والعمر محدود والمدى معلوم وفوق كل ذي علم عليم .

الدكتور عبد الرحمن الكبيالي

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

قرارات النفس

ان في الحياة حقائق نستطيع ان نستكشفها بأساليب العلم بين نظريات وتجارب ، وهناك حقائق اخرى لن نستطيع ان نزنها ، او نقيسها ، او نحصيها ، ولا سبيل اليها سوى الايمان بعد البحث .
« ماكس بلانك - صاحب مذهب المقدار »

١ - تحرير قرارات النفس

إن قرارات النفس ، هي بواطن العقل . واستقرارات الفكر ، هي صدى الاشعورية ورواسب الذات . وفي قرارات النفس تمكث الشكوك والمعتقدات والآمال الخائفة ، والاحلام القريبة والبعيدة ، وتنبت التأوهات والتجسرات الدائمة ، وتنبعث اللذائذ والرغائب ، وتنشأ المطامع والاهواء ، وفيها تستقر الحوادث المؤثرة والاختبارات العميقة ، وتتولد الصور المتخفية والشخصيات المتكررة التي تجعل الانسان تحت حكم الدوافع الباطنية تدير حياته واعماله ، وتكون افكاره العاطفية واللاختيارية .

فهل سبترتم أنفسكم ونظرتكم بمجهر البحث والوعي الى القرارات المستقرة في باطن العقل التي منها ما هو متحجر ، ومنها ما هو متحرك ، ومنها ما هو البسيط ، ومنها ما هو المركب ، وهل درستكم مبعثها وماهيتها ومراميها ؟ وهل شرحتم اجزاءها وصورها ؟

٢ - قرارات النفس - الدليل على وجودها وعلى تأثيرها :

ان نكران وجود قرارات النفس نكران لما نسميه العقل الباطن ، وهل نستطيع نكران عقلنا الباطن ونفسكم تحدثكم عنه في الاحلام ، وفي الاستغراق ،

وفي الذهول ، وفي الغثي ، وفي السير بالمنام ، وفي الوله والهام ، وفي الاستحواذ ؟
وكيف تعلمون اندفاعكم احياناً الى إتيان أعمال تنساقون معها بغير ارادتكم
او بارادتكم عند فقد الضابط النفساني فتأتونها بتأثير الدافع الخارجي او الدافع
الداخلي برغبة قهارة .

إذا ما دام للانسان كوامن خفية من افكار وتجارب ، وميول ورغائب ،
وغرائز تكون شخصياته المتعددة ، وما دامت هذه الامور تستقر في باطن
العقل وتحاول الظهور الى الوعي فيردها الوجدان الذي هو مظهر من مظاهر
الذات ، وما دامت هذه المستقرات تصعد أحياناً متنكرة بصور شتى ، وما
دامت الدوافع لهذه الصور والاختبارات تسيّرنا وتؤثر في حياتنا واعمالنا ، وما دامت
هي وغيرها تبعث الشك والحيرة ، والتردد ، والاقدام ، والتهور ، وما دامت تتأثر
بنتائجها فنفرح ونتألم ، وما دامت نتلذذ من صور مملكتنا وجودها المعنوي ،
وفقدنا وجودها المادي ارضاء للتقاليد والآداب والعادات ، فمن المهم ان نهتم
بتلك القرارات النفسية وان نتفهم حقيقتها كما نسعى لتفهم بقية مظاهر النفس .

٣ - معرفة النفس وتعدد الذات :

قال علي بن أبي طالب : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ومعناه أن
معرفة الانسان حقيقة نفسه عن طريق الاختبار والاستقراء والتجربة والقياس
والعلم - وهي مقاييس العلم - تقرّب من معرفة ما يتصل به من العالم الخارجي
ومصدر القوة التي اوجدته . فاذا معرفة النفس مقدمة على كل معرفة ، ومعرفة
القرارات الراسبة في اعماقها مقدّم على معرفة ما يظهر عن النفس من مظاهر أخرى .
ولذا انصرف العلماء الى دراسة العقل الباطن دراسة واقعية ، في الحيوانات
العليا ، وفي الاطفال ، وفي مرضى العقول ليكتشفوا مجاهله وما في هذه المجاهل
من مقررات ، اي من رواسب وموروثات ودوافع وغرائز .

وكان من أهم من اشتغل في هذا السبيل : علماء العقل والتحليل العقلي ،
وعلماء مداواة أمراض العقل ، كفرويد ومدرسته ، والبرفسور يونغ ومدرسته .

وقد تبين من مباحثهم ان الذات قد لا تكون ذات نفسية واحدة ، اي شخصية واحدة ، بل قد تعدد ، فمنها الواعية السليمة التي تمارس العلاقات مع العالم الخارجي عن ارادة ووعي وضابط نفسي حسب المؤثرات الداخلية والخارجية « آداب المجتمع وقوانينه والعادات والعقائد » ومنها الشخصية المنكورة المتعددة التي تمارس العلاقات مع العالم الباطني عن ارادة ووعي حسب المؤثرات الداخلية والخارجية « الغرائز والعواطف والصور المنسية » ، والشخصية المتحولة اي التي لا تثبت على حالة ، والشخصية العصبية التي تراها قلقه ومنفعلة .

فاذا قلنا : فلان في بيته شيء ، وفي دائرة عمله شيء آخر ، وفي صحوه رجل ساكن كامل ، وفي سكره رجل مهتك ومعربد . واذا قلنا : فلان في ظاهره متدين وظاهر ، وفي باطنه غير متدين وخليع . وهذا في القول شجاع وصاحب تدبير ، وفي الفعل جبان وآفن الرأي . وهذا عاشق ولهان ، وعند الحقيقة محتال فاسق . وذاك صديق مخلص ودود ، وهو منافق ونفعي يتظاهر بالصدق في تأكيداته وحمله ، ويريد ان ينال منك ما لا تريد أو ان يلقي في روعك الحق في طلبه وروايته ، ومآربه تختفي وراء مقاصده وعباراته . وهناك الاشخاص المتظاهرون بالانسانية وهم وحوش ، والمتظاهرون بالصلاح وهم فاسدون .

أليس ذلك مصداقاً للقول : « الناس صناديق مقفلة مفاتيحها التجارب ؟ » ومن ينكر المثل القائل : « كل الناس صيادون ولكن الشباك مختلفة » فالاشخاص تنكر ذاتهم بشق الصور لاخفاء ما في قرارات النفس من مطامع ، وآمال ، وعواطف ، ورغائب .

الم تشاهدوا الممثلين في ادوارهم يستحيلون الى شخصيات أخرى خلاف ما هم عليه في غير أدوارهم ؟ الم تعاشروا أناساً تجدونهم في حياتهم ومعاملتهم كالممثلين يلعبون الادوار التمثيلية باتقان ؟ ألم تلاحظوا الشخصيات المهتكة ، والعصبية القلقة ، وذوات التلون .

اذن قولنا إن للانسان شخصيات عديدة ، حق . وفي الواقع قد نعرف من

الشخصيات واحدة او اثنتين او اكثر ، وقد لا تعدى معرفتنا الواحدة لمهارة الدوافع ، إذ لا تساعدنا الظروف على تبيينها لتعدددها او لحقيقتها ، فتخدعنا ونخدع نحن ، او ان الذات تحرص على الخفاء والمقاومة فتمنع ظهور المستقر في اعماق النفس لترجع اليه من حين الى حين عند سnoch الفرصة لتبديده ، او تعديله ، او اصلاحه .

ومن هذا تعلمون ان قرارات النفس تتحكم في شخصيتنا او شخصياتنا ، وانها تشغلنا دائماً وتؤثر في معنوياتنا وسير حياتنا ، فاذا فهمناها جعلنا ميولنا ورغائبنا وغرائزنا تحت سيطرة الوعي والارادة والضابط النفساني وسمت بنا الذات الى اعلى مراتب الانسان العاقل السليم .

٤ - عدم امكان تعداد القرارات النفسية :

اتظنون ان بإمكان كل منكم ان يعدد جميع مايجول في نفسه من القرارات التي تساوره ؟ وهل بإمكانه ان يذكرها بصراحة ليعالجها ؟ كلا !! ..
لو ان القرارات النفسية تعلقت بنقطة واحدة ، اي بمسألة واحدة ، او بقضية معينة لأمكن ذلك ، ولكن ما في نفسنا لا يحد ولا يسهل اظهاره او الاعتراف به او تنفيذه . إنه يحتاج لتعمق ، وتخطر ، واستعداد ، وبصيرة نافذة لاثارته وفهمه ووصفه كما هو .

٥ - اسباب عظمت رجال الفهم والعلم وسر تقديسنا لهم ولآثارهم :

والآن اسألكم : هل اطلعت على « رسالة الغفران » للمعري ، وكتاب « اخوان الصفا » لجماعة المفكرين الاحرار من الباطنية ؟ وهل قرأتم « الفتوحات المكية » لمحي الدين بن عربي ؟ وهل درست « الجحيم » لدائي و « البؤساء » لفكتور هوغو ؟ و « فلووست » لغوته و « زرادشت » لنيتشه ؟ وهل اعنتم النظر في روايات « شكسبير » وما جرى امثالها من الروايات والكتب التي لا تعد ؟

انها بأجمعها ولا شك آثار خالدة لرجال عظام ، اهميتها انها ترجمت قرارات أنفسهم ، وضعوها على السطور وكونوا منها الادب الرمزي والادب الفلسفي والادب القصصي اشباعاً لرغائبهم وارضاء لذائذهم ، واذ شاركونا بها بما في ضمائرنا وأنفسنا ، ولذا نعظمها ونحباها .

ألا تحبون الموسيقى وتعشقون الجمال وتقصدون الفن وتطربون من الصوت الشجي ؟ ألا تلهذون من رؤية الجمال والابداع والتكامل المتجلي في النحت ، والشعر ، والهندسة ، والادب ، والرسوم ، والهيكل ، والصناعة ، والطبيعة ، والحياة ؟ فما السر في تلهذكم وتأملكم وانجذابكم ؟.

أليس السبب الحقيقي انها صورة مادية جسمتها الروح فعدت تترجم عن قرارات انفسكم وبواطن ذاتيتكم وتعكس صدى امانيتكم وغرائزكم وعواطفكم التي لم تستطيعوا اشباعها او تمثيلها .

إذا احسبني واياكم متفقين على ان قرارات النفس وكل بواطن العقل «الاشعوري» حقيقة لا تنكر ، وان سر عظمة الناس في منتوجات عقولهم الخالدة هو في مقدرتهم على تجسيد قراراتهم النفسية في صور مادية ، وان سر حبنا لهم ولآثارهم ، انها تم عما كمن في انفسنا ايضاً ولم نتمكن من نيله او تجسيده . وعليه ، وحيث كلما عرفنا قرارات أنفسنا وعرفنا منشأها وتعليلها كلما استطعنا ضبط الارادة ؟ وتقوية الضابط النفساني ورسم الحقائق بصورها كما هي عارية ، ولما كانت الغاية من العلم والتربية تهذيب كوامن النفس وتحويل قواها المتحركة الى أعمال حرة تجمل من شخصيتنا ما يفيد ويحترم ، فلنكن شجعاء في دراستنا لها وتجسيمها حتى تتكون فينا المبادئ السامية والعقائد الحقة ، وهما مما يجعلان «الذات» سليمة ونبيلة .

٦ - بعض قرارات النفس - تعرض كموضوع للبحث :

قلت فيما مر ان الشك والاعتقاد من قرارات النفس ، فهل اجتهدتم يوماً لازالة الشكوك القائمة فيكم وفحص العقائد التي اخترتموها واصبحت تسيركم ؟

إن لم تفعلوا فأنتم في حيرة وتردد، وإن شئتم فأقول في خداع وتنكر
ينان عن تلبسكم جريمة التقليد والرياء والجهل .

إن النفس تهمس في أذنيكم متسائلة : ما العقل؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما الوجود.

ما هي القوة؟ أين مصدرها؟ ما هو الحق؟ لماذا العدل والظلم؟ وهل من
خير وشر؟.

هل تُنظم الوجود والحياة والاجتماع تديرها قوة مدبرة؟ وما هي
صلتنا بها؟ ولماذا نفيد انفسنا بقيود الآداب والعقائد، ونكبح جماح غرائزنا
وعواطفنا ولا نتركها طليقة؟

ولم هذه الحروب وهذه المنازعات وهذه المتناقضات في العلاقات والاعتبارات
والعقائد؟ ولماذا التفاضل قائم على العصبية والقوميات والوجاهات؟ ولماذا لا
تقوم على نتائج العقول، ومحصول العلوم، ومقدار الخدمات العامة والنفع البشري؟

ولماذا التنازع بين الأمم، وهل هنالك عالم يسوده السلام وتتساوى فيه
الأفراد والأمم؟ وما هي علة الفناء وعلة الخلود؟ وماذا بعد الحياة؟ ولماذا
العذاب والنعم والحشر والحساب؟ وما هي علة اختلاف العقول والاديان؟ ومن
هو الخطيء، ومن هو المصيب، والكل يشد الحق ويدعي الصواب؟ ولماذا
نتحمل الخطيئة وزجرو الغفران؟ وما هذه الرموز والمعميات والطلاسم في
الافعال والاعمال والعبادات؟ ولماذا تسير أرواحنا وتتخاطب قلوبنا، وينام
وعينا ونرى في المنام ما لا نراه في اليقظة؟ وهل الروح مفارقة للجسم بعد
فناؤه وأين مقرها! وهل الذين يدعون الاتصال بها صادقون في شعورهم أم تلك
أوهام الأيحاء؟ ولماذا يختلف قصاص الجرم الواحد باختلاف الجنسين؟.

هذه نماذج من قرارات النفس زرد صداها دائماً في احلامنا ويقظتنا، وقد
نجد لها حلاً وقد لا نجد. وعلى كل حي في الاشعورية تسيّرنا، ومتى وعينا
دوافعها تأثرنا بها، واجتهدنا لنجد حلاً لها، والسعيد من وعى واهتدى .

٧ - غرائب اعطامنا وختام البحث :

ومن الغريب اننا نعيش في المحيط الاجتماعي ، وهذه القرارات تساورنا ثم نضع احكامنا ، ونصرف بأموره ، ونزن اعتبارات الناس واكثرنا لم تنحل لديه العقد والمعميات ، ولم يرَ ما وراء الافق ، حتى ولا ما وراء الستار ، فكيف يصح الحكم ، ويصح الاعتبار ؟

لنجرّد أنفسنا من أوهام التقليد ودرن التسليم ، ولنفتح الطريق ، طريق العقل والعلم ، باحثين عن الحقيقة ، فنفرّق بين الحق والباطل ، وبين الوهم والصواب ، ونضع لقرارات النفس من الاجوبة السديدة والاعمال المنطقية ، ما يرضيها ويزيل شكوكها ، فنريح النفس ونريح الحياة ، اذ الفرق بين العقل المدرك والعقل الجامد ، والعالم ما في نفسه ونفس غيره ، والجاهل نفسه ونفس غيره ، كالفرق بين الحياة والموت ، والحقيقة والخيال ، والنور والظلمة . فأيهما تختارون ؟ إن معرفة النفس هي أول خطوة نحو السعادة .

« فاعرف نفسك تعرف ربك » ، وكن ما شئت ، ولكن اتحسب نفسك جسماً صغيراً ، وفيك انطوى العالم الاكبر ؟ .



فيسولوجيا الواعية

كلما اتمعن الانسان في دراسة العلوم من ناحيتها
المعنوية ، ازداد اعتقاداً بأنه ليس في العلم ما يمنع اتفاقه
وابعد الفلسفات . نحن لا نعلم الا الظواهر والقشور .
واما الحقيقة والعلة فتأنيان ان تنكشف لنا .

« لوجيل »

ان البحث عن فيسيولوجيا الواعية ، أي عن كيفية حدوث الوعي في الجهاز
الدماغي ، يجب ان ننظر اليه من جهتين : الاولى (الجهة الروحية - Spiritual)
باعتبار ان الوعي وظيفة من وظائف العقل ، وهو قوة مجردة ، أي قوة غير قوة
المادة . والثانية (الجهة الفيسيولوجية) باعتبار ان الوعي مظهر من مظاهر العقل ،
وهو قوة غير مجردة ، بل هو عمل من اعمال الدماغ ، والدماغ عضو المادة .

يقول الاستاذ « هالبرتون » أحد علماء الفيسيولوجيا في كتابه الخاص بهذا
العلم : « لا يشك أحد بأن فينا شيئاً به نعلم ، وبه ندرك الامور على ما هي عليه ،
وبواسطته نميل نحو الشيء ونقبض ونشرح ، وتألم وتلذذ بحسب ما يؤثر فينا
ونتعظ بما سبق اختباره وتجربته في ذهننا ، ونسميه (العقل) » .

ويختلف العلماء في تعيين ماهية العقل ، ومركزه ، وكيفية عمله وعلاقته
بالجهاز العصبي . فالأوائل يقولون عنه بأنه قوة روحانية حبست في الجسم ، ونور
يشع من القلب ، ويسمونه النفس الرضية ، ويدعون انه الروح التي تتصل بالذات
الالهية ، ويطلقون عليه اسماء اخرى تفيد وجود شيء فينا لولاه ما عرفنا
الموجودات على ما هي عليه . والمتأخرون ينظرون الى الوعي كأنه وظيفة من
وظائف الدماغ ، ولكنهم يختلفون في تحليل ماهية هذه الوظيفة وكيفية حدوثها ،
ثم يقولون بأن العقل شيء غير مستقل وينبثقون نظريتهم على اساس ، ان الوعي

هو محصول فعالية خلايا الدماغ كالصفراء التي تفرزها خلايا الكبد ، او كالاتقباض المشاهد في عضلات اليد والرجل ، وكلاهما نتيجة لفعالية الخلايا العصبية في العضوين المذكورين ، وبحسب نظريتهم ان ادراك الموجودات ومعرفة الاشياء نتيجة لفعالية خلايا الدماغ ولا شيء سواه .

اما الاستاذ هاليرتون فيخالفهم في مدعاهم ، ويتبنى نظرية اخرى لتفنيد مزاعمهم ، ويبنينا على اساس ان وجه المشابهة والقياس ، في المثال الاخير الذي اتوا به ليس فيه صحة البرهان ، ولادقة الاكتشاف ، ويقول ان ما ادعوه من الحقائق لا يقربهم من الحقيقة .

ثم يستخلص من نظريتهم ما يأتي :

اولاً : ان بعض (الحواس S'ensations) المختلفة التي نشعر بها ، يتوقف مظهرها على سلامة وصحة البقع الموضعية المعلوم مكانها في القشرة الدماغية (١) .

ثانياً : ان المخدرات ، والمنبهات كالافيون ، والكوكائين ، والقهوة ، والمورفين والكلوروفورم والكحول تؤثر في مجرى فعل الادراك .

ثالثاً : ان بعض التشوهات والآفات العصبية ، وبعض الامراض الدماغية يعقبها نقص في القوى الذهنية .

وهي حقائق يدعونها ومفهومها واضح ، ولكن الرد عليها يثبت استقلال العقل ويبين الحقيقة .

وفي سبيل ذلك يقول : « ان مادة الاعصاب الدماغية وان كانت اساساً لظاهر الوعي والادراك ، لكنها لا تدل على عدم الاستقلال ، ولا على صحة الادعاء بان هذا الفعل يصدر عن تلك المادة » .

(١) « القشرة الدماغية - Cerebral Cortex » فيها ساحات لكل منها وظيفة خاصة . وتتكون القشرة الدماغية من المادة السنجابية التي تحيط بالمنح . مركز الاحساسات والادراك والوعي .

ان اكثر الفلاسفة يختلفون في المدعى الاول ، ويعتقدون ان جميع المادة ، حية كانت أو جامدة ، تنتج عن فعالية العقل ، ويقولون لولا العقل (١) لما كان وجود ولا ادراك لخواص الصوت ، واللون ، والثقل ، والصلابة ، الى آخر الخواص التي يتألف منها عالمنا « غير العقلي » .

والصفراء نعم ! انها افراز ناتج عن فعالية خلايا الكبد ، لكن المحصول في هذه الحالة « فيزيكي » (٢) مكون من فعل فيسيولوجي « وظيفي » تركيب من فعلين « كيمي ، وميكانيكي » . وأما في حالة الوعي ، فان قلنا الدماغ هو الذي يفرز نكون قد خلطنا بين مظهرين في آن واحد « مظهر العقل الذهني ، و « مظهر الفعل الفيسيولوجي » مع اننا لا ندرك امر العلاقة بينهما ، وعليه بدلاً من القول إن الفعالية الفيسيولوجية هي المسببة للفعالية العقلية نقول : إن الفعالتين المذكورتين تشتغلان في خطين متوازيين لبعضهما البعض ، وان العلاقة بينهما مجهولة لدينا . وبهذه الفرضية وهي « توازي القوى الفيسيولوجية والقوى العقلية » يسهل علينا حل معميات القضايا العقلية ، ومن بعده يبقى علينا سؤال واحد عظيم وغير قابل الحل ، وذلك معرفة ايها يفعل بالآخر .. العقل بالدماغ ، ام الدماغ بالعقل ؟ .

ومما لا شك فيه ، ان كل فعل عقلي يعقبه تبدل دماغي . لكن رسم هذا التبدل صعب ودرسه أصعب ، ولو أمكن للانسان تحقيقه يوماً ما ، لما اقترب العلم من فهم العلاقة بين الدماغ والعقل ولا بقدر الابد ، ولا بمقدار الذرة ، وما دامت الشمعة تجهل ضوء نفسها والجسم المشع بالنور يجهل انه يضيء على غيره ، فالمعرفة بهذا الخصوص غير منتظرة ، كما ان ادراك ماهية العقل بعيدة المنال وان لم نقل غير منتظرة اذا حصرنا درسنا في وظيفة الدماغ فقط . ولهذا يجب علينا أن لا نخلط في الفهم بين هذا التوازي .

(١) هذا مذهب « ديكارت » واضع أصول النقد العقلي والقائل لماذا أنا موجود ؟
لأنني أفكر ، فلولو العقل ما عرف الوجود .

(٢) فيزيكي : أي « كيميائي وميكانيكي » لا دخل للروح به .

ان الفعل العقلي شيء ، والفعل الفيسيولوجي شيء آخر . والنسبة بينهما كنسبة الشيء الى ظله او الى منعكسه .

ومن الحق ان نبحت عن الصورة ، ونعني بها الجوهر ، أو نبحت عن الشعور ونعني به الدافع Impulse فان فعلنا خلطنا بين علمين متباينين .

وعلماء العقل يميزون فعاليتيه بثلاثة مظاهر : الاول (الاطلاعية : Cognitive) وهو مظهر يجعلنا واعين مداركننا او مدركين للأشياء التي نفكر فيها . والثاني (العطفية : Affective) وهو مظهر يجعلنا نتلذذ او نتألم من حالتنا الادراكية . والثالث (الارادية : Conative) وهو مظهر آخر يجعلنا نميل نحو الشيء ونسعى اليه .

ومن المشاهد أن في كل حالة عقلية تظهر هذه المظاهر ، ولكن بنسب مختلفة من حيث البروز والشدّة ، ففي الادراك والحفظ والتخيل والتصوّر ، تكون الاطلاعية أقوى وأشدّ بروزاً .

وفي حالة الحب والبغض والحزن والفرح والشك والخوف تكون العطفية أشدّ تقدماً وأقوى بروزاً .

وفي حالة الآمال والرغائب والحرص والتملك تكون الارادية أقوى وأشدّ بروزاً .

وفي كتب علم النفس مباحث قيمة عن فيسيولوجيا العاطفية والارادية والاطلاعية لا ادخل في بيان كيفية حدوثها وفعلها ، لأن ذلك من خصائص العلم المذكور ، ولكني سأبحث عن فيسيولوجيا (الوعي وحالاته) لأن حالات الوعي ، تفيدنا : (ما هو الفرق بين الموجود الخارج عن انفسنا ، أي (الظاهر) ، والموجود الداخل ضمن شعورنا اي (الباطن) . ومن وجود هذه العلاقة بين الظاهر والباطن ، نستدل على فعالية (الذات) التي تحتبر حالات الواعية (تتطلع ، وتحس وتريد) .

وفي الحقيقة ، لا يمكن تصوّر وجود حالة نفسية مالم تكن الذات مختبرة

لها ، فاذا ظهرت الحالة النفسية فانها تبرز مع اختبارات النفس الموجودة سابقاً وتعمل لتغييرها او لتصلحها . وعلى هذه الكيفية تدوم فعاليتها متكيفة بحسب الحالات الواعية واختباراتها ومكيفة لها .

وفي النتيجة يجب أن نعلم أن حالات الواعية ليست وحدات « مستقلة » ، بل العقل مثل الجهاز العصبي المركزي ، يشغل كوجود واحد مستقل بالرغم من ميزاته المركبة .

ومن المفهوم ان قولنا (حالات واعية) لا يعد من نقطة واحدة تعبيراً واضحاً ، لأن اهم صفات الحالة الواعية ، هو تبدلها الدائم ، وعلاقتها الصحيحة مع الواعية الماضية والواعية المستقبلية ، في حين ان كلمة (حالة) تدل على زمن من الراحة ونوع من الانفصال ، وما عدا ذلك فمن الممكن اعتبار (الحالة الواعية) كمقطع مجرى دائم الجريان .

ان المثال المذكور قيمة مفيدة إذ يمثل لنا كأنّ للحالات الواعية طبقات مختلفة أو سطوحاً متعددة ، منها ما يكون الوعي فيه في نقطة التركيز ، أي في بؤرة (نور العقل) ، ومنها ما يكون في نقطة ضئيلة فنغدو اما واعي له او غير واعي . وليبيان ذلك نأخذ المثال الآتي : فلو دقت الساعة مثلاً ووضعنا شيئاً بين الاسنان ، وضغطنا عليه بينما يقرأ احداً او يكتب هذه السطور ، وكان في شغل شاغل ، لما انتبه الى سماع الدقة ولخفي عنه وعيها .

ولكن اذا تحول مجرى الفكر عما كان يشغله ونظر الى الساعة فانه يسمع صوتها ويعي الوقت الذي دقت فيه لان تأثير صوت الدقة كان واقعاً على السمع مدة الوقت ، لكن الواعية كانت غير مدركة له لعدم الانتباه اليه .

فيمكننا والحالة هذه ان نتصور « مجرى الافكار » وهو يجري ، وان نتصور وقوع بعض اجزائه على السطح في أوقات مختلفة وظروف متعددة ، ووقوع بعض اجزائه في القعر الى عمق يجعلها بعيدة الوصول الى حدود الوعي . ولكن هذا التصور أو التعبير « بمجرى فكري ادراكي » يحتمل ان يكون صحيحاً من

جهة واحدة ، ويحتمل ان يكون غير صحيح من جهة ثانية ، لان هناك مجاري كثيرة تجري وتمتزج مع بعضها تحت ظروف طبيعية بسبب الفعالية المتكاملة المسماة « ذات - Ego » .

وتشكل هذه المجاري في كل آن صورة مخصوصة قابلة للتبدل بتأثير جريان المجري هنا وهناك ، وتشابه المجاري الفكرية المجاري العصبية من الجهة الفيسيولوجية ، وهي مجاري الدافع العصبي الذي يمر من الدماغ ظاهراً ويتجه الى العضلات ، فهذه المجاري العصبية لها صور قد تتبدل لتتلاءم اشكالها مع غيرها من الصور التي تحدث آنياً فيكون ذلك ، وقد لا تتلاءم .

وفي هذا الحال نرى من الممكن وضع بعض قواعد فيسيولوجية تمكنا من ادراك خاصة « المنع - Inhibition » لان الشكل الذي يمنع والشكل الممنوع لا يوجدان في آن واحد .

ومما لا شك فيه ان عدم الملاءمة ، او عدم التطابق خاصة تقدمت كثيراً في تاريخ النشوء والارتقاء بتأثير « قانون التكيف او الملاءمة - Adaptation » ولهذا تعتبر « الملائمة الفعلية الفيسيولوجية ^(١) - Correlative » للواعية حالة واقعة لمقاومة الدافع العصبي . فكلما قويت المقاومة حصل الوعي ، وكلما ضعفت انخفض الوعي ، وكاد ينعدم وذلك في كل حادث جديد ، مثل التدحرج وركوب الدراجة . فالمقاومة تكون في بادئ الأمر قوية ثم تخف بتكرار العمل الى ان تصبح عادة فيجري عملها بدون وعي اصلاً وبسرعة متناهية ودقة اكثر من المرة الاولى التي حدثت فيها التجربة .

ويجب ان لا يبرح عن الذهن ان التصور للمقاومة الخفيفة هو فرضي ، اذ ليس بإمكاننا معرفة مكان وقوع المقاومة في اي قسم من « النيرون ^(٢) - Neuron » يكون . ولكن نقول ظناً بانها حاصلة عند الفواصل ، اي عند ملتقى بوارز الشجيرة العصبية بغيرها « دندرون - Dendron » .

(١) الملائمة الفيسيولوجية للواعية : معناه علاقتها مع الجهاز العصبي اي حالتها عند المقاومة للدافع العصبي الذي هو فعل عكسي يحدث عند وقوع الحس الخارجي او التنبيه الداخلي .
(٢) النيرون - Neuron هو الجذع العصبي الممتد من الخلية العصبية الى الاطراف .

واذا نظرنا الى الفرضية المذكورة نجدها لا تخلو من قيمة ذات فائدة ما دامت تنقض فكرة قديمة كانت تقول : ان العمل عندما يصبح عادة ولا يصاحبه الوعي ، فالدوافع العصبية تترك الاقسام العليا من الدماغ وتحتصر نفسها في مناطق واقعة تحت القشرة الدماغية ، او تتركز في النخاع الشوكي .

على ان الدوافع العصبية ، مهما تكن تتبع ذات المجرى في الدماغ ، سواء وجد الوعي او لم يوجد .

وحيث لا يوجد دليل على وجود الوعي في النخاع الشوكي ، فان الافعال الصادرة عنه هي افعال (عكسية) «ردية - Reflexes» ، لا يصاحبها الوعي بل تكاد تشبه العادات التي تجربها الاقسام العليا من الجهاز العصبي بتأثير التربة ، ومن الممكن التنبؤ عنها قبل وقوعها .

فلو وضعنا مثلاً منها معلوماً على القسم «الوارد - Afferent» من الجهاز المنعكس «Reflex System» ، فبإمكاننا الاخبار عن نتيجة تأثيره ، في القسم «الناقل - Efferent» من الجهاز المتصل به . واذا كان بوسع المنبه الاستيلاء على مظاهر الوعي ، اي ان يؤثر في الحالة الواعية لاستحالة الاخبار عن تأثيره سلفاً لان التثبت منه قليل ، والعلاقات العصبية معقدة ، والواقع العصبي يتجول في جهات مختلفة فلا يمكن والحالة على ما ذكر ، ان يمرر احد تماماً التطور الذي يتبعه الفرد تحت تأثير الظروف الخارجية .

اما عن الاختبارات الاطلاعية الاولية (Primary Cognitive Experiences) فقد جرت العادة ان يقال عنها بأنها (احساسات Sensations) . والاحساس من الجهة الفيسيولوجية يحتاج وقوعه الى ثلاثة أمور : اولاً - الى جسم نهائي Endorgans يوجد في الأشبليا الحساسة Epethelia التي تكيفت على أخذ المنبهات . ثانياً - الى مجرى عصبي حساس Sensory-Tract ينقل السوق العصبي الوارد اليه . ثالثاً - الى مركز حسي Sensory Center كائن في قشرة الدماغ السنجابية .

ولو فرضنا بأن القسم الاخير ، أي البقعة الحساسة من القشرة الدماغية ،

هي الأمكنة التي لها حس ، فإن اشتراكها في أحداث الحس لا يزال مشكوكاً فيه ، إنما المعقول فرضها بأنها المحلات التي يجب على السوق العصبي أن يمر فيها لأحداث الحس المقابل لذلك السوق .

وبما يجب الاعتراف به ، أنه لا يوجد لنا بعد سن الطفولة احساس مجرد ، أي اختبار أولي خال من المعنى ، أو خال من الاختبارات التي مضت ، أو أنه اختبار يتوقف حصوله على الجسم النهائي ، والنسيج العصبي ، ومركز الاحساس فحسب .

وإذا تساءلنا : ما هي الفائدة من اختباراتنا ؟ أجبنا أنها للتوفيق بين السكان الحي والمحيط الخارجي . على أن الواعية وإن تكن مبهمه في الصفة لكنها لا تخلو من نسبة أو علاقة مع الاختبارات الماضية ، ولا من دوافع Impulse^(١) تسوق الاعضاء للحركة . ولهذا كان ماتحويه الواعية تدريجياً في حالاتها الاطلاعية من المواد يتميز ويُفَرَّق ويُعرف . وما كان مكوّناً من جنس واحد كان خيراً من الذي يتكوّن من اجزاء متباينة .

وفي النتيجة يصحّ أن يقال بأن الاحساسات تجتمع بنمو اختباراتنا وتكوّن مدروكاتنا للأشياء .

فادراكنا للبرتقالة في سن البلوغ يحتوي على تحليل وتفريق لبعض احساسات محدودة تتعلق بالألوان والطعم والشم ، ولكن لو أرجعنا فكرنا دقيقة واحدة وتمعنا في المسألة أيقنا بأن ادراكنا للبرتقالة لم يحصل من تركيب متعاكس Converve Synthesis أو من بناء احساسات منعكسة مثل هذه ، ويظهر لنا أن العالم منذ الطفولة وصاعداً يتركب من اشياء ظاهرية ، وإن احساساتنا عنها عبارة عن محصول صنمي للفعالية التحليلية للذات - Analytical activity of Ego التي خلقتها .

وبعد ما علمنا بأن الاحساسات ليست هي اختبارات الحاضر ، بل كانت في الاصل مجردة ثم تركبت ، بقي علينا ان نبحث عن صفاتها وخواصها .

(١) رديه Reflexe او (Motive)

تختلف الاحساسات ، إما في الشكل واما في الخاصية . فالشكل يفيد استخراج احساسات متعددة من حواس مختلفة ، والخاصة تفيد استخراج احساسات متعددة من حاسة واحدة ، فالازرق مع الاخضر مثلاً هما لونان مختلفان لكل منهما حاسة مخصوصة تختلف من حيث الخاصية ، ولكن من الممكن التدرج من الواحدة الى الثانية .

وأما الحرارة والصوت فهما حسان مختلفان في الشكل والخاصة ولا يمكن التدرج بهما ، اي من الواحد الى الثاني .

ومن المعلوم ان كل جسم نهائي في الاطراف خصص لتلبية منبه معين ، فالتى في الاذن تلي تأثيرات الموجات الهوائية لاحداث الصوت ، والتى في العين تلي التموجات الشعاعية لاحداث الرؤيا ، والتى في الجلد تلي تأثيرات الحرارة والبرودة وكل ما يتعلق باللمس وما يولد الالم .

وعليه يسمى المنبه اي الملمى الذي اختصت به الاجسام النهائية المعنية (المنبه المتجانس او المتماثل — Homologus) ، والمنبه او الملمى الذي لا يتجانس مع الاجسام المذكورة (المنبه غير المتجانس) .

فلطمة تصيب كرة الدين تسبب مشاهدة شعاعات نارية تقدح من العين ، ولمس بقعة البرودة بنقطة حارة تشعر بالبرد ، ووضع مجرى كهربائي على اللسان يثير الشعور باللمسة . ولهذا بحثت مسألة شكلية الحس وقيل إنها تتوقف على آلة الحس التي وضع عليها المنبه ، لا على نوعه بذاته .

وتبيناً لهذه القاعدة التي ارتآها « روهانس مولر » سماها بقانون قوة « العصب الخاصة » ادعى ان كل آلة حسية لها قوة مخصوصة ، وانها تتنبه بواسطة اي منبه كان ما دام يؤثر فيها ، ولكن لا يوجد دليل فيسيولوجي يدلنا على ان الدافع العصبي الجاري في مجرى الالياف العصبية للعين مثلاً هو من حيث القوة غير الدافع العصبي الذي يجري مجرى الالياف العصبية للسمع لان تجارب « لانجلي » وغيره في قطع العصب الواحد ووصله بغيره للتطعيم دللتنا على ان الدافع العصبي في كل الالياف العصبية هو واحد في فعله . ولهذا نرجح القول بان « القوة

الخصوصية ، التي تعود للاحاساسات هي المراكز الحسية الموجودة في الدماغ وليست في الاجسام النهائية . ولكن اذا صح هذا المدعى كان علينا ان نعلم على كم يتوقف مقدار النمو العصبي بالنسبة الى نمو ما يقابله من الاجسام النهائية .

فالشخص الذي لم يستعمل الاجسام النهائية الموجودة للسمع والبصر منذ ولادته لا يمكنه معرفة ما يجب ان يراه ويسمعه ولا يمكنه التفكير والحكم على التصورات البصرية والسمعية التي تقع له ، ومع هذا فليس من الحق فيما اذا كانت الاحساسات المختلفة تحوي اجساماً نهائية متعددة الخاصة او انها محصول فعاليات مختلفة في جسم نهائي واحد .

والذي يظهر ان هناك احساسات ابتدائية موجودة في كل جسم حي ، وان خواص الاحساسات المختلفة انما ينبعث عن المركبات المختلفة لهذه المواد .

ومن المعلوم ان الاحساسات تختلف بالخاصية بنسبة اهتزازات المنبه . فالتوجات الصوتية الناشئة عن اهتزازات بطيئة او سريعة تولد احساسات في النغم عالية او اطيية ، والتوجات النورية الناشئة عن اهتزازات سريعة او خفيفة من موجات الضوء تولد احساسات مختلفة زرقاء او حمراء او خضراء او صفراء .

وقد يحتمل ان تكون الاختلافات في اهتزازات الجواهر الفردية هي السبب المولد للاختلاف في الخاصية للاحاساسات البصرية ، والذوقية ، والشمية ، والسمعية ، والحرورية ، وعلى قوة المنبه ، اي على وسعة اهتزازاته يتوقف وجود صفة ثالثة تختلف بها الاحساسات وهي ما نسميه « الشدة » - Intensity ، كما هي في ارتفاع الصوت وشدة لمعان اللون .

وتوجد خاصية أخرى تثيرها الاحساسات تسمى « التمددية — Extensity » وهي مفقودة في الشم والذوق وملموسة في الجلد والبصر اللذين يملكان خاصية أخرى هي « التوقيتية » اي الخاصة التي نعرف بها مكان المنبه ، ونفرق بين تأثيره وتأثير آخر حدث في جواره .

(١) الفعالية التحليلية المختصة بالذات .

Analytical - Activity of Ego (1)

وعلى هاتين الخاصتين « التمددية والتوقيعية » نبني تصوراتنا عن السعة ،
والشكل ، والمكان ، وعن كافة المناسبات الخاصة .

وهناك صفات أخرى تنسب للحساسية وهي « الوقتية — Protensity »
و « المثلية » ، فالأولى يتوقف عليها ادراكنا للوقت . والثانية يتوقف عليها
شعورنا بالألم واللذة ، والنفرة .

ومما يستلقت النظر ارتباط خواص الحواس بعضها مع بعض بحيث لو تعمدنا
بالتجربة ان نبدل أو نغير واحدة منها لصعب علينا عدم تنبيه الأخرى آنياً ، فلو
زدنا وسعة حسية الحرارة بوضع قسم كبير من يدنا في الماء الحار فإن شدة
الحرارة تشتد آنياً وتزيد ، وإذا زدنا المساحة لمنبه لوني بميد المسافة انقصنا لونه
لأن لون الصباغة ينقص في الظاهر كلما زادت شدة المنبه . ومرتبة الصوت اذا
ارتفعت تظهر كأنها ناقصة .

وعلاوة على ما تقدم عن الحساسيات التي يملكها الإنسان وهي حقائق لا سبيل
لنكرانها يجب ان نتذكر بان خواصها لا تتوقف على قوة المنبه ، ونسبة اهتزازه ،
ومدته وسعته فحسب ، بل على حالة الجسم الحساس أي على الجهاز الحسي وسلامته ،
وعلى حالة البقع الحساسة التي تقع بجوارها وقت التنبه ، وعلى حالة الجهاز العصبي
بمجموعه ، وعلى حالة الواعية والقوى الذهنية حين الاختبار . ولكي يحصل
التأثير المطلوب يجب ان لا تقل قوة المنبه عن حدها المعلوم . فالصوت الخفيف
الضعيف كاللمس الخفيف الضعيف لا ينبهان الوعي الاطلاعي ، لان الدرجة
المسماة بالحد اللازم لتوليد التأثير ليست كافية .

ومما يجب الانتباه اليه ان الفرق بين منبهين اذا كان دون الحد الاصغر
المعلوم لا يعرف . فلو ان نعمين من مرتبة واحدة تقريباً ولونين من صبغة واحدة
متشابهة أردنا التمييز بينهما صعب علينا ادراك الفرق لان الدرجة الموجودة هي
دون الحد اللازم لادراك الفارق التنبهي .

يقول « وهر — Weber » كقاعدة : « ان الفرق القابل للادراك بين

منهين يتوقف على النسبة الموجودة بين الاختلاف وعظمتها ولا يتوقف على المقدار القطعي الموجود بين عظمتها اي قوتها .

و « فيشر » بعد ايراده الادلة الكثيرة المؤيدة لهذا القانون يدعي ان النتيجة التي استنتجها من مساعيه هي : « ان قوة الحس تتناسب مع لوغارتما المنبه » ، وبعبارة اخرى : « ان قوة المنبه يجب ان تزداد نسبتها هندسياً لتزداد الحساسية بنسبة عديدة » .

وبهذا الشرح لقانون « وهبر » جعل « فيشر » نتيجه تعرض لانتقادات هامة لان قانون « وهبر » في الحقيقة هو تغيير لاختباراتنا اليومية .. فقبل النور يضيء غرفة مظلمة لكن لا نشعر به في ضوء الشمس الواهج . والغرفة اذا اضيئت بمائة شمعة من النور ثم زيد عليها شمعة واحدة أدركنا تأثير الزيادة ولكن اذا اضافناها بالف شمعة وزدنا عليها واحدة لا ندرك الزيادة بخلاف ما لو كانت الزيادة عشر شمعات فاننا نشعر بها .

وعلى هذا يجب ان تكون نسبة الفرق $\frac{1}{10}$ من قوة المنبه لتجعلنا ندرك ذلك ، وهي تتفق مع قاعدة (وهبر) التي تنص على ان النسبة في الضوء هي $\frac{1}{10}$ وفي الصوت $\frac{1}{10}$ وفي الضغط الجلدي من $\frac{1}{10}$ الى $\frac{1}{10}$ وفي الثقل تختلف بين $\frac{1}{10}$ الى $\frac{1}{10}$ حسب نقطة التطبيق .

ولادراك الحساسية نحتاج الى وقت كاف يصرف جزء منه في الجسم النهائي الذي طبق عليه المنبه ، والقسم الآخر يصرف في الدماغ ، ويختلف مقدار الوقت الكامن باختلاف انواع الحسية . ففي المرئيات يكون اطول مما هو في السمعيات وفي الالم اطول مما هو في اللمس . وقد تدوم الحساسية زيادة عن مقدار المنبه لان المنبه عند تطبيقه قد يحدث سلسلة تامة (بعد الحس) نشاهدها كثيراً في الحساسيات المرئية ، فمثلاً رؤيتنا لجسم براق اللون يحدث فينا حساسية تمتد مدة هي (بعد الحس) وبعد ان نطبق العين نراها تدوم ثلاث ثوانٍ او عشر .

والحساسية بعد الحسية الاولى وان غابت في الاختبار الذي تشعر به الواعية تبقى مدة ثم تغيب ، ويمكن ان تذكر الاختبارات احياناً ، وان نعيد صورتها آنياً بسعي الارادة ولو بعد حين .

ان اعادة الصورة تشكل ما نسميه (الصورة الخافضة) ومثالاً على هذا لو سمعنا نغماً موسيقياً ، او صوتاً صادراً عن شخص ما ، فاننا قد نتذكره ونشعر بان هذا النغم ، او هذا الصوت قد سبق لنا اختباره فهو مكرر لما سمعناه .

وقد تكون الصورة المكررة تحوي كل اختباراتنا الماضية وتكون واضحة بحيث نعتقد انها الصورة الحقيقية مع ان تكرارها خيال ووهم ، وهذا يثبت لنا ان الخيالات ليست الا صور للتجارب الماضية والاختبارات السابقة ، وهي تحدث مع أكثر الناس في الحالات الطبيعية ، وفي الحالات المرضية ، وفي المنام واكثر ما تكون في الهذيان والجنون .

ويختلف العلماء باجائهم عن الفرق بين الاختبارات الاصلية ، والاختبارات التي احييت من جديد ، هل هي تطابق تنبيه بعض اقسام معينة من الدماغ ام ماذا ؟

ان بعض الفيسيولوجيين يرون ان هنالك مراكز للحافظة مستقلة عن المراكز الحسية التي يفترض بأنها في الأصل سبب تهبجها ، ويزعمون ان تذكر النغم او المرأى ناشئ عن تهبج ثاني يصيب مراكز الحافظة المعينة بها . بينما تبقى المراكز الحسية ساكنة ، ولكن ميزان البرهان يدل على عكس ما ذكر عن هذه النظرية .

واذا كان لا بد من القول فلاحسن ان نشير بان الافعال الفيسيولوجية المنطوية تحت الحس وصورتها المتكررة هما واحد ، ويوجد فرق فيسيولوجي بين الاختبارات الحسية والالوهام ، وبين الاختبارات المتكررة ، انما لا يمكن بيان هذا الفرق في الوقت الحاضر .

واذا صدف وحكنا على شيء ظاهري في ظروف معينة وكان حكمنا خلاف ما تعلمنا إياه الاختبارات عن حقيقته فحكمنا يكون وهمياً وباطلاً .

مثال ذلك : لورأينا خطأ او صورة تظهران لنا طويلاً او قصيراً خلاف ما
هما عليه او ان لهما جهة غير جهتها الحقيقية ، او تصورنا وزنا أثقل من قيمته
الواقعة فحدث هذه الخيالات يتأتى عن عوامل كائنة في الاعصاب الاطرافية وعن
عوامل موجودة في المراكز الحسية ، وكل ذلك يعود امره للدراسات والابحاث
البيولوجية وتطبيقاتها ولا مجال للدخول في تفصيله وشرحه .



فرويد أو مذهب التحليل العقلي

ان اقرب المبادئ الى الطبيعة
ما وافق الاختبار .

لمحة عنه حياته

الاستاذ فرويد — Freud طبيب يهودي نمساوي ولد سنة ١٨٥٦ في مدينة (فريبورغ) من (موراويا) ، ودرس الطب وعلم النفس «السيكولوجيا» في جامعة (ويانا) ، ولما اتمّ تحصيله في الجامعة سافر الى باريس ، واشتغل مع الاستاذ (شاركوت — Charcot) سنة واحدة .

وفي سنة ١٨٨٥ كرّس نفسه للاشتغال في المعلومات العصبية (١) — Neurosis مع طبيب نمساوي اسمه (جوزيف بروهر — Bruer) ثم نشر في سنة ١٨٩٥ نتائج دراسته في الهستيريا (٢) — Hysteria وفي اصول مداواة زميله المذكور في التنظيف (الكاتارسيس — Catharsis) اي تنويم المريض بطريقة الاستهواء

(١) المعلومات العصبية : هي امراض عصبية بدون آفة معلومة في الاعصاب مثل «الهستيريا» «والنيوروسينيا» «وداء الهوس» «وداء الاستحواذ — Obsession» سببها خلل في الجهازات العقلية فتظهر لها اعراض شتى تؤثر في الجسم فيشكو منها المصاب كالشلل والنوبات التشنجية وسوء الهضم والعنة والانقياد لفكر مستحوز يدفع صاحبه لاتيان عمل لا يرضى به الى آخر ذلك من الاعراض التي لا تعد .

(٢) الهستيريا : مرض في الارادة كان يسميه القدماء (اختناق الرحم) لاعتقادهم ان الرحم مصدره مع أنه يوجد في الاطفال وفي الذكور والنساء ، والمؤثر فيه استحواذ الافكار اللاشعورية على الارادة ومنعها من التصرف .

المغناطيسي « الهينوتيزم » وخص الطبيب له اثناء النوم لكشف الظروف المنسية الاولى التي سببت فيه الاعراض العصبية الظاهرة ، ومن بعدها اتخذ فرويد لنفسه طريقة خاصة جعل لها اصولاً جديدة (تكنيكا^(١) — Technique) سماها اصول التحليل العقلي .

ووضع طريقته مع نتائجها في رسائل وكتب ومقالات نشرت في اوقات مختلفة وترجمت الى لغات متعددة فكان لما كتبه وبينه تأثير عظيم بين العلماء اثار فيهم غاصفة النقد وحب التدقيق واعادة النظر فيما كان مقرراً بينهم ومعروفاً لديهم كحقائق أساسية خاصة في مبحث علم العقل وفروعه . وقد جاءهم بنظريات حديثة مبنية على التجربة ، ففسر معظم ما يمكن من مسائل « الرؤيا » والاعراض العصبية والمعلوليات العقلية ، ثم جمع ما كتبه في ثلاثة مجلدات حوت نظرياته ، وشرحها وعلاقتها ببقية العلوم الاجتماعية والطبية والمدنية ، كالدين والتاريخ والطبابة والاجتماع وعلم الوقائع والفن ، فانتصر له فريق وعاداه فريق آخر . ولكن ما وضعه من النظريات ، وما شرحه من المسائل ، وما كشفه من الحقائق ، كان له الفائدة من الوجهتين العلمية والعملية مما لا يسع المطلع عليها إلا تقدير مساعيه وقوة نبوغه ودقة بحثه لتحويله وجهة العلماء عن كثير من الاسس العلمية التي اقتنموا بمقدماتها مع انها غير صحيحة .

فكان شأنه شأن نظرية (داروين) في اتاريخ الطبيعي وما قاله في اصل الانواع وقانون النشوء والارتقاء وتنازع البقاء حيث عصفت بأكثر النظريات الطبيعية التي كانت حتى يومه مسلماً بها ، وبرهنت على عدم صحتها .

ولما كان هذا المذهب جديراً بالوقوف عليه ، والنظر فيما يحويه ، رأيت من الفائدة والضرورة لمعرفة ما وصل اليه العلم في السنين الاخيرة في مباحث علم العقل ان اقدم الى القراء مختصر ما حوى تاريخ هذا المذهب وما فيه من مبادئ واسس

(١) تكنيك : كلمة حديثة تدل على طريقة العمل في جميع ما يقتضي له من الدرجات وهي واسعة الاستعمال ولا يوجد لها لفظ يقابلها بذات المعنى في العربية ولذا اصطلاح البعض على استعمالها كما هي وقد ترقى التكنيك حتى غدا علماً خاصاً يسمى (تيكنيكولوجي) .

ونظريات بصورة مختصرة تسهل لهم دراسته والتلذذ بمطالعة فيظهر لهم ما قد يمكن ان يكتشفه من خطأ او صواب .

وقد قيل : ان لكل ما يقال جزءاً من الحقيقة ، وان اقرب المبادئ الى الطبيعة ما وافق الاختبار .

ماريخ نوء علم التحليل العقلي :

ان هذا العلم لم يكن معروفاً إلا في القرن العشرين . ونستطيع القول بأنه مولود جديد اخرجته للعالم سنة ١٩٠٠ الأستاذ « فرويد » بعدما نشر تجاربه واجتهاده ونظرياته في تحليل « الرؤيا » ، وقد يكون العلم بحد ذاته موجوداً لوجود حقائقه وعوامله ولكن الظروف لم تهيأ لوضعه . ولهذا قام على اساس ضيق وانحصرت غايته في البدء بطريقة معرفة الأمور المتعلقة بالامراض العصبية الوظيفية (١) Functional Nervouse Diseases وكيفية التغلب على ما كان يعتري الاطباء من الحيرة عند مداواتهم هذه العلل ، وكان علماء العصب Neurologist قد تعودوا الاهتمام بالحقائق الفيزيكية « البدنية والجسدية » والمعاملات العصبية لتأثرهم بتعاليم (هايتزغ Hitzig) و (فريتس Fritsch) و (فريهر Ferrier) و (غولتز Goltz) وغيرهم ممن بينوا الصلة القاطعة القريبة بين الوظائف العضوية وبين الاقسام المحدودة من الدماغ ، اي ان لكل عضو او عضل او وظيفة في البدن أو عمل عقلي مركزاً مقابلاً في الدماغ ، وان أعمال العقل هي نتيجة فعالية خلايا « الدماغ » ولكنهم جهلوا تماماً العوامل النفسية « العقلية » اذ لم يقدروا

(١) الامراض العصبية الوظيفية : هي اعتلالات ليس في اساساتها آفة في الاعصاب ، وانما في وظائف العصب مثل الشلل الهستري فانه ناتج عن انقباض في الدافع العصبي للعضو المذكور سببه خلل في الارادة فيتوقف العضو عن الحركة وليس في مركزه المقابل له في الدماغ آفة تتمعه ، حتى اذا انصرفت الارادة بالتلقين والتنويم عادت اليد الى حركتها وجرى الدافع العصبي من مركز الدماغ اليها .

على لمسها ومشاهدتها فتركوها للفلاسفة وعلماء الباطن^(١) والمشعوذين ، وعدوا الاشتغال بها خارجاً عن دائرة العلم فكانت النتيجة بقاء عوامل الاعتلالات العصبية « نيوروسيس » مجهولة ، وألغاز حادّات المستريا المعقدة (وهي مثال للاعتلالات العصبية) غير محلولة .

وفي سنة ١٨٨٥ ، بينما كان « فرويد » يشتغل طبيباً داخلياً في مستشفى (سالبترية — Salprier) في باريس ، اكتشف نقص ما كان العلماء مقتنعين بصحته في تعليل الشلل المستري بأنه خلل وظيفي محكوم لذات الاقسام الدماغية المسؤولة عن أمراض الشلة (جمع شلل) العضوية المقابلة ، وكان تعليمهم فاسداً وطريقة تداولهم للحادثات المذكورة غير مثمرة لاتخاذهم وسائل متكونة من عقاير وأدوية معظمها لا منفعة له وأساليب لاشفقة فيها ولا تأثير على العقل كالتحويل والتخويف والاستهزاء بما يفعله المريض وتلقينه استعمال ارادته و ارادة نفسه وتطبيق الكهرباء عليه وكان يظن بوجود تأثير لها ونفع للحالات العصبية فلم يثبت شيء من زعمهم رغم اتباعهم طريقة « إرب — Erb » التي هي تزويق لا غير (Phantazy) وفي هذه البرهة كان الهيستوتيزم يدق أبواب الطبابة للتداوي فوجدت له فوائد أقر بها أمثال « ليوبولت — Liebault » و « بيرن هايم — Bern - Hiem » و « هايدن هايم — Hiden Hiem » و « فورل — Forel » وكانت المسألة التي شغلت العلماء هي فهم العلماء هذا المظهر الذي أدى الاعتراف به الى فائدتين قربتا نضوج المسمى لوضوح علم التحليل العقلي . الأولى : اقتناع الباحثين بأن التبدلات الفيزيكية « الجسمية » يمكن حصولها صنعياً بتأثيرات عقلية كتلقين غير المريض بوجود آفة تؤله في يده حتى إذا قنع بها وتمكنت التلقينات من نفسه اللاواعية شعر بالالم وتعطيل العضو ، مع أن ما حدث له لم يكن بآفة عصبية وانما بتأثيرات روحية .

(١) علم الباطن : هو ما يسمى « بالمستيزم — Mysticism » يبحث عن المعرفة الثابتة الخارجة عن المعرفة الحسية والمعرفة العقلية ، لأن الحسية مدارها الحواس وهي تتأثر بال مادة والعقلية مدارها البرهان والاستنتاج وهي تتأثر بالاختارات الذاتية . وأما المعرفة الثالثة فهي فوق هذين النوعين قيمة وادراكاً ، ولهذا تعد ما وراء الطبيعة وتكتنفها الفلسفة وتتأثر بالحبّة والوحدة والوجد .

الثانية : وثوقهم عند مشاهدتهم حركات ما بعد التنويم المغناطيسي في الشخص المنوم ، من وجود أفعال عقلية لاشعورية Unconscious'e وهي فكرة نظرية لم يبحث الفلاسفة عنها ، ولكن العلم الحديث عليها من حوادث التنويم وبسطها للتجربة والبحث . وقد برهن التنويم المغناطيسي على وجود التشابه بينها وبين بعض الحالات العصبية ، فكان عاملاً في نشوء التحليل العقلي المدبر للحالات الصادرة عن التنويم بالوجهتين العلمية والاقرباذنية (أصول التداوي) .

التنويم المغناطيسي « الهينوتيزم » والتنظيف « كاتارسيس — Catharsis » :

كانت فوائد التنويم المغناطيسي مشهودة في الاعتلالات العصبية « النوروسيس والهستريا » ، ثم قام « شاركوت » بتجارب دلت على أن بعض السلسلة الحادثة عقب الوقائع الجرحية الفجائية هي من طبيعة الهستريا ، وإن من الممكن أحداث شلل صني نظيرها ، بتلقيح المريض عين الجريحة المسببة ، كأن ينوم فيقال له : إن رجلك لا تتحرك إذ وقعت عليها حجرة ، ثم يفيق المنوم فيرى رجله مشلولة لا تتحرك . ولهذا قيل بأن التأثيرات الجرحية قد تشترك في أصل العوارض الهسترية ، لأن تأثيرها الأولي قد ينسب ويبقى في العقل الاشعوري ، فتتصاعد الدوافع للأعراض العصبية مستترة ، وتحدث في الشخص حالات عصبية كبعض التقلصات العضلية غير الاختيارية ، وتشنجات تأتي بالنوبة واضطرابات لا تعليل مرضي لها ، ولكن « شاركوت » لم يتعمق في درسه ليفهم عقلية العصبيات الهسترية . ولما جاء تلميذه « بهر جانيت Janet » ودرسها ونقب عنها ، برهن بمعونة التنويم المغناطيسي ، على أن التظاهرات الهسترية تتوقف على وجود أفكار لاشعورية ثابتة « الوسواس — Idea Fixe » وعدة طبيعة الهستريا بأنها متكونة من العجز الجسماني في تماشاة الأعمال العقلية فتتج انحلال الحياة العقلية ، ولكن لم تخدم تحرياته علم التحليل العقلي في وضع أساساته لبعدها عنه .

وإنما تجارب الدكتور النمساوي « جوزيف برودر Bruer » أفادت أكثر ، لأنه عالج فتاة شهيرة أصيبت بالهستريا بواسطة التنويم المغناطيسي فنجح ولم تظهر قضيته لعالم الشهرة إلا بعد ١٥/ عاماً ، عندما ابتدأ يعالج مع الدكتور « فرويد »

ويشارك في التجارب ، فجاءت حادثته أنموذجاً ظاهراً لدرس الاعتلالات العصبية « نيوروسيس » حتى وقتنا الحاضر ، وسببت لتجاربه الشهرة ، ولمكانة الفتاة الاجتماعية من حيث أنها كانت مريضة بتمريضها لابيها الذي أحبته وهامت به بماطفة الجنس « التناسلية » .

وقد استطاع « برودر » تحليل أعراضها العصبية التي اشتكت منها وتفسيرها ، ناسباً أصلها الى تمريضها لأبيها ، فعدت قضيته من القضايا التي استطاع العلم حلّ الغازها وإظهارها وإثبات معنى أعراضها وتظاهراتها . وعلاوة على ما بينه من الصفة العامة لها ، ذكر بأن الميزة البارزة التي ظهرت في الاعراض كلها ، كان ظهورها بحالات تسوقها دوافع شيء لم تعمله ، لوجود دوافع أخرى تمنعها ، فاضطرت لاهمالها بدلاً من اجراء الشيء الاولي ، فحدثت الاعراض ، أي أن الفتاة كان لها في عقلها الباطن عامل من عوامل الاشعورية ، نشأ فيها من الميل التناسلي ، فقوته المهيجات وسوء الاستعمالات الآتية من المحيط الذي عاشت فيه كالخدم أو غيرهم ، ثم لما كبرت تناسلت أسباب التهيج وبقيت الميول الاشعورية موجودة تدفعها لتنفيذ الرغائب التناسلية في شخص أبيها . ولكن لوجود الموانع الشرعية والادبية عن اتيان شيء وهي تمرض أباه ، وتشاهد أعضاءه وتتقرب اليه ، كانت الميول تزداد قوة والرغبة تهيجاً فترجرها بقدر استطاعتها فيقع الجدل بين القوتين : قوة الاشعورية وقوة الشعور المدركة للنتائج والاعتبارات الادبية ، فتضطرب النفس وتحل وتظهر الاعراض العصبية ، فلما استهواها بالتنويم قدر على احياء الاسباب المنسية وتذكيرها وتلقينها أن ما بها كان منها ، فلما أفاقت زال كل شيء .

ومنذ هذه الحادثة اتجهت الافكار لفهم اسباب الهستريا بالرجوع الى درس الحياة العقلية الباطنية اي (اللاواعية) او الاشعورية ودرس مظاهر العقل الثلاثة التي هي مدار الوعي او الشعور والادراك :

- ١ - الوجدية : وبها نعلم الاشياء على ما هي عليه .
- ٢ - الارادية : وبها نرغب في عمل الشيء الذي تقصده .

٣ - العطفية : وبها نتحسس بالاشياء بما ندركه من ألم ولذة .

وقد تبين ان الاسباب التي أحدثت الاعراض المستيرية في حادثة « برودر » كانت شبيهة بالعوامل الجرحية في حادثة « شاركوت » ، لأن الاسباب الجرحية وكل المشاعر العقلية المتعلقة بها ، تناساها المريض ، كأن لم يحدث له شيء في الأمس ، بينما تأثيراتها لم تزل باقية لم تبدل ولم تتغير بطول الوقت ودوام العمل ، وهذا مما يدل على وجود « الاشعورية » والعقل الباطن وبسببها يدل على وجود الافعال الذهنية الشبيهة في اصلها للافعال الواقعة في التلقينات الاستهوائية التي يقولها المنوم للوسيط اثناء النوم ويبقى تأثيرها في عقله الاشعوري . ولذا كان ما أجراه « برودر » في حادثة الفتاة باجبارها وهي في حالة النوم على تذكر العوامل المنسية التي جرت لها بعلام عطفية مما جعل ان تزول عنها الاعراض واستفاد من هذه الطريقة بالتحري عن ازالة الاعراض العصبية وإثبات الاشعورية وغدا اتحاد الفأئدين مداراً لتمسك علماء التحليل العقلي بها ، واستكمال علمهم الحديث .

العناصر البسيفولوجية المولدة للهستريا :

وبعدما اشتغل « فرويد » و « برودر » مدة في الحوادث العصبية ، نشر في اوائل القرن العشرين نتائج اعمالهما وابحاثهما في كتابهما « الهستريا وغيرها من الاعتلالات العصبية » ، وهو مجموع المقالات التي طبعتها شركة نشر الكتب العقلية والعصبية . وقد ذكر فيه « فرويد » نظريته في الهستريا بأنها « تنتج اذا كانت تأثير العمل العقلي المتزايد بانفعاله ظاهراً قد تحول من عمل الوعي السليم وسبق الى غير طريقه القويم » .

مثلاً رغب العقل في شيء اراد اجراءه ، وكان الدافع إليه في الواعية ، فاذا زُجرت الرغبة لوجود دافع آخر يعود لاعتبارات متعددة ، فان عمل العقل في الحالة الاولى ، يضطر للزجر الواقع ان يتحول الى طريق غير طريقه القويم فتظهر الرغبة بالاعراض المستيرية المعروفة : كالانغماء والشلل والضحك والتشنج والبكاء وغيرها من أعراض متكررة لدوافع عقلية مزجورة .

فيتبين أن عمل العقل في أحداث المسترياً يمرّ بالطرق العصبية البدنية التي لم تتعود التفاعل للدوافع الآتية ، فتكون المظاهر الحادثة غير طبيعية إذ تضحك المصابة وهلة وتبكي دون سبب وتشنج بأوضاع مختلفة تظهر بها ولكن لا تقوى على منعها او ارجاعها لخروج الدوافع العقلية عن طريقها القويم ، وتحولها الى دوافع عصبية بدنية وانقطاع العلاقة بينها وبين الارادة الحاكمة على أعمال العقل وأعمال العصب ، ولكن إذا أعيدت الرغبة في حالة التنويم أمكن تهذيب الخلل المتحول واخراجه من نفس المريض فيبقى تأثير الفعل السليم الذي أعيد الى حالته المعتادة عند اليقظة ويختفي التأثير المرضي الذي حدث عند زجر الرغبة .

أقول طريقة التنويم المغناطيسي بوجود طريقة التحليل العقلي :

كان « بروهر » قد اعتزل مداواة الامراض العصبية ، بعد نشره مع زميله الكتاب المتقدم ذكره ، فبقي « فرويد » مكباً على الدرس والعمل لا كمال العلم الذي تركه صديقه ، فأدخل على طريقة « التنظيف » تحسينات عديدة وزيادات كثيرة نتجت عن بعض اكتشافاته العلمية فاستطاع بعد حين تحويل أصوله النظرية الى أصول علمية عملية وهي طريقة « التحليل العقلي » ، وترك طريقة المداواة بالتنويم المغناطيسي لوجود الشك فيها ولعدم النجاح في تنويم كثير من المعالين بالعصيات رغم استعماله التعليمات (برن هايم - Bren Hiem من « نانسي » واقناعه بعدم كفاءة النتائج المتحصلة من طريقة التداوي التنظيفي على اساس الهينوتيزم ، لانها وان اثمرت لكن نتائجها لا تستقر ، وتتوقف على العلاقة بين المريض والطبيب ، ولهذا اهمل طريقة التنويم التي هي طريقة قديمة وابتدأ بطريقة التحليل الجديدة ، فاستفاد خبرة من التنويم باعادة الذكريات المنسية لحافظة المصاب ، ثم خطر له تبديلها ايضاً بطريقة سماها (الالفة الحرة - Free Association) ، وذلك بأن يحث المريض على نسيان جميع تفكيراته الشعورية ، وهي ما يدرك « بنفسه ان يفكر بها وتشغل باله » ، وترك فكره هادئاً وساكناً متمركزاً نحو ما يصل الى عقله آنياً من الحادثات العقلية الواقعية التي لا يريد تكرار حدوثها ولا عدم تحسس سطح الواعية الصافي بما كان يشغله ليشغل بها مجدداً ،

حتى اذا ما توجه الفكر تماماً نحو الآتي الجديد ، نقلها وهو في حالة الهدوء والسكون الى الطبيب كما هي دون نقص ولا زيادة ، وان شعر بلزوم مقاومة ما يخشى قوله وافشاءه لاعتقاده أنها فكرة غير لائقة او مخالفة للأدب او ليس لها معنى او اهمية او علاقة بالامر الذي لأجله راجع الطبيب وطلب منه التشخيص والاسعاف ، وهي طريقة تعد غريبة ولكنها ساعدت « فرويد » على تحري المواد اللاشعورية المنسية ، وانتظر من استعمالها ان يثبت لنفسه ان « الالفه الحرة » ليست حرة بمعنى الكلمة ، لأنه بعد انخفاض الافكار الذهنية الواعية ، كانت الحادثات العقلية محكومة لعناصر أخرى لاشعورية أثبتت وجودها التجربة ، انما استحصل ما أمله من اتباعه طريقة « الالفه الحرة » ، ودرسه المشاهدات الدقيقة ، واهتدى لمعرفة مواد تتعلق بالحادثات الذهنية الخائفة على آثار المنسيات عند المريض . وكان مما لاحظته ان المواد المذكورة ليس فيها كل الاشياء المنسية انما يظهر فيها (١) رموزها الكثيرة الواضحة التي يقدر الطبيب على تحليلها وإعادةها للحافظة ويقدر أن يركبها وينشئها مرة ثانية . وهذه الحادثة الآتية توضح المقصود :

ذكر « فرويد » ان ضابطاً في الحرب كان يخشى الدخول الى الخنادق ويرتجف عند مروره من النفق . وحدث ان أمراً حربياً ورد الى القطعة التي يرأسها بأن كل فرد يحفر لنفسه حفرة يضع فيها مجرفة ، حتى إذا أصاب الحفرة ردماً أزاله ، فلما باشر العمل خارت قواه وسقط مغشياً عليه ، فنقل الى بيته وبقي مريضاً يعالجه الاطباء وينصحونه بلزوم عدم الافتكار بأمور الحرب وما جرى له . ولكن الحال ازداد وخامة ، فأصبح لا يرتاح لسماع شيء ولا لقراءة كتاب او مواجهة صديق ، واضطرب نومه فكان يرى الاحلام المزعجة التي توقظه فزعاً ، ويعرق عرقاً غزيراً يبلل فراشه حتى خشي الموت والهلاك ، فراجع الدكتور « ريفر » ليداوية ، فأمره ان يخبره عن أحلامه جميعها وأن يتذكر من الماضي ما أمكنه ويخبره عما يهاجمه من الخواطر بينما هو يقص أحلامه .

(١) لأن قرارات النفس الراسية في العقل الباطن ، تظهر غالباً بصور وأشكال مخفية عندها تمر في مجرى الفكر وتخشى ان يمنع الرقيب صعودها .

وبعد حين من مراجعته رأى في نومه رؤيا جعلته وهو في اليقظة يفتكر بها ، فتذكر أنه لما كان في الثالثة من عمره ، حدثت له حادثة أثرت فيه من ذلك الوقت ، ولم يزل تأثيرها في نفسه لا ينساه أبداً ، وتذكر أنه وهو صغير كان يذهب مع رفقاء له من القرية الى بيت رجل مسن يقطن بالقرب من بيته فيأخذون له الاشياء الحقيمة التي ترمى من البيوت لبيادهم عليها ببعض دريهمات .

ففي أحد الايام ذهب اليه وحده ومراً بطرق ضيقة ومنمرجات مظلمة ، وبينما هو يمر من مدخل إحداها ، وجد هناك مانعاً عاقه عن المرور ، ووجد كلباً يريد ان ينقض عليه وينهشه ، وكان الكلب ينبسح ويكشش عن أنيابه ، فارتعش الولد وخاف وأخذ يبكي الى أن مر به رجل أزال المانع فعاد الى بيته ، ومن ثم كان ينام مضطرباً ويرى في أحلامه ما يزعجه ، حتى ان أمه سمعته مرة يصيح باسم الرجل وتذكر ان الرجل الذي صاح باسمه ، كان الشيخ الهرم بعينه ، فعلم من تجدد هذه الخواطر أن سبب خوفه من الخنادق والنفق ، كان منبعثاً عن ما جري له في صغره ، فعندها زال الخوف عنه ووثق بنفسه أن لا خطر عليه ، وعادت اليه صحته وزالت الاعراض التي كانت تعتريه في النوم وفي اليقظة بسبب إعادة فعل العقل الى طريقه القويم واختفاء التأثيرات المرضية .

فاللفة الحرة وفن التعليل والتحليل أتت بالنتائج التي حصلت من التنويم المغناطيسي ، انما تطبيقها لا يخلو من صعوبة وتعقيد ، ولكن فائدتها في الوصول الى أعماق أعمال باطن العقل التي لا تظهر في التنويم المغناطيسي ، تفوق كل حد ، ولهذا توجد المقاومة ويستمر التنازع عندما يرفع الستار عن الشيء المرضي ، ويشعر المريض أو يبدي من نفسه اعتراضات خطيرة ليستثني الافكار المتصاعدة التي تتجه اليها التحليلات العقلية لأن اعتراضه هو عرض للمقاومة .

وقد أتىح لفرويد من تقديره مظاهر المقاومة وضع نظرية « الزجر Repression » التي هي إحدى دعائم النظريات التحليلية للاعتلالات العصبية تفيد ان القوى التي تتنازع الآن ضد المادة المسموح لها أن توجد واعية ، تنازعت في الماضي ضدها وفازت .

ويظن « جانيت Janet » ان « الانطباعات Impression » و « المشاعر العقلية Psychic Feelings » التي حلت في مكانها الاعراض الحالية لم تنس من الفكر إلا لعدم قابلية البدن على تركيها ، أي تنفيذها ، وانها صادفت زجراً من القوى العقلية المختصة بمنعها عن الوعي وطردها من الحافظة ففدت مرضية من الزجر ، واتخذت لها طرقاً غير معتادة تظهر فيها كأعراض .

وعليه يجب ان نعلم بأن سبب كل اعتلال عصبي وعلة كل زجر هو عراك بين نوعين من المنازعات العقلية ذات التجارب الغريبة بطبيعة قواها : الاول يصدر عن زجر الذات ، أي « الشخصية الواعية » ويعتبر دافعاً أخلاقياً حميداً . والثاني يصدر عن زجر المشاعر : كالانانية ، والظلم ، والانتقام ، ويعتبر دافعاً فاسداً شريراً . ومثل هذا الاخير تعتبر جميع المشاعر الممثلة للربغات التناسلية « الجنسية » ، التهيجه المنهي عنها . فأعراض المرض الحاصل عن العراك تجري في المجاري المنهية وهو يمثل العناصر غير الاخلاقية التي لم تهذب في الانسان .

أهمية الجنس Séx بمعناه الواسع :

من ترقى العلم في السنين الاخيرة وقوف المدققين على مقدار تأثير المشاعر المختصة بالرغبة التناسلية « الجنسية » في حياتنا العقلية . وقد أفادهم درسها وتدقيقها فهم منشأ طبيعة الدوافع التناسلية وارتقاها . وعلموا ان المجادلات والاختبارات الناتجة عنها في السنة الاولى من الطفولية تؤثر في نمو الشخص وتترك في نفسه ميولاً عند البلوغ لا تزول بعدها . وكانت حقيقة هذا الاكتشاف مجهولة عند من تقدم من العلماء ، فلم يبحث عنها ولم تدرس تناسلية الطفل مع أن دورها يمد من أهم الادوار ، فهي تبتدى ظهورها في التفاعلات الفيزيكية والوضيعات العقلية في ميل الجنسين لبعضهما وتتهيج أعضاء التناسل وسرور الشخص من التقبيل وحب الزين .

ولهذا كان من الضروري جمع ما يقع ويشاهد في حياة الطفل التناسلية السالمة ، وحياة الطفل التناسلية الفاسدة ، وحياة البالغين التناسلية السالمة

والفاسدة لتتوسع فكرة البحث وتنظم المعلومات بحيث تفيد معرفة رقي الغريزة التناسلية ونشؤها . ففرويد بعد عشرين سنة من استبداله طريقة التنويم المغناطيسي بأصول الالفة الحرّة ، وأصول (برور) التنظيمي بأصول التحليل العقلي ، تحقق لديه ضرورة بحث هذه القضية بجمع عنها ما يتعلق من الحوادث والوقائع واستعان بها على تحليل الحوادث العقلية .

علاقة التحليل العقلي بعلم الطب وسائر اقسام العلوم :

كان من نتائج تطبيق اصول التحليل العقلي وضع نظرية جديدة أفادت العلم بتعريفها اصل وسبب ومعنى وغاية الأعراض العصبية ، فخدمت الطب في مداواة الاعتلالات المذكورة وازالتها .

وتنحصر الاسباب التي دعت لوضع النظرية في سبعة عوامل :

اولاً : الاهمية الموضوعية للحياة « العطفية Affectivity » أي الحياة الشاملة لجميع ما تتحسس به من ألم ولذة وسرور وكدر ، وتنطوي فيها المشاعر العشقية ومشاعر الشفقة ، ومشاعر الحزن ، ومشاعر الانتقام والغضب والمرحمة الخ .

ثانياً : (الديناميك العقلي Psychic - Dynamic) أي الحركة والتوازن في الاعمال والقوى العقلية .

ثالثاً : (التفنن الشفاف - Ingenuousness - Transparent) أي تظاهر الانسان في اعماله المنمقة وشفافية اوضاعه الخفية المتظاهر بها بصورة غير صورتها الحقيقية لتمن عن اعماله وتترجم عن رغباته فيصحبها الدهاء والتفكير ؟ .

رابعاً : تحديد المظاهر العقلية القوية في ابهامها وشذوذها (Psychic - Phenomena) وهي كل ما ظهر عن العقل من اطلاق وارادة وعطف ، لان هذه هي الوحدات الاصلية التي تتركب منها جميع اعمال العقل . فمن الاطلاق تنشأ المعرفة بجميع انواعها ، ومن الارادة تنشأ الرغبات بجميع صفاتها ، ومن العطف تنشأ جميع المشاعر الحسية بلذائذها وآلامها .

خامساً: فكرة المنازعات العقلية (وطبيعة الزجر المرضي Conflict Pscyic)
وهي المجادلات القائمة بين الافكار المتعاكسة بعضها مع بعض ، وبين الرقيب
والزواجر وبين الفكر المستحوذ والقوة المعلقة « البرهانية » الخ .

سادساً: فكرة اعتلال الامراض بأنها استمتاع مستبدل ، أي الاستمتاع
برغبة صادرة عن الاشعورية بشيء يرمز الى موضوع تلك الرغبة كالليل التناسلي
نحو الجنس عند رؤية الشخص المطلوب ، فقد يستبدل استمتاع هذه الرغبة
لوجود الزواجر بشعور الواعية بعدها في المنام مثلاً في دخول الحمام او شم
الورد ، فكلاهما رمز لرغبة الجنس اي الرجل نحو المرأة استبدالاً عن ذلك
الليل للاستمتاع .

سابعاً: الاعتراف بأهمية العاطفة التناسلية وما زيد عليها من الاكتشافات
في تناسلية الطفولة .

وما قالته النظرية من حيث الفلسفة ان العقل لايعرف بالواعية Consciousnese
وإن أعمال العقل بنفسها غير واعية ، وانما فمالية أعضاء اخرى تجعلها واعية
كلاجهزة (Systems) والحادثات (Instances) ، وقالت ان اوضاع الطفل
المؤثرة كالانفعالات المختلطة نحو الابوين التي يسميها « فرويد » الاخلاط الشهوانية
(Oedipes Complexes) ويوجد فيها بصورة جلية نواة كل حادث عصبي مرضي
(Neurotic) يجب أن تضاف الى ما مرّ من العوامل مع حركات الشخص المحلل
التي تملك ظواهر واضحة ، تدل على أن الانتقال الانفعالي اثناء التحليل هو
موجه للطبيب .

فنظرية « فرويد » التي مرّ ذكرها ، لا تخلو من أشياء كثيرة تعاكس
الافكار والميول الموجودة التي اعتاد الناس التمسك بصحتها ، ولهذا اثارت
العداوة والكراهة لدرجة الغرابة ، ولم يقدرها العلماء لأنها أشارت الى وجود
التناسلية في الطفل ، واهتمت للعوامل التناسلية في كافة أعمال العقل وغيره .

الغائب العشقية والاعراض الالهية :

لكي نفهم مقدار ما تتحول الميول الجنسية اى التناسلية المنهي عنها ورغائبها العشقية الى أعراض هستيرية مؤلمة في المرأة ، يجب علينا وضع دستور للنظريات الدقيقة والفرضيات العميقة لتكوّن العقل ووظائفه ، وعندها نعلم التلاؤم في مقررات العلم ونتأمله ، لأننا إذا سلمنا بوجود العلاقات المنسوبة لتحليل العقلي ، فيجب أن تكون طبيعتها أساسية تظهر في مظاهر أخرى غير المستريا ، وإذا صحّ الاستنتاج بهذه الكيفية ، فالتحليل العقلي لا يفيد فهم الاعتلالات العصبية وحدها ، بل يفيد أقسام العلوم البسيكولوجية ، ويخدم الباحثين فيها ويتناول حياة العقل السليم في وظائفه وتشكلاته .

البسيكولوجي الحديث :

وقد كان من نتائج التحليل العقلي عدا ما ذكر ، أن برهن علماء هذا العلم على فائدة مذهب « فرويد » في درس فعاليات العقل السليم في أمرين مختلفين : الاول : في الافعال اليومية ذات الخطأ البسيط كالنسيان وزلق اللسان وعدم وضع الاشياء في محلها .

والثاني : في الرؤيا التي يراها الاصحاء اصحاب البدن السليم والعقل السليم . وكان العلماء فيما سبق لا يأبهون لهذه الخطيئات الصغيرة البسيطة كالنسيان الموقت لاسماء متعارفة وكاخلط في الكتابة وزلق اللسان في لفظ ما لا يتفق مع المعنى ، او تقديم الحرف الواحد في « عين » الفعل على « فأنه » ولا يقدرّون على تحليلها لاسنادهم اياها الى حالات التعب وغيوبة الدقة والانتباه وغيرها من المقلقات ، ولكن « فرويد » علل أسبابها بأمثلة عديدة وقال بوجود معنى لها وانها حاصلة من تشويش في تنبه الوعي ، صادر عن شيء آخر هو « الزجر » اللاشعوري في الغالب ، لأن قوة التشويش تظهر في كثير من القضايا بأقل تذكّر سريع او تحليل بسيط ، ويدرك العقل بتكرار الانفعالات ذات الخطأ البسيط انها اعمال لاشعورية فعالة تعبر عن ذاتها كزواجر وتحولات لأعمال أخرى غيرها .

فقولك شيء تناديه بسرعة أو تطلبه بسرعة وذهنك مشغول بشيء آخر
تنتقل منه آنياً بسبب لك غلط التسمية أو غلط اللفظ ، لأن فعالية العقل لم
تنته من الاول ، فلما ناديت خادمك يا «عبد» وأنت تقصد «علياً» أثرت
الاشعورية المتمركز فيها اسم يا «عبد» من السابق ، فذكرت «علياً» وهذا
يحدث كثيراً في المحادثات والمكالمات .

توضيح وظيفة الرؤيا :

ذكر « فرويد » في كتابه تحليلات الرؤيا الذي طبعه سنة ١٩٠٠ ، ان الرؤيا
ليست إشكلاً آخر للأعراض العصبية (Neurotics) وهي تظهر مثلها عجيبة وغريبة
وخالية من المعنى . ولكن لدى الفحص الدقيق بالطرق التكنيكية التي تختلف
قليلاً عن أصول الالفة الحرة المستعملة في التحليل العقلي تنكشف معانيها المدفونة
ومحتوياتها المرئية وأفكارها المخفية .

وقد تبين أن معاني الرؤيا ترجع إلى رغبات شعورية تتمثل كأنها حاصلة في
الحال ، إلا في الاطفال وبتأثير ضغط الاحتياجات الفيزيكية فانها لا تتمثل كأنها
حاصلة علناً ، إذ في أول الامر يجب ان تخضع للتجربة ، أي تفكيك أجزائها
والتشيت الذين هما فدل قوى المراقبة الشديدة في الذات (أنا - Igo) أي نفسية
النائم ، فينشأ من بعدها الحلم واضحاً ويذكره الشخص في اليقظة ، وقد كان
لا يعرفه لاستسلام اجزائه الى المراقب ، ولكن بالتحليل العقلي يعرف تماماً
ويرتفع الخفاء عنه ويفهم ما استتر من معناه وتنكر ، ويستبان الرمز الدال على
حالة الاستمتاع ونيل الأمل ، ويغدو عاملاً للتأليف بين شعبتين مختلفتين من
مساعي العقل كما تبين لنا في الاعراض الهستيرية . وعليه يكون دستور الرؤيا
(هو نيل مستتر « متنكر » لرغبة مزجورة في النفس الاشعورية) ، زجرها
رقيب الذات لاعتبارات شتى تعاكست مع مجاري الفكر ذات المحولات المتلازمة
مع اعتبارات المحيط الاجتماعي .

والى القاريء مثلاً يوضح المقصود :

امراة عمرها ٣٦ سنة ، رأت في منامها انها بين جمع من اترابها بنات المدرسة ، وكانت واقفة معهن تتكلم ، فتقدمت واحدة منهن وسألها : لماذا تلبسين فسطاناً غير نظيف مثل هذا ؟ ثم مدت يدها ورفعت الفسطان فكشفت عما تحته من اللباس الذي كان بالياً .

وبعد ثلاثة أيام ذهبت المرأة وقصت رؤياها ، فتبين من التحليل العقلي ان ما كان لباساً داخلياً في الرؤيا هو ثوبها الليلي . وقد تذكرت بعض ذكريات مؤلمة كانت جرت لها وفيها حدثت مسألة نزع اللباس الليلي ، مع أن الحادث ضاعت ذكراه منذ سنين ، ولكن الشعور المؤلم والندم على حصوله لم يزالا يعملان في نفسها اللاشعورية . ففي المنام تنكر المسبب للشعور أي اللباس الليلي « لباس النوم » بثياب ماتحت الفسطان ، وارتفع الى النفس الشعورية مصحوباً بحس الألم الذي مثله استنكار الرفيقة لوساخة الفسطان .

واذا درسنا الفعل الذي يحول الرغبة الكامنة المنسوبة للرؤيا الى الموجود البارز في الرؤيا وهو « فعل الرؤيا » ، قدرنا على اكتشاف العلم المحيط بموضوع طبيعة الحياة العقلية اللاشعورية ووظائفها .

فالرؤيا ليست عرضاً مرضياً ، بل هي وظيفة طبيعية للحياة العقلية ، انما الرغائب التي تمثلها هي ذات الرغائب التي يتناولها الزجر في المعتل العصبي ، ويعود اصلها الى ظروف موافقة في حالة النوم شلت حركة النائم خفضت مزجورات الرغائب الى مراقب النوم فتمثلت بما يسهل مرورها الى الواعية ، حتى إذا ما تعدت بعض الحدود أوقفها النائم ببقطة مفزعة .

ثبت من هذا أن الحياة العقلية تحوي ذات القوي والافعال الموجودة في حياة عقل المعتل (١) .

ويؤيد مدعانا ان المنامات في الغالب لا ترى الا تحت ظروف شديدة التأثير

(١) وهذا ينطبق على نظرية الهنود فيما قالوه عن علاقة الرؤيا بالجسم وأمراضه ، وعلى نظرية العرب فيما قالوه عن الرؤيا الصالحة والرؤيا الفاسدة .

في الحياة العقلية كحوادث توجب الاضطراب أو تفكرات تشغل العقل وتؤثر في فعاليته تأثيراً بليغاً أو في الأمراض المزمنة التي توجب الآلام أو اختلال الوظائف فيشاهد من الأحلام ما يرمز الى تلك الظروف والحالات بانتظام أو دون انتظام ولكن كله قابل للتعليل والتفسير . وللقوف على آراء العلماء في القرون الوسطى بحق الرؤيا وتعليل أسبابها ومقابلة ذلك بآراء علماء العقل ومذهب « فرويد » في وقتنا الحاضر ، انظر ماسياني عن الرؤيا في نظر فلاسفة العرب القدماء .

والخلاصة : ان الرؤيا « هي اكمل لمقصد غير مدرك » وهذا التعبير هو عين ما ذكرته في اول البحث « من أن الرؤيا ليست الا شكلاً آخر للاعراض العصبية » .

ومعنى ذلك ان المقصد الذي لم يتم لا ينعدم في مجرى الفكر ، بل هو موجود وله فعالية تسعى للصعود الى طبقة الادراك التام ، ولا يفاء ذلك يتعارض المقصد مع موجود آخر يسمى « الرقيب » فاذا امكن منعه الاخير حصلت الرؤيا على الحالة التي تشكلت في مجاري الذهن من افكار مختلفة يرتضيها التهييج الناتج عن المقصد الذي لم يستكمل . وهذا الرقيب موجود وله جهاز عقلي مستقل يعمل كما يعمل مراقب البريد او مراقب الجرائد فيمنع صعود الافكار الحاصلة في الرؤيا من وصولها الى الواعية ، كأن وظيفته ان لا يترك شيئاً يمر دون مراقبته فيصعد الى الواعية دون علمه .

واذا اشتد عليه الامر وهاجمته الافكار الاحلامية وأبت اطاعته سعى بكل ماله لتزيقها وتشتيتها كي لا يبقى لها مجال للنفوذ فتغدو مستكرهة بدلاً من ان تكون جذابة ، ويعمل لتغيير الاحلام بتبديل موقعها وتشويشها وتكثيفها وقلعها وتخفيف آلام اللذة والتفاعلات الانفعالية وتحويلها الى غير مرضية وحملنا على عدم تذكرها عند اليقظة .

هذا ما يعمل الرقيب ، والحقيقة لولا المعاكسة والمعارضة الواقعة على العامل الروحي لما كانت حالة النوم قادرة على تكيف الاحلام وخلقها ، ومع ذلك يجب ان نعلم بان جهازنا العقلي الذي نبي به في حالة اليقظة قد سكب بالشكل الذي وجد بعوامل اجتماعية محيطية بنا تمنع نضوج الرغائب الغريزية فينا وتخرب نمو

المجاري الفكرية المضرة بصالحنا كموجودات اجتماعية ، ولكن هذا الاعتراف لا يعني ان هذه الواعية اليقظة هي موجود مستقل عن الجهاز العقلي الثاني الاشعوري الموجود فينا لأن الأدلة التي لدينا تشير الى ان الواعية هي جهاز واحد ذو طبيعة واحدة من اوله الى آخره .

وان الاختلافات التي تظهر لنا حاصلة منه وفيه وهي لدرجة ما متلازمة وذات تأثير قليل او كثير في تحديد طبيعة ساحة الوعي التي نشعر بها في حالة اليقظة ويوافق ما قلناه لانه عندما نشعر بأن الواعية قليلة التيقظ فالجهازات العقلية الاخرى تبرز على التي كانت قبل برهة ذات تيقظ كامل ، وعليه فالرؤيا هي دوام لفعالية العقل ولا شيء سواه ، وهي مركبة من اختبارات ماضية دفعا انهالك الارادة بتحقيق المقصد وصعودها الى ساحة الوعي ثم عارضها الرقيب وبمثرها فتركبت وتنكرت مما امكن مروره وغدت مزيج أفكار ركبت تركيباً غريباً قد نتذكره اذا كان منطقياً ومصحوباً بانتقال تدريجي من النوم الى اليقظة ، وقد لا نتذكره اذا كانت تأثيراته غير لاصقة والاستيقاظ فجائي .

هذا ما يمكن ان يقال عن الفرق بين المتقدمين والمتأخرين مع ايضاح ما قاله « فرويد » وجماعة علماء العقل في الرؤيا ووظيفتها ، وقد كان لما قالوه عن تفسير الرؤيا الناتج عن التحليل العقلي ان استحصل دواء جديد للعصبية المختلفة ووضع علم بسقولوجي جديد استرعى انتباه علماء تشريح العصب ، وعلماء العقل المشتغلين في الشعبات الاخرى .

الاعتراف بعلم التحليل العقلي رغم المعارضة :

لم ينظر العلم في بادىء الامر الى التحليل العقلي نظرة الصديق الى صديقه ، ولم يهتم العلماء به رغم مضي العشر سنين على انتشاره . ولما قام في سويسرا سنة ١٩٠٧ جماعة من علماء التحليل العقلي امثال « بلودر - Bluer » و « زونغ - Jung » واشتغلوا بنشره وبيان نتائجه ثارت عليهم عاصفة الغضب في المانيا وكانت شديدة الجري وقوية التأثير ، وبعدها توالى المعاكسات والمصادمات التي

تصيب عادة كل حركة جديدة . وحامت حول المذهب الظنون ، واسندت اليه الاوهام والخرافات والخيالات ، ووجهت الى المشتغلين به التهم الحقيرة من اناس متمازين لم يدفعهم لاتيان ما فعلوا الا معاكسته لظنونهم وقضائه على معتقداتهم وضربه على وترهم الحساس .

وحمله الذين يتقدمون للتحليل العقلي الى الكشف عما خفي في الاشعورية واجبار العامة على قبول المعاملات التحليلية ، ثم وضعية المرضى الذين لا تقطع مقاومتهم عن الاعتراف اثناء التداوي . فكان من الصعب التغلب على جميع الموانع وإفهام العالم صدق نظرياته ، ولكن عدم انقطاع المشتغلين به وثباتهم في تنقيحهم عن الحقائق مدة /٢٠/ سنة ، جعلت أعمالهم في النتيجة ناجحة ، فتأيد المذهب وذاع في أكثر بلاد العالم وقامت له فروع أخرى علمية . ففي سنة ١٩٠٩ ذهب الاستاذ « فرويد » مع زميله « زونغ » الى أميركا بدعوة الرئيس (ستانلي هول Stanley Hall) وألقى محاضراته في جامعة « كلارك » وكان الاقبال عظيماً وسبباً لانتشاره رغم ما قيل عنه من الاقوال السطحية المخالفة للحقيقة . وفي سنة ١٩١١ برهن (هافيلوك ايليس Havilock Ellis) على أن مذهب « فرويد » قد انتشر أيضاً في الهند وأستراليا وانكلترا ، وظهرت له مجلات وجرائد وكتب خصصت للبحث عن المذهب وتطبيقاته وحوادثه ونتائجه .

التحليل العقلي يستعمل دواء في الطبابة :

ان عالم الطبابة لم يدم في معاكسته التي قام بها ضد مذهب « فرويد » زمناً طويلاً ثم تحول عنها وتقدم لتطبيق مقاصده الاصلية وإنماؤها بصورة (باثولوجيا) خاصة تداوي الاعتلالات العصبية . وقد نهت جهود العلماء ما حصلت عليه تطبيقات التحليل العقلي الى مواصلة البحث والتعمق في المسائل . ولما تكامل التكنيك تأسس في ألمانيا أول مستوصف عام (بوليكلينيك) أقامه الدكتور (ايتيفان - Etingan) سنة ١٩٢٠ لتداوي المرضى والدرس ، على أن يكون المریدون من طلبة الطب يدرسون تطبيقات ما يتعلمونه من النظريات بشرط ان تجري عليهم التحليلات العقلية قبل المباشرة .

وهنا لابد من البيان بأن فكرة (الليبدو ^(١) - Lebedo) أي الشهوة أو الشهوانية التي أقرّها مذهب « فرويد » تساعد طالب الطب على ممارسة التحليل العقلي حيث هي في نظره تفيد « وجود قوة للدافع الجنسي « التناسلي » تتبدل وتقاس كمية وتوجه نحو غاية » . وقد وجد بعد التدقيق العميق ان هذه الغاية لها ملحق موجه لذاتية الشخص سمي (بالشهوات الذاتية) أو شهوة الذات - Ego - Lebedo أو عشق الذات . فمن تأثير التبادل بين هاتين القوتين [شهوة الشهوانية الانسان نحو « الغير » وشهوة الانسان نحو « الذات »] أمكن تعداد أعمال كثيرة منسوبة للحياة العقلية السليمة والمعتلة ، واتضح أيضاً وجود حاجز مانع بين (الاعتلالات العصبية المتقلة - Transference - Neurosis) وبين (العواطف النارسيستية ^(٢) - Narsistic Emotions) وفوارقها . فالأولى تمثل الهستريا والاعتلالات العصبية الاجبارية - Compulsive Neurosities) كالوهلات ، وسرعة الانفعال ، والبرانويا التي منها الاعتلال الاناني ، والاعتلال الوسواسي ، والاعتلال التصوفي ، والاعتلال الادعائي ، والاعتلال الاضطهادي ، وغيرها مما يصل اليه تداوي التحليل العقلي .

والثانية ، أي الاعتلال النارسيستيك ، فتداويه صعب للغاية حيث للآن لم تتضح علاقات الليبدو مع النظرية العامة للغريزة . ولذا يجد العلماء في اكمال النواقص باتمام قواعده وكشف حقائقه .

ويظن البعض أن فكرة (جامعة التناسل - Pansexuality) تدل على الرزيلة والاعتراف بها ينفي الاعتراف بالقوى الغريزية العقلية ، ولكن هذا الزعم باطل يتمسك به المشعوذون والنقدة .

(١) ليبدو Lebedo : كلمة يونانية من وضع (هافلوك) معناها (الشهوة) .

(٢) نارسيستيك Narsistic : نرجسي كلمة يونانية اشتقت من أساطير اليونان سببها أن غلاماً جميلاً تعشق ذاته اذ رأى صورته في الماء فسح الى زهر النرجس ومنها جاءت الكلمة تطلق على من تعشق جمال شخصه .

التحليل العقلي يولد رغبة جديدة لوضع قيمة سامية لعلم معالجة الامراض العقلية :

ان علم التحليل العقلي يضيف الى العواطف النارسيستية جميع الامراض التي يصفها علم تداوي العقل ويسميا (بسيقوسيس) أي الاعتلال العقلي الوظيفي لانه لم يجد فرقاً بين الاعتلال العقلي الوظيفي والاعتلال النيوروسيس - أي العصبي زيادة عما يوجد بين الصحة والنيوروسيس . ولهذا كان من الضروري لايضاح المظاهر العقلية المحيرة أن يستخدم ما عرف الانسان عن الاعتلالات العصبية المبهمة ، فدرس « فرويد » اثناء عزله رجلاً أصيب بالشذوذ - أي « بالبارانويا » - بطريقة التحليل العقلي وقدر على جعله نصف واعٍ وفي اثنائها ظهر فيه (اخلاط - Complexes) أي دوافع عقلية كليل الشمواني نحو الابوين Odibus Complexes وأعمال لقوى مشابهة وللمعوليات العصبية ثم جاء (بلوور) من بعده فأظهر في الكثيرين من اصحاب الاعتلالات العقلية ماسماً (ميكانيكيات فرويد) .

وفي سنة ١٩٠٧ أنار الدكتور (روزنغ) الذي كان قد انخرط قليلاً عن مفهومية المذهب ثم عاد الى درسه معنى الاعراض الخاصة في آخر نوبات العتة قبل الوقت Dementia Precoxe بتحليلاته المصاين بها ودرس تاريخ حياتهم وكان ما نشره سنة ١٩١١ يؤيد نظريات علماء التحليل العقلي في فهم اصحاب الاعتلالات المذكورة .

النور يضيء في تاريخ نشوء المعاهد التهذيبية وارتقاها :

ولو انحصرت فائدة علم التحليل في تداوي أمراض العقل فقط لما كان له أهمية تستدعي انتباه علماء النفس وعلماء التحقيق العلمي ولكنه تقدم للبحث في الحياة العقلية السليمة . وقد هم في القسم الأول معرفة أسباب المعوليات العصبية وحالاتها . وأما في القسم الثاني فهمه معرفة وظائف العقل وكيفية افعاله والقوانين التي تسير عليها وبينما هو يجد في هذا السبيل انكشفت له الاساسات ذات العلاقة ببقية العلوم وتوفق لوضع قواعد البسيقولوجي الحديث . وقد علمنا كيف

توفق لذلك . والآن أصبح بإمكانه تحليل الرؤيا وتفسيرها بالتكنيك التحليلي في المرضى والاصحاء للتشابه الواقع في كلا الحالين . والانسان متى قنع بصحة النظريات التحليلية بدرسه الاحلام يخطو خطوة ثانية للقول بأن التحليل العقلي هو في الحقيقة علم وضع لفهم افعال العقل العميقة التي تخضع للواعية « العقل الظاهر » ، وانه قابل للتطبيق على جميع العلوم العقلية لبحثه عن الطبقات الذهنية العميقة ، وهذا يشير الى انتقال العلم من درس فعالية عقل الفرد الى درس فعالية عقل الجماعة البشرية والمجتمع الانساني ، لأن الانتقال على كل اضطراري كما جرى لغيره من العلوم المشابهة له . ومن الحقائق التي أثبتتها العلم التحليلي واستفاد علم الاشتقاق منها بأن الطبقات العميقة العقلية اللاشعورية لا تفرق بين المتضادات Contrasts بل تترجم عنها بمادة واحدة .

فقد بيّن العالم الفيلولوجي أي « علم الالسنه » (ك. آبل - K. Abel) سنة ١٨٨٤ بان أقدم الالسنه المعروفة قد عرفت الاضداد بذات الشيء ، ففي الالسنه الحديثة لا يزال يوجد منها الكثير الدال لفظه الواحد على المتضادين مثلاً لفظة (بلودن Pluden) الالمانية تدل على القسم الأعلى والاسفل من البيت . ولفظة (آلتوس Altus) اللاتينية تدل على العلو والانخفاض ، ولفظة (الجون) العربية تدل على السواد والبياض ، وكذا (الصريم) على الليل والصباح ، و (الناهل) على العطشان والظمان ، وفي الرؤيا اتحاد المتضادات وتساويها يعد صفة قديمة في الانسان .

الموافقة بين بعض الاعتلالات العصبية والاديان :

يستحيل ان يجهل احد الموافقة التامة بين الافعال الاجبارية لبعض المعلولين العصبيين والطقوس الدينية للورعين المتعبدين في كل العالم . فبعض الحادثات العصبية تشابه تماماً أعمال المتدينين بالاديان الخاصة الخفية ذات الصبغة الكاريكاتورية ، اي التي في طقوسها الخفية اعمال سخرية وسخيفة . ولهذا يضطر المحقق في هذا الباب للقول بان الاديان المعترف بها وان تباينت عن الاولى فانها تشابه المعلولات العصبية لكن بصورة لطّفاً وغيرها الذوق السليم في متعبيها ، على ان دعوى

« فرويد » بهذه النتيجة وان اساءت الى المتدينين ، فهي مفيدة للعلم حيث نهت
الحلل العقلي اثناء اشتغاله في المعلومات العصبية الاجبارية الى ملاحظة القوى
المتنازعة التي وجدت لنفسها التعبيرات المهمة بواسطة الطقوس من استحواذ يفي
الشعورية وبوجد الوجد والهيام والغيوبة .

وما كان العلم ليستنتج هذه النتيجة لولا ان استقرأ أثر الشعور الديني فوجده
راجعاً الى العلاقة الابوية التي هي اعمق اساس فيه ، فغدا من الممكن بيان
المشابهة في الوضعية العقلية وذكر الحقيقة التي جرح فيها التحليل العقلي التقاليد
الدينية وحرك الاحساسات العميقة فأثار بها العداوة والبغضاء . ولكن اذا سلمنا
بان معظم الاشعورية كالتضاد بين المشاعر الجبرية والزواج وبين الاشكال
المستبدلة والاشكال الواقعة ، هي موجودة في كل محل فاننا بتطبيق القضية على
جميع اقسام الحياة العقلية نضيء النور الذي يكشف عن نتائج لم يمكن استحصاها
بصورة اخرى .

ولا يخفى أننا اذا اهملنا تأثير بعض الدوافع الباطنية أمكننا القول بان منبع
الثقافة البشرية الحاضرة كان من احتياجنا للعالم الخارجي الذي مانع الانسان بتلذذاته
المريحة الحاصلة من تطلباته الطبيعية وعرضه لآخطار هائلة . ولكن غدا الكاره
لها مفضياً للتنازع مع الواقع ومن ثم قدر ان يتلاءم وياه في جزء منها وفي الباقي
قدر ان يحكمه ويخضعه ، وبالرغم من هذا فقد اضطر الانسان الى ان يعمل مشتركاً
مع اخوانه في البشرية ويعيش وياهم ، واضطر الى ان يقطع العلاقات مع المشاعر
المجبرة التي لم يمكن تلذذها اجتماعياً ، ثم زاد عامل الزجر والنهي بتقديم المدنية
التي قامت في الحقيقة على قطع العلاقة بين الدوافع فكان على كل فرد منذ
الطفولة الى زمن البلوغ أن يكرر بنفسه وهو سائر في نموه ما تطورت به المدنية
مستسلماً له بعقل واذعان .

وقد برهن علم التحليل العقلي على خضوع المشاعر التناسلية الاضطرارية
للزجر اكثر من غيرها ، واستسلامها للثقافة والتهذيب ، وبين ان هذه الخاصة
القيمة قد تبعد الانسان عن اقرب غاياته وتجعل الدوافع التي صعدت الى الشعورية

أحياناً تستفيد من الرقي بكل ما لديها من قوة ويبقى قسم منها في اللاشعورية غير متمتع بلذاته فتسعى دائماً للتمتع بأي شيء كان من اللذائذ وإن كان مشوشاً أو مستبدلاً .

النزاع بين الانسان والعالم الخارجي أنتج الاساطير والشعر والفن :

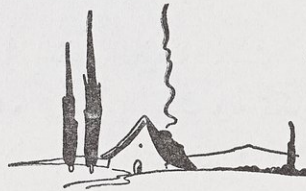
علمنا فيما سبق أن قسماً من مجهودات العقل انحصر في حكم العلاقات مع العالم الخارجي وبقي قسم تخصص في خدمة تنفيذ الميل لاجراج الرغائب من حيز القوة الى حيز العمل ، أو في خدمة الاستمتاع بالتلذذات المستبدلة للرغبات المزجورة التي هدأت دون أن تتمتع بما تصبو اليه وبقيت في عقلية الفرد منذ طفولته . فالاساطير والفن والشعر تابعة لهذا الخلق الذي عرفت علاقته باللاشعورية وعرف ما يتعلق بهذه العلاقات . وكان من نور التحليل العقلي كشف جميع فروع الاساطير والفن والآداب . فما عمله (أونورانك) يعد أعظم مثال لفوائده . وقد برهن بأن خرافات الاساطير وحكايات الجن والشياطين قابلة للتفسير كالمناطات . فرمز (شموط الذرة) منذ وجود نظيره في حيز الرغبة اللاشعورية الى وجوده هو في تماثيل الفنان يفيد معنى ظاهراً لحقيقة الاساطير والشعر والفن ، ويبين ماهية التأثير الانفعالي للأعمال الفنية عند تناولها والاستمتاع بها ، وقد درس العلاقات الباطنية بين نفسية الفنان والمعلول العصبي والفوارق بينها والمشاركة بين ما يعرض له واختباراته الفجائية واعماله . فكان لما بينه العالم المذكور التأثير العظيم في قلب نظريات « علم النفس » القديمة وتبديل مفهومات الناس في حقائق اعمال الانسان المعبرة عن مشاعره وميوله وغرائزه .

ويجب أن لا يغفل عن الذهن بأن تقدير العمل في الجمال وتعيين قيمة له ليست من وظيفة عالم التحليل العقلي اذ ليس بوسعه وضع قيمة لمواهب الفنان انما بإمكانه أن يقول كلمته القطعية في المسائل المتعلقة بحياة الانسان التنميقية « فانتازيك » . وفي الختام نحمد الكلام بأن التحليل العقلي خلافاً لما كان ينتظر منه أفاد كثيراً حياة الانسان العقلية وبين التأثير العظيم الذي تقوم به (شهوة الحب للأبوين) أو العلاقة العطفية للولد نحو أمه ووالده ، وإن فكرة الشهوة نحو الأبوين هي مجموع

عقلي لأمرين بيولوجيين : ١ - اتكال الطفل على أبويه زمنًا طويلاً . ٢ - الطريق الغريب الذي تسير فيه الطفولية في التناسلية إذ تنمو وتصل الى ذروتها في السن الثالث والخامس من الدور الأول ثم تعود فتظهر مرة ثانية زمن البلوغ بعد توقف قليل . ويوجد سبب آخر لها يعد من أهم العوامل في الحياة العقلية الانسانية لانه كان السبب لتأسيس معاهد الدين والقانون والاخلاق وتشيد الحكومة وحكم الفرد لاخلط تعشق النفس وادارة شهواته وما يتعلق بها منذ الطفولية حسب احتياجات المجتمع المعبرة . فتطبيقات علم التحليل العقلي في الدين والاجتماع أدت الى هذه النتيجة وهي لازال طفلة في مهدها تحتاج للنمو والتكامل والاثبات .

فهذا المقال وان لم يتكامل بما كتب من حقائق وبين من نتائج واكتشافات وكان ترتيبه ناقصاً ، فالامل أن لا ينقص منفوعه في رقي الثقافة وأن يعد خيرة مهمة للسنين الآتية ، فيساعد على فهمنا العالم بمعنى أدق وأعمق ، ويعيننا على محاربة الاشياء التي عرفت الحياة ضررها .

واذا تذكرنا تقسيم علم التحليل العقلي الى جهاز العقل أي الى (ذات - Ego) لها علاقة بالعالم الخارجي وصاحبة الوعي ، والى (هي) لاشعورية محكومة للاحتياجات المجبرة ، فمفندها يكون هذا العلم التحليلي الذي وضعه « فرويد » بـ« بـسـيـقـولـوجـي (هي) وتأثيراتها في (الذات) ، وبهذه الكيفية تطبق فوائده على جميع أقسام العلم التي يجب أن تتكامل بـ« بـسـيـقـولـوجـي الذات . وعلى فرض صحة المقدمات كما هي واحتوائها خلاصة المسائل وأهمها . فقائدتها تدل على مقدار تأثير الاشعورية في حياتنا ، وما حياتنا إلا مركبة تسيرها قوتان متنازعتان : الاشعورية والاشعورية .



الرؤيا وكيفية وقوعها

ان البحث عن الرؤيا واسبابها وكيفية حصولها وتفسيرها لا يزال شغلاً شاعراً لافكار الناس والعلماء والباحثين عن حقيقة النفس ، وعما في النفس من قرارات ذكرنا شيئاً عنها في مقالنا السابق .

وقد كان الاوائل ينسبون الرؤيا الى مفارقة الروح للجسم واشتغالها بنفسها مجردة عنه ويعتقدون بأن الرؤيا هي جزء من النبوة وإلهام من الاله اذا كانت سالحة وبات صاحبها على طهارة ، أو من أعمال الشيطان إذا كانت شريرة وبات صاحبها على نجاسة .

وبعض الحكماء يعتقد بأنها حاصلة « من البخارات المتصاعدة الى الدماغ » ويعبرون عنها بأضغاث أحلام عندما تكون مشوشة في علاقاتها ولا يقدر على تفسيرها . وقد ذكر الرازي في تفسيره الكبير (ص ٧٣٠) عن الرؤيا ما نصه :

« وانه سبحانه وتعالى خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود الى عالم الافلاك ومطالعة لوح المحفوظ والمانع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن . وفي وقت النوم يقل هذا التشاغل فتقوى على هذه المطالعة ، فاذا وقفت الروح على حال من الاحوال ، تركت آثاراً مخصوصة مناسبة لذلك الادراك الروحاني الى عالم الخيال . »

وقال ابن خلدون في مقدمته (ص ٣٧٦) :

« ان الروح القلبي وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن وبه تكمل افعال القوى الحيوانية واحساسها ، فاذا ادركه الملل بكثرة التصرف في الاحساس بالحواس الخمس ، وتصريف القوى الظاهرة وغشي سطح البدن ما يغشاه من برد الليل ، انخس

الروح من سائر أقطار البدن الى مركزه القلبي فيستجم بذلك لمعاودة فعله ،
فتمطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم . ثم ان هذا الروح القلبي
هو مطية للروح العاقل من الانسان . والروح العاقل مدرك لجميع ما في العالم
الامري بذاته ، إذ حقيقته وذاته عين الادراك ، وإنما يمنع من تعقله المدارك
الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقوة حواسه .

فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه ، لرجع الى حقيقته وهو عين
الادراك فيعقل كل مدرك ، فاذا تجرد عن بعضها خفت شواغله ، فلا بد له من
ادراك لحظة من عالمه بقدر ما هنالك من المدارك الالائقة من عالمه ، وإذا أدرك ما
يدرك من عوالمه رجع الى بدنه اذ هو مادام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف
إلا بالمدارك الجسمانية ، والمدارك الجسمانية انما هي الدماغية والمتصرف منها هو
الخيال فانه ينتزع من الصور المحسوسة صوراً خيالية ثم يدفعها الى الحافظة تحفظها
له الى وقت الحاجة اليها عند النظر والاستدلال .

وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية فيرتقي التجريد من المحسوس
الى المعقول والخيال واسطة بينهما ، ولذلك إذا أدركت النفس من عالمها ما تدركه
ألفته الى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة ويدفعه الى الحس المشترك فيراه النائم
كأنه محسوس ، فينزل المدرك من الروح العقلي الى الحس والخيال ايضاً واسطة .
هذه هي حقيقة الرؤيا عنده .

ويقول ديمقريطس الذي يأخذ عنه الابيقوريون مذهبهم : بأن الرؤيا تسبب
عن أشباح الاشياء المادية التي تسبح دائماً في الهواء وتغزو الروح في النوم .
وهي نظرية توافق كثيراً نظرية القائلين بتجرد الروح عن الجسم عند النوم .
وأما أريسطو فيفسرها بأنها بقايا الانطباعات التي تراها العين وتسمعها الاذن في
اليوم ويتغالى تأثيرها بأقل تنبيه . وأفلاطون يوافق نظرية أريسطو ويقول بارتباط
الرؤيا بأعمال العقل المعتادة في اليقظة .

وأبيقراط يقول بقسدية قسم من المنامات وينسب البقية الى حالات الجسم
المرضية . وأما علماء الهند وفلاسفتهم فيفسرون لكل عضو من الجسم نوعاً من

الرؤيا ويفسرونها مستدلّين على مرض العضو المذكور ، وعندهم أن الرؤيا تنقسم الى خمسة أقسام على عدد الاعضاء الرئيسية الخمسة وهي : القلب ، والرئتان ، والكليتان ، والطحال ، والكبد .

ويعتقدون أن هذه الاعضاء متى كانت سليمة من الامراض فلا يرى الانسان رؤيا من أي نوع كان ، ولكنها متى مرضت او اصابها عارض ، رأى ما يناسب اصابها .

وقد قالوا بأن الاشباح الخفيفة في النوم دليل اضطراب القلب وافتقار الجسم الى غذاء ، والمعارك والاسلحة والجيوش دليل اضطراب الرئتين والامتلاء المعوي ، والبحر والخلاء والاسفار الصعبة ، دليل اضطراب الرئتين ايضاً وحاجة الجسم للغذاء ، والتعب الشديد دليل سوء حالة الكليتين ، وكذا العوم او الوشك على الغرق دليل سوء حالة الكليتين ، والافراح والاعاني والموسيقى الخ ... دليل سوء حالة الطحال وامتلاء الاقنية الهضمية ، والمجازفات والحروب والمجاذلات دليل سوء حالة الطحال ، والنوم في الغابات وضلال الطريق والجبال الشاهقة والاعشاب والكلأ والحقول دليل فساد حالة الكبد .

وأما الفلاسفة في أوروبا ، فمنهم من كان يعتقد ما يعتقد فلاسفة اليونان ، ومنهم من أخذ بمذهب العرب كمذهب ابن سيرين ، ومنهم من كان يعتقد بأن الرؤيا من عمل الشيطان ، أو أنها حالة طبيعية نتيجة اختلاط الاطعمة او اضطراب الجسم وغيرها من الآراء القديمة ، الى ان جاء القرن التاسع عشر وأخذ العلماء يدرسون العقل وأعماله كبقية المسائل العلمية ، وكان أولهم « ديكارت » فتبدلت النظريات .

ويستفاد مما تقدم أن تعريف الرازي صوفي بحت ، فهو يصوّر لوحاً وقلماً وأفلاكاً فيها كل ما يتعلق بالجسم الانساني وعالمه مسطراً ومحرراً ، وان الروح في هذا البدن قابل المفارقة والتجرد عن الجسم المادي ، فاذا آن له التجرد انصرف صاعداً الى عالمه الاصلي فشاهد ما فيه ثم عاد الى الجسم فيترك فيه أثراً من ادراكه بفعل في الدماغ ليفعله ، وهو تحليل نظري ووهمي ، لأن اللوح

والقلم أمر اعتباري ، والافلاك ليس فيها شيء يحوي مقدرات عالمنا الارضي ، وان الروح لم تعلم ماهيته ، ولا تعلم اذا كان بإمكانه التجرد او التحيز بدون الجسم ، وما علاقته ببقية العوالم ، فالرؤيا بهذه النظرية لا يمكن تفسيرها .

وتعريف ابن خلدون فيه الشبه الكثير بما تقدم ، ولكنه ممزوج بالفلسفة وفيه اقتباس من آراء علماء الهند وبعض علماء اليونان القائلين بالتجرد وان الروح كانت في عالم آخر ثم حبست بالجسم . أما هو فيقول بأن الروح بخار لطيف يسير في الشرايين مع أن ليس هنالك بخار ولا هنالك شيء يسير في الشرايين غير الدم ، وليس الدم مطية الروح العاقل لأن التعقل واقع في الدماغ الذي هو جهاز عصبي . والعالم الأمري اسم لانعلمه ولا بإمكان الروح مفارقة الجسم ثم العودة ، والجسم لا يزال في فعاليته والدماغ في وظيفته رغم حصول النوم . والنوم لا يتوقف حصوله على وجود الليل ، فالانسان قد ينام في النهار وقد يرى الرؤيا وهو في اليقظة . فلهذا تعدد المقدمة غير صحيحة ونتيجتها فاسدة .

وأما علماء اليونان ومن أتى بعدهم فقسم منهم لم يقل بالتجرد ولا بقُدسية الرؤيا ، وقسم قال به والكل لم يتوفق لفهم الحقيقة ، لأن اساس التعليل لم يتناول وظائف العقل ولا درس المعلقون الدماغ من نقطة العلم مجردة عن كل نظرية قائمة بمفارقة الروح للجسم .

ولذلك لا بد لنا قبل البحث عن الرؤيا بلسان العلم الحديث ان نعرف وظائف الدماغ ، وعلاقته بالعقل ، وما هي أسباب النوم ؟

ذكر علماء الفيسيولوجيا : ان الدماغ هو العضو الرئيسي للأعصاب الحساسة ، والحركة والتغذية ، وما يسمى ايضاً بالأعصاب السمبائية ، اي المشتركة - Sympathatic ، والمراكز الذهنية . والدماغ يتكوّن من أقسام ثلاثة : المخ ، والنخاع ، والمخ المستطيل . والجهاز العصبي بما فيه الدماغ ، يتألف من خلايا عصبية ذات أشكال مخصوصة لكل قسم من الجهاز ، ولها ترتيبات معقدة لا يسع المقال وصفها وبيانها ، لأنها من موضوعات الكتب التشريحية . أما المخ فهو عضو

العقل والوظائف الذهنية ، وهو يحوي المراكز الخاصة لمظاهر العقل كالارادة والوعي والميل والشعور .

وتعدّ الارادة نقطة المبتدأ في الفعالية المحركة ، ويعدّ الشعور والوعي هما الغاية النهائية للانطباعات الحسية ، التي يتألف من ارتباطها وتناسبها مع بعضها البعض الفكر ، وتصدر عنها الدوافع المحركة . والمخيخ يقوم بتوازن حركات العضلات لموازنة الجسم . والمخ المستطيل يشكل عقدة الاتصال بين المخ والنخاع الشوكي الكائن في العمود الفقري والذي تنشأ منه الاعصاب الاطرافية . ومن المخيخ تنشأ الاعصاب القحفية الاثني عشر كمعصب السمع والذوق والبصر والشم والبلع والعصب المبهم وغيرها ، الحاكمة للحواس الخمس وللوظائف الحيوية : « التنفس ، والافراز ، والحرارة ، والدورة الدموية » ، ولا تشكل الاقسام الثلاثة اعضاء منفصلة مستقلة ، بل هي مرتبطة بعضها مع بعض ومتصلة وتشغل بمجموعها كعضو واحد ، ولكن المخ وحده هو مركز الوظائف العقلية .

ولعلّ القارئ يسأل : هل العقل شيء مستقل أم هو شيء يفرزه الدماغ كما يفرز الكبد مادة الصفراء ؟ فأجيبه كما بينا في السابق بأن العقل وإن اعتبر شيئاً من افرازات الدماغ أو شيئاً آخر فالحقيقة أننا نجعل ماهيته ، ولكننا نعرف بانه قائم في الدماغ ، وأنه لولاه لما عرفنا فعله ولا ظهرت مظاهره . ودليلنا على صحة القول وقوع التبدل والافراز في الدماغ عند كل عمل عقلي لكن يصعب رسمه ودرسه . فمن الواجب الاكتفاء بفرض ان العقل يظهر بواسطة الدماغ وأن له ثلاثة مظاهر : الاولى الاطلاعية ثم الارادية ثم العطفية .

فالاولى تفيدنا معرفة الاشياء على ما هي عليه . والثانية تفيدنا الميل نحو الشيء . والثالثة تفيدنا التأثر من الشيء لذّة او ألماً . وقد وضحت هذه النقطة في رسالتي الاولى ، وخلاصتها ان الوعي هو حالة اطلاع العقل على الفرق بين ما هو خارج عن انفسنا ، اي « الظاهر » ، وبين ما هو في مشاعرنا ومسامعنا معاً وهو « الباطن » ، وذلك بواسطة فعالية الذات التي هي مدار اختباراتنا الحسية ، لان الذات هي التي تحس وتطلع وتريد ، وبدونها لا يمكن ان توجد حالة عقلية ، وان العقل لولا الحواس الناقلة للاحاساس اي المنبهات الداخلية والخارجية لم يدرك

شيئاً. والحواس أجهزة مخصوصة من جهاز العصب تخصصت بنقل المؤثرات الى المراكز الحساسة التي تتصل بمراكز أخرى من الدماغ تخصصت بطبع الصور وحفظها واعادتها .

فكان من دوام هذه الفعالية واختبار الذات لها في الماضي والحاضر ان تكون مجرى فكري دائم الدوران تمتزج فيه الاختبارات الروحية وتبدل وتغير بحالاتها، ويظهر ان هذا المجرى له طبقات او سطوح مختلفة لحالات الواعية، فمنها ما يكون الوعي فيه كأننا في نقطة التركز، أي في محل النور، ومنها ما يكون في المكان الضئيل الذي قد نكون مدركين له او غير مدركين .

مثلاً لو دقت الساعة في غرفة فان الاذن تتأثر من الصوت فتحمله الاعصاب الى مراكز السمع ومنه الى الواعية، فاذا كان مجرى الفكر متجهاً لشيء آخر فان صوت الساعة لا ينتبه له ولا يعميه السامع، ولكن متى تحول الانتباه، 'سمع الصوت ووعي العقل. وكذلك لو مرَّ انسان أمام أعيننا وكنا في شغل شاغل عنه، ثم سألنا احد هل رأيته؟. لاجبناه لا، في حين ان صورة الرجل ارتسمت على العين وانتقلت الصورة الى مركز الرؤية ولكن وقوعها في مجرى الفكر كان ضئيلاً بسبب تحوله .

فيمكننا والحالة هذه تسهياً للفهم ان نتصور ان مجرى الادراك دائم الجريان فالانطباعات تقع عليه، فبعضها يصل الى السطح تحت ظروف متعددة وفي اوقات مختلفة فيدرك، والبعض الآخر يقع في مجرى الادراك، ولكن يذهب الى عمق بعيد لا يمكنه الوصول الى حدود الوعي .

وينقسم هذا العمق الى قسمين: تحت الوعي، والوعي المبهم او عدم الوعي . أما الاول فيحتاج الى دافع بسيط ليظهره امام الواعية، والثاني يحتاج الى دافع اقوى، وقد قيل ان محتويات الاول هي الانطباعات التي مضى عليها زمن او كان دفعها بدون انتباه او اهمية، ومحتويات الثاني هي الانطباعات الموروثة او القديمة منذ الصغر، وكلا السطحين له اتصال بالمركز النير او البؤرة النيرة، فاذا كان حبل الاتصال سليماً او دائم الانتباه كان اصعاد الانطباعات العميقة سهلاً والعكس بالعكس، ومع هذا فالدافع للصعود له تأثير عظيم .

ولايضاح ما ذكر شبه العلماء الوعي كدائرة منيرة ، فالشيء الواقع في المركز تراه واضحاً والذي يقع في المحيط تراه ضئيلاً وقد لا تراه ، وكذلك الانطباعات الحسية ، فالتى في المركز ندرکها تماماً ، والتى في المحيط قد ندرکها قليلاً او لا ندرکها ، وقد يحدث ان مؤثراً يسوق ذى الطرف الى المركز فندرکة ويسمى الادراك المذكور « تفاعلي » أو منعكس ، مثلاً لو كان رجل يتكلم ممي وأنا لا اعرف من هو ولكن يخطر لي باني رأيته ، فأسأله من أنت ؟ فيقول لي اما تعرفني ؟ اما اجتمعنا في المحل الفلاني وكان معنا فلان الفلاني ؟ فلا اذكر ! ثم يخرج لي بطاقته فاقرأ اسمه ، وحالاً اعلم من هو واتذكر كل ما نقله الي ، فتكون البطاقة سبباً لسوق الانطباعات او ذكريات الماضي من الطرف الى مركز الوعي او من اسفل العمق الى اعلاه .

ومن الثابت ان ادراكنا دائماً ما دامت الحياة وما دام الدماغ في فعالتيته وصحته ، ومعناه ان اليقظة والنوم لا يمنعان الجرى من جريانه ، ولكن في حالة النوم العميق او الاغماء فان الوعي لا يكون في حالة يمكن لنا فيما بعد تذكر اختباره اي الانطباعات التي تلقاها كما لو كان في اليقظة لان الظروف المقتضية للادراك الواضح ، ونحن في اليقظة هي مترافقة دائماً مع (مراقبة مركزية - Central Controle) تجبرنا على الاعتقاد بان لها علاقة مع الادراك الواضح فاذا غاب الرقيب غاب الادراك المذكور ، ثم ان المتطرف من جميع الدرجات العقلية المتحولة هو الانتقال من حالة النوم العميق الى اليقظة ، فاذا استيقظنا صعب علينا تخطر الاجزاء الذهنية التابعة لحالة النوم العميق ، ولكن لو كانت تحولات الدرجات الذهنية واقعة تدريجياً من النوم العميق الى اليقظة لأمكن ان تلتصق بعض أقسام ذهنية من الادراك النومي بواسطة المراقبة والتداعي - Association باجزاء ذهنية من الادراك اليقظي الواسع ، وعندها يحدث التخطر بصورة واضحة عن بعض الاقسام الادراكية النومية .

وبهذا الاعتبار نسمي هذه التخطرات (الرؤيا) كما نراها .

ولاثبات صحة هذه النظرية ، أذكر النقاط الآتية :

أولاً : أن الانتقال من نوم عميق الى يقظة حادة اذا كان فجائياً فلا تتخطر الادراكات النومية المتعلقة بالاقسام الذهنية ، ولهذا يقال ان الذي ينام نوماً عميقاً لا يري أحلاماً . ولماذا ؟ لانه لا يقدر أن يتخطر شيئاً رآه في نومه بسبب استيقاظه الآني الناتج عن عادة تعمل عين التأثير الفجائي .

ثانياً : ان أحلامنا تمثل حادثات أو أوضاعاً لا يكون عليها (رقيب مركزي) . والرقابة صفة من صفات الحالة الواعية في اليقظة وهي شيء محرج فانا نرى أحلاماً لا رابطة بين وقائعها وبين ماهو معروف ومختبر لدينا في اليقظة ، ونشعر بأن ليس لها (ناقد) أو ناظر يديرها . ثم ندرك باننا في حالة النوم قد تأتي بأفعال خارجة عن نطاق الانضباط فنشعر ثاني يوم بارتخاء ناتج عن النوم أو أننا نتعمد خرق المراقبة وندع أنفسنا تسير في المجرى فتثور مخيلتنا بشتى الصور ونشعر بحريان ذهني شبيه بمجاري الخيالات التي تسمى مجازياً (أحلام اليقظة) ، وعليه فحصول الاحلام في المنام هي عين حصول الادراكات اليومية ، فكما أننا في حالة اليقظة نبنى بلمحة البصر أعظم مبنيات الذهن المركبة في حق شيء صغير مستمد من الخيال والتصور ، كذلك في حالة النوم تنشأ المركبات الذهنية عن شيء زهيد وتكون في حالة تحت الادراك ، لكن فعاليتها لم تتقو بوجود المراقبة . فيظهر من هذا أن طبيعة أحلامنا ثابتة في المعنى الذي لمدروكتنا العارفين بها ، وتكون منطقية ومتناسبة وقد لا تكون شأن المجاري الفكرية الحادثة وقت اليقظة . ألا ترى أن الانسان اذا لازم الصمت والسكون وأوقف فعالية حواسه الخمس ومركز ذهنه في نقطة أو حادثة فان الفكر يمر بأمور مر الاحلام يركب اجزاءها من عناصر الذهن ، وقد يتسلسل ويسترسل بها حتى تكون فكراً منطقياً او فكراً غير منطقي نعمهما ونعود فنقبل احدهما او زرده ، ولكن الأحلام النومية لفقدان الانضباط المركزي الذي هو خاص بالادراك اليقظي وحال طبيعي لادراكاتنا مدى الحياة لاتعتبر منطقية وموافقة .

وقد تتجدد المجاري الذهنية في بعض الأحيان واثناء الحلم فلا نتذكرها أو

تكون غائبة ومخيفة تدل على أنها كانت مغموسة تحت الادراك ثم أعيدت فعاليتها
فجرت ، وهذا ما يفسر لنا الحالات الذهنية اثناء الجنون ، والحلم ، والهذيان ،
الشبيهة بالحالات الروحية في المنام التي لا تنقصها إلا المراقبة .

وقد ذكر بعض العلماء امثال « فرويد » بان الرؤيا « هي اكمال لقصد غير
مدرك » موجود في الذهن وله فعالية تسعى للصعود الى سطح الادراك التام ،
ولكن لايفاء الغرض يتعارض مع موجود آخر يسمى (الرقيب - Sensor)
فان تغلب عليه حصلت الرؤيا على الحالة التي تكونت في مجاري الذهن من افكار
مختلفة ترضي التهييج الناتج عن المقصد المطلوب اتمامه .

ومعنى التغلب ، إما ان يكون الرقيب في عطلة تامة بداعي النوم ، او بداعي
المرض ، او ان المقصد تخففت اجزائه بحيث لا يستطيع الرقيب تمييزها ، وهذا
الرقيب موجود وذو جهاز روحي مستقل يعمل كما يعمل مراقب الجرائد فيمنع
الافكار الحاصلة في الرؤيا غير المقبولة ويديح الافكار المقبولة ثم يفرقها ويوزعها
وقد عزجها ويضيق عليها ويظهرها غير منطقية او غير مرضية .

والخلاصة لولا المعاكسة والمعارضة الواقعة من قبل هذا العامل العقلي
للافكار الحاصلة اثناء النوم لما رأينا شيئاً ، فلننام اذاً هو دوام لفعالية العقل ،
والعقل يسير في عمله سواء أدركنا عمله ام لم ندركه . والادراك لا يقع ما لم
يوجد للمجرى الفكري غامل يسوقه ويرافقه الى الطبقة المدركة فيظهر تبعاً
لمرافقة التي اما ان تجعله منظماً ومرتباً ومنطقياً فيرى كالصور المتحركة ، او
يتركب من مجاري مختلفة غير موافقة فيظهر باشكال غريبة قد نتذكرها اولاً
ثم ننساها ، او لا نتذكرها أصلاً .

والتذكر الادراكي لا يكون الا اذا كانت درجات الانتقال من النوم العميق
الى اليقظة تدريجياً . ولعل القارئ يحتاج الى دليل لوجود المراقبة والرقيب
فأقول له : ان من شأن المخدرات ان تخدر أرقى القوى العقلية المتكونة في سلم الرقي ،
فالكلوروفورم مثلاً عند استنشاقه يشعر المنوم بتخدير في تمييزه ، ثم في محاكمته

ثم تنطلق مخيلته فتترامى له بسرعة هائلة اشكال وحوادث منسية ، فيهنديء ثم ينتقل الى دور النوم فتبطل ارادته .

وقد يكون شاعراً عند اليقظة بما يقال ويجري حوله ، ولكن غير قادر على الحركة او الدفاع عن نفسه ، والنائم بسبب تأثير المواد الكيماوية المتراكمة في النهار، تتخدر قواه وملكانه بدرجة بطيئة الى ان يغشاه النوم فتنتقطع الحواس عن نقل المؤثرات او انها تنقل ما يأتيها ، ولكن الرقيب يكون في سكون فتمر الى مراكرها وتنبه غيرها او ترجمم للواعية بصورة غير صورتها الحقيقية ثم يستمر الفكر في مجراه متنقلاً الى ان تبتديء القوى الايقاظية تذكر النائم ما رآه كأنه صورة واضحة ماثلة امامه .

والحقيقة ان الاختبارات الواقعة والتي ينقلها النائم في يقظته كأنها وقائع ستحصل في المستقبل ، او اخبارات غيبية هي نتيجة متممة للتفكرات التي يتنبأ بها العقل في حالة اليقظة او انها تقع صدفة .

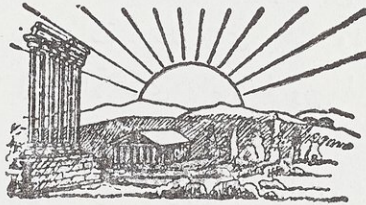
وخلاصة القول ان الأحلام هي متممات مجاري الفكر ، وعند « فرويد » هي متممات للترغائب التي تتعلق بحفظ الذات والجنس ، وهذه الرغائب لا تظهر في اليقظة لأن الانضباط الذهني يمنع صعودها لاعتبارات شتى . ففي الليل تتخفى وتتصعد بشتى الاشكال . ولذا ما يراه النائم يدل على شيء من تلك الرغائب وعنده أن العمود الذي يراه النائم دليل عضو الذكر ، ودخول الجماع دليل الجماع والزهرة دليل الميل للمرأة وغير هذه من التفاسير .

والانسان مهما رأى فلا يتعدى ما اختبره من حياته ومن الاجزاء التي تتركب من عناصر عديدة متباينة ، فان رأى بغداد ولم يكن يعرفها ، فمبانيها تكون مما يعرفه من البلدان الأخرى وانهارها وجبالها ، أو مما سمعه او قرأ عنها . والعجيب ان صور المدروكات تمر كشريط السينما مركبة ، ومرورها قد يحوي نوعاً من الصور المسرعة ، ونوعاً من الصور المكبرة ، ونوعاً من المفزعات ، ونوعاً من المفزعات .

فالغريق في الماء والجامد من البرد يريان اثناء غيوبتهما وهما على وشك المفارقة للحياة جميع ما جرى لهما من الحوادث والاختبارات المسرعة ، وكذا الحشاش الذي يتناول الحشيش ، فان قواه الخيالية تنتبه وتريه الاختبارات المسرعة وصورها بخلاف الذي يَحْتَقُّ بالغازات فيرى الصور المكدرة ، ولذا يكون وجهه بعد الموت عابساً ووجوه القسم الاول باسماً ، ومن هذا القبيل المصابون بالعلل والأمراض تختلف احلامهم باختلاف امراضهم ، لأن دوافعها تصعد للواعية وترجم بصور شتى . فمثلاً من كان مصاباً بخناق الصدر او بضيق المعدة ، يرى كابوساً يضغط على رثتيه ، او يرى نفسه تحت صخرة لا يتحرك ، ويطلب الخلاص ولا مناص مع انه في فراشه ، ولكن المرض ترجم له بصورة اخرى مترافقة بذات الشعور . والسبب في سرعة مرور الصور شدة التنبيه كأن المراقب يدع نوعاً واحداً من الاختبارات تصعد الى مستوى الوعي ويمنع الاخرى .

والحاصل ان العقل شيء محير للافهام . واما الرؤيا فعمل من اعماله الدائمة معظم عناصرها يتكوّن مما هو كامن في طبقة الاشعورية ، ومما هو متصل بحوادث النهار الهامة .

والتفسير يبنى على هذه الاساسات ويحتاج صاحبه الى معرفة بطوائع الناس وخبرة بأحوال السائل والظروف الموجودة ، وكل ما يقوله لا يخرج عن كونه استنتاجات مستمدة من الخبرة ، وتعليلات أساسها التحليل النفساني ومعرفة الغرائز ودوافعها .



الدوافع المرضية للجرائم والجنايات

ووجوبها القانونية

لماذا يجب البحث عن الدوافع المرضية في الجنايات والجرائم؟

ان الأمم كلما ارتقت اجتماعياً أمعنت النظر في العلل المرضية التي تفتاب الافراد وتؤثر في المجموع ، لان البشر ليس من طبيعتهم الشر ، ولا هم خلقوا ليرتكبوا الجرائم والجنايات ، فلا بد من علة مرضية تسوقهم لارتكابها .

والعلل المرضية اذا عرفت ودرست دوافعها ، واتخذت الوسائل لمداواتها والوقاية منها ، إما بمنعها قبل الوقوع او بتحديدتها بعد الحدوث ، لا شك يقل الضرر ويخف الفساد الذي ينشأ عن فساد الطبيعة البشرية وتصلح العلة الآتية من الدوافع المرضية .

وقد كان درس الجنايات والجرائم فيما مضى يتناول النتيجة للعلل المرضية فقط ، اي الجرم والجناية من حيث هما ، غير ناظر للعوامل النفسانية وتشخيص ماهيتها كما كان الحال في علم الطب قديماً . وكان حكم المحاكم ينحصر في تعيين نوع الجرم وشخص الفاعل وتقدير العقوبة اللازمة التي ينص عليها القانون أملاً ببدء الفاسد وتصحيح المعوج . ولذا كان العقاب ينفذ إما بالتعزيم ملاً او بالسجن مدة ، حتى ينفصل المجرم عن الهيئة الاجتماعية زمنياً معلوماً ويحرم عليه بعض ما كان مباحاً له في حياته وهو طليق ، او بتعذيبه بحيث يشعر بالالم والمشقة مع سجنه عليه يخاف اتيان المحرم مرة ثانية ويرتدع عن ارتكاب المنكر ، وتصلح نفسيته للعودة الى حياتها السابقة ، أو لعدم تقدير عدم امكان صلاحه وكونه موبوءاً بجرثومة فساد خطيرة لا يجوز بقاؤها أصلاً .

وفي جميع الاحوال كانت مسألة الجنايات مسألة قصاص لا مسألة درس وتعليم ومداواة. ولهذا لم تكن الوسائل القضائية وحدها ناجعة لتقليل الشر وتخفيف وقوع الجنايات. ولما ارتقت معارف البشر وتقدمت العلوم الاجتماعية وتناول الطب الشرعي والفلسفة الروحية درس هذه المسائل بالاشتراك مع القضاء، وتبدلت وجهة المشرعين نحو الجرائم والمجرمين، واخذوا ينظرون للحوادث من نقاط متعددة معتبرين وجهتها الاجتماعية والنفسية والاخلاقية، عُدَّتْ حادثة الجريمة مظهراً فخافياً لأمر نفسي تدفعه عوامل مرضية يجب تشخيصها ومنعها قبل الوقوع ومداواتها بمرده، وتطبيق الوسائل الفنية الضمنية لهذه الاساسات.

وقد كان من حظ البلاد الراقية ان تنهت السلطات المسئولة لهذا الامر فحوت سجونها التي كانت مستودعات بؤس وشقاء وتعطيل وعذاب، الى مؤسسات فنية للتجريد والمداواة والتهذيب والاصلاح النفساني.

ولما رأيتُ البحث عن الدوافع المرضية من الوجهة القانونية مما يخدم رجال القضاء، ويفيد رجال الطب الشرعي في مسألة لا يحق لنا التفاوضي عن معرفتها خاصة والبلاد في تطور اصلاحي وزمن انقلابي، بادرت لكتابة هذه الرسالة مؤملاً منها النفع لبلادي فتخف جرائمنا وتقل مصائبنا ونسير بنور الحق والعلم في هداية المرضى من اخواننا.

قال العلامة الدكتور شبلي شميل: «ان للاجتماع أمراضاً كما للجسم الحي، وهي كأمراض الجسم إما ان تكون «مستوطنة» وتسمى «جنايات وجرائم»، وإما ان تكون «وافدة» وتسمى «قلاقل وثورات».

وان اسباب الامراض الاجتماعية كأسباب أمراض الجسم، إما متممة واصلة وهي في أحوال الفرد خاصة، وأما «معدة مهيأة» وهي في نظمات الاجتماع كما هو الحال في الجسم الحي».

ويستدل من كلامه، أن الجنايات كالامراض نفسها لا تقع ما لم يتوفر لديها عاملان: أحوال «خاصة في الافراد» واستعداد في جسم المجتمع. والاحوال الخاصة

التي تسوق الافراد الى ارتكاب الجنايات والجرائم هي عديدة أهمها (السوائق المرضية Morbid Impulses) أو بعبارة أوضح الدوافع المرضية التي تصدر عن طبيعة الانسان المريض وتحكم أعماله وتقود أفكاره وتستحوذ على ارادته وتسوقه الى ارتكاب الوقائع المعدودة في نظر القانون جريمة أو جناية لمخالفتها الشرائع ويعاقبه عليها ، بقدر ما يعتقد الحكم أن العقاب كاف لمنعها وتحديد ضررها وتأثيرها ، غير ناظرين الى الوجهة الفنية التي تتطلب من القانون الجزائي أن تكون العقوبة مقرونة بالمداواة اللازمة والتدابير الواقية التي تمنع الحادث قبل وقوعه او تزيل الجرثومة قبل استفحالتها ، فيبرأ المريض وينحصر الضرر وتمنع السراية ، تلك نظرية الطب الاجتماعي .

وهذه النظرية قائمة على أساس معقول منطقي علمي ، أي قابل للتطبيق وحسن النتيجة ، وعليه يجب البحث عن الدوافع المرضية لمعرفة ماهيتها وأسبابها وأعراضها ونتائجها وعلاقتها مع القانون ليستعين العلماء بالموضوع عندما تطرح أمامهم مسألة حادث مجاني ارتكبه جان نسب اليه المرض العقلي أو الجنون عند ارتكاب الجريمة ، فينظرون الى القضية بالعين التي ينظر اليها الطبيب الاجتماعي ، وتنظر اليها الفلسفة وعلم النفس ، ويتناولها المرشد المصلح حتى إذا ما تبين لهم بأن للجاني مرضاً حقيقياً بعثوا به الى المستشفى ريثما يبرأ أو يتركونه لأيدي الطبابة تتولاه . فالمسألة بهذا الاعتبار إذاً مهمة جداً ، والمهم فيها معرفة الدوافع المرضية .

ما هي الأسباب لارتكاب الجريمة ؟

إذا حللنا اسباب الجريمة ، وجدنا ان الانسان يرتكب العمل غير القانوني اما صدفة بدون اختيار ، كما لو كان صياداً يصطاد طيراً فأخطأه بمرمه وأصاب رجلاً فقتله ، وإما لضرورة مجبرة لا قبل له بردها ، كما هو الواقع اثناء المدافعة عن العرض والناموس والحياة ، واما تحت تأثير الغضب الشديد والانفعال النفساني بحيث يكون العقل في غشاوة والمانع الذهني في توقف ، وذلك اثناء المشاجرة والحدة في مسألة قد لا يكون لها أهمية ، ولكنها تكفي لايقاظ كوامن الغضب

واثارة حس الانتقام ، واما بالجنون فيحدث آنياً ويترافق مع افكار هذيانة تحدث له صوراً وهمية وسوائق مرضية تقوده لارتكاب الجنائيات بعد تأمل . واخيراً اما لحالة مرضية لا تشابه الجنون بمعنى الكلمة ، ولكن لوجود تباين يجعل صاحبه شاذاً عن بقية الافراد والاصحاء في محاكمته وشعوره وحسه المشترك « السمبائي » ، وهذا النوع الاخير من الاسباب ينسب أصحابه الكثيرون الى مرضى العقل ومشوَّهي الذهن ، وفيهم توجد الدوافع المرضية التي جعلناها موضوع أبحاثنا وتحتاج الى معالجة دقيقة لتحليل عناصرها وتعيين درجة مسؤوليتها خلافاً « للجنة المطبعة » التي هي اختلال عميق ، والتي أجمع العلماء على عدم مسؤولية المصابين بها .

ما هي اسباب الدوافع المرضية ؟

ذكر علماء النفس ان الوراثة من اهم الاسباب للدوافع المرضية ، واستدلوا على ذلك باكتشافات « مادل » لقانون الوراثة وتدقيقات « موريل » احد فلاسفة التربية وعلم النفس في الامراض الذهنية وكان تعليمهم بها وجيهاً لما للوراثة من اهمية لا ينكر تأثيرها .

ولكن لا ننسى ان هناك عوامل اخرى تستدعي وجود الدوافع المرضية كالاجهاد الذهني ، والافراط الشهواني ، وداء « الكؤول » الكحول ، وداء المكيفات ، وداء الزهري ، وسوء نمو البدن اثناء الطفولية ، فهذه كلها تعد اسباباً تحط من مقدرة العقل وتضعفه وتولد فيه استعداداً قوياً للظهورات المرضية وتجعل في النسل ميلاً وراثياً لحدوث الدوافع المرضية .

من هو مريض العقل ؟

ان مرض العقل يفيد « وجود حالة مرضية في الاشخاص ذوي النقص البدني والمقاومة الذهنية ، وبعبارة ثانية يدل على انحراف عن النموذج الصحيح للانسان وصفاته ان المصاب به يتصف باقطاع الموازنة المنظمة بين مراكز الدماغ وضياح الالفة الكائنة بينها » فيظهر عديم الانتظام في الفكر والعاطفة والارادة والوظائف والحركة .

وإذا نظرنا الى المصابين بمرض العقل وجدناهم انواعاً عديدة تختلف وتباين عن بعضها البعض ظاهراً لكنها في الحقيقة واحدة لان اصحابها لهم نفس واحدة (مريضة) وما صفاتهم الذاتية إلا ترجيحاً لعقليتهم الناقصة ، فنمو قواهم مختل ، وتوازنهم مشوش ، وحالتهم منحطة . ومن الغريب ان منهم من له حافظة مشهورة ولكن لا يقدر على تركيزها اثناء الفكر ، وايس له ثبات أو ارادة في عمل ، وإذا اختبرته في افكاره واطواره وجدته كل يوم في واد ، شاذ الطور والاداء والفكر ، ومنهم من له احلام وتمايلات خيالية ، ومنهم نوع أناني يدعي كل شيء لذاته ويفتر بمواهبه وخصائصه ، ومنهم من له أخلاق سافلة فاسدة لا يقبلها مجتمع ولا دين ولا عقل .

فرضى العقول المتصفون بهذه الصفات لا شك أنهم فاقدو الموازنة العقلية تدفعهم الدوافع المرضية وتستحوذ عليهم ، ولكن ما هو الاستحواذ وكيف يكون ؟

ما هو الاستحواذ المرضي وصفاته ؟

ان العقل في الحالة الطبيعية تغزوه الافكار والصور العديدة ولكن لا يلبث ان يمانع في دخولها الى حظيرة (١) فإذا تمكنت من الدخول بتأثير التكرار وشدة التأثير ، فعندها تستطيع الارادة القوية ازالتها ومقاومتها ومحو أثرها وهذا يسمى (الاستحواذ الطبيعي) لانه لا يتحول الى دافع مرضي ، وإما اذا ضعف العقل وكان في حالة غير طبيعية فالافكار التي تغزوه والصور والجل التي تدخل الى حظيرته بدون مقاومة تخفي بقية الافكار والصور السابقة ، وكل ما هو مضاد لها ، وتستحوذ عليه بعد عراك وألم أدبي لمقاومة العقل لها ، وهذا يسمى (الاستحواذ المرضي) لأنه غير طبيعي فيستعبد الارادة ويقود الرجل الى حيث يريد ، وهو يعلم ما يجري في نفسه ويعلم اضطرابه لمسيرته وإجراء ما لا يرضاه وجدانه ، ولكن لمجزه عن المقاومة يطيع الدافع حسبما تقتضيه الحالة المرضية للاستحواذ . فيتبين مما تقدم أن الاستحواذ يسيّر الدوافع ، والدوافع تسيّر العمل ، وكلا المظهرين له ذات النسبة التي بين العقل والعمل . ويتصف الاستحواذ المرضي بصفات ثلاث مميزة :

(١) راجع البحث عن فيسيولوجيا الواعية .

- ١ - الصحو بالنظر للحادث .
- ٢ - النزاع القوي ضد الفكر المستحوذ .
- ٣ - العذاب الادبي في العمل .

ويلازم الدوافع المرضية عنصران لا يفارقانها : الاول « عمل فجائي » يصدر عن مركز او مراكز منعزلة في الذهن دون اشتراك القوة البرهانية Reasoning والثاني « عجز موقت » للارادة الحاكمة - Self Control لا يقدر عندها على صد العمل . وعليه نجد أن الصحو الظاهر وعدم الوعي ، يضللان من لا يعرف الدوافع المرضية ويسوقانه للخطايا القضائية .

أوقات الاستحواذ

والاستحواذ لا يتسلط على عقل المريض الذي تنشأ فيه الدوافع المرضية الا عند شدة الغضب ، ونهاكة القوى العقلية كالسعي الفكري المستديم التعب ، وعند وقوع الافراط بأنواعه ، والنزف الدموي الكثير ، وفي حال الوقوع في الامراض الانتانية المزمنة ، واختلال التغذية ، وعند الادمان على تناول المسكرات والمكيفات كالكوكاين والحشيش والمورفين ، وثم عند قراءة الحكايات والروايات الجنائية الممدودة من المحرصات والموجبة للدوافع المرضية . مثال ذلك ان امرأة عمرها خمس وثلاثون سنة اصبحت بعدة اسقاطات جنينية مصحوبة بنزف دموي اضاع مقداراً عظيماً من قوتها ، وكانت عقليتها ضعيفة ومريضة ووراثتها سيئة لأن أباهما أصيب بالزهرى وأما مدمنة على الحجرة وجدها مفلوج وقد تزوجت هذه المرأة بقصاب كانت تساعد على تشريح اللحوم وتقطيعها وبيعها .

ففي ذات يوم ظهرت عليها أعراض الدوافع المرضية وحدث أن تناولت السكين وبينما هي تقطع اللحم شعرت برغبة زائدة في أن تمد يدها وتقطع رأس الزبون الذي كان واقفاً أمامها ، وعندما علمت بما جال بباليها وادركت خطورة الموقف ، جاهدت في نفسها لمقاومة الدافع والمناضلة عن العذاب الداخلي الذي أخذت تشعر به ولكن الفكر عاد اليها مرة بعد مرة الى أن استحوز عليها وعجزت

عن مقاومته بسبب ضعف ارادتها فهت بالعلم وشهرت السكين بيدها واجهشت في البكاء وصاحت أمام الواقفين ويدها ممدودة: أدر كوني! ثم سقطت على الأرض مغشياً عليها، ويدها ترتجف وتستغيث قائلة: أبعدوها عني كيلا أرتكب الجناية.

وحدث نظير هذه الواقعة أن صيدلياً حديث السن كان يتداوى عند طبيب لمرض ألم به منذ سنتين فلما علم بعدم الشفاء جرب مراراً الانتحار والخلاص من مرضه ولكن نفسه كانت تمنع فيما عوّل عليه، ففقد نومه لشدة الرغبة التي استحوزت على مداركه، ثم قرر أن يتخلص من الحياة ويرمي نفسه في البحر.

وفي يوم من الأيام بينما كان يسير في المحلات الطلقة خارج المدينة رأى قارباً مرابطاً على الساحل فاستأجره من صاحبه وشارطه على أن يسير بعيداً عن العين، وبينما هو يسير حدثه نفسه بالقفز من القارب الى الماء، وبهذه الصورة يقضي على حياته المعضبة، ولكن خاف العاقبة فتوسل الى النوتي أن يربطه بساري القارب ويرجع الى الساحل ولا يتركه حتى يخرج الى البر ففعل ونجى نفسه من الغرق.

وحدث في حلب أن معلماً هام بحب أحد تلامذته، فكان يتردد اليه ويعلمه بعض الدروس دون أن يطلعه على حبه وهيامه. وبقي مدة على هذا المنوال ثم أخذ يظهر ما بنفسه نحوه بشئ الوسائل، حتى علم الولد أن معلمه شغوف به فنفر منه كراهة من تزلفه وتعلقه وشدة تعلقه وحديثه البذيء، فاشتد المعلم الحاحاً وعناداً يطلب رضاه ويستعطفه بأن يسمح له بمرافقته ومجالسته فيأبى. وبعد حين سافر المعلم الى بلدة أخرى ليعلم فيها، فكان يعود في الاسبوع مرة الى حلب ليرى عشيقه ويتوسل اليه، وظل كذلك سنة او اكثر. ولما يئس من عطفه سوّلت له نفسه قتله غيرة منه وحسداً من أن يصاحبه آخرون، وأرسل اليه عدة كتب تهديدية ليعود اليه فلم يجابه. وأخيراً ترصد له اثناء مروره ليلاً وأطلق عليه رصاصة من مسدس أصابته في قلبه غرقاً صريعاً.

ولما قبضت عليه الشرطة وأوقفته في السجن اقرّ لهم بقتله، وان السبب هو حبه. وانه يطلب ان يُقتل فداءً عنه.

ومثل هذه الشواهد الشيء الكثير تجري في حياة المجتمع ، سببها مرض العقل ، ووجود الدوافع المرضية ، واستحواذها على الفكر ، وسوقها المريض الى ارتكاب الجريمة من حيث يعلم ولا يعلم .

والحقيقة أن الدوافع المرضية لا تؤثر فقط في مثل هذه الجرائم ، بل تؤثر في جرائم اخرى اقل درجة ، كالسرقة التي تنبعث عن دافع مرضي يستحوذ على المصاب به فيدفعه الى سرقة أحقر شيء ، ولا يشترط أن يكون السارق محتاجاً اليه ، إذ ربما يكون من أرباب الثروة والاعتبار . ومثلها التعدي على عرض الغير واثيان العمل البهيمي وحرق البيوت واللواطة وغيرها من الموبقات التي لا تصدر عن صحيح العقل ذي الوجدان الطاهر ، انما تصدر عن مرضى العقول الذين يرتكبونها ، ويعرفون منزلتها وحقارتها ، ويقدرون نتائجها ، ويجاربون الرغبات التي تدفعهم اليها ، متألمين معذنين ، ولكنهم رغم العراك الشديد القائم بين عقليتهم وبين الاستحواذات المرضية ، يستسلمون مغلوبين على أمرهم للأسباب التي مرّ ذكرها (وراثية ومرضية واكتسابية) .

ماهي نتائج الاستحواذ المرضي Morbid Obsession ؟

ان تقدم الاعراض الدقيقة لا تكون مثلاً لما سيبتجه الاستحواذ والدوافع المرضية حيث قد تكون وقتية أو منقطعة ، أي تظهر مرة وتختفي أو يبطيء سيرها لأشهر وسنين ثم تتقوى وتسرع ، وفي بعض الاحيان ، تغيب وتمضي آنياً لأقل سبب .

قال « ماغنام » : ان الاعراض المذكورة هي وقتية في حياة المنحط ، انما لامتزاجها بحياته الذهنية لا تفارقه ولا يتبدل شكلها أصلاً ، وتظهر من آونة الى اخرى لتحافظ على ماهيتها ما دام المريض حياً ، ولذلك يتحتم علينا قبل الاخبار عن نتائج الاستحواذ والتنبؤ عن مصير الاعراض المرضية ، ولكي يسهل علينا تشخيص الفرد المصاب بهذا النوع من الامراض الذهنية والمدعى ان في عقله خللاً ، أن نعرف الدوافع المرضية للجرائم والخطايا ولو كانت صغيرة لأنها قد تكون كثيرة الوقوع في حياته او قليلة تحدث في الوقائع الاضطرابية

التي لا يمكن مقاومتها ، كالانتحار والقتل وغيرها من الاعمال الجنائية الخطرة
والتي نصادفها في الجنة الحقيقيين ، اذ يعتمد الجاني قتل نفسه او قتل غيره تحت
تأثير الوهم او يندفع اليهما بتأثير خيالات وهو اجس مخيفة .

ويجب ان نعلم ان المصاب (بالمانخوليا) يتعذب روحياً من الوهم المستولي
عليه ، ناسباً اياه الى خطيئة ارتكبها هو او لطفوة تعمدتها واعتقد بعدم تكفير
ذنبها ، او لسقوط قواه الجسمانية ، او لاستحقاقه العذاب والقصاص من أعمال
تصورية وخيالات وحالات تعترية ، كسماعه اصوات تأتيه من وراء الجدران
وترن في اذنيه وتذكره بما اقترفت يدها من المظالم والمثالب والآثام ، فيطلب
الخلاص من عذابه الروحي الدائم ويعتمد الانتحار ، او ان تستولي عليه الافكار
الباطلة والالوهام الزائفة فيدفعانه الى سلوك شتى الطرق الغريبة ، ويظهر ان
اقراره سيقاصصونه او يعذبونه بسبب خطاياهم ، او ان زوجته ستأثم ويلحقها
القصاص ، فيفضل قتلهم بيده ليخلصهم من العذاب حسب وهمه واعتقاده .

وكذا تنمو في المصابين بمرض البارانويا أي « الشذوذ العقلي والخلقي »
عداوة وكراهة ونفور لأشخاص معينين يظنون فيهم سوء ويعتقون أنهم
يتعقبونهم بسبب ظاهري منطقي أو غير منطقي ، وانهم يزاحمونهم في كسبهم
وشهرتهم ومجدهم ويجربون ان يقصوهم عن وظائفهم او مرا كزهم العالية ان كانوا
من اربابها او ممن يعتقدون بانهم أهل لها حيث يريدونها لانفسهم ، ثم يتخيل
لهم ان اصواتاً قدسية تأتيهم من الغيب تكلمهم فيدعي بعضهم النبوة وبعضهم
الارشاد ، ويقولون ان السماء أوحى اليهم رسالة أو كتاب يتلونه على الناس
ليطهرهم من الذنوب والخطايا فمن اتبعهم وآمن بهم غفروا له ذنوبه .

وقد يدعون أن الشريعة تحرم عليهم قبول المناصب والمقامات ويتصدون
لشرائع المجتمع ونظاماته فينتقدونها وينسبون لها الفساد والضلال ويسعون لمحوها
ورفع كل عقبة تصدم عن بلوغ غاياتهم ، ومن هذا النوع من يتظاهر بنفسه
كذات محترمة ومقدسة وانه فوق كل شيء وفوق كل رتبة ومقام وانه رجل

العالم الذي لانظير له في الافكار والآراء والنظريات والفلسفة ، فاذا قال شيئاً فقول له الحق ، واذا أنكر شيئاً فدعواه الدليل ومن يخالفه فاما أحق وإما جاهل .

وغيرها من أنواع الاختلال العقلي الدال على أن المصابين به ينساقون بدوافع مرضية لا ترد ، تأتيمهم من الوهم والخيال ، فيضطرون للقتل وارتكاب الجرائم ، وكما تعمل الدوافع في هذا النوع ، تعمل في الجماعات الذين تختفي فيهم الاعراض مدة ثم تحدث آنياً بهذيان وأوهام بخائية وتشد أحياناً فتنتج ذات العاقبة أو تعمل أيضاً « في اصحاب العتة قبل الوقت » وهم مرضى يظهرون في بدء شبابهم أوهاماً وخيالات تسبب لهم اعمالاً خطيرة وتسوقهم لتعديت مفرطة تنتهي بالقتل والانتحار ، وفي اصحاب « العته الشيخوخي » الذين يظهرون اعراضاً تتكون من خيالات واوهام ، فيعتقدون مثلاً أنهم اذا اشتروا شيئاً أو باعوا حاجة أو تعاونوا في أمر اصبوا بغبن فاحش ، وغدر مشين ، أو سرق مالهم ويظنون في أنفسهم الاضطهاد من أبنائهم ، أو خدمهم أو اخوانهم ، وتستولي عليهم أوهام عشقية ، فيهممون بمعشوقتهم ويطلبون الاقتران بها بصور وكيفيات سخرية ، واذا عارضهم معارض أو منعوا عنها قتلوا المتجاسر أو تعدوا على من يريد أخذها منهم ، ويرتكبون حوادث أخرى غريبة كالتعدي على عرض الفتيان والفتيات .

وكذا في السكيرين واصحاب الجنائيات التخديرية فتترافق الاعراض ، بحالات ناتجة عن تناول المورفين والكوكائين والكحول ، وهذيانات واوهام وخيالات تسهل وجود الدوافع المرضية . وفي المصابين بداء الصرعة لأن المصاب يبقى بانتهاء النوبة في حالة يمازجها خلط وتشويش وهذيان تجعل الدوافع المرضية اثناء الحال قادرة على سوق المريض الى ارتكاب القتل والانتحار وغيرها .

هذا ما يمكن ان يقال عن نتائج الاستحواذ المرضي مع وجود الدوافع المرضية . وقد بقي ذكر النقاط التشخيصية المميزة لها عن غيرها تسليلاً لفهم الحوادث الجنائية .

من المعلوم ان مختل العقل عند ارتكابه جنابة القتل والانتحار ، يكون

تحت تأثير الوعي الوهمي او الهذيانى او الخيالى الذى يسوقه الى اجراء العمل بقوة الدافع المرضى فيرتكب الجريمة دون تعقل بل بحركة ذاتية اى لذاته ، ولذا تظهر العلامات الآتية اذا كان الدافع نتيجة للاستحواذ وهى :

١ - صحو في الوعي .

٢ - عراك ذهني قبل حدوث العمل .

٣ - تحقق شناعة العمل .

وهذا يظهر بخلجان قلبي وتزايد في النبض ، وألم في الرأس ، وصداع ، ورجفان ، وعرق ، ثم تصحبها اعراض بدنية تدل على انحطاط الجسم وتشويش وظائفه الفيسيولوجية في الامعاء والغدد والاعضاء الرئيسية .

وقد سبقت الاشارة الى هذه الاعراض في معرض التشخيص لاستحواذ المرضى . فيستدل بما تقدم ان معرفة ماهية الشخص المصاب تحتاج لدرس عميق في كيفية سيره وأطواره ومعاملاته وانفعالاته تجاه المؤثرات الخارجية والداخلية ثم في صفاته الارثية والخلقية .

ماهي العوامل الروحية في ناقص العقل ؟

ان الجواب على هذا السؤال يتناول البحث عن العوامل النفسانية التي تنهي بالاستحواذ والدوافع المرضية حيث التشوهات العقلية ليست نوعاً واحداً ، بل هي سلسلة طويلة تتفاوت حلقاتها مبتدئة من الذهنية الخارقة للعادة ، الى الذهنية الضئيلة . وعليه يجب بيان اهم الاقسام الموجودة لمعرفة النوع الذي يتعلق بالقانون .

١ - « العتة التام » وهذا يطلق على من كان التشوه العقلي فيه عاماً شاملاً لجميع القوى العقلية .

٢ - « البتة » يطلق على من كانت فيه بعض القوى العقلية غير كاملة النمو ، لكنها متوافقة مع وجود غيرها .

٣ - « الضعف العقلي » وهو يدل على أن بعض القوى قادرة على الوصول الى درجة معينة من النمو وليس لها تشوه بارز من حيث العموم ، ويكون المصابون بهذا المرض مختلفين بالقوة فمنهم من ضعفه في الاكتسابات الذهنية ، ومنهم من ضعفه في قوة البرهان ، ومنهم من ضعفه في قوة التحليص ، ومنهم من ضعفه في الحفظ والتعميم ، والآخر من ضعفه في قوة تأليف الافكار ، ولكنهم جميعاً تتجلى فيهم علامة مشهورة هي عدم تساوي نمو القوى الذهنية .

أما اصحاب « العته التام » فلا نبحت عن مسئوليتهم القانونية لأن عقولهم عديم الوجود وحسبهم الادبي مفقود ولا صلة لهم بين أنفسهم وبين العالم الخارجي ولا تؤثر فيهم التربية ولا التعليم ولا تثبت الانطباعات الحسية في عقليتهم ، وانما يقودهم السوق الطبيعي ، ويدبر مناسباتهم مع الغير وتقتصر حياتهم على تنفيذ الوظائف الحيوانية النشوية بكيفية « من ذاتها » ، والبلاء والابدال فيعدون أرقى درجة ممن تقدمهم ، إذ نجد فيهم أثراً للذهنية والنمو الاخلاقي بحيث يقدر الانسان أن ينجح بتعليمهم بعض المبادئ الاخلاقية اذا لازم تربيتهم بحمد وعلم واجتهاد لكنه لا يقدر أن يرفع مستواهم العقلي الا لدرجة محدودة مهما جاهد . ويغلب على الابله أن يكون ضعيف اللسان فقير الكلمات ناقص اللفظ تدل تعابيره على عجز مداركه ونقص فكره وتدل مناهج تفكيره على طبيعة اعماله ، وقد يظهر فيه ميل للاحلاق لكن من الدرجة المنحطة ، ويتميز بالغدر والغرور والاستمناء وفساد الشهوة والافراط بانواعه والجبن والتهيج وغير ذلك من الصفات التي تقوده الى اجراء ما هو مخالف للطبيعة ، كالسرقة والتعدي والانتحار . ويأتي بعد هذه الطبقة اصحاب « الضعف العقلي » الذين هم أعلى درجة في سلم النمو العقلي ، ولكنهم انواع عديدة تنقسم على بعضها البعض بسمات خاصة ، وقد لا يتميزون بصفات تفرقهم فيمتزجون عندها ويصعب ادراك الفرق بينهم .

وهذا القسم الأخير هو المهم في نظر الاجتماع والقانون لان عددهم وافر ، وأغلبهم يعيشون بيننا ونعاملهم ونجالسهم في مقاعد الدرس ونشاركهم في الاعمال

ونختلط بهم دون حذر ولا انتباه الى أطوارهم وغرائب حركاتهم التي لا تتج
مناسبتها مع الهيئة الاجتماعية الا الضرر ، وتراهم في الذهنية دون المرتبة الطبيعية
كمية وكيفية ، واذا تقدموا في النمو وقفوا عند حد لا يتعدونه ، ويكون معدل
سيرهم بطيئاً ، فالولد الذي عمره / ١٢ / سنة يماثل ولداً عمره خمس سنوات ،
والرجل ابن الثلاثين يماثل الفتى المراهق ، وحيث أن المذهنية تأثراً كبيراً
في تكوين الشخص ، فضعفاء العقل لا يرجى منهم تقدم في المستقبل لانهم لا بد
ان يسقطوا في اخلاقهم ، وتغلب عليهم الحماقة وقلة الوجدان . واذا وجد منهم من
يتميز بين الحق والباطل ويشعر بلزوم توقيف اعماله الشريرة ، فان ضعفه لا يمكنه
من تنفيذ ارادته خلافا لاصحاب العقول السليمة ، ولا يكون لهم رقيب اخلاقي
يردعهم ويصدهم عن المنكر ، وكيف يتمكنون من نياله وقد فقدوا ارادتهم
وحاكيتهم وضعف فيهم نمو الافكار الادبية ، فلا يصغون الى صوت الضمير ولا
تستقر لهم شخصية معينة .

ولهذا يغدون فريسة الشهوات والمطامع والانفعالات وتزداد فيهم اعراض
الضعف خطراً في دائرة ذاتيتهم ، فتعظم انانيتهم ، وتكبر ذاتيتهم ، وتظهر
بصورة جديدة ، فيها المعجرفة والحقارة والكبرياء ، فلا يهتمون الا بها ولا يزعجهم
شيء او يحركهم غير انزعاجاتها التي تزيدهم ألماً واضطراباً فيتغالون في تعظيمها
وتجسيمها ووصفها وينقادون بسبب تغاليلهم الى وضعية مستحكمة من عدم التساهل .

وتولد فيهم اعراض الحرص والحسد وهي علل تابعة للانانية تسوقهم للمعاكسة
والمشاكسة والشك والريبة ويتبعها الكره والبغض فيغدون حقودين على الناس
مبغضين لاعرائهم واقربائهم واصدق الناس اليهم ، وقد تزول منهم الشفقة الأخوية
والحنان الانساني .

ومن ابرز الصفات المميزة لضعفاء العقل ، صفة انموذجية تسمى « الوهلية »
وهي حالة تحدث آتياً بغير اختيار خلافاً للحالة الطبيعية ، لأن الانسان قبل صدور
اعماله يحتاج الى عاملين : الاول « الرغبة » أو الميل نحو العمل ، والثاني « التعقل » .

فالاول يتطلب منك العمل ، والثاني يتطلب منك المحاكمة وأخذ الحذر والعدة ،
ولذا قد يمنع الرغبة اذا رأى لذلك لزوماً وهذا في الحالة الطبيعية ولكن في ضعف
العقل فلا يقدر وتنفذ الرغبة بلا تعقل مهما كانت صفتها وضررها .

وعليه يأتي الانسان بأعمال كيفية لا دخل للحكمة فيها . واذا حدث ولاحظ
ما يعتمد اجراءه وقدر فساد مراميه وعلم جناية عمله ، فليس لديه قوة تكفيه
في ملاحظته وتقديره للتغلب على ميوله الغريزية ، فيستسلم اليها بدون مقاومة ؛ واما
الدوافع المرضية لضعفاء العقل فمظاهرها غير الاعمال الجنائية ، تختلف مثل
ميولهم العديدة وافراطاتهم المتنوعة . وعليه نرى مما تقدم أن الاساسين اللذين
تركب منهما شخصية المرء « الذهنية والانفعالية » قد فقدوا توازنهما وهما موجودان
عادة في الفرد الطبيعي .

وحيث ان الاساس الثاني وهو التعقل قد ضعف ولم يبق له قوة الزجر والمنع
على الأول ، فالمصاب بالضعف يفقد قوة الجهاد ضد الشهوات ، وان وجد له تعقل
فيكون ضئيلاً ويكون كل عمل يأتيه مهياً لا اختيار له فيه .

وتنقسم انفعالية المريض العقلي الى قسمين :

« انفعالية ذات مبالغة هائلة » أو اعمال غير اختيارية أي دافعية وهلية
خطرة ، وغضب مفرط ، وبهيمية وحشية وعنف شديد .

و « انفعالية ذات حياد » أو ميل للانفراد والاعتزال فتجعله مستوحشاً وغير
اجتماعي . وقد تتبادل الصفتان مع بعضهما البعض ولكن تبقى الافعال الوهلية
في ناقص العقل دليلاً على فقد الحكمة على الفكر ، وضبط الانفعالات ، وتضمر
المراكز العقلية التي هي منابع الافكار وما يتعلق بها كما تضمر المراكز الدماغية
الظاهرة فيها .

ان ما قيل من الوصف والتوضيح حقيقة ثابتة وان تكن المبادئ الانسانية
التي اقترتها الثورة الفرنسية لم تقدر على قلع جذور الافكار القديمة السقيمة
المتعلقة بالمسؤولية الادبية من ادمغة المشرعين لتجعلها تنظر الى ضعف العقل
وما يأتيه من الاعمال بالعين التي تنظر بها التحريات الحديثة والتطورات البشرية

ولكن « بنغال » وتلامذته جاءوا بتطور جديد فقضوا على الافكار القديمة وهدموها بمعمل العلم واقنعوا البشر بأن الجينة هي مرض ، وان المجنون لايسأل عن عمله اذا ارتكب جنائية اثناء الجنون ، فتوسعت دائرة المسؤولية الضيقة، واقدم على ذلك علماء الجنائيات المنسويين لجماعة علماء الانسان « Anthiopoly » ، وعلماء تداوي العقل ، وفلاسفة علم العقل السليم ، وفلاسفة علم العقل المريض ، والحكام ، والعامّة المتنوّرة ، بان مريض العقل كما حدد آنفاً اذا ظهرت فيه نوبات مطردة بتأثير الدوافع المرضية ، فلا ينظر اليه بأنه مسؤول تماماً عن تمايلاته وأعماله الجنائية ، ولذلك يجب وضعه في محل يعتني بتداويه الطبي والعقلي ، عوضاً عن وضعه في غياهب السجون انقاداً للمجتمع البشري من شره وضرره .

واما ضعفاء العقل الذين تقدّم وصفهم ، وتبين ان فيهم درجة معينة من الانحطاط العقلي ونقصاً ملازماً للقوة الوازنة ، وان مجموع حياتهم مركب من حوادث غريزية الطبع ، يملك السوق الطبيعي اعمالها ، وان ما يأتونه من الحركات والاعمال ، ناتج عن فعل عقلية سائتها ليس تحت حكم المراكز الذهنية المدبرة عادة لافعالنا ، بل هي تحت حكم المراكز المحركة ، التي هي من شأن الحيوانات .

ولذا ليس لهم ارادة واختيار ، بل ان كل اعمالهم اندفاعية (وهلية) ، ونتيجة لماطفة هوجاء ، ولذا ينفذونها دون زاجر او وازع يوجد في الحالة السليمة . وعليه فالمسؤولية لا تقع عليهم ، ولا تزال مدار بحث العلماء وموضع اختلافاتهم .

ماهي آراء الطب في مسؤولية مريض العقل ؟

كانت الهيئة الاجتماعية فيما مضى ، تعتبر الجنائية عملاً يستحق القصاص بقطع النظر عن بقية الاعتبارات ، وكانت تقول بلزوم مقاصصة الجاني مهما تكن حالة عقله .

ثم جاء الرومان فميزوا بين صاحب العقل السليم وصاحب العقل غير السليم ،

ولكن صعب عليهم تعيين الشرط الذي يبطل الشخص ان يكون سليم العقل ، لأن سوء الظن وانواع الغلطات والتميزات الدينية والسياسية ، تتداخل كلها في فهم الحقيقة لأفمال العقل ودوافعها عند تعيين الشرط وإثبات سلامة العقل وعدمها .

وفوق هذا ان اصحاب الدوافع المرضية ، قد ينتهون تماماً لعدم مشروعية العمل ، ويتحققون من انفسهم ان القتل والاعتداء والخداع والاحراق وما شابهها غير قانوني يستحقون العقاب على ارتكابها ، وانهم بما يأتونه من المنكر تحطئون ادبياً واخلاقياً .

ومع كل هذا ، لا يمكن اعتبار مريض العقل مسؤولاً تماماً عن عمله لانحطاط عقليته . وتؤيد هذا الرأي الأدلة الكثيرة الموجودة في كتب الطب الشرعي ، ولكن بعض الحكم لازال معرضاً عن قبول المبادئ الفنية والتعاليم الانسانية التي وضعها علماء الانثروبولوجيا وعلماء تداوي العقل وعلماء الفلسفة العقلية ويصرون على تطبيق القصاص لأنه أفنى للقتل ، وينصح بعضهم بلزوم تعديل الانفعالات وتهذيبها وتعليم كيفية ادارتها وهي نصيحة حسنة لو أمكن تحقيقها ، ولكن من اين لنا أن نجد دماغاً خالياً من الوراثة والخصال المكتسبة ؟

وهل من السهل تقويم ظهر قد اعوج وأصبح متصلباً ؟ كلا ! لايسهل تصحيحه . ولذا لايسهل على مريض ناقص العقل احكام اعماله العقلية اذا كان دماغه مختلاً ، أو اصاب بأفة تشريحية وفسيولوجية ، وعليه لايسأل عن عمله لان دوافعه العقلية مريضة « وليس على المريض من حرج » .

مسؤولية مريض العقل في فترة الصحو

ولعل الانسان يتساءل : ماهي درجة مسؤولية هذا المريض في فترة الصحو ؟

ان الحكم « الزور يست » اي الخلفين وعلماء الجنايات القداماء يقرّرون بقسم من المسؤولية لاعتقادهم أن الدماغ غير الطبيعي ليس مجنوناً ، ولهذا يملك ارادة لكنها غير طبيعية ، وله ادراك يميّز بين الحق والباطل لكنه ناقص .

وعليه يطلبون من القانون انزال جزاء العقاب به .

وجماعة علماء النفس أصحاب النظريات الحديثة التي « ماغنام » العالم الافرنسي مؤسسها ومعلمي مجدها وتلامذته معه يبنون آراءهم على اعتبار آخر بعلم الجنائيات وعلم الانحطاط العقلي ويشاركهم بذلك علماء ايطاليا أمثال « لومبروسو » و « دوزي » و « غاروفانو » ثم « بروقه » العالم الافرنسي وزملائه « مانوفري » و « لافاسان » وغيرهم فيدعون أن الجاني يكون تحت تأثير عاملين : الاول « داخلي » وهو ذاتي ، والثاني « خارجي » وهو اجتماعي .

فلا قيمة لثنية المسؤولية في مريض العقل . واما مسؤوليته الشخصية فهي ثابتة في جميع ادوار حياته ، وعذرها في ذلك الوراثة والدوافع المرضية التي يخلو منها سليم العقل .

فالنتيجة التي ينتهي بها البحث ، أن الطبيب الشرعي الاختصاصي اذا دعي لاعطاء رأيه الفني في جناية جرت بتأثير غير قابل الرد ، فعليه أن ينظر للجناية والجاني ويدرس القضية من جميع وجوها ، فمن جهة الجاني عليه أن يمين هل هو مجنون أو مريض العقل أو ناقص الذهن أصيب باستحواذ ، وهل له من دوافع مرضية ؟

ومن جهة الجناية عليه أن يعرف هل كانت بلا دافع مرضي ورافقتها سلامة الوجدان أو تقدمها نزاع عقلي وأدبي ؟ فان كانت كما ذكر فهي حدثت بسبب الاستحواذ حيث لا تكون طريقة التفكير والشعور والعمل واضحة ويجب أن يعلم بان الجينة اذا حدثت يصعب عليه فهمها في أول دور الاصابة كما في الصرعة وبين الثوبات العصبية عندما يكون المصاب لدرجة ما واعياً ، ولا تقل الصعوبة ذاتها « في البرانويا » اذا اخفى المريض خيالاته جهارة .

فعليه في مثل هذه الاحوال أن يحتاط ويتحرى كثيراً كل ما يمكن خاصة تاريخ حياة الشخص بوقائمه وحياة عائلته وتاريخها ويسأل في فترات متعددة ولا يحكم فوراً ويجب أن لا يكون دوره في المسألة عبارة عن اعطاء علائم شخصية

تؤديها تجارب خاصة، بل يجب عليه اظهار الأدلة التي تفهمها العامة .

ولهذا من الضروري تحويل مسألة تعيين درجة المسؤولية وعدمها لمتخصص في علم مداواة العقل لانه وحده قادر على تشخيص أول أدوار الجنة وتعيين درجة حاكمية العقل عند وقوعها ثم تعيين القوة المانعة « أي الوازع الادبي » في اصحاب القبائح الذين تظهر عليهم دلائل الحطة .

ومن هذا يظهر أن مفهوم الطبابة في الجينة يختلف عن مفهوم القانون لها ، فالقانون عنده أن الرجل اذا كان مصاباً بهذيان معين يمكنه أن يعقل بكل شيء الا عندما يمسسه الفكر الهذلي ويستولي عليه .

ولذلك يدعي بعض الحكام المحلفين « الزورست » لزوم اعتبار الرجل سليم العقل أو عاقلاً بعد العمل وقبله ، ولكن غير سليم العقل عند وقوع الجنابة ويخالفهم بذلك علماء الطب الذين يمترضون على مدعاهم ويعتبرونه غير في لان الافكار اذا كانت وهمية وحاصلة من الدماغ فوظيفة اجزائه لا بد أن تحتل ويحصل منها وهم معين يبق راسخاً فيجب اعتبار العقل مريضاً وان سوء الفهم والمفهومية قابلتا الحصول في كل آن .

فالشخص المصاب بهذا المرض لا يعد اذا مسؤولاً امام القانون عن جريمته سواء كان قبل العمل أو بعده ، ولا يخفى أن وجدان الشخص اذا كان ناقص النمو وكانت ارادته مفقودة وقواه للعمل والملاحظة باطناً ضعيفة وعاجزة عن التغلب على ميوله الغريزية .

وكانت هذه المظاهر تدل على نقص عقليته التي تشكل جزءاً تاماً من تشكله الطبيعي . فمسألة تعيين درجة المسؤولية تصبح سهلة لا تحتاج لقوة خاصة ونفوذ بصيرة خارقة ، اذ نعلم أن هذا الشخص وامثاله من المصابين المنحطين عقلاً وان ادركوا الحق من الباطل فادراكهم ضعيف ومنحط لا يكفي للتمييز بينهما ، وهم وان عرفوا عدم مشروعية العمل وكونه منتجاً للعقوبة القانونية فذهنيتهم القاصرة المشوهة لا تدرك القيمة الاساسية الاجتماعية للعمل غير القانوني فاذاً مسؤوليتهم

يجب أن تحدد ولا تطلق اذ كيف يمكن اجراء الفحص القانوني لمعرفة فيما اذا كانوا يميزون بين الحق والباطل أم لا ؟

والخلاصة ان علم القوانين الجنائية وعلم الطب الشرعي ، كلاهما علمان متباينان ، ولكن يجب أن يكون بينهما علم الجنائيات الايجابي Positive - Criminology همزة صلة حيث اتحادهما ضروري للتقدم فاذا كانت غاية علم الجنائيات المثبت وضع القوانين المثبتة للجناة وايجاد علاجات لهم فعليه أن يمد يده للقانون الشرعي والطب فيأخذ الحق المفيد منهما ويضع اساساته الفنية لتدارك الغاية من وجوده .

وباتحاد علماء هذه العلوم ومباحثهم تسقط الحدود القديمة للحرية البشرية والمسؤولية القانونية، ويتقدم البشر في معرفتهم الحديثة العائدة لأعمال العقل غير الطبيعية والطبيعية التي تساعد الحكام على اجتناب الخطأ اثناء الحكم وتطبيق العدل . ولهذا كله يجب التمييز عند درس الجنائيات بين الظروف التي جرت فيها والطبائع الموجودة في عقل الجاني لنصل الى النتيجة الصحيحة .

ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن المدركات القانونية للمسؤولية لا تنفق مع مبادئ الفن ولا تقي بضروريات الحياة ، ويجب ان يدعى طبيب مداواة العقل والاختصاصي بعلم البيداغوجيا لفحص الجاني ، وترك الحكم عليه للطبيب والحاكم، ويجب ان نعهد بادارة المعاهد الخاصة بتصحيح اعوجاج الجناة الى طبيب مداواة العقل والاختصاصي بعلم البيداغوجيا .

وانه يجب ابدال الحكم القديم ، الذي كان يحكم به على الجناة ناقصي العقل ، بوسائط مانعة تشكل قسماً من الهياجين الاجتماعي ، لأن الحكم خلاف ذلك مهما يكن ، هو حكم غير عادل . والغاية من القضاء اراحة الوجدان البشري من ظلم كان يلحق ولا يزال يلحق ببعض الجناة ضعفاء العقل ، الذين أهملت الهيئة الاجتماعية والحكومة معاً امر تدابيرهم ، فتناولهم القضاء ليقاصصهم وهم مرضي (والمريض لا خرج عليه) .

والحديث يقول : [ادروا الحدود بالشبهات] ، اذ قد يكون الجاني معتلاً في عقله ، وفي حاجة للتداوي في المشافي الخاصة مهما امتد الزمن .

ما يجب أن نعرفه عن الاجرام والمجرمين

في مقال سابق لي ، بحثتُ عن الدوافع المرضية ونتائجها على الاجرام والمجرمين من الوجهة الطبية ، والسيكولوجية ، والقضائية .

وفي هذا المقال ، سألخص ما كتبه المستر « موزني »^(١) عما يجب ان نعرفه عن الاجرام والمجرمين ، لأن البحث متمم لما تقدم ، يبحث عن الدوافع الطبيعية ، والدوافع الاجتماعية ، والدوافع الشخصية . وهو يحدد ذاته من المواضيع الهامة التي يجب بحثها بتفصيل ليحيط المواطنون بها ، ويعلموا ان المدنية كلما تقدمت تبدلت وجهات النظر فيما يلزمها ويلزم الهيئة الاجتماعية من عوامل الضعف ، والهدم ، والانحلال .

وان على الامة حكومة ، وشعباً ، ومدارس ، وصحافة ، وعلماء اصلاح ، اتخاذ ما يجب اتخاذه من الاسباب والوسائل ، للوقاية من الاجرام والمجرمين ، ودرء اخطارهما حتى تدوم الحياة ويدوم نشاطها ويستمر رقي الانسان وتقدم الحضارة .

وبرأ بذلك انشر المؤثرات الطبيعية والاجتماعية والشخصية بالتتالي ، ثم ابين الادواء التي اقترحها المستر « موزني » ليعلم الجميع بعدما احاطوا بالاسباب ، ان صعوبة الحصول على المعالجة والشفاء ، لا يمكن زوالها الا بالبحث العميق المتزن الذي يتناول الحياة العامة ، لا من ناحية واحدة ، بل من نواحي اخرى ، اخصها بحث الاجرام ، من حيث انه عمل نهت عنه الشرائع والقوانين ، وامرت بالامتناع عن ارتكابه محافظة على النظام الاجتماعي وسلامة افراده ، ومن حيث

(١) الأستاذ موزني ، عضو نقابة المحامين في امريكا ، ونائب عام ولاية ميسوري ، وعضو في معهد قانون الجرائم وعلم الجنائيات ، ومؤلف كتاب « العقوبة الاساسية » وكتاب « المجرمون الأحداث » وكتاب « داء المسكرات والجريمة » .

انه الفعل العمدي او الترك العمدي الذي يعاقب عليه القانون ، او انه الاخلال بالواجبات التي يفرضها القانون لاجل سلامة النظام الاجتماعي ، ومن حيث عناصره الثلاثة : المادية ، والروحية ، والقضائية ، ومن حيث تقسيماته حسب حساسيته بالنسبة الى كونه : جنحة او جناية ، او حسب ركنه القانوني الى : مقصود وغير مقصود ، او حسب نوعه المادي الى : ايجابي وسليبي ، ومادي وغير مادي ، او اجرام بسيط ومعتاد ، ووقتي او مستمر ومتتابع ، ومن حيث انه مشهود او غير مشهود ، ومن حيث الموضوع بأنه اجرام ضد المصلحة العامة او اجرام ضد الافراد ، او جرم سياسي او عادي ، الى غير ما هنالك من تقسيمات وتصنيفات واوصاف وتعريفات عالجتها كتب الجزاء وقوانينه ، وعالجها علماء الجزاء بأبحاثهم ومناقشاتهم وعالجوا ما يتعلق بها جميعاً ، من تحقيقات وتقارير وعقوبات ، ثم من حيث العوامل ذاتها التي قد تكون شخصية ، وقد تكون اجتماعية حتى اذا عرفناها وعرفنا مواطن الداء ، وعرفنا الاغراض والادوار ، امكننا التشخيص ووصف الدواء ، وقمنا بالواجب ، اما عن طريق الوقاية او عن طريق المعالجة الشافية ، او عن طريق تخفيف الضرر ، وهذا غاية ما نرجوه في هذا الزمن ، زمن الوعي وعهد العلم والعمل ، وعصر الصراحة والحق وتحسين المجتمع وصيانة الحضارة .

المؤثرات الطبيعية للاجرام (١) والمجرمين

يقول علماء الاجرام : ان في الكون مؤثرات طبيعية لا يستطيع الباحث انكارها ، تؤثر قليلاً او كثيراً في الحالات النفسية ، والذهنية ، والبدنية ، « كالمواسم الاربعة ، والمواقع الجغرافية ، واختلاف الاقاليم ، وشدة الحرارة والبرودة » ، ويقولون ان المخالفات تكثر بتأثيرها ، والجنح والجنايات تقل او تزداد تبعاً لها .

الأجرام : مصدر مشتق من جرم يجرم ، جرماً وجراماً ، وجراماً فهو جارم ، وقوم جرم وجرام اي اصحاب جناية . جرمه : نسب اليه الجرم ، اجرم على قومه : جنى جناية ، احترم الرجل اي اذنب ، والجارم بمعنى الجاني ، والجرم هو الذنب ، والجريمة هي الذنب والمجرم مرتكب الجرم .

ويؤيدون مدعاهم بالأحصاءات التي اثبتوها، والوقائع التي سجلوها، والمشاهدات التي استقرأوها .

ويشاركهم في مدعاهم علماء الاجتماع وعلماء الانسان، ويذكرون للتدليل على تأثير الأقاليم، مشاهداتهم بأن القزامة اي صغر الجسم، قد اختفت من بعض مناطق اوروبا بعد ما تفجرت اراضي تلك المناطق وذهبت رطوبتها وصلح هواؤها وطابت الحياة فيها.

ويقولون ان « كومب » لاحظ أن الاطفال الذين ولدوا ايام الصيف يغلب عليهم طول القامة اكثر من الاطفال الذين ولدوا ايام الشتاء .

وادعى « كسبار » في كتابه « علم النفس » وكان مؤمناً بما يقول، ان احوال الجو التي تؤثر في انفعالات الانسان وتزيد في نشاطه وتكسبه المرح والفرح، تسوق الأطفال الى الافراط في السلوك، وان الأحوال التي تحد من نشاطهم وفعاليتهم وتسبب لهم الكآبة والركود، تسوقهم الى عكس ذلك .

وينتقد الدكتور « ستانلي » القول بتأثيرات الأقاليم في سلوك الانسان وتصرفاته، ويزعم أنها لم تدرس درساً كافياً، ولا يمكن تفريقها عن بقية المؤثرات الخارجية كالحرارة، والبرودة، والبطالة .

ويقول : ان البرودة تتطلب من طبعها الحركة للحصول على الحرارة الكافية، وتتطلب التغذية الكثير، وتهيئة المواد الغذائية بكميات وافرة، ولذا كان لها التأثير العظيم في توجيه الحياة وتكييف اسلوبها .

واما الحرارة وشدها، ففي المناطق الحارة ولا شك، تقدم زمن البلوغ في الذكور والاناث، وتعمل في تكامل نمو الجسم قبل غيره من الاجسام التي تعيش في المناطق الباردة .

وهو لا يشك بأن الطبيعة في المناطق المعتدلة، تساعد على نمو الانسان وتمكنه من الوصول الى اكمل حد . ولكن هنالك درجات من الحرارة اذا تجاوزها،

تأخر نموه وتقهقر .

وقد ثبت هذا لدى علماء الحيوان ، بعد ان قاموا بتجاربههم المثمرة .

وكان مما لاحظ « مكدولان » ان بعض الحيوانات من النوع الواحد ما يقاربه ، تزداد شراسة في المناطق الحارة ، وتقل شراستها في المناطق الباردة والمعتدلة . خذ السباع التي تعيش في جبال الاطلس ، تجدها مرعبة ورهيبة اكثر من السباع التي تعيش في السهول .

ثم ان الماشية عندما تقترب العاصفة تصاب بحال جنوني فتهاجم الاشخاص ، وتفتح الغابات والاشجار ، وتختبئ حتى يزول العاصفة ويهطل المطر ، وبعدها تعود الى هدوءها .

وبين الدكتور « بوكل » في كتابه « تاريخ المدينة » تأثير الظواهر الكونية في الأمم بصراحة واضحة ، وقابل ذلك بالخطط الأمم التي تعيش في مناطق غير صالحة للحياة ، وبتقدم الاقوام التي تعيش في مناطق صالحة .

ومما حققه علماء الجنائيات ان حوادث الاجرام تبلغ في شهر حزيران « ٦٤٩٠ » وتزداد نسبتها الى « ٨٠١٤ » في شهر تشرين الاول « اكتوبر » ، ثم تتناقص في شهر تشرين الثاني « نوفمبر » و كانون الاول « ديسمبر » و كانون الثاني « زانوري » .

ومن حيث نوعها ، تكون الحوادث الاجرامية الواقعة في ذلك الحين ، من نوع الاعتداء على الملك ، والاموال اكثر من غيرها .

ويقل الاعتداء على العرض في أيام البرد لحول الغريزة الجنسية .

وعندما يأتي الربيع والخريف ، يرتفع ميزان وقوعاتها كما ترتفع نسبة الاعتداء على المال والملك ، حتى أيام الصيف .

وفي شهر كانون الاول ، وشهور الحر ، تكثر نسبة حوادث الانتحار .

وتقول الاحصاءات : ان وقوعات القتل في المناطق الحارة ، تزيد عن الوقوعات

في المناطق الباردة التي تكثر فيها التعديات على الملك .

وما يقع في ايطاليا واسبانيا من حوادث القتل ، تؤيده الاحصاءات الواردة عن المناطق الشمالية من اوروبا « اسكوتلانده ، وهولانده ، وانكلترة » .

وبين الامتاذ « انريك فاري » ان اكثر الحوادث في فرنسا تقع في موسم الصيف ، وحوادث التمدي على الاموال والملك تقع في موسم الشتاء .

وقال الدكتور « ليدستان » عند بحثه عن الامراض الاجتماعية وانحطاطها : « ان الطقس له تأثير خاص في عوامل الاجرام وزيادة الوقوعات ، وان اصحاب الامراض العصبية ، كلما تغير الطقس يعانون صعوبات زائدة في اوضاعهم وتكيف حالاتهم . ولذا تفعل شدة الحرارة ايام الاشهر الحارة في اعصابهم لعدم توازنهم العقلي ما تفعله المشروبات المسكرة التي تزيد في حساسيتهم وتهجمهم . ثم يتبدل حالهم ايام البرد بمكس ما كانوا عليه تماماً ، اذ تهدأ اعصابهم وتقل جرائمهم » .

اما في ايام الربيع فتتحرك الشهوة الجنسية ، او يندفع الانسان بفرائزه المتهيجة الى اشباع رغباته فيسطو على البنات ويزيل بكارتهن بطريقة غير شرعية ويفدي نفسه بالمشنقة ، او تقتبئه فيه القريحة فينشد اغانيه او ينظم اشعاره تهدئة لمواظفه المكبوتة .

وهذا ما جعل الشعراء يتغنون بحاسن الربيع ويمدونه بسمه الطبيعة وصحتها بعد رقدها . واستدلوا من خضرة المروج وتفتح الازهار وتورق الاشجار وانتشار العبير الزكي ، وهبوب النسيم ، على عودة الحياة الى الاحياء ، بعد ان كانت خامدة ايام الشتاء .

ولم يقتصر تأثير الربيع على تهيج الفعالية الجنسية ، بل انه يهيج الاعصاب فتندفع الى ارتكاب الجرائم كالقتل والانتحار .

ويقول الجنائيون من علماء اميركا في احصاءاتهم ، ان اكثر وقوع الجرائم يحدث في المناطق الجنوبية من بلادهم لانها حارة ، وان اكثر ما يقع منها ايام

الصيف يكون من نوع التعدي على العرض والقتل والنهب، اما في الشتاء اي ماين كانون الثاني وشباط فتقل جداً.

وقد صدق « يرون » حينما قال : (من ولد في اقليم بارد كان دمه بارداً) .
فالأسكيمو وهم من سكان المناطق الشمالية الجامدة لا توجد في لغتهم كلمة تفيد القتل والقتال . ولاخط « غيوت » في تاريخه فصل ٦٥ ان قبائل « الروسك » من سكان المناطق الشمالية الجامدة مجهولون الحرب ولا يعرفون دم الانسان . فما اسعدهم في جهالتهم ما دامت الفضيلة وسلامة العقل تحافظهم !!
ولكن هل عقلهم وفضائلهم هي سبب السلم بينهم ؟ انه يعتقد بأن درجة البرودة هي المؤثر الأول .

ولذا لا يمدح سلامة قلبهم وعدم خطورتهم ، ولا يلوم سكان ايطاليا والمناطق الحارة على استعمال الخناحر في كل مناسبة . لأن كل فرد منهم محكوم لدرجة ما بعامل الكون لا بعامل الوعي والارادة .

وبينا علماء الاجرام ينسبون الميل وعدم الميل للأنتحار الى الشخصية ، فأنهم لا ينكرون تأثير الطبيعة في اخلاق الشخص ، كما انهم لا ينكرون تأثير الأسباب الحياتية .

ومما برهنت عليه وقائع التاريخ بعد مرور ثلاثة اجيال ان شعب « الفاندل » الذي هاجر الى شمالي افريقيا تحول من شعب شرس وصعب المراس الى شعب لطيف ومرفه الحس .

ومع هذا فالقرطاجينيون لم يكونوا شعباً مخشاً وهم من شمالي افريقيا بل غلبوا الرومان بقيادة « هانيبال » . و « مايروس » الذي نشأ في ذات الاقليم وغزا بلاد العجم واسقط مملكتهم . والرومان الذين عاشوا تحت سماء روما وفي اقليم ايطاليا وكونوا اعظم امبراطورية سقطوا بعد حين هم وبلادهم بأيدي الاقوام البربرية والسماء لم تتغير والأرض لم تتبدل .

والذي يدوا لنا من هذا ، ان الأسباب الاقليمية لا ينكر تأثيرها .

ولكن لن نفعل مؤثراتها الا بدافع عوامل أخرى اجتماعية ، وشخصية . ولا يمكن تعليل كثرة الاجرام او قلتها بها وحدها .

ومن المعلوم ان الانسان ليستطيع الحياة في محيط جبلي او سهلي تتراوح حرارته بين الـ ٩٠° والـ ٩٥° درجة بدون ان يتأثر جهازه العصبي من الحرارة ، ولكن عندما يعيش في وسط مدينة مزدحمة تبلغ نفوسها الأربعة ملايين شخصاً فان ذات الدرجة من الحرارة تغدوا خطراً على حياته وكيانه العصبي .

وقد ثبت ما قلناه من حقيقة تكاثر الانتحار والقتل في شهور حزيران وتموز وآب في المدن الكبيرة ، كمدينة نيويورك التي يزيد سكانها عن ثمانية ملايين شخصاً فان حوادث الانتحار تكثرت فيها بنسبة ١٥٠ حادثة لكل مليون من سكانها . وما السبب الا تكاثف المحيط بالسكان واشتداد الحرارة ايام الصيف مضافاً اليهما عوامل اجتماعية اخرى .

واذا كانت العوامل الاجتماعية ومضارها مما يضغط على الارادة ، او على سلوك الشخص عند ضعف النفس ، وذلك في المدن الكبيرة ، فان موسم الاجرام قد يهب احياناً كمعاصفة تجتاح المجتمع نتيجة للعوامل المذكورة التي لولاها لما اصاب احد بالتعمدي الاجرامي .

لأن الانسان في الحالات الطبيعية ، وفي صحة عقله ، وسلامة قواه وخلوه من الضغط الخارجي والداخلي لا يميل الى ارتكاب الجريمة .

قال الدكتور « بوه رهوف » في وصية تركها لمن يريد ان يحافظ على سلامته (احفظ رأسك بارداً لأن برودة الرأس ضمن لعدم الوقوع في الخطأ والاجرام) .

ومما يذكر عن المؤثرات الطبيعية - (الماء ، والتراب ، والهواء ، والنور ، والحرارة ، والوضع الجغرافي للأمكنة) - ان هذه العوامل وان اثرت على نظرة الانسان ، فان تأثيراتها عن طريق الغذاء ، وطبيعة العمل اثبتت من تأثيرها في

سلوك الانسان وميله لارتكاب الجرائم . ومع ذلك لا يستطيع احد انكار تأثيراتها
بتاتاً اذا دققنا معها بقية العوامل . كما لا يستطيع الاعتراف بأنها لوحدها المؤثر
الفعال الحاكم على نتائج حياة الانسان . ولو صح المدعي لبقى سكان المانيا على ما
كانوا عليه قبل مئات السنين كالوحوش المفترسة او القبائل المتوحشة ، ولم
يمروا بجميع الأدوار التي مدنهم واوصلتهم الى ما هم عليه الآن من التقدم والرفي
والحضارة ! مع ان اقليمهم لم يتبدل وطبيعتهم بلادهم لم تتغير .

وما يقال عنهم يقال عن البابليين سكان ما بين النهرين وعن العرب سكان
الجزيرة فان تربتهم لم يتبدل ، وهوائهم لم يتغير ، وحرارتهم لم تتحول عما كانت
عليه الآف السنين ، ولكن عندما وضع « حموراني » شريعته كانت الفضائل
والرزائل المنتشرة في تلك الاصقاع قد تبدلت كثيراً ، وعندما ثار الرسول
محمد صلى الله عليه وسلم بثورته المشهورة ووضع شريعته الغراء ودعى قومه للهداية
تبدل العرب عما كانوا عليه واوجدوا حضارة فاقت اكثر الحضارات القديمة
سعة وانتشاراً .

والتاريخ يقص علينا امثلة عديدة عن الالم السالفة وكلها تقلل من التأثيرات
الكونية واهميتها وفعلها في نمو الالم وانتشار الجرائم اذا لم تضاف اليها
العوامل الاخرى .

على ان العقل وان لم يجد تعليلاً قاطعاً لعدم نزاهة الانسان ايام البرد بدلاً
عن الحر ؛ وفي المناطق الباردة بدلاً عن المناطق الحارة ، فان الوقوعات الاجرامية
تشير الى وجود هذه الحقيقة ، ويعزى السبب لسهولة المعيشة ايام الحر ، وصعوبتها
ايام البرد ، وكونها في المناطق الحارة يسهل الحصول على الغذاء والمعيشة ، وفي
الباردة يصعب الحصول عليها .

ويظهر من جهة ثانية ان جرائم السرقة تحدث بين الشعوب الرحل التي
لا وطن لها في بقعة من بقاع الارض . وليس لأفرادها حرفة حرة يكسبون
بواسطتها غير السطو والاعتداء على الأموال وسلبها من اصحابها ؛ كما هو المشاهد
في اعالي بلاد اسكوتلانده الجرداء ، فان سكانها اشتهروا فيما مضى بالسرقات اذا

لم يجدوا باباً آخر يعيشون من ورائه .

وسكان « اسكاندينافيا » لولا هذا العامل لما غزوا سواحل بريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر وبقوا يمارسون الغزو مدة قرن لأنهم لم يتعودوا الكسب الكسب الحلال لتأمين حياتهم . ولكن عندما وصلتهم المدنية وتعلموا وعرفوا طرق العمل والعيش تخلوا عن الغزو ، وأنشأوا مدنهم ومدنيتهم وصناعاتهم واليوم يعيشون في ارقى حال بين الأمم الراقية .

ويدعي « لامبروزو » ان عشرين في المائة من الجرائم التي ترتكب ضد الاشخاص خلال نصف قرن كانت تقع في السهول : و ٣٣ في المائة كانت تقع في الجبال ، وما تبقى فقد حدث في الأتالي من الجبال . واستدل من هذا على قساوة الحياة وصعوبتها في الجبال وضرورة العمل في البقاع مع انها جرداء .

٢ - العوامل الاجتماعية :

تبين مما تقدم ان العوامل الطبيعية لا يمكن ان تفسّر وحدها اسباب الجرائم ، فلا بدّ اذن من النظر في المؤثرات الاخرى التي تحيط بالانسان وتكون بيئته . كالعوامل الاجتماعية المرضية .

تقول المدرسة الفرنسية ان الاسباب الاجتماعية هي الجديرة بالدرس الواقى والمعالجة الشافية ، لأن معظم ما يصيب المدنية من انحطاط وانحلال يعود الى سوء الاوضاع الاجتماعية .

ويدعى « فيراي » بأن العوامل الاجتماعية ، وان تكن ذات تأثير فيما ذكر لكنها ليست شاملة . وفي نظره ان الاشخاص المرضى والمنحطين يمدون سبباً في أمراض المجتمع (راجع الدوافع المرضية لارتكاب الجرائم) . ولكن الانظمة الاجتماعية والعادات التي تقيد الانسان تؤثر فيهم اكثر ، اذ هي التي تهى مرض الانحطاط الخلقي « وسوء السلوك » وتدفع المصابين بها للأجرام بصورة اشد تأثيراً .

ولذا يجب ان لا يغيب عن اذهان المصلحين والمشرعين امر هذه العلاقة المتبادلة بين الافراد والمؤسسات الاجتماعية ، حتى لا يضع الجهد عبثا في فهم الحقيقة وتعيين الدواء . ومما لا شك فيه ان النمو الاجتماعي دائم التحول والانشاء حسب وظائف المجتمع المتنوعة والمتبدلة . وكما يتحول النمو فان العوامل المرضية من طبيعتها ان تتحول وتزول كلما ارتقت افكار الاشخاص والجماعات وتهذب مشاعرهم وتمدنت تصرفاتهم السلوكية .

ولا يخفى ان تأثير العوامل الاجتماعية على حياة الشخص امر معقد ومتعدد ، ويستحيل تحليل تلك العوامل تحليلاً دقيقاً وتعيين ماهياتها ولكن تسهيلاً للمعرفة يمكن تقسيمها الى عوامل سياسية ، وعوامل اخلاقية ، وعوامل اقتصادية .

٣ - العوامل السياسية :

تنقسم العوامل السياسية الى (قلة الاهتمام ، والاختناق المدني) . ومعنى ذلك ان الصنوف الطيبة من المجتمع الانساني ، عندما يهمل الكثيرون من افرادها واجباتهم المدنية ، او يقل اهتمام ارباب العقول الراجحة منهم بالحياة العامة ، او يهملوا عنايتهم بتحسين الحالة التي تبثلى بها البيئة الاجتماعية ، ولا يكثرثون للحالات التي يجب ان تنال من دراستهم واهتمامهم بها ، تقوم أفراد من الصنوف المنحطة وتضع يدها على المرافق العامة من دوائر الدولة ، ويتصرفوا بها لتعظيم اشخاصهم ورفع انفسهم على اكتاف الشعب ، فتضيع حرمة القانون ، ويقل اعتبار السلطات ، ويمسى الناس مرؤوسيههم ويخالفون ما يتوجب عليهم عمله ، ولا تنفذ القوانين الموضوعة لصالح المجتمع ولا يبقى لها من تأثير نافع .

وقد لا يقف الضرر عند هذا الحد بل تنحدر معه الاوصال القدرة من ذات الينبوع وتأتي رزائل تسمم الآراء ، كالقول بضبط الاموال ، ومصادرة مالى الاغنياء من ثروة ، واعتبار الغنى جريمة . ثم لماذا يسان حق المالك

وثروته ، بل يجب ان ينال القوي ما يستطيع اخذه ويحتفظ من يستطيع المقاومة بما عنده .

وهي ولا شك شريعة القوي والضعيف ، عندما كان الانسان ابن الهمجية والفبات . وشريعة الفوضويين « النهليست » او « الانارشيست » الناقمين على البشرية ، والهادمين لكيان المجتمع وبنائه القائم .

ولو صحت شريعتهم هذه ، فالامة التي تدين بها لا ترى ضرورة للفضيلة ، ولا للدفاع عنها وصيانتها خاصة ، بل تجد ان الرزائل أولى وأهم ما يجب ان يحل محلها .

ومن الدواعي السياسية للجرام : سوء الادارة ، وضعف القوانين الجزائية ضد الاجرام ، وهزل المحاكم ، وفساد الضابطة الاخلاقية ، وتهاون القوة الاجرائية .

ويرى العلم ان رجال الحكم اذا كانوا ضمافاً في كفاءاتهم ، وفي اداراتهم ، وفي أعمالهم ، او غير منزهين ولا مجردين عن التحيز والارتكاب ، أجزموا الى الامة اكثر من المجرمين وجرائمهم .

ويشترك معهم في الجريمة ، الموظفون الذين يسيطرون على التحقيقات والضبوط بحق من لا يستحقون العقاب ، فيقررون لهم العقوبات الصارمة لاول مرة ، ولجلهم نفسية الناس ، ولا ارتكابهم عمداً او جهداً بعض الاخطاء ، وسوقهم المتهمين الى المحاكم ليحاكموا ويعاقبوا بأشد العقوبات الجزائية ، يعملون هؤلاء المدنيين ، مجرمين فعلاً ، وأعداءً للهيئة الاجتماعية ، التي لم تنصفهم ، ولم تعدل بينهم .

والحقيقة ، ان الشباب المتهورين ، والمندفعين لارتكاب الخطأ دون تعمد ، لو عوملوا في أول امرهم معاملة حكيمة ، مصحوبة باللين ، وحسن التوجيه ، والاسلوب النفساني في الوقت اللازم ، لنجا اكثرهم من مخالفاتهم ، واتبعوا الطريق المستقيم في حياتهم وأعمالهم وعلاقاتهم .

ولعل من يدرس سجل المساجين ، واعترافات الجانين ، يتحقق عنده صحة

ما قلناه آنفاً ، ويقتنع بأن بواعث الاجرام قد تكون الاحكام الجائرة ، والتحقيقات الخاطئة ، والمسؤولون السيئون خلقاً وأخلاقاً .

وكذلك الاحداث ، عندما يسجنون بصورة لا تتفق وسنهم ، وذهنيهم ، ونفسيهم ، ويعاملون معاملة الجناة ومرضى العقول ، يموت فيهم الامل ، ويزول من قلوبهم الاعتقاد بعدالة القانون ، وحكمة القضاة ، وشفقة المجتمع .

٤ - البواعث الأخلاقية :

ومن بواعث الاجرام : سوء حالة الضابطة الاخلاقية ، ورجال التحري والتعقيب الذين يتصلون بالجرمين و يقيمون العلاقات بينهما . وفي بعض الحالات يصاحبون بعضهم بعضاً ، ويشتركون كأعوان في كشف الجرائم والجنايات التي يرتكبها غيرهم ، ويشترطون للتعاون معهم - أي مع رجال الضابطة - شروطاً غير قانونية ، منها : أن لا تتسهم الشرطة بسوء من جراء تحرياتهم ، ومعرفتهم ، وما لهم من اختبارات يقومون بها لاكتشاف المرتكبين المطلوبين ، فيصبح بعدها امر هؤلاء الجناة كآلة للتحري ، وهم يؤدون الوظيفة بأمل الحماية والاستفادة ، ولا يبالون بالقانون ، ولا يحترمون السلطات القائمة ، ولا تاهلهم يد القضاء ، بينما الآخرون تتعقبهم الشرطة ، ويساقون الى المحاكم ، لينالوا جزاءهم فتحكم عليهم وتسجنهم . وتكون النتيجة انهم عندما يخرجون من السجن ، يتقبلون أعداء ألداء للهيئة الاجتماعية التي قاصصتهم ، ولم تقاصص هؤلاء الجناة الذين على شاكلتهم .

وما كان ذنبهم الا ان الدوائر المسؤولة ، عجزت امامهم وضعفت عن ملاحقة المجرمين الخطرين ، وأفسحت المجال لافساد الدوائر ، وانتشار الرشوة والجرائم ، واما هم فلهضمهم واستسلامهم قبضت عليهم وحاكمتهم وسجنتهم عقاباً لهم .

والذي يدرس سفه الناس ، وفسقهم ، وتقهر الوازع الادبي والوازع الديني في نفوسهم يدرك ما ينتهي اليه مصير البنات ، والخدمات ، والغلمان الذين يتعاطون الفحش سراً ، ويبيعون اجسامهم للذائد البهيمية عمداً او اضطراراً !

وعليه يجب ان لا يغيب عن علمنا كيف يقدم اصحاب الشذوذات الجنسية وارباب المال المتحررين على ارتكاب الاعمال الدينية التي تشجع امثال هذه الطبقة المنحطة على قبول المنكر بما يصدقون عليهم من الاموال ، وكيف يفتحون لهم بيوتاً للدعارة ليرؤوا ظمأ شهواتهم بواسطتها ويشبعوا غرائزهم الشاذة منها .

ومن المؤسف ان الهيئة الاجتماعية رغم ما يتحتم عليها من ضروريات للصيانة الاخلاقية والحفاظة على سلامة الجنس ، تتسامح عن طريق القوانين النافذة والانظمة المعمول بها ، فتأذن لهم ولييوت البغاء بتعاطي الفحش العلني تحت ستار درء المفاسد والصحة العامة ، وتحجم عن اتخاذ الوسائل العلمية ، والتربوية ، والقانونية لمداواتهم ومدادوا الامراض الاجتماعية ، كالزنا ، والقمار ، والسكر والعهر ، التي كلما اهمل امرها ، هددت كيان الامة ، وافسدت حياة العائلة ، والمجتمعات الانسانية .

ويعتقد بعض المذققين ان البطء في سير القضاء يعد عاملاً آخر في تشجيع المجرمين على ارتكاب الجرائم ، ولكن الواقع يدل على ان البطء في المحاكمات يولد الارهاب ، وتعليق التنفيذ يغدو بالنسبة الى الجرائم سيفاً مسلطاً على رؤوس المحكومين ، كما ان ورقة الاتهام من شأنها تعذيب الضمير في مرتكب الجريمة ، ولو اسرعت المحاكم بقضائها وحكمت عليهم دون تأخير لما شعر الرأي العام بوقائع الامور ، واسبابها ونتائجها ، وظروفها ولا وقف على دقائق ما جرياتها ولم يعتبر منها . فكان جهله ، وعدم اهتمامه اضر على نفسية المجتمع التي تتأثر من الجرائم والاحكام ونتائج القصاص ، والوقوع بأمثالها اكثر من البطء وما ينتج عنه . ومع هذا فتأخير تنفيذ العقوبة لا يضر اذا كان العقاب عادلاً ، ونفذه المسؤولون دون تردد .

قال القاضي « سنكا » ان الوقت الذي يتقدم القصاص لمن اشد الوقات مرارة ووقفاً على نفس المذنب .

ولكن هنالك مسألة هامة يجب النظر اليها قبل اجراء المحاكمات ، وقبل

قرار الحكم ، وقبل تنفيذ القانون . وهي قضية التشريع اي سن القانون واصداره .

ففي الولايات المتحدة الاميركية تصدر الالوف من القوانين التي يخضع لها المواطنون ، وتصدر لها ملاحق وشروحات ، وتقاسير ، واجتهادات تحكم بها الحاكم وبموجبها تصدر مئات الالوف من القرارات والاحكام ، بحيث اصبحت القوانين والاحكام لكثرتها ، توجب القول بأن « روما » في عهد « جوستانيوس » المشرع العظيم لم تصب ببلاء مثل هذا البلاء العظيم الذي سببه تعدد القوانين وكثرتها .

وفي رأي « ناسيتوس » ، ان مفاصد الهيئة الاجتماعية ، كلما زادت وطفت ، زادت القوانين وطفت .

ثم يتابع رآيه بقوله : اذا كانت الولايات المتحدة ، وهي من ارقى الدول ، قد عجزت عن الحد من معظم الاجرام وقع المجرمين ودرء الفساد ، بالنسبة لما توفقت اليه بقية الامم المتقدمة التي تعيش مثلها على وجه الارض ، فالسبب يعود الى استعدادها الذي تبديه لسن قوانين وأنظمة ، تظن انها « تشاريح اكسيرية » كافية لمعالجة الامراض الجنائية ، والاطار الاجتماعية ، والشفاء منها ، وانها ملائمة لكل الظروف وكل الاحوال .

ولكن هل هي مصيبة ؟ وما هي النتيجة ؟..

لا أعتقد بأنها على صواب . والسبب ان الباحث ليجد تشريعاتها العامة والخاصة ، اصبحت موضوعاً لمناسبات طارئة . فكان مجموع ما صدر عنها فوق معرفة السواد الاعظم وفوق مداركه لكثرة عددها ، وقصر وعي الشعب عن الاحاطة بها ، ولتعقد موادها ، مما جعل الافراد لا يحترمونها ولا يشعرون بشعور المشرعين لها ، الذين يظنون بأنهم يعملون للإصلاح بواسطتها ، ولم يدروا بأن عملهم علة من علل الاهمال وعدم الاكتراث .

ولم يقتصر واقع الحال والضرر على هذين الامرين ، بل ان قوى التنفيذ والامن ، صعب عليها تنفيذ القانون لكثرتها وصعوبة تطبيقها .

وهنا يظهر الخطأ في رأي من يدعي ان مصائب المجتمع الانساني واكداره ومفسده تعالج بالقوانين ، وما درى ان الرأي الاول يمثل جانب الافراط في الاشتراكية ، والرأي الثاني يمثل جانب الافراط في الديموقراطية .

اما الذي يبدو معقولاً وصحيحاً ، هو ان التشريع لا يمكن صنعه ولا يجوز وضعه ، والمشرع جاهل حاجات الشعب ونفسيته ، وارادته ، وغير آخذ بالمبادئ السامية المجردة ، والمثل العملية التي يجب أن يقتدي بها كل مشرع .

وبهذا الصدد يقول « كونسانت » : للمحافظة على الهيئات الاجتماعية ومؤسساتها وتنظيماتها الشعبية ، او لاستقرارها ودوامها ، سواء اكانت في صورة قوانين او نظم شرعية ، لا بد ان تكون في مستوى عقلية افراد المجتمع كافة .

فـ « سولون » وهو اعظم مشرع روماني لم يدعي ان تشريعه كان اعظم ما يجب ان يصدر عنه ، وانه يمثل اعظم ما يمكن ان يصدر عن الفكر البشري ، بل قال « انه احسن ما يمكن ان يتقبله الشعب ويتلائم مع صالح الشعب » .

وينقل عن « كولبرت » وزير فرنسا ايام لويس الرابع عشر ، انه استدعى التجار وارباب الصناعة وسألهم : ماذا تشيرون على الحكومة لمساعدة التجارة ورواجها ؟ فأجابوه : « اتركها لوحدها » .

وقد اثني على قوله رئيس جمهورية الولايات المتحدة « بنجامين فرانكلين » ، وعده أعظم قاعدة سياسية قالها رجل دولة ! لأن القوانين عندما تتكاثر ، تزداد المخالفات لها . والانسان المتوسط لا يمكن لسعادته المادية والمعنوية ان يتقيد بأي تشريع ، اذا لم يهتم به ويفهم غاياته واهدافه ، ولم يخضع له عن رغبة ، وبحض الارادة .

ويجدر بنا بهذه المناسبة ان نشير الى ما وصى به « لمبروزو » و « بروينا كتي » اذ قالوا : « يجب الاستفتاء العام ، قبل جمل القوانين شريعة تنفذ احكامها . لأن استفتاء الرأي العام ، خير وسيلة لفهامه مقاصد الحكومة من تشريعها ، وتقريبه من مفهومها ، واطلاعه على مراميها » .

واما الاستغناء عنه ، فيزيد التباعد والنفرة ، حسب القول القائل : « اذا اردت ان تقاطع فسل ما يستطيع » والحكمة الخالدة : « ألسنة ألقام الحق » . والعمل بما عليه عليه الرأي العام ، يحث على الدرس وتفهم المواضع ، ويربي النفوس ، ويهيئ الافهام لمعرفة الاحكام التي ستفرض على الناس ، ويجعلهم يشعرون بالمسؤولية الملقاه على عاتقهم ، ويوقظ ضمائرهم للضرورات المعلنة والاسباب الموجبة ، فيقدرون نصيبهم من الحياة التي تحتاجها بلادهم .

ثم يجب ان لا يغيب عن الافكار ، بأن القوة القضائية عند تنفيذ احكام القصاص تحدث تحجراً في القلوب ، بدلاً من ان تلينها . وبعد ان يشاهد المشاهدون المشائق ومن عليها . او يشاهدوا المحكوم عليه او عليهم وقد قتلوا رمياً بالرصاص ، او احرقوا بالنار ، او بالكهرباء . فلا يبالوا بالآلام البشرية ، بل يقل اعتبارهم لضريبة الحياة ، ولا يبالون بمن سيكون نصيبه مثل هذا العقاب .

ولذا كان المتبارزون ايام الاقطاعية ، لا يهمهم ان احدهم سيقتل ، وان الدماء ستسيل من الجروح . إذ كل همهم ، الانتقام من منافسهم والمعتدي على كرامتهم او على شرفهم او عليهم . اما حياتهم فلا قيمة لها في نظرهم ، وقبلوا المبارزة وما يكون منها لأنفه البوادر وأقل الاعتبار .

ومما دلت عليه التجارب في زمننا الحاضر ، ان الولايات التي تنفذ فيها الاحكام القانونية بكثرة ، يقع فيها «التنفيذ الاحتياطي» او «الحكم المعلق التنفيذ» بكثرة لاعتبارات تقديرية يقدرها القاضي . ولذا اذا درسنا الجرائم من حيث كثرتها وأهميتها ، وجدناها اكثر ما يكون وقوعها في تلك الولايات ، ووجدنا نسبتها تفوق غيرها بكثير .

والحقيقة التي لا جدال فيها ، ان الحروب والثورات والانتفاضات وكل حالة من الحالات التي تتفكك فيها الروابط الاجتماعية ، وتنحل العلاقات المدنية ، تجعل الانسان مخلوقاً وحشياً وتخرجه عن ضميره ومبادئه الاخلاقية ، وتقلبه مخلوقاً بهيمياً كاسراً ، يرتكب القتل ويفترس أخاه وبني جنسه كلما تسنى له ، حتي يكاد الانسان لا يصدق الحكايات والحوادث التي تنقل عن الاعمال الوحشية

التي يرتكبها الجنود في الحروب الاهلية وفي الحروب العدائية ، وتذهب ضحية لها العذارى ، والنساء ، والاولاد ، والحوامل ، والامهات ، والآباء ، والشيوخ .

ولا تقف فظائع الحرب عند هذا الحد ، بل من الثابت ان الذين يعودون من ميادين الحرب والقتال الى بيوتهم ، يفقدون سلوكهم المعتاد وتسجل عليهم دوائر القضاء احكاماً جزائية وجنائية لمخالفتهم آداب المجتمع ، وقيامهم بأعمال مشينة او جنائية يعاقبهم عليها القانون .

وعلاوة على ما تقدم ، فالحرب تعلم البعض ، اموراً تنافي الاخلاق العامة والخاصة ، لم يكونوا قد اعتادوها ، وتضعف الوازعات الدينية ، والاجتماعية ، والادبية ، في نفوسهم . فلا يبالون بالعواقب عندما يقتحمون حدود الفضيلة والآداب ، دون خجل ولا وجل ، ويرتكبون المخالفات دون رهبة .

يقول « اوبري » : ان الحرب مرض عصبي ، معدي ، يفضي الى الجنون . ولاحظ « لامبروزو » ان الجنايات تكثر وقوعاتها بتأثير الحروب ، والتعود على القتل والقتال . ويدعي « لايدستون » ان الخدمة العسكرية ، كانت سبباً لمنع الكثيرين من الاستخدام في الاعمال الصناعية الشريفة .

ويعمل سبب ذلك اصابة الجندي بأمراض تناسلية معدية ، وانحطاط خلقه بتأثير المجتمع في اماكن محدودة محجوزة ، ووقوعه في عاهات بدنية تلحقه من الكسورات والجروحات ، والمطالة الذهنية الناتجة عن عدم اشتغاله في خدمة حرة ، واعتماده على الحماية العسكرية بدلاً من اعتماده على سعيه وتشبثه الشخصي واعتياده المخدرات والمسكرات لنسيان آلامه وحرمانه من المعاش الذي كان يتقاضاه وهو في الجيش .

فهذه الاسباب وغيرها تبدل طباعه وسلوكه وتخلق فيه روح الاعتداء التي هي مرض يصيب مرتكبي الجرائم ايضاً ، ولا تفارق صاحبها عند ارتكاب جريمة السرقة سواء أكان جندياً او غير جندي .

وقد لمسنا اثر هذه الظاهرة في جنود الفرنسيين والانكليز ، والنيوزيلانديين

والاوستراليين ، والسودانيين الافريقيين ، والسنگاليين ايام الحرب الاولى والثانية وايام الانتداب الفرنسي في سوريا ، وكان لكل من جنودهم - وادث تشمئز منها الاخلاق وتشمئز الاقلام من ذكرها ، تدل على روح بهيمية ، وغريزة وحشية وضماير تحمل خبيثة الحقد والكراهة والاجرام وايمان المنكر لموامل عديدة .

ولذا نتساءل لماذا نقدر روح الاعتداء التي تدفع للقتل والقتال ونقبج روح الاعتداء التي تدفع السارق لمديه واخذ ما ليس من ماله ولا من حقه ؟
الجواب ! ان روح التمدي واحدة ، مهما تكن الغاية . فالمجتمع الانساني عليه ان يضع حداً لوحشية الانسان ويقف دون وقوعها ، والحرب لولم تكن في طبيعتها عمل وحشي لما كان لها ضرر مستمر وعواقب هدامة .

اما وحياة الجندي قاسية ، وخياة القرصان ، وقطاع الطريق قاسية ايضاً . وهما في نظر الحياة من العاملين . ولكن اعمال كل منهما ليست في مقياس واحد ولا في اعتبار واحد .

يقول الدكتور «مكدولاند» ان كلمة « جريمة » تحوي عنصر العمل في اللغة السنسكريتية . ولكن هذا العمل في المتوحشين من بني الانسان يبرز في صورة قتل وتمدي ونهب وسلب ، ولدى الاقوام المتقدمة يبرز في صور اخرى ضمن الحياة وضمنت بقاء المجتمع وازدهار المدينة ، اذا كان الافراد ممن هذبهم المدينة وحفظت عقولهم من المفسدات الخلقية ، واما اذا كانوا غير ذلك فأفأها تبرز ولسوء الحظ في صورة اخرى يزيد ضررها على ضرر الصور التي برزت في المتوحشين .

قال « سنيسر » ان محي الحرب ودعاة الحرب لمن اشد الناس قساوة ووحشية وشراسة وخبثاً . وفي نظره ان روح التمدي وروح الحرب من اخبث الطباع لانها روح شريرة سفاكة وحشية تمطل العلاقات المدنية ، وتحل الروابط الاجتماعية وتهدم الجهود الانسانية ، وتعلي شأن السلاح والتسلح ، وتظهر الكوامن القاسية ولذا فالحرب في زعمه لاتفيد البشرية . وهي في كل حال خسارة .

ويبين « شكسبير » في روايته عن هنري الخامس ملك انكلترا ان الذين يموتون في الحرب ، قليل منهم من يموت راضياً .

وصدق «فرانكلين بينجامين» عندما كتب ان الحرب ليست حسنة ، والسلم ليس قبيحاً ، وعنده لا يوجد حرب مفيد ، وسلم ضار ، فالحروب مهما تكن جنوناً ، ونهباً ، وانتحاراً ، وقتلاً ، وتخريباً ، ووحشية ، لكنها في نظر من يشرها ويدعو لها ادبية ودفاعاً عن الحياة والحق والكيان .

وفي نظر المدنية هي تأسل المجتمع ورجوعه الى وحشيته الماضية سواء وقعت في آسيا او اوروبا ، وفي القرون الوسطى ام في زمننا الحاضر . هي شريعة الانتصار والتغلب وقتل الارباء بلا سبب وهدم البيوت بلا عوض ، وتيتم الاطفال بلا شفقة . ولا تقف اضرارها على جيل ، بل تمتد الى اجيال . وهذا ما جعل « غلادستون » يتخوف من نمو الروح العسكرية . ورسول الاسلام ان يقول (ولا تعبدوا ان الله لا يحب المعتدين) والحق مع الرسول الكريم لأن الحرب تعدي وفي عصر الذرة انتحار او فناء جماعي ، ولا مبرر لها ما دام في الامكان اللجوء الى القاعدة الذهبية « عامل الناس كما تحب ان يعاملوك » .

٥ - الاسباب الاقتصادية :

على اننا من دراستنا التاريخ يتبين لنا ان معظم الحروب تعود اسبابها الى عوامل اقتصادية وازمات اجتماعية وظروف سياسية وكلها تتأثر كما تتأثر الجرائم بالأزمات الغذائية والاقتصادية .

وفي كتاب (المساجين ، والمتسولين) يبين « بواز » ان ٩٠ في المائة من الجرائم تقع بين اهل المدن . ودل على هذا « ليفور » فقال ان الجرائم في فرنسا تكثر في المدن بنسبة ضعفي مايقع في الارياف .

وقال المستر « موريسون » ان نسبة الجرائم في مدينة لندن يوازي ثلاثة اضعاف مايقع في انكلترا ، وويلز . مع ان نفوس لندن لا يوازي خمس مجموع سكان المقاطعتين .

وبين الاستاذ « غبرائيل تارد » الاختصاصي في علم الجزاء بفرنسا ، ان تأثير الجرائم في المدن الكبرى يظهر من احلام الغش والخديعة محل العنف البهيمي

الذي كان من خصال الانسان الوحشي ، وفي احلال الاحتياج محل الشراسة الوحشية والقساوة الحيوانية .

فاذا لم تتخذ المدنية التدابير الواقية ، والاحتياطات الكافية ضد الدوافع المرضية ومظاهرها فسوف يغدوا المجتمع فريسة الشهوات المتضاربة ويقع في ايدي اعداء الداء مهلكين يقتلون بعضهم البعض ولا وازع يردعهم .

وعلاوة على ما للحروب من تأثيرات فان حياة المدن تساعد على وقوع الاجرام بين سكانها اكثر مما تكون بين سكان القرى التي كما يظهر تقل فيها حوادث الجرائم .

ويثبت هذا ما شاهده علماء الاحصائيات ، من ان نسبة الجرائم في ولاية « ميسوري » احدى ولايات الجمهورية المتحدة الاميركية ، هي اكثر من نسبتها بين قرى تلك الولاية .

ولكن قد يتسرب الشك الى صحة الاحصائيات ، لأنها تعتمد على عدد الادانات التي تحكم بها المحاكم في المدن ، فتبدو ظاهرة لكثرتها . ولكن لو اخذنا بعين الاعتبار ، ان عدد المحاكم في القرى اقل ، وكذا قوى الضابطة والامن التي لا يقاس قلة عددها بما هي عليه في العواصم ، وان مأموري التعقيب في الارياف ، اضعف علماً واقل كفاءة من الذين في المدن ، لتبين لنا سبب الشك في تقدير النسبة المذكورة .

على ان الواقع لا ينفي كون جرائم المدن هي اكثر عدداً ، وفيها من الانواع ما لا تعرفه الارياف . اما سببها ، فالنوادي الساقطة ، والصالونات المنحطة ، ونوادي القمار العديدة ، وبيوت الدعارة الرخيصة ، والمطبوعات الباحثة عن الادب العاري والمهيجات الداعية لكوامن الغرائز ، والافلام الشهوانية ، والجرائد والمجلات التي تنشر وقائع الجرائم والجنايات والمحاكمات والحوادث الشنيعة وصور الجناة ، والاختلاطات الفاسدة التي تولد المفساد ، وهي موجودة في المدن ومفقودة في الارياف ، وتهمي النفوس وتسوق اصحاب الاستعداد المرضي والشذوذات العقلية

الى ارتكاب الجرائم والجنايات واقتحام ميادينها بسهولة خاصة .

وهنا لا بد من الاشارة بأن تأثير الصحف والمجلات من النوع المشار اليه آنفاً ، لا يقف عند حدود المدن بل يمتد الى اقصى حدود البلاد ، ولا يقتصر مفعولها على النفوس المريضة وأصحاب العقول الشاذة ، بل يتناول الاحداث ، والمراهقين ، والبالغين ، والشيوخ ، والنساء ، والبنات البالغات ، ومن كن في سن المراهقة .

وقد أرتنا الحوادث وتبعات الجرائم ومحاكماتها ، ان ما ينشر من الصور والمقالات المتتابعة عن وقائع المجرمين والجنايات التي يرتكبونها ، له أثر مباشر وغير مباشر في العقول والنفوس التي يفعل فيها حب التقليد والاستطلاع ويسوق اصحابها للاجرام قصد التجربة ، والادعاء بكبرياء انهم يستطيعون عمل ما يريدون في سبيل هذه الغاية ، وبتأثير الضعف المستولي على ارادتهم ، وقواهم الادبية ، وذهنيهم المريضة ، وكثرة ما يقرأونه في المطبوعات والروايات التي تبحث عن حوادث مرتكبي الجنايات ، ودقائق الوقوعات ، وتحليل البواعث والشخصيات ، يسرعون الى العمل في الطريق المنحط وارتكاب الفعل الجنائي ، لأن الضابط لغرائهم مفقود ، وعقلهم الباطن لا يقدر المسؤولية ، ولذا كان من الضروري منع نشر تفاصيل المحاكمات والوقائع واختصارها بالقدر اللازم للنشر .

وبرهاناً على ما تقدم ، جاء في صحف « جنيف » ان امرأة قتلت اربعة من اولادها لأنها قرأت في الصحف عن امرأة فعلت ذلك .

وذكرت كتب « الجرائم » ان فتى لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة ، سرق مالا من حانوت معلمه ، وبعد ان انقذه ضرب طفلاً بسكينه فقتله وقطع حنجرته . ولما سئل عن السبب افاد : اني قرأت القصص وفي احداها وجدت وصفاً لحادثة شبيهة بمحادثتي فنذتها ، وفعلت ما فعلت للتجربة .

ويذكر ضبط الشرطة ، ان اربعة من الاطفال الكبار ، كانوا يلعبون مع بعضهم في بيت احدهم ، فتقدم احدهم وقال : لنجرب كيف يشنقون السجين ،

واخذ حبلاً ووضع في رقبة اصغره ، ورفعوه على الكرسي ، ثم سجدوا الكرسي من تحته ، فصاح متألماً وما لبث ان فارق الحياة وهم يضحكون ، دون ان يعلموا ان ما عملوه جناية ، ولكن وعيهم لم يكن كافياً لادراك العاقبة ، وكان ما فعلوه محاكاة لما شاهدوه في السينما ، او مارأوه في احدى ساحات البلدة .

ويقول الأستاذ « اوبري » والدكتور « ماك دولاند » ان نشرات الصحف عن تفصيلات وقائع الجنايات والجرائم ، وصور اصحابها لا تخلو من تأثير كبير على انماء بذور الشر بين افراد المجتمع تبعاً لقانون الايحاء والتقليد الذي يُسيّر الجماعات والافراد بفعله ، عدا عن تأثيره في اخلاق مرتكبي الجرائم انفسهم ، مما يجعل دراسة نفسية المجتمع ضرورياً ومفيداً مع العلم ان مستوى اخلاق الجماعات ، والعامة هي دون اخلاق الفرد المتوسط .

قال « تارله » في مؤتمر علماء الانسان ان دماغ الجماعة كائن في النخاع الشوكي لا في المخ الامامي ولا الخلفي . ومهما يكن لا يخلو من مراكز عصبية صيانية ونسائية .

واجمع العلماء « غروس » ، « تارله » ، « غارنيهر » ، « ديكتر » ، على ان الاجتماع يقصد به الجماعة قد يُفرض في اندفاعاته وهيجانه كاندفاع المجانين ، والسكيرين وهيجانهم بلا وعي ولا ضابط نفسي . ويميزون السبب في ذلك الى قانون التقليد والايحاء وتحكم الغرائز ووقوع الاستحواذ الذي يفعل في نفوس المجتمعين ويدفعهم للعمل دون محاسبة ولا مقاومة لفقدان الادارة والوعي .

وكما للاجتماع هذه الظاهرة فكذا يقع تأثير الجرائد ، والمجلات ، والسينما والكتب ذات الادب المكشوف الواطي والتمثيل التراجيدي الجنائي على اذهان البعض من ذوي الاعصاب الضعيفة والشواذات النفسانية .

ويختلف علماء الاجرام فيما اذا كان الميل الخاص بالجماعة يوازي الخاص بالافراد المذنبين .

ذكر « سيكل » في كتابه « الجرائم الجماعية » ان الفرد الذي يشترك في

عمل الجماعة يجب ان لا يؤخذ على عمله بقدر العمل الذي يتأتى عنه وهو منفرد .
والسبب ان اشتراكه في الجريمة الجماعية كان بتأثير الاسباب المهيمنة
الصادرة عن الجماعة فانساق معها بوحى « المركب الخارجى » لا بوحى ارادته
التي لا تستطيع منعه من الوقوع في « دوارة » المجتمعين ولذا يماثل بالتسامح الممكن .

والحقيقة ان تجمع عدد وافر من الناس في اماكن معدة للايجار ليست
شرط الاقامة والتجمع فيها صحياً ولا اخلاقياً يسهل من تقليل قيمة الفضائل
ويضعف فعل التنمية بين افرادها ويزيد في افرادها الميل لارتكاب الجرائم
ووقوعها . فاجتماع تسعة اشخاص من ذكور واثاث في غرفة واحدة يعيشون
معاً ، سجل حادثاً جنائياً ارتكبه احد الموجودين فأزال بكاره احدى الموجودات
دون خشية من الفضيحة ولا رهبة من العقاب .

ويقع مثل هذا في كل الحالات التي تبيح التجمع والاختلاط وتجعل الفرص
سانحة للفسق والفجور وانتهاك الحرمات . ولا دواء لها الا بمعناها والهرب من
محيطها الساقط .

يقول بعض العلماء ان الفقر المدقع عامل يدفع الى ارتكاب الجرائم . ولكن
هل الغنى لا يدفع ايضاً الى ارتكاب الجرائم ؟ اذن كل منهما يدفع الى ارتكابها
في الظروف الخاصة ، والحالات الشاذة التي توجد اثناء الازمات الاقتصادية
كأزمة العمل وأزمة الغذاء وأزمة الفقر .

ولذا عُدد الغنى كالفقر من الاسباب الاقتصادية لوقوع الجرائم . ومع ذلك
لا يمكن الجزم بأن الفقر وحده عامل مؤثر في ارتكابها . اذ لو صح المدعى
على اطلاقه لاثبتت المدن الفقيرة بأنها اكثر ارتكاباً للجرائم من المدن الغنية ،
ولكن الاحصائيات المثبتة ترينا ان السرقات اقل ما تقع في البلاد الفقيرة
كأيرلندا ، واكثر ما تكون في البلاد الغنية كإنكلترا والولايات المتحدة . وهي
في اسبانيا وهونغاريا اقل بالنسبة الى ما هي عليه في فرنسا وايطاليا .

ومن المشاهد ان الجرائم المرتكبة ضد الملكية تزداد في الامكنة التي يعيش
فيها الفقر المدقع بجانب الغنى المفرط .

والسبب ما قاله « فرنانسي » ، ان هذا التناقض مما يشجع الميل لارتكاب الجرائم من جهة ويخلق لها فرصاً افضل من جهة ثانية . فالمرء يُغري نفسه بالفقر عندما يعيش محروماً بين اناس فقراء مثله ، وعندما يعيش بين اناس اغنياء يتنعمون ويبتذرون ، وهو محروم « والعين بصيرة واليد قصيرة » كما يقول المثل تشور نفسه ولا يمكن ضبطها .

كيف يضبط نفسه اذا جاع ، او احتاج هو وافراد عياله للقوت وهو محروم من حق الحياة وطرق الكسب امامه معدومة ، ويعلم ان هؤلاء الاغنياء قد جاءهم الغنى عن ثروة ورثوها لا عن كد وتعب وعناء بذلوا ماء الحياة في سبيله ، ولا عن عمل مشمر عرق منه الجبين !!

على ان الفقر اذا ساعد على ارتكاب الجريمة فتأثيره لا يكون في المقام الاول ، بل في المقام الثاني . لأن الثابت ان السارق لا يسرق عن جوع . واذا جاع وسرق ، فمعدل السرقة لا يزيد عن خمسة في المائة ، من بقية السرقات التي يرتكبها المجرمون .

ولكن شقاوة الكسب وآلام الحصول عليه لتأمين العيش ، اشد تأثيراً في دفع الانسان لارتكاب السرقة عندما تصدع آماله ، ويخسر ماله ، ويستحوذ على جوارحه اليأس ، ويفقد العمل والكسب ، فيضطر لأن يجول في ميادين الجرائم ، ويرتكب ما يرتكبه دون اختياره ، بل رغم انفه . ولذا قيل : « كاد الفقر ان يكون كفراً » .

ومن دواعي الجرائم ، يجب ان نشير الى البطالة الحاصلة من توقف العمل ، وهبوط الاسواق ، وخسارة أرباب العمل والصناعة المتوالية .

وقد برهن العلماء « فيلهرمو ، وميرسيه ، وفراجيه » ، ان فداحة الضرائب الموضوعة على المواد الغذائية ، وعدم الانصاف والعدل في وضعها ، يزيد الميل الى اقتراف الجرائم . وبالعكس حرية التجارة ، ومعافاة الضرائب او تخفيفها الى الحد الادنى على المواد الضرورية مما يقلل الميل المذكور .

ويمتقد « هنري جورج » ان احتكار الثروات الطبيعية التي يؤول احتكارها الى انكار حق العامل وعدم مساواته ، والى تمكين اصحابها من الاثراء الفردي الصناعي ، يدعو في النتيجة الى ما يسمى « بالاستعباد الصناعي » او الجشع في اقتناء الثروة على حساب حق العامل والفلاح ، وهذا يسبب في النتيجة الانحطاط العالي ، والتقهقر الاجتماعي ، والعراك بين الطبقات العاملة .

على اننا اذا كنا لا نملك احصاءً دقيقاً ، يبين لنا تأثير الثروات العظيمة على اصحابها من حيث ارتكاب الجرائم ، وما كان لدينا من الادلة ضعيف جداً ، انما يمكن القول : ان تأثير الجريمة على الغني ، من شأنها ان تذهب بثروته وتبيحها للمحامين الذين يتخذهم ملجأً للدفاع عنه .

والاغنياء تكثر جرائمهم عادةً ، عندما ينغمسون في شهوات الكسل ، والبطالة ، ويتقبلون في احضان الملاهي والملذات ، وينهمكون في تعاطيها . واذا ما كثرت بذور الفسق والفواحش في بيوتهم ومقراتهم ، اصابهم الذل والفساد وانساقوا الى الجرائم بصورة مؤكدة ، لعلنا ان القلب اذا اصابته رصاصة ، لا بد ان تقتل صاحبه . ولو راجعنا سجل الموتى ، لأقام لنا الدليل على صحة هذه النهاية .

والذي يبدو لي ، ان وقوع الاغنياء في حماة الجرائم والمفاسد ، هو عين السبب الذي يسوق الفقراء اليها ، لعدم تقدير كل منهم المسؤولية الاجتماعية نتيجة لسوء التربية وفساد المحيط .

وما تقدم يمكننا ان نقول : « ان فساد التربية وفساد المحيط ، لأشد عامل مثير يسوق لانتاج الجريمة . والامية لا تقل تأثيراً عن فساد التربية ، لانها تعين صاحبها على جهل المسؤولية وجهل القانون والوقوع في المخالفات ، والوقوف في قفص الاتهام ليحاكم صاحبها ، ويحكم عليه لاخطاء ارتكبها .

ومن الثابت ان الامية كلما كثرت وتفشيت بين الافراد تأخرت مدنيتهم ، وبالعكس كلما تقدم العلم ، وانتشرت التربية ، وعمم التعليم والتهذيب ، كثرت

ثقافتهم وارتقت مدنيّتهم .

ومع هذا ، قد نجد بين المتعلمين من يوازي الاميين الجهلة في سوء التربية و جهل المسؤولية . والحديث الشريف يشير الى هذه الحقيقة فيقول « شر الناس العلماء اذا فسدوا » والسبب ان العلم كما هو آلة خير لمن احسن الاستفادة بهديه ، هو آلة شر لمن لم يحسن الاستفادة بهديه .

واذا تساءلنا : من هو المثقف ؟ اجبناه : هو « من لا يقترب جنابة ولا يرتكب الخطيئة عمداً . من كان له ضمير مهذب ، وارادة سليمة ، ووعي كاف ، وتربية تمنعه مبادئها من الاقدام على الشر ، وتوقظ فيه الشعور الأدبي والديني وتريه طرق الفضيلة وعمل الخير والاحسان وتبعده عن اتباع طريق الهوى والرزيلة » .

قال الحكيم اليوناني « اوريليوس » : ان الرجل المثقف يعمل العمل ويعلم الحسن من العمل فيصنعه ، ويعلم الفاسد من العمل فيتبعه عنه ولا يصنعه .

وقال « اوسي » : ان الائم التي لا قيم للأخلاق الادبية عندها ، لا يمكن ان تكون عاقلة ولا عادلة في تصرفاتها ولا في علاقاتها .

وقال الرئيس « واشنطن » في خطابه الوداعي الذي خاطب به الشعب : ان النجاح السياسي لأي رجل كان يتوقف على مساندة الدين والاخلاق لتصرفاته واعماله في الحياة .

انما يجب ان نتحفظ ونقول من لا أخلاق له لا دين له ، ومن لا يتدين بدينه لا قيمة لأعماله . يقول ابن حزم « ثق بالمتدين ولو كان على غير دينك ، ولا تثق بغير المتدين ولو كان على دينك » . والحقيقة ان « الدين هو المعاملة » .

وما دام الدين حامياً للأخلاق ومؤيداً لها وحاثاً على التمسك بأهدافها ، فالؤمن المتدين الحقيقي لا يرتكب الجريمة ولا يخالف القانون ، ولا يأتي عملاً تنهي عنه الشرائع .

وعلى هذا يعتبر الدين بلسمًا يقي المتدينين من الوقوع في الخطايا والآثام ، ويحفظهم من الشرور التي تخرج عن غفلة الضمير الانساني ، وعن الافراط والتفريط ، والأنانية والطمع والشهوات الحيوانية ، وعن البغاء والطلاق وجرائم السقوط في مهاوي العار ، وعن الاعمال المنبثقة من اللذائذ البهيمية ، وعن كل ما يسبب الجرائم او يهيئ لوقوعها .

والانسان في كل الاحوال ، وفي كل الأمم ، لا بد له من تربية دينية ، ووازع ادبي يوقظان ضميره وينبهان وعيه ، ويمنعانه من الزلل والاقدام على التجربة الخاطئة التي تقوده الى الشر والجريمة .

والسبب ان ضمير الانسان بدون تربية روحية لا يؤثر فيه الخوف من عقاب القانون مهما كان القانون صارماً وعادلاً بقدر ما يؤثر فيه الشعور الديني ، والادبي والتربية لا تستطيع وحدها بدون الدين والاخلاق ان تجعل المواطن صالحاً لنفسه وعائلته ، ومفيداً لامته ووطنه .

ان القانون يحدد المواطن حدود حريته ، ويرسم له الميادين التي يستطيع التجول فيها بأمان واطمئنان ، ولكنه لا يتغلغل في قلب المواطن ليصلحه ويهذب طباعه ، انه في حاجة لعامل ادبي ، وعامل ديني ، وعامل اجتماعي يجب له الخير ويزوده بالحببة الضرورية لسلامته وسلامة المجتمع الذي يعيش فيه .

ومن المؤكد ان طبيعة الانسان لا تعرف الخير والمحبة من ذاتها ، بل انها في حاجة لمن يربها ويهذبها كي تعرف ما لها وما عليها ، وتعرف حدود حريتها وحدود حرية غيرها ، ولا بد لها من دين يقودها وينظم سير الضمير الانساني ، ويجب له اداء الواجب ، ومحبة الأخ والقريب ، والمواطن ، لا عن رهبة من القانون ، بل لأن الواجب الانساني يقضي على صاحبه باتباع الصواب ، وحب الناس ، وعمل الخير . والمدنية بدون دين يحتل قلبها ، ويعلم الناس فضائل المجتمع ، وقدسية الانسانية ، ووحداية الاله ، ووجوده المشرف على اعمال البر والخير والمحبة والفضائل والاعمال التي هي قوام الروابط والعلاقات بين الأمم والافراد ، لا بد ان تستولي عليها اللا دينية ، والكفر بالشرائع الالهية ، ويصيبها

داء الخيرة والشك والفوضى التي لا ينتج منها سوى انحلال الروابط ، والعلاقات المذكورة ، وفساد الاخلاق ، وشيوع الجرائم والمنكرات . لأن الاتحاد الذي هو نتيجة للكفر بالحقيقة الالهية ، يقتل الشعور الانساني ، والفوضى التي هي كفر بالقوانين وفوائدها ، من شأنها الدعوة للهدم ، وفساد النظم السائدة ، وكلاهما شر ما يبتيلى به المجتمع وافسد ما يسمم الضمير الحي .

ومع ان « لومبروزو » كان ناعماً على الدين ايام كان يعلن للناس انهم في حاجة الى الدين ، ويجب عليهم الايمان به والعمل بتعاليمه السامية ، فانه كان يعتقد ان الحكومات التي لا تتركس بدين من الاديان المقدسة يسرع اليها الفساد ، وتقاذفها امواج الشهوات والاهواء من حين الى حين ، وتلحقها عوامل الانحلال والهدم حتى تكاد اساساتها تنهار من فقدان دعائم الوازعات الاجتماعية والدينية والاخلاقية الضامنة لترباط المجتمع وسلامة حياة افراده .

وبعد ، اليس علينا ان نساءل : ماذا يحل بالحكام لو حذفنا اليقين عن الحكم ؟ وماذا يحل بالقلوب اذا محونا الدين منها ، وماذا يعمل المرء في باطنه وخفاياه اذا شعر ان لا رقيب على ضميره ولا شاهد على سيئاته ؟ ولا محاسب لاعماله ؟ الا يكون ذلك مقدمة للخراب والهلاك ؟ .

ما الذي سبب سقوط الامبراطورية الرومانية وغيرها من الدول ذات القوة والبأس والحوّل ؟

ما الذي اثار الحروب بين الامم ؟ هل الازمات الاقتصادية وحدها ؟ ام الازمات الاخلاقية والدينية والاجتماعية ؟ وما كان لها من نتائج على اعمال المجتمع وحياته وجرائم الافراد وحياتهم .

انا اذا تحرينا الاسباب فيجب ان لا يغيب عن بالنا شعور الانسان بالآداب والاخلاق والفضائل وكونه غريزياً ، ولكن اذا كانت هذه الوازعات غير غريزية فهل ننكر ما تستطيع التربية ان تفعله في الغرائز تهذيبها وارشادها بمعاونة الدين وبمساعدة هذه الوازعات ؟ .

اجل يجب ان نأخذ كل ما عرضناه بعين الاعتبار ، لأن الانسان فيه الاستعداد دائماً لعمل الخير والشر ، وفيه الاستعداد لارتكاب الرذائل ، وفيه الاستعداد لاتباع الفضائل .

فالدين والعلم والتربية ، من شأنها ان تنمي الاستعداد للخير والفضيلة ، والعمل النافع وتغذيه وتظهره .

والجهل وسوء التربية والاحاد ، من شأنها ان تنمي الاستعداد للشر والرذيلة وتغذيه وتظهره .

وهذه حقائق لعمري لا يماري فيها عاقل ، لأننا اذا سلمنا بالمدعى الاول ، اتهمنا الى القول بأن الأمة التي ليس من طبعها عمل الخير وحب الفضائل لا يمكن اصلاحها ، واذا لم يستطع اصلاحها وبقينا في الجهل والاحاد ، وسوء التربية فأين مدينتنا ؟ وأين روابطنا الاجتماعية ؟

وما الفرق بيننا وبين الحيوانات المفترسة ؟ وهل يكون رقي الانسان برقي غريزة الميل للشر والجرائم والرذائل والوحشية والفساد ؟ ام تهذيب وترقية غريزة الاجتماع ، والتعاون ، والاحسان ، والشفقة ، والحنان ، وحماية الضعيف وكلها مما يوجب التمسك بأهداب القانون والدين والاخلاق التي تواضع عليها المجتمع ، وثبتت منافعها وفوائدها وصحتها على مرّ الدهور والايام ؟

على ان الناقين على رجال الدين ، مهما اقاموا البراهين لتأييد مدعياتهم ، وانتقاداتهم لا يستطيعون الادعاء بان الذنب ذنب الدين لا ذنب الانسان مدعي الدين .

ومع هذا ، لا ينكر ما للمصلحين من فضل ، وما لأصحاب الدين الصادقين المخلصين من خدمات ادوها للشعوب بوعظهم ، وارشادهم ، وتعليمهم ، وبحسن سلوكهم وطهارة نفوسهم وبعلمهم وتفكيرهم البصير ومقاومتهم للظلم والظالمين من ملوك وأمراء ، وحكام وحكومات ، كما اننا لا ننسى المصائب والمذابح والخرابات التي سببها الفاتحون والقواد امثال جنكيزخان ، وتيمورلنك والصليبيين ، و نابوليون وهتلر ورجال الحرب وغيرهم ، ممن وعى التاريخ قديماً وحديثاً سيرتهم واعمالهم

وارتكاباتهم الوحشية بتخريب المدن ، ونهب الاموال وقتل النفوس ، وبث الشر والفساد والمبث بالقيم الاخلاقية والدينية .

وحيث اتهمنا من عامل الكفر والاحاد ، وعامل فساد الاخلاق وسوء التربية والجهل وتأثيراتها في ارتكاب الجرائم ، فاننا نبحت عن عامل جديد هادم لعلاقات العائلة وهو « الطلاق » الذي ينضوي على عنصر ديني واجتماعي ، وتأثيره في الاجرام والمجرمين والمخالفات الجزائية .

يقول « لومبروزو » ان جرائم الجنس ظاهرة خاصة بالمدينة التي لا تدن بالطلاق . ويؤمن هو وجماعة من العلماء امثال (نبتا ، وفيازي ، وكرافت) بان الطلاق علاج لمداواة الجرائم الجنسية ، لاغنى عنه عند الضرورة المبرمة .

وقد استنتج هؤلاء العلماء مدعاهم من الاحصاءات التي درسوها عن المانيا وفرنسا وفيها تكثر حوادث الزنى وجرائمه لفقدان السماح « بالطلاق » خلافا للبلاد التي اباحت . ولكن هنالك احصاءات اخرى تشير الى كثرة وقوع الجرائم في البلاد التي فيها « عدم الزواج او الحب الحر » .

ويقولون ان جرائم الزنى تفرض نفسها مسبقاً على وجود الزواج فاذا منعنا العلاقات الزوجية منعنا الاحتمالات التي تقسده على شرط ان نعمل بشرعية الجمهورية اليونانية القديمة التي لم تتداول بينها عملة مصنوعة من غير الحديد الذي لا قيمة له لنغسل حب المال من القلوب .

ان افلاطون الذي نادى بجمهورية النساء وبدولة الابوة لم يتناقض في دعواه ، ولكن مقدماته لم تكن سليمة ، ولذا لا يعد الطلاق اكسيراً لمعالجة جرائم الجنس حتى ولا ملطفاً لحوادثها لا في اميركا ، ولا في غيرها رغم كثرة شيوعه في الاولى وقلة شيوعه في غيرها ، لان الطلاق كما هو علاج عند الضرورات المبرمة ، هو مهزلة قوية وسخافة اصلاحية . ولذا نسأل هل حوادث الجرائم الجنسية في امريكا اقل أم اكثر من غيرها ؟

ان هيئة التحري عن المفسد الاجتماعية في مدينة (شيكاغو) اثبتت في تقريرها المنشور عام ١٩١١ أن " الطلاق يعد احد العوامل المفسدة للحياة الجنسية . ويؤيدهم في ذلك ما ذكره « اوغست درامس » أن الطلاق يمتشي جنبا بجنب مع الجريمة ، والجريمة بين الاحداث بنيت تحت رعايته . ولولا ان الطلاق في « ايرلاندا » اقل من غيرها ، لما كانت نسبة الجرائم فيها اقل ايضا .

ويشير « هينيون » في تاريخه الفصل التاسع بعد ذكر المقارنة التي ابداهها « اتاسينس » عن حصانة النساء الالمان وخيانة الزوجات الرومانيات الى ان تقدم المدنية ولا شك له تأثير عظيم في تسكين شهوات الانسان الطبيعية ، ولكنه لم يخدم العفاف والفضيلة الذين يعد (التمتع الدماغي) اعدى عدو لهما .

ثم يقول : ان نعم الحضارة تنهار كلما سهلنا مجامعة الجنسين بدون قيود شرعية ، وقساوة الحب تقدر اعظم خطراً عندما نخفيها او نسترها ، بعاطفة شهوانية . ولذا كما تعطي اناقة اللباس ، وغنج الحركة ، وفتنة الشكل لونا جذابا للجمال وتثير العواطف والمشاعر عن طريق الخيال ، فان التسليلات ذات الترف المسرف ، والمراقص الليلية الاباحية ، والملاهي المأذون لها باظهار المفاتن الجسدية ، لا شك تؤدي الى ضعف الاخلاق وارتكاب المعاصي .

واذا كان الترخيص لهذه الوسائل يعتمد على الترف ، والترف يعتمد على الغنى ، والغنى يعتمد على الثروة ، وكانت الافكار المادية التي يحصنها العفاف تحل القيود ، فهل يستطيع الطلاق ان يقف بعد هذا امام العوامل المضعفة لسلطان العقل والمبادئ الاجتماعية والاخلاقية وغيرها ؟

ان القرائن الموجودة تدل على العكس ، فالاولاد الذين يؤتي بهم الى مدارس الإصلاح خمسون في المائة هم ابناء آباء فرقه الطلاق ، وخمسة وسبعون من الجرائم التي يرتكبها الاحداث ، هي نتيجة لفساد المحيط الذي عاشوا فيه .

وما كثرة الجرائم بين البالغين ، إلا بسبب انهيار بيوتهم وسقوطهم في مهاوي

ردائل المجتمع . وبما ان المتزوجين مهما كانوا لا يستطيعون الحصول على ضمان يمنعهم من ارتكاب اخطاء الزواج وما بعد الزواج او يمكنهم الاصابة بالحسنة في حسن اختيار القرين او القرينة ، فالدولة لابد لها ضمن حدود معينة وشروط معقولة ، من وضع تشريع يتيح بموجبه الزواج ، ويتيح بموجبه الطلاق حتى تتمكن من المحافظة على سلامة العائلة وعلى التقليل من حوادث الافتراق ، اي الطلاق . لان جذور الشر ليست في التفرقة ولكن في الاسباب والعوامل الموجبة للتفرقة ، وهذا ما جعل المشرع الاعظم يقول : « ان ابغض الحلال عند الله الطلاق » .

ومهما يكن امر الطلاق ، فالعوامل التي تسبب اللجوء الى استعمال هذا الحلال المكروه ، او هذه المصيبة التي تعد من المصائب الكبرى في الحياة يعود الى امرين : اولهما الزواج العاجل ، او الزواج بدون اختيار وتدقيق وتمحيص . والثاني سوء السلوك بعد الحصول على الزواج .

وفي هذا السبيل كان البابا اينوست الثالث في عام ١٢١٥ اصدر منعاً عاماً يتعلق بالزواج اتخذ فيما بعد اساساً للتشريع الانكليزي ايام الملك جورج الثاني والثالث ، واساساً للتشريع في امم اخرى . ولكن الاعلان عنه لثلاثة اسابيع الواردة في البيان ليست كافية من حيث المدة ، ولا هي عامة من حيث التطبيق ، ولا مقبولة عند الجميع لجعل الزواج صالحاً .

انما فكرة النهي الصادر ، فيمكن التوسع فيها لمنع الزواج الفاسد . ولذا تناولت الولايات المتحدة درس هذه القضية بكل جد . واليوم في البلاد العربية تشريع جديد مأخوذ من احكام الشريعة الاسلامية التي تعد سلامة العائلة ، وسلامة الرابطة الزوجية ، وسلامة المحافظة على العفة والفضيلة ، وسلامة تربية البنين والبنات وصيانتهم ، من اهم تشريعاتها الفقهية ، سمي بحقوق الافراد والعائلة يضمن للزوجين حسن العلاقة والحقوق المشتركة لدوام الترابط ، وشروط التفرقة عند وجود الاسباب الموجبة ، وضمان صيانة الخلف من العبث ، ويبين ما يترتب

من الحقوق على الزوج والزوجة قبل الزواج وبعده وعند وقوع الطلاق امام
المحاكم المختصة . وهذا التشريع من احسن ما يليق بالمسلمين وبالامر المتمدة
الاخذ به .

والخلاصة ان كل ما يؤدي الى هدم العائلة وخراب البيت وتشتت افرادها
وهدر ما كان بين الزوج والزوجة من حب ورباطه يؤدي الى هدم كيان الوطن
والامة ، لان البيت والعائلة دعامة لها واساس دائم للمجتمع والحياة الطبيعية ،
ولا شيء يهدد هذه الدعامة ويعمل على زعزعة اساساتها مثل فساد الاخلاق
الشخصية ، وفساد التربية الزوجية ، وانحلال المبادئ الاجتماعية .

ولما كانت الامة التي تنحل فيها الروابط المتقدم ذكرها وتنتشر بين افرادها
روح الاباحية ، والخروج عن الحقوق العائلية وحقوق العلاقات الزوجية فان
جذور مجتمعا لا بد ان تصاب بالوهن والمرض الذي يعرض كيانها للانحلال
والانهيار . وقد صدق من قال :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا



فكرة الالهية في الانسان

كيف نشأت ومتى ابتدأت ؟

ما هو التلبث ، اصل وتطوره

اذا سلمنا جدلاً بأن الانسان حيوان اجتماعي بالطبع ، وان الدين ظاهرة اجتماعية ملازمة للمجتمع وضرورة من ضرورات الروح ، فمن مقتضيات ذلك ، ان نبحث عن « الفكرة الالهية » التي يمثلها الدين ، متى وجدت ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف تطورت مع كرم الازمان ومرر الاجيال ؟

نعم ، إن ذلك ضروري ، ولكن اذا تعمقنا في تاريخ الانسان ، لانبج جواباً شافياً يثبت لنا ان « الفكرة الالهية » قد وجدت في تاريخ معين ولا ابتدأت في امة او اعم معينة .

لأننا اذا نظرنا الى تكوينات وجه الانسان ، الذي كان يعيش في العصر الحجري ودرستها من آثاره وبقاياها المتحجرة التي وجدها الباحثون في (جاوه ، فلسطين ، سوريا ، شمالي العراق) وفي غيرها من بقاع الارض ، لا نرى فيها ما يدل على مقدرة صاحبها على ادراك الكائنات ، اولى اي فلسفة تشير الى وجود الخالق ، بل كل ما دللت عليه بقايا آثاره ، وهيكل وجهه ، وطبائع حركاته ، انه كان انساناً شبيهاً بالحيوانات التي عاش واياها في محيط واحد ، وانه كان عديم الكلام ، وان الحوائج التي كان يستعملها محدودة للغاية ، وان افعاله التي كان يأتيها محكومة لغرائزه لا لقوة عقلية فيه ، وان هذه الافعال كانت مصروفة لاشباع جوعه وشهوته وغرائزه المتعددة ، التي كانت تتحكم فيه وتسيره لوقاية نفسه من الحر والبرد والمهلك ، وانه استخدمها لتحضير الاحجار كآلة الحفر والتنقيب في الصخور ، واستعملها للمذبح ، والصيد ، وقطع الشجر ، ولقدح الصوان ، واشعال النار .

ومن المحتمل ان تكون تولدت في نفسه افكار تشير الى احلامه ، وتخوفه من الاشباح والقوى الطبيعية ، والى ما يترأى له في الظلام ، وانه كان يحلم في ذلك ، كما تحلم الكلاب والخيول ، ويخاف من المراتب والاصوات ويرتعب منها متوهماً ايها كائنات مضرّة .

وقد تكون هذه الافكار ، جرثومة أصلية تكونت منها عقائده واديانه . ولكن هذا الانسان الذي عاش قبل مليونين من السنين ، او قبل خمسمائة الف سنة ، على تقدير بعض علماء طبقات الارض (والانتروبولوجيا Anthropology) لم يمش في غربي آسيا ولا في جنوبي اوربا ، حيث توجد آثار الانسان العاقل . ولا كان الانسان (الايونتروب Eoanthrope) الذي هو أقدم انسان 'وجدت' آثاره في اوربا ، وعاش بين الخمسمائة الف والمئة الف سنة ، ولم يكن قادراً على اتيان افعال عقلية . ولا كان الانسان الذي أتى بعد العصر الجليدي بشكل آخر وعاش في جنوبي اوربا وفرنسا واسبانيا وايطاليا قبل خمسة آلاف سنة وسمي بـ (النيندرثال Neanderthal) وكانت هجرته من آسيا ، ولم تظهر من آثاره علامت التفكير في الامور الغامضة او المجهولة .

ولا كان الانسان الذي عاش في مقاطعة (كنائس القديسين) .

وكل ما يحتمل ان يكون هو الانسان الذي هاجر من اقصى آسيا الداخلية وعاش في الهند ، ثم رحل منها الى اليونان ، وكان من الجنس الآري حاملاً معه الفولكلور (الاغاني الشعبية) الخرافية الاولى ، وتوالت ذريته وانتشرت في اطراف حوض البحر الابيض المتوسط ، وامتزج بالاقوام التي انقرضت بتأثير الحروب والمرض ، وذابت وتحولت بفعل التمثيل .

هذا الانسان كان الأول في نشوء الفكرة الباحثة عن العالم المجهول (عالم الأرواح ، والشياطين ، والجن ، والآلهة ، والآلهات) وغيرها .

وقد يكون هذا صحيحاً وقد لا يكون ، لأن العرق الآري ليس وحده يملك التفوق في كل شيء ، ولا يمكن الجزم بأن الفكرة المذكورة نشأت عنده وحده فقط ، بل إن الشعوب السامية التي عاشت في الجزيرة العربية وفي بلاد بابل ،

وفي مصر وأفريقيا الشرقية قد تكون هي صاحبة الفكرة ، لأنها اقرب الى جحر الديانات ، وتقدم الفكر الانساني في مجال العقائد والعبادات من سواها .

ولكن كيف تطوّرت وانقلبت الاساطير المتولدة عن هذه الفكرة ، حتى أصبحت عناصر الدين والنظريات الدينية ؟ وكيف تمكن ذلك الانسان ، ومن تناسل منه ان يتخيلوا هذه الاساطير وهذه الخرافات ، ليعبروا بها عن نظرياتهم وعمما جال في عقولهم ؟

من المحتمل ان الانسان الابتدائي لم يخترع الاساطير والخرافات عن قصد ليعبر بها عن عواطفه وميوله^(١) ، ولا ليمين ما يتحسس به ويلامسه من قوى الطبيعة ومظاهرها ليؤلف منها ديناً او يصطنع منها نظريات اولية يتكوّن منها الدين ، ولكن كان شأنه كالفصصي الذي يخترع الاحاديث والروايات ويزيد فيها وينمقها بأكاذيبه كلما رواها وقصّها حتى يكاد يمتدحها وبصحتها .

كان يروي الخرافات والروايات عما يترأى له ويشير مخاوفه وانخداعه ، ويعبر بها عن شعوره وتألمه وأحلامه وميوله ، ثم يكررها الى ان يظنها حقائق يعتقد بها ويحمل نفسه على الاعتقاد بها وحيّاً من نفسه ، اي (بايحاء النفس) لاشباع الغرائز .

ومثلنا مثله اذا سمعنا حادثة ملذّة فالتنا نرويها الى الغير امام المجتمعين او امام من نتوسم فيهم حب السماع ، ونضيف اليها ما يزيدنا لذة ويزيدها قوة وتأثيراً . وأما السامعون فمنهم من ينسى ألوانها ، ومنهم من يزيد عليها ايضاً ما شاء له تخيلته وافكاره بحيث يجعلها رواية جديدة غير التي سمعها أو نقلها .

ومن يتتبع تاريخ « الرواية » يتبين له ان الكذبة الواحدة تلقى في الآذان ،

(١) ان « فرويد » فيما تقدم من المقال يعتقد بحسب دراساته ان الاساطير والخرافات أوجدها الانسان للتعبير عن المكبوت من عواطفه وميوله الغريزية ومع هذا فالعرض التاريخي الذي سنذكره في هذا المقال هو يؤيد قول الطبيب المذكور نسبياً وبالنظر للتطور الفكري في قضية الفكرة الالهية .

وبعد سنين يشار اليها « كخديفة » وبعد خمس وعشرين سنة تغدو « حكاية » ،
وبعد مئتي سنة تصبح « اسطورة » ، وبعد خمسمية سنة تروى بالتواتر ، وبعد ألف
سنة تصب في الازهان كعقيدة ، وفي نهاية الالف سنة ، تصبح جزءاً
من الايمان .

هذه قصة (آدم وحواء) تناقلتها أئمة العالم ورواها قديماً وحديثاً سكان
القارات وعرفتها آسيا وأفريقيا ، واعتقدت بها أوروبا ثم سارت الى امريكا ،
وعادت الى مركزها الاصلي في جزيرة « سيلان » وزارت صخرة آدم التي
انطبع عليها قدمه قبل ان تمدن أوروبا بآلاف السنين ووثقت شعوبها بصحتها
كما وثق معظم الناس بوجود آثار قدم « عيسى » فوق جبل الزيتون ، ووثق
المسلمون من وجود آثار قدم الرسول محمد « ع س » فوق صخرة بيت المقدس عند
عروجه الى السماء ، وكلها يمكن ان يتخذ أدلة على ما يعتقد البشر بصحته ،
وصدقه دون جدل ، بينما العقيدة ذاتها لا يقرها المنطق ولا العلم رغم ورودها في
التوراة وفي كتب الهند مكتوبة بالسنسكريتية ، وفي الواح البابليين ، قبل
موسى والمسيح .

والذي يظهر ان اليهود نقلوا قصة آدم وحواء عن الهنود والبابليين ، كما
سمعوها وأضافوا اليها ما شاءت مرامهم وتخيلتهم وقصّوها في سفر التكوين .
ونقل الآخرون الاسطورة ذاتها عن الأمم التاريخية الأخرى بصورة تختلف
قليلاً أو كثيراً عما ورد في السفر المذكور ، ثم نقلها المسيحيون ، والهنود ،
والمسلمون ، واعتقد بها الناس لا كأسطورة موضوعة ، بل كحقيقة واقعة هبطت
من السماء .

والحقيقة ان قصة آدم وحواء وردت في كتب البابليين والآشوريين قبل
موسى بقرون وذاعت بين الآشوريين والحثيين والآراميين مثلما ذاع الكثير
من الاساطير المصرية ، وكادت تروى بالتواتر ليس في أئمة آسيا وأوروبا وأفريقيا
بل في شعوب سكان المكسيك و « بوكاتانا » وغيرها من البلاد النائية ، وتناقلتها
الأسن بألوان مختلفة ، ولكنها في الاساس واحدة في موضوعها وعناصرها ،

حملها المهاجرون الذين انتقلوا من قارة الى قارة ، ومن مكان الى مكان ، وحملوا معهم خرافاتهم واساطيرهم وعقائدهم .

وايس هذ فقط ، بل نجد في « غوانيا » الهولندية قبائل تنقسم الى ثلاث فئات : الاولى من العبيد الهاريين ، والثانية من السودانيين ، والثالثة من الهنود الحمر ، وكلهم قد اختلطوا ببعضهم وتزاوجوا ، وجاء منهم النسل الحاضر وهو يدين بمبادات وعقائد تحمل في اساساتها « الودية او الوديزم Woodism أي « الحراشية » التي هي أنواع من عبادة الشجر ، والسحرة ، والخرافات ، ولها طقوس خفية يقوم بها سكان « الهند الغربية » ، وقبائل بلاد « غوانيا » المذكورة في جنوبي امريكا ، الذين هم من سلالة السود ، وتحمل معها اساطير الهنود الحمر الامريكانيين ، وبعض عقائد من بقايا المسيحية القديمة ، ولهم آلهة متعددة من بقايا الوثنية ، ولكنهم اختصوا باله واحد من بينها سموه « الاله العظيم » ، له امرأة إلهة اسمها « ماريا » ، أي مريم ، وله ابن اسمه « المسيح » (زيسوس — كرايست Jesus - Christ) .

ونجد مثلهم سكان « جاوا » الذين يعتنق اكثرهم الديانة المحمدية ، وفي ذات الوقت يمارسون طقوساً توارثوها عن العبادة « الأنيمية » ، اي عبادة الحيوانات ، وهي عبادة وثنية قديمة وديانة تعتقد بعالم الارواح ، وبوجودها في السماء والأرض ، وفي كل جزء منها ، في الاحجار والاشجار والانهر والجبال والحيوانات والوديان ، وتفرع عنها « الفيشية » مضافاً اليها بعض معتقدات حديثة من المسيحية ، جعلت ما يؤمنون ويعتقدون به مجموعة غير متلائمة تركبت عناصرها من كل دين احتكوا به قديماً وحديثاً .

ومن غريب أمرهم ، انهم يتشهدون بالشهادة الاسلامية المحتوية على « لا إله إلا الله وحده لا شريك له وان محمداً رسول الله » ، وينطقون بها في صلواتهم . ومن جهة ثانية يعبدون ارواحاً كثيرة يعتقدون بتأثيرها في سعادتهم وشقائهم ، ويسمونها « هيانغ Hyang = او يانغ Yang » ، ويتخذون لكل مزبة « يانغا » خاصاً بها ، ويقىمون مذبحاً بالقرب من الاشجار او تحت ظلالها ،

ويقدمون له الازهار ويحرقون البخور لأجلها ، ويعتقدون بالارواح الشريرة ويسمونها عفاريت او شياطين ، وعي في نظرهم تسبب لهم الامراض والمصائب .

« فنتيك Mentick » يؤذي حقول الرز ويصيبها بالقتل . و « سوان Swan » يسبب للاولاد مرض الصرعة ، و « دينجيان Dengen » يولد النقرس وريح المفاصل ، و « كي Ki » يهب الغنى للناس بدلاً عن ارواحهم ، و « يوسف Joseph » يكسب الجمال واسمه وارد في القرآن والتوراة .

والجاويون يتوسلون بموسى لينجهم الشجاعة ، وبسليمان يعطيهم الحكمة ، وبعيسى ليجمعهم قديسين ، وبالانبياء الآخرين الوارد اسمهم في الدين الاسلامي لأمور أخرى ، وهم مسلمون يؤمنون بالقرآن وبتعاليم الديانة المحمدية .

وأما سكان « الكونغو » في افريقيا فلهم نوع آخر من الديانة الفيتشية والانيمية وهم يعتقدون بالتعاون والسحر ، ويعتمدون على العرافين ويشترون منهم الرقيات من قوقعات البزاق ، وزيل الطيور ، وریش الاجنحة ، ويحملونها معتقدين بأن لها قوة سحرية تشفي أمراضهم وتقيهم شرّ الارواح الخبيثة ، وتجلب لهم الخير والبركة والحب والتفرقة ، ولهم اعتقاد في الصلبان المسيحية ، يشترونها لانها في نظرهم أقوى سحراً وفلاً من الأشياء الاخرى ، ويعبدون انفسهم سعداء إذا حصلوا على هذه التعاويذ وأمثالها .

وفي مملكة « الحبشة » قبائل عديدة ينحدر معظمها من السلالة القوقازية ، وان كان لون اجسامهم أسود او نحاسياً حبشياً ، فان لهم قدوداً هيفاء واعضاء متناسبة ، وجمالاً جذاباً ، ويدينون بالمسيحية الاولية ويتبعون الكنيسة القبطية ، ولهم طقوس وعادات ومعتقدات من بقايا الوثنية لازالوا يمارسونها ويعتقدون بها .

ولا يقتصر هذا على عامة الشعب بل ان ملوكهم يعتقدون انفسهم انهم من سلالة سليمان الملك ، ولذا توجد في ديانتهم آثار من اليهودية منها « ختن الاولاد ، وتعدد الزوجات ، والأكل وفقاً لتعاليم موسى » ، ولكنهم يعمدون أولادهم حسب طقوس الكنيسة الارثوذكسية ، ويصومون الايام التي تصومها ، ويعبدون عدة

قديسين ويقدمون « مريم العذراء » ويطلقون عليها « ملكة السماء والأرض » ،
والواسطة الشفعية بينهم وبين الاله .

والجيشيون يقدمون نهر « الغابا — Gaba » كما يقدم الهنود في الهند نهر
« الغانج — Gange » ويذهبون اليه في عيد « يوحنا المعمدان » ويغتسلون ويتعمدون
بمائه ، ويعيدون الزيارة والاعتسال مرة ثالثة بتمجد واحترام في عيد الميلاد ،
ويقومون لهم عيداً خاصاً على شواطئ النهر المذكور يمارسون في ايامه ما كان
لهم من عبادة الجنس وما تبقى من أعيادهم يمارسون فيها طقوس عقائدهم المسيحية .

وكان العرب أيام جاهليتهم يعبدون الاوثان ، ولهم عدة آلهة من ذكور
واناث ، وكانوا يعتقدون بتزاوج الآلهة وتناسلها ، ومن بين الزوجات الآلهات
كانت « اللات والعزى » . ولما جاء الرسول حارب الوثنية وقضى على الآلهة التي
كانوا يعبدونها ويضعونها داخل الكعبة التي هي من اقدس معابدهم ومن اقدمها ،
وحملهم على التوحيد وعبادة إله واحد لا شريك له ، واتخذ عنوان دينه الوحدانية ،
وشهادة أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله .

ومع ما دلت عليه ديانة الرسول من وحدانية الاله ، وكيفية التعبد له ،
فان بقايا العقائد القديمة من جن وشياطين ، وغفاريات ومردة وأرواح شريرة ،
بقيت مستحوزة على عقول العرب ، وورد ذكرها في كثير من الاقوال على
أسنة شعرائهم وروايتهم قديماً وحديثاً والحقت بها الاساطير والحكايات الواقعية
التي يرويها قصاصوهم وتبحث فيها كتبهم .

ومع ان الاسلام دين العقل والبرهان والعقائد الاسلامية واضحة في القرآن ،
فان المسلمين في مصر وسوريا والعراق والهند وتركيا والمعجم ، وفي غيرها من
الممالك الاسلامية ، لا تزال لهم عادات وعقائد وطقوس يمارسونها كأنها من
مقتضيات الاسلام ، وهي في الحقيقة خارجة عنه وعن تعاليمه ، ومن بقايا الوثنية القديمة ،
ومن بقايا المسيحية واليهودية والقبطية والفينية التي كانت سائدة في البلاد التي فتحها
الاسلام .

وفي اوائل العصر الحديث كان الاضطراب في العقائد ظاهراً بين اصحاب

الفكر واصحاب الدين ، ولذا نشأت الافلاطونية القديمة ، والافلاطونية الحديثة وتعددت المذاهب والفرق المسيحية .

وقديماً كانت المآنية والمونتانية والغنوسية وهي من بقايا أديان وعقائد قديمة ، ولكنها تطورت ودخلت في الدين واحتلت الافكار .

ولا يخفى ان المآنية اي مذهب القائل بوجود الخير والشر ، والكلمة والنور تنسب الى « ماني » وهو رجل ايراني ظهر في بلاد فارس في القرن الثالث بعد المسيح وجعل ديانته مزيجاً من عبادة الشمس والبوذية والمسيحية ، وعاشت ديانته على شواطئ البحر المتوسط حتى حوالي القرن السابع ثم اضمحلت .

والمونتانية تنسب الى رجل اسمه « مونتان » دعى للديانة المسيحية بالرجوع الى الاصل التي كانت عليه وشدد بضرورة الاحتفاظ بها وبتعاليمها .

والغنوسية = Gnosticism معناها مذهب المعرفة او مذهب الادرية وهي مذهب ظهرت تعاليمه في القرون الاولى من ظهور المسيحية ، قام به وبتعاليمه وفلسفته طائفة من فلاسفة اليونان المفكرين لتصوير الحقيقة وتعريف معنى الاساطير القديمة وماتدل عليه ، وشرح حقيقة الاديان الموجودة في العالم « عالم اليونان والامبراطورية الرومانية » وحلّ غوامض الكائنات .

ويظهر ان الغنوسيين كانوا يريدون ان يؤلفوا دينهم وتعاليمهم من الاساطير اليونانية والرومانية القديمة ومن ديانة الفرس ، وعقائد الكلدانيين ، ومن الفلسفة اليونانية وتعاليمها الفكرية ، ومن الديانة اليهودية والديانة المسيحية الاولى ، وان يجعلوا من كل هذا ومن مزيجها عقيدتهم القائلة بوجود اله قديم أزلي هو مصدر الخير وانه كائن في لجة لا ادراك بعدها ، وان المادة قديمة ولكنها سبب الشر الموجود في العالم . ويقولون ان « الأيونات » قد تولدت من الاله ومن المادة ، وان الارواح التي تولدت منها المادة خلقت من العالم غير المرئي . وكان « سرنيتوس » وباسيليدوس ، وكاريوكرات ، من أهم علماء هذه الديانة .

ومما يدل على ان الديانة المسيحية في اول عهدها كانت تؤمن باله واحد ،

ان فكرة الابن لم توجد قبل القرن الثالث ، ثم من بعد ذلك قالت الكنيسة إن المسيح هو ابن الله ووصفته بالالوهية . وبعد سنين ظهرت فكرة «روح القدس» وألوهيته فغدت المسيحية «ثلاثة» أي تقول : «الآب والابن وروح القدس» ، وبذلك انقسمت المسيحية الى عقيدتين : الاولى تقول بالوحدة ، والثانية تقول بالثلاثية . وفي القرن الرابع تغلبت العقيدة الثانية ، أي العقيدة التي تقول بالاقانيم الثلاثة ، واصبحت عقيدة المسيحيين عامة .

وبالرغم من أن فلاسفة الكنيسة أرادوا ان يفسروا الثلاثية بأنه مظاهر ثلاثة لاله واحد ، أي اسماء ثلاثة مختلفة لشيء واحد ، وان هذا الواحد هو الآب «الخالق» والابن هو «المخلص» وروح القدس هو «واهب الحياة» ، ولكن اكثريه المسيحيين يعتقدون بأن الآب والابن وروح القدس آلهة ثلاثة منفصلة عن بعضها ، وان قالوا بالاله واحد «الآب الذي في السماء» .

ومن المؤكد ان كل انسان يعتقد بأن دينه على حق ، وأن دين غيره على باطل ، وسواء أكان هذا صواباً أم لا ، فان واقع الاعتقاد متأصل في الافكار منذ وجدت الاديان .

وكانت مظاهر هذا الاعتقاد تشتد وتضعف حسب تطور الفكر ، ولكنها كانت سبباً لثورات دموية وحوادث انقلابية أزهدت البشرية بمظالمها وفظائنها البربرية ، ولا سيما في القرون الوسطى أيام الحاكم الدينية والتعذيب والاضطهاد الكنائسي .

والذي لا شك فيه أن الميل الديني أمر وراثي يمسك به المرء ، ولو بدا له أن ما يعتقد باطل ، وان عزمه على تغيير دينه اذا رآه مخالفاً للحقيقة أمر يحتاج في غالب الاحيان الى شجاعة فائقة كي يغير عقيدته . ومع ذلك قد لا يقدم عليه لان الانسان مهما يكن يتأثر بالعاطفة وينقاد لحكمها وتأثيرها رغماً عن قناعة عقله بانها ليست على صواب ، ولذا يستمر الناس على ما وجدوا آباءهم ومحيطهم عليه ، ويتمسكون بعقائد دينهم وتقاليدهم مع ان ضمائرهم تعلم ما تعنيه تلك التقاليد وما تخفيه ، ولكنهم لا يحاولون الخلاص منها والرجوع الى منطق العقل

وقد صدق الفيلسوف فيلمون اليوناني عندما قال : « اعبد الله واحترمه ولا تسعَ لمعرفة ما وراء ذلك لانك لا تحتاج الى الزيادة ». وهو قول ينطبق على ما يقوله الامام علي رضي الله عنه « البحث عن ذات الله اشراك ، والمعجز عن ادراك الذات ادراك » .

وقال هيرودتوس المؤرخ اليوناني في عام ٤٥٠ ق.م : « ان اليونانيين كانوا يسمون الآلهة قديماً باسم « الوازع = Dispenser » ولم يسموها باسماء خاصة ، بل كانوا يعتقدون بأنها كائنات أزلية خالدة ذات افعال خاصة ولا يعرفون زيادة عن ذلك . ولما جاء « هوميروس » و « هيسود » ألفا أساطيرهما عن تلك الآلهة .

قال « سيزرو » ، « اننا مجبرون على القول بوجود آلهة بحكم الطبيعة ومجبرون بحكم العقل على معرفة ماهيتها » . وقال احد الكتاب الذين بحثوا عن عبادة الجنس : « ان هوميروس كان يدعو الالهة قائلاً : « اسمعي ايها الملك مها تكن أنت ! » ، ولكن هوميروس كان يشير الى الآلهة ويعتقد ان كل نهر له إله . ولما خاطب « أوديسوس » الاله أراد « إله النهر » الذي طلب منه المعونة والنجاة وهو يسبح في النهر وكان قد جرفه السيل حتى اوصله الى المصب وكاد يقضي على حياته فاضطرا الى ان يستغيث باله النهر ثم سبح في البحر ووصل الى اليابسة سالماً .

وكان عظماء الناس في ذلك العصر ورجال الفلسفة وعلية القوم والمعلمون يعلمون ان ما يروى عن الآلهة من اقايص وروايات هو من صنع خيال الشعراء والكتاب ، ولكن العامة كانت تتناقلها كأنها حقيقة تؤمن بها ، ودليلنا ان سقراط وافلاطون اعترفاً بمجزئتها عن تعريف الالهة الاولى .

وقال (مياندر — Meander) من فلاسفة اليونان ومن اصحاب مذهب الفئوسية : « لا تسعَ لمعرفة الاله ، ومن يسعى لمعرفة الذي لا يمكن معرفته فهو كافر » .

وكان « مياندر » اول من قال بالنظريات المتعلقة « بالاله الذي لا يعرف » قبل « هربرت سبنسر » الانكليزي بآلاف السنين .

ويظن بعض الكتاب الحديثين كزملأهم الاقدمين ، ان الآلهة كانت في ما مضى أبطالاً ألهمهم الخلق^(١) لوقائهم واعمالهم التي عرفوها ، وهو قول لا ينطبق على كل ما عرف عن الآلهة القديمة ، ولكن الفيلسوف « سبنسر » يصر على ان فكرة تعدد الآلهة وعبادة الآلهة لهما علاقة بتقديس الآباء وعبادتهم وهي من اقدم العبادات كلها .

ويذهب بعضهم مذهباً آخر فيدعون ان الآلهة هي رمز لمظاهر الطبيعة وكناية عن قواها ويستشهدون على قولهم بان الأساطير كانت تعتبر الانهر ابناء الارض والاقانوس ، لان ماء البحر يتبخر ويصعد ثم يعود الى الارض بصورة مطر ويلقيها وتولد عنها الانهر والبحيرات ، وهم يعتقدون ان ما ينسب للآلهة من حروب في ما بينهم وبين الآلهة (تيتونس — Tetons) ، اي الشمس ، يدل على حرب بين عناصر الطبيعة ذاتها . لان الاقدمين من بعض الفلاسفة كانوا يرون في اقايص الآلهة والروايات المنسوبة لهم والآلهات معنى اخلاقياً ، وطبيعياً ، ودينياً ، وتاريخياً لما يجري في الكائنات ، ولذا قال الفيلسوف (ثيوجنيس Theogenes) ان ما كتبه هوميروس في الياذته هو فلسفة الطبيعة ، او علم الطبيعيات كما نسميه اليوم .

وقال (ايومريديس — Eumeridis) لا يوجد شيء خارج الطبيعة ، وكل ماورد في الاساطير محاولة لتفسير الحقائق الطبيعية او تاريخ انصراف الذهب البشري لتفسير وقائع الطبيعة .

وقد صدق (أوغوستين — Augustine) احد علماء الكنيسة القدماء على هذا الرأي وأشار الى ان (زيوس — Zeus) إله الآلهة في اساطير اليونانيين ويقابله (جوبيتر — Jupiter) ابو الآلهة وأبو البشر ، وإله الصواعق ، والحروب والرعد والبرق ، والانتقام ، عند الرومان ، و (افروديت — Aphrodite)

(١) راجع ما كتبه (فرمزر Frazer) في كتابه عن أدونيس إله الجمال عند الفينيقيين .

إلهة الجمال عند الرومان المخلوفة من زبد البحر ، وغيرها آلهة اليونان والرومان ، كانوا في الأصل بشراً لا قدسية لهم ، ثم ارتفعوا الى مراتب الآلهة بحسب الروايات والتواتر .

وقال « بورفيري — Porphyri » : ان للأساطير المتعلقة بالآلهة معنى اخلاقياً وصوفياً ، وما زيد عليها من عناصر الدين كان لضبط العامة .

وكان أريسطويقول بهذه النظرية ويدعي ان القصص هي استعارات اوجدها رجال السياسة والقانون ليحملوا الناس على الطاعة للقوانين والخضوع للأوامر .

وذكر « بلوتارخ » في مقالة له عن الخرافات : « ان جهل الناس بالآلهة يسبب الالحاد في الرجل العنيد ويجعل الرجل الضعيف سريع التصديق . » وقال : « ان الملحد لا يخاف شيئاً لأنه لا يعتقد بشيء ، والرجل الخرافي يعتقد بالآلهة ويعتقد انهم اعداء له ، وخوفه من بطشهم وعذابهم لا يفارقه الخوف كلما اصابته مصيبة او داهمته حادثة ، وقد تمتد به الخوف الى ما بعد الموت فترعبه وهو في الحياة ، الاشباح وهول النيران ، وزبانية جهنم وغيرها مما صور له . »

وفي الافلاطونية الحديثة : « ان الله والمادة شيء واحد ، وانه موجود في كل شيء » . (١)

ويعتقد العقليون Rationalist القائلون بالافلاطونية المذكورة الذين هم اصحاب « وحدة الالهية المادية Materialistic - Panthesism ومذهب (وحدة الوجود — Panthesism) يقول : « ان الكائنات يحكمها عقل ازلي قدسي يظهر في النباتات والحيوانات والجمادات ، وفي غرائز النحل ، وفي عقل الانسان . » (٢)

وعند اصحاب هذا المذهب ان الله يستحيل على العين رؤيته ، او اليد ان تلمسه ، لأنه ليس كعقل الانسان وليس له يد كيد الانسان ولا ارجل كأرجله

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية لبرتراند رسل — Bertrand Russel ، رسالة (الآلهة)
لروبرت اينغرسول — R . Ingersall .
(٢) الفارابي والمدنية الفاضلة .

ولا جسم كجسمه ، بل هو كائن مقدس لا ينطق ، بل يتجلى في جميع الموجودات ويسري فيها كما يسري الفكر في المصنوعات .

ويقول « بارمينيدس » المولود عام ٥١٥ قبل الميلاد : « ان ارواح الاحياء بعد الموت لا تقف بل تعود الى العقل العام النافذ في الموجودات ، لتظهر في مخلوقات جديدة » .

ويعتقد الفيثاغوريون اصحاب فيثاغورث الفيلسوف « ان المخلوقات خلقت من العدد ، وان الاعداد هي حقائق الموجودات . » ونقل اريسطو عنهم : « ان الفيثاغوريين ، ومن كان قباهم ، اشتغلوا في درس الاعداد والعلوم الرياضية ، وأوجدوا لانفسهم هذه النظريات ، وبعد أن تعمقوا فيها ، اعتقدوا ان اول مبادئ هذه العلوم هي اول مبادئ الاكون كلها » .

وحيث ظنوا بأنهم وجدوا التشابه بين العوالم والأشياء الحادثة غير النار والماء والتراب والهواء ، فقالوا على سبيل المثال ، بأن من خواص الاعداد « العدل » ومن خواصها النفس والعقل ، ومن خواصها الحظ والحب ، وهكذا لكل شيء عدد خاص به . وقالوا بل ان الاعداد لها علاقة بالاجابية والسلبية ، وتعليل التناسق الموسيقي ، لأن الواضح عندهم انتهاء الاشياء الاخرى في طبيعتها وخواصها بالاعداد التي هي الاول ، وهي العلة المادية للكائنات بأجمعها .

وعندهم ان اوليات الاعداد هي اوليات الموجودات ، وما الكون في رأيهم إلا عدد وتناسق . وكما ان الاعداد المفردة هي اوليات الاعداد ، فان العدد هو سبب عادات الكائنات وافعالها اللازمة ، ويرون أن الوتر والشفع من العدد هما عناصر العدد ، فالوتر اي الفرد محدود ، والشفع اي المزدوج غير محدود . والوحدة تتألف من الاثنين ، لأن الوتر والشفع مع ذلك العدد تؤلف الوحدة . وعلى هذا فكل ما في السموات مكون من الاعداد . ويدعي غيرهم بأن العلة الاصلية هي عشر ، ويرتبونها على الوجه الآتي :

١ - محدود وغير محدود

- ٢ - الوحدة والتعدد
- ٣ - السكون والحركة
- ٤ - الاستواء والالتواء
- ٥ - النور والظلمة
- ٦ - المربع والمستطيل
- ٧ - الخير والشر
- ٨ - الوتر والشفع
- ٩ - اليمين واليسار
- ١٠ - الذكر والاثني

ويصف أريسطو آراء الفيثاغوريين والفلاسفة الذين تقدموم ومن أتى بعدهم قائلاً: «ان الاعداد هي علة وجود جميع الموجودات ، ولذا هي كالألهة» .

وقال كسثيوفان المولود عام ٥٥٠ قبل الميلاد: «إن الاله واحد ، وهو اعظم من الآلهة ومن الناس ، لا يشابه أهل الفناء لا في وجوده ولا في عقله ، يرى ويسمع ويعلم كل شيء بدون آلة ولا عضو ، ويدبر الموجودات وهو كائن في محله ، ولا يتحرك من هنا الى هنا ، ولا يليق به الانتقال» .

وقال : «يظن الناس ان الآلهة تلد كما يلدون هم ، ولهم ادراك كادرا كهم وصوت كصوتهم ، ولو ان الثيران والاسود كان لها ايدي ومقدرة على التصوير ، كما للانسان لرسم الاسود والثيران صورة الله كصورتهم ، وكذا كل حيوان يرسم صورة الله على شاكلته» . «ألا ترى كيف يرسم أهل الحبشة رسم آلهتهم بلون اسود لأنهم سود الاجسام ، ويرسم أهل «تراقيا» - Throcians ، آلهتهم بشعر اشقر وعيون زرق لأنهم شقر الشعور وزرق العيون» .

ومن العجيب ان ينسب هوميروس وهيسود للآلهة صفات يعاب الانسان عليها كالسرقة والزنا والخداع ، ولكن اريسطو يقول : «لا يوجد ولن يوجد انسان يعرف المعرفة الحقيقية عن الآلهة وعن الموجودات مثلما أعرف ، واذا

صدف وقال الحق فانه سوف لا يعرف بأن ما يقوله هو الصدق . والناس احرار ان يقولوا ما يتصورون .

ثم اتبع كلامه بقوله : « ومن الاقوال التي نتصورها ما يشابه الحقيقة ، لان الآلهة لم تعلم الانسان ما يجب أن يعرفه عن البدء » .

وقال « براتوغوراس - Pratogores » المولود عام ٥٥٠ بعد المسيح عن الآلهة : « اني لا استطيع قول شيء يثبت أو ينفي وجودهم » .

ولهيبيود آراء تتعلق بالاديان ، تشير الى تاريخ العلاقات الجنسية والاعمال الجنسية بين الآلهة ، وفيها صور الانسان واعتماده على الآلهة وارادته وبيان ضعفه تجاهها وتجاه ما يساوره من الهواجس بأسطورة قال فيها : « والان سأقص على الملوك حكايتي وهم المفروض بأنهم عقلاء » .

قال الباشق يخاطب البلبل الغريد ، بينما كان يقلبه بين مخالبه ويطير به الى السماء ويفرغها في اطرافه والطير يصرخ متألماً من مصابه : « ايها التمس ! لماذا تصيح ؟ ان صوتك يدوي اكثر من صوت الذي قبض عليك ، انك ستذهب الى حيث أمرك ، وان كنت غريداً فاني أتعشاك واطلق سراحك . ما أبله الذين يقاومون من هم اقوي منهم ! انهم ينالون جزاءهم ويتألمون فوق الزرابة التي تلحق بهم » .

ثم قال هيبيود بعد هذه الحكاية : « ان الانسان لا يتعلم الامثلة الا عندما يصاب ويتألم ، ولكن من يحاكم ابناء البلاد والغرباء بصورة منصفة ، دون ان يتجاوز العدل لاجل هذه الازهار . ان الارض تنتج اشجار السنديان فوق الجبال لاجلهم ، وبين الاشجار تقوم خلايا النحل . واما الامهات فيلدن اولاداً شبيهة بآبائهم ، والاراضي المنبتة تؤتي انتاجها ، واما الذين لا يهمهم إلا الباطل فالاله « جوبيتر » الواسع النظر ابن « كورونوس - Cronos »^(١) بن اورانوس فسوف

(١) كورونوس : إله يوناني ووالد جوبيتر وهو ابن اورانوس وكما ان كورونوس والد جوبيتر فله اولاد آخرون « بنيتون ، وجونو - Juno ، وسيريس - Ceres » ملك السماء ثم طرده ابنه جوبيتر منها ، و كورونوس في اليونان يماثل « ساتورن اي زحل » إله الرومان .

يعاقبهم» .

وكان «تاليس - Thales» المولود عام ٥٨٥ قبل الميلاد، يعلم الناس ان ارواح البشر خالدة، وهو اول من اكتشف ان للشمس محركاً تدور عليه، وقاس قطرها وبين ان يفوق قطر القمر بسبعائة وعشرين مرة .

وذكر اريسطو وهيباس ان تاليس كان يدعي بأن للجادات ايضاً ارواحاً واستدل على ذلك من حجر المغناطيس والكهرباء . ومن اقوال تاليس : « ان الله اقدم الموجود، ولم يلد ولم يولد » .

وقال سينرد المولود في عام ١٥٠ بعد الميلاد : « لو أمكنني ان ادرس تراث اليونان، والامم التي عاشت في الماضي واستخرج منها ما كتبه علماءهم وفلاسفتهم لما استطعت ان اقول إلا ان الآلهة الاساسية التي ادعاها اليونان وعبدوها وحاكوا حولها الاساطير لم تكن الا بشرأً انتخبت من بين الناس ورفعت الى مقام الآلهة » .

ومع ذلك، فهذه حجة لا تدحض ودليل على وجود الآلهة وكون الامم التي ليس لها فكرة الهية انما هي امم متوحشة وبربرية .

وقال هيرودوتوس في عام ٤٥٠ قبل المسيح : « انه من الممكن ان يعرف كل اله من اين أتى، وهل الالهة موجودة دائماً ام لا؟ وما هي صورها؟ وهل وجدت منذ الامس ام منذ اليوم الذي قبله؟ لأن هوميروس وهيسيود اللذين عاشا قبلي باربعائة سنة اخترعا تاريخ الآلهة لليونانيين، ووضعوا اسماً لكل اله وما له من درجات الشرف، وعيّنوا له عمله وشكله » .

وكان «لوكريتوس - Lucretius» الذي عاش في القرن الاول بعد المسيح عالماً ومفكراً، وله كتب عديدة في العلم، بحث فيها عن طبيعة الانسان وطبيعة الحياة، وفسر ما ارتآه من النظريات بمنطق واضح وآراء جريئة، مجيباً بها عن قضايا الكون والطبيعة، وكان يقول : « ان كل القضايا والحقائق الادبية والطبيعية لها علاقة بنظام عام عضوي او بقوة عامة تمثل الاله الذي نسميه

« طبيعة الاشياء العاقلة » التي من مظاهرها « الانهماك العشي Alma - Venus » وبحسب رأيه : « ان كل ما يتعلق بنظام الحياة وترتيبها وما يتعاق بارتيباط الكائنات الشخصية ، والدهاء المنتشر في كل مكان ، وادراك العقل والخيال لها ، يتحد مع الافكار » .

وكان لا يسلم بسلطة الآلهة الخارقة للعادة ، ولا يعتقد بقوتها على الحكم ، وينكر الحياة الاخروية . وكانت غايته تغيير العقائد العامة بآلهة اوليمبيا ، ومقاومة الاديان وما يروى عن فظائع « جهنم - Hades » ، وكان يعتقد « بليني الكبير » في عام ٦٠ قبل المسيح بدين انساني يعد مقدمة للدين الحديث ، الذي يبحث عن ظواهر الطبيعة دون البحث عن عللها ويسمى « المذهب الايجابي - Positivism » أو المذهب الانساني بشر به « كانت - Canté » في القرن التاسع عشر .

وبحسب هذا المذهب « ان الطبيعة وعمل الطبيعة شيء واحد » . والاعتقاد بوجود كائنات غير موجودة حالياً كالاعتقاد بوجود طبيعة غير الطبيعة الموجودة ، وهو اعتقاد جنوني فاذا صحَّ وجود الاله ، فمن العبث البحث عن تكوينه وشكله ، لانه كائن من الشعور والاحساسات والعقل ، لا من المادة الملموسة ، وهو الطبيعة ولا يعمل ما لا تستطيع الطبيعة عمله ، ولا يستطيع فناء ذاته ولا جعل الفانين خالدين ، ولا احياء الميتين ، ولا جعل الذي عاش ان لا يعيش ابداً ، ولا ابلاغ العشرين الى شيء آخر غير العشرين » . ثم حيَّا الطبيعة أم الموجودات فقال : « لتحيي الطبيعة وليكن لك الحمد يا مصدر الموجودات » - Salve - Parens .
Serum - Omnium - Naturé .

ويقول « ليفي » عن ملك روما الثاني الذي حكمها من سنة ٦١٧ الى سنة ٦٧٤ قبل الميلاد والمسمى « نوما - بومبيلوس - Numa - Pampilus » ، بأن صندوقين وجدا في عام ١٨١ بعد المسيح مدفونين بمجدار « جاميكولم Jamiculum » وهي هضبة بالقرب من روما وفيها معبد قديم ، الاول يشير الى احتوائه جسم الملك المشار اليه ، والثاني الى احتوائه اثني عشر كتاباً تتعلق بالفلسفة ، ولكنها احرقت وقتئذ لانها كانت تهدم بتعاليمها نظام الدين القائم يومئذ .

ولا شك ان روح الاضطهاد الناشئ عن اختلاف العقيدة والمذهب والدين كان موجوداً. وقديماً، وبهذا اجبر «سقراط» على شرب السم، ومات مضطهداً بسبب ما كان يديه من آراء فلسفية، وما يقوم به من تعاليم اخلاقية، ودينية، وسياسية، واجتماعية.

وفي أيام «نيرون - Niron» وكاليفولا - Caligula وقره كيلا - Caracalla من أباطرة الزومان اضطهد المسيحيون وقتلوا، واستصفيت أموالهم. وفي أيام القرون الوسطى، أيام المحاكم الاضطهادية عذب وقتل من كان يقاوم سلطة رجال الكنيسة، أو يدين بعقائد حرّة بتهمة الالحاد والزندقة والسحر.

وجاء في تاريخ العالم لدائرة المعارف المطبوع عام ١٧٤٠ - ١٧٨٠ : ان كازميروس برازيسكي - Casimeris Brazesky المولود في عام ١٦٨٨ انكر صحة وجود الاله وكتب بذلك كتباً كثيرة، وأقام الدليل على إلحاده، بينما كان الجهر بالالحاد والاعتراض على الدين مما يعد نادراً في عصره، رغم ان الناس كانوا يلحدون بالله سرّاً.

ولما علم أسقف «وارشوه» بما يدعيه هذا النبيل الملحد أوقفه لما كتبه في كتابه الذي سماه «البركة الكبريتية الجهنمية» وذكر فيه «أن الله لم يوجد الانسان، ولكن الانسان اوجد الله من نفسه، واوجده من لا شيء».

ولما علم «البولونيون» بما عمله الاسقف قاموا بالدفاع عنه وجلهه من النبلاء وأجّلوا محاكمته لسنة أخرى. ثم أحيلت القضية الى المجلس العام سنة ١٦٨٩، وجرت محاكمته ثم أحيل الى رجال السلطة الكنائسية التي اجتمعت تحت رئاسة الاسقف «ليفلاندا» وقرروا اتهمه بالكفر والالحاد وارسلوه الى مجلس الدولة الأعلى لتجري محاكمته. وكان يتولى النيابة العامة الاسقف «ليتونيان - Lethonian» فجمع ضده عدة كتب ورسائل كتبها برازيسكي بخط يده، أدلى فيها بحجج مستمدة من كتب الوثنيين، ومن مخطوطات اخرى تنفي وجود الاله وقال في آخر مقالة من كتاباته «لهذا فان الله لا وجود له - Ergo - Non - Est - Deus».

ولم تكن كتابته للحق والحقيقة ، وإنما كتب ما ظنه صواباً واعتقده ، لأنه كان يقول : « نحن الجاحدين نعتقد بهذه الكيفية ، وهذا إيماننا » ، وله انكارات أخرى لا لزوم لاثباتها .

أما المتهم فقد طلب محامياً يدافع عنه ، ولكنه رُفِض طلبه . وفي التاسع والعشرين من شهر شباط ، حلف الشهود الستة ومعهم النائب العام بأنهم لم يتهموا المدعى عليه بتأثير الضغينة ولا عرفوا له كتابات أخرى غير التي أبرزت للمحكمة ، ولهذا لم يبق لبرازيسكي حجة يدافع بها عن نفسه .

وفي ١ آذار من السنة المذكورة ارتد عن أقواله المنسوبة إليه امام المجتمعين في بهو الكنيسة ، وكان ملقى على راحلة من الخشب عملت خصيصاً لحمله وموضوعاً أمام المذبح المقدس . وبعد ان قام الاسقف بالمراسم الدينية ، جلس أمامه وتلا احد الحوارات نقض ما كان قاله ، وبين رجوعه عن كفرياتة ، والمتهم يعبد الأقوال كلمة كلمة على مسمع من الحاضرين ، ثم منحه البركة والتوبة عن خطاياہ وجلده بلطف على ظهره علامة التكفير عن خطاياہ ، وبينما كان ينزل الاسقف عن المنبر كان المتهم يصيح بصوت عال طالباً الرحمة من الله ، والملك ، والشعب .

وفي اليوم الثامن عشر من شهر آذار لفظ القائد العام حكمه بالاعدام على الملحد المذكور ، وبحرق كتبه في الساحة العامة والمحكوم قابض بيده على الكتب اللاحدية ، ثم نقله الى خارج البلدة لمكان قضي وحرق جسمه وهو حي ، ثم امر بمصادرة اشياء ومحتويات بيته ، وهدم البناء الذي يسكنه ، وترك المحل مهجوراً الى الابد .

وبعد ان لفظ المارشال هذا الحكم امام الملك وبحضور المتهم ، تقدم الاسقف « روسن — Russen » ، والاسقف ليفلاند ، وطلباً تخفيف الحكم من الملك وتقدم المتهم بالذات واخذ يستغيث ودموعه تنحدر من على خديه وركع على ركبتيه ، وطلب اعفائه من احراق يده وهو قابض على كتبه ، ومن احراق جسمه ، ورجا ان يبدل الحكم بقطع رأسه واحراق الكتب موضوعة على عصا ،

فقبل الملك رجاءه، وامر بتنفيذ الحكم باحراق الكتب والجسم وتقل رمادها خارج المملكة ورميها في الهواء .

وفي عام ١٦١٩ اوقف المدعو « جوليوس قيصر - فانينوس » من سكان مقاطعة نورسيانو في ايطاليا وأحرق في نابولي ، لأنه فاه بامور تدل على الحاده . وكان ذنبه اعتراضه على بعض الفلكيين وقوله بأمور تتعلق بالنجوم والافلاك تخالف ما كان يرتأيه رجال الكنيسة . ولما ارادوا تنفيذ حكم الاعدام سحبوا لسانه بملقاط واحرقوه ، وكان يصيح كالثور الهائج ثم احرقوه بالنار .

وفي هذين المثالين نستدل على روح الاضطهاد التي تحسكت في عقول بعض الناس ومنعت الانسان ان يبحث عن الحقيقة ويخالف ما يعتقد او يقول خلاف ما يقول به غيره من بعض الناس الآخرين ، مثلما جرى للحلاج والسهورودي من علماء الصوفية في العصر الاسلامي ، وقبلهم لمن لم يقل بخلق القرآن أيام المأمون والمعتمد ، من علماء السنة .

وكان من تأثير هذا التعصب الاعمى ان اضطهد وقتل في اسبانيا وحدها من عام ١٦٠٠ الى عام ١٦٧٠ ماينوف عن / ٣١٩٢٠ / ضحية احرقوا وهم احياء ، وكانوا يجردون من كل لباس وتلقى اجسامهم على النيران المتأججة فيقتلص الجلد ويحترق ، ثم تقتلص العضلات وتحترق ، ثم يحترق باقي الجسم ، ويرى الناس المشهد المؤلم المتوحش فتتشعر ابدانهم وترتجف قلوبهم هلعاً وخوفاً ، والويل لمن يتأوه او يعترض او يقول كلمة تدل على شفقة لمصيرهم .

وقد لجأ رجال الكنيسة ورجال السلطة الى احراق المتهمين كيلا يرقوا دم الانسان ، كما اراق قابيل دم أخيه هابيل ، ولكنهم بعملهم هذا كانوا اشد فظاعة واشد ظلماً واقسى وحشية من قابيل ، ومن شابه قابيل .

وامام ماظهر من فظاعة رجال التحقيق ورجال الكنيسة فلا يستغرب الانسان ما كان الاثلمان والمكسيكيون يفعلونه بالحكوميين الجناة اذ يحرقونهم وهم عراة .

وفي اسبانيا كان المحكومون لعقائدهم يلبسون اثواباً عليها صورة الشياطين والابالسة ، ثم يقدمونهم الى النار ، ويروونهم من ثيابهم قبل ان يلقوهم طعمة للنار ، ثم بعد حين من الزمن صدر امر من البابا خليفة المسيح على الكنيسة بابطال التعذيب والحرق ، ولكن بقي اثره في امريكا وفي بعض البلاد الافريقية بين القبائل المتوحشة الذين يرون التعذيب والقتل باعدائهم ضرورياً يقربهم الى آلهتهم لكسب رضاهم ويشفي صدورهم ويطهر نفوسهم .

ومن كل ما تقدم نستنتج ان قضايا التحري عن نشأة الالهية والدين والعقائد كان يجري بطرق عديدة ، وعلى أسس مختلفة يتداخل بها الميل لتصديق الوحي والالهية والنبوة ، والميل الى القومية والحزبية والسياسة ، ثم الميل الى الطائفية والمذهب ، ثم بتأثير المحيط الذي ينشأ فيه الدين والثقافة التي ينتشف بها المؤمنون ، ولم تكن تلك الطرق مما تتفق وأسايب العلم والمبادئ العلمية ، ولذا لم تأت بالتأثير المعقولة ، لأن الفرضيات في مقدمتها كانت واهية فلم تبرز الحقائق من ابجاثها .

ولما ارتقى (١) العلم واصبحت مصادر التاريخ والاديان في متناول الانسان بما اكتشفه من وثائق وآثار ، واتبعه من اصول التحري والاستقصاء والتجريح والاستخراج ، وبما وضعه من علم المقارنة والمقابلة تيسر له ان الاديان في مبدإ تكوين المجتمع كانت تحت تأثير الغرائز وميولها وما ينشأ بينها وبين العقل الواعي والمحيط من علاقات وتنازع ، وان الانسان لم يتخذ الاساطير ويضع الروايات ، ولم يمسك بالخرافات والقصص والسحر والتعاويذ والتراتيل والعبادات الاتنفيساً لها واشباعاً لرغائبها واحياناً لكبح جماحها .

ومما دلنا على التنفيس في تفسير بعض العادات والطبائع ومعرفة اسبابها ، ان عقل الانسان يتكون من ذهنتين : الاولى تسمى الواعية ، والثانية تسمى الخفية او الباطنة .

وان الواعية هي مدار التفكير والانتباه والمحاكمة والقياس والاستنتاج والحكم ،

(١) « فرويد » وعلم النفس ونظرياته في الاديان .

وان الباطنة هي مدار العواطف والميول والغرائز .

وأثبت العلم ان الانسان يملك في باطن عقله ست عشرة غريزة اهمها (حفظ الذات ، والجنس ، وغريزة الخوف ، والانتقام ، وغريزة التملك ، والاطلاع ، وغريزة الاستكشاف ، والأبوة والأمومة ، وغريزة الاجتماع والانشاء) .

وذكر « فرويد » ان غريزة حفظ الذات او البقاء ، وغريزة الجنس هما اقوى الغرائز فملاً وشمولاً في الحياة ، وان الاجتماعية تنشأ عن غريزة الجنس ، وعن الجنسية تنشأ عاطفة الحب والأمومة ومن الحب نشأ الشعر والادب والموسيقى والفناء والنحت والتصوير ، ومن غرائز التوالد وحفظ الذات نشأ القانون والمعادن والاديان والحكومات والمدنيات .

وعلى هذا الاساس يؤول علماء النفس احلام الانسان وتخيلاته ويقولون انها صور لقرارات النفس وما تحويه من دوافع الجنسية المكبوتة واختباراتها ، ويدعون ان الشعر والاساطير والخرافات والقصص والروايات والرسم والنحت والتصوير هي أحلام اليقظة وترجمان العاطفة ، وصور رمزية او حقيقية لما يثور في العقل الباطن من ميول ورغائب واندفاعات لاشباع غريزة الجنس .

وفي نظر علماء مدرسة « فرويد » وبقية المدارس البسيكولوجية التحليلية ان الاديان في بدء امرها كانت ترجمة لما ينشأ بين العقل والمحيط من علاقات ومن تفاعلات اقتضتها الغرائز وخاصة غريزة الجنس والتملك والبقاء .

وما الخرافات والاساطير والقصص والروايات والسحر إلا مظهر لهذا التنازع والعلاقة ، وما كان العقل الواعي قادراً على ادراك اسرار الكون وتلميل مظاهر قوى الطبيعة وحوادثها بالمنطق الرياضي ، ولا بالذهنية الاستقرائية الواعية ، ولذا كانت العبادات وكانت الهياكل والآلهة والمعبودات المتعددة رمزاً لفعل الغرائز والتفكير البدائي العاجز عن ادراك الكليات والمجردات وما وراء هذه المظاهر .

وليس من الغريب اننا اذا رجعنا الى تاريخ الانسان قبل عشرة آلاف سنة

وتحرينا ما كانت عليه أُم التاريخ من قدماء المصريين والبابليين والهنود والصينيين والفرس واليونان والرومان والعرب والفينيقيين ، من اديان وعبادات وآلهة ان نجد عبادة الجنس من جملة العبادات التي امتازت بطقوسهم واشاراتهم . ففي الهند تسربت الى « براهما » في شكل (سيفا - Siva) ، وفي المسيحية تسربت بصورة غامضة ولكن لها اثر بارز في « التثليث » .

وفي أساطير اليونان ان الآلهة تناسلت من تزاوج الارض مع السماء ، وتقول شعوب الفيديك والهندوس والصين والبوليز وسكان زيلاندة الجديدة ، ان السماء والارض كانتا واحدة ثم افترقتا . ويعتقد « السموديون وسكان شمالي أمريكا ، والزلولو ان السماء شخص مخنث ، ويزعمون ان الارض « انثى » واورانوس « ذكر » .

وتقول التوراة ان الله خلق الذكر والانثى على شاكلته . وفي التلمود ان آدم كان خنثى ، ثم انامه الله واخذ من جميع اعضائه وخلق منها الرجال والنساء ، وقال « فيلو » احد فلاسفة اليهود ، وكان معاصراً للمسيح :

« ان آدم كان كآلهة خنثى ، ثم اكمل قوله بانه قسمه الى قسمين جعل منها اي من ضلع آدم « حواء » وجعل الحب والشوق سبباً لاتحاد الجنسين ومصدراً لكل الذنوب والخطايا .

ويقول أفلاطون عن الحب « بانه سوق طبيعي ونتيجة الميل البشري عندما كان الانسان خنثى ، ثم ان « زيوس » قسمها الى شطرين .

ويفسر الهنود بهذه النظرية علة وجود كثير من الحيوانات ، ويقولون ان « بوريشا - Borisha » ومعناه « الروح » كان وحده في الوجود ، ولما أثرت فيه الوحدة قسم نفسه الى قسمين « ذكرأ وانثى » ، ولما هربت الانثى اعتقاداً منها بأن اجتماعها به « زنا » ، لأنهما كان واحداً ويميلان للوحدة ، تعقبها فتحوّلت الى اشكال كثيرة من الحيوانات ، وتحوّل هو الى ضدها الى أن نال وطره منها وبقيت اشكال الحيوانات من هذا التلبس والتحوّل .

وورد في كتاب « الف ليلة وليلة » حكايات بهذا المعنى ، مأخوذة ولا شك عن مصادر هندية . ويقسم الهندو آلهتهم الى ثلاثة اقسام : « معبودات تسكن السماء ، ومعبودات تسكن الهواء ، ومعبودات تسكن الأرض » ، ثم قالوا بوجود إله واحد يسيطر على هذه الآلهة المعبودات وعلى هذه الاماكن ، ثم جعلوا لكل إله من هذه الآلهة المتعددة وظيفة تمثل قوة من قوى الطبيعة ، ومظهراً من مظاهرها (١) .

وفي كتب اليونان المسماة : « هيسود - Hissiod » التي هي بمثابة التوراة عند اليهود ان « زحل » فرّق الارض من السماء بقطع ذكر ابيه المسمى « اورانوس » وقسمه الى قسمين . وفي « معابد الفيلة المسماة - Elephanto » المنحوتة في كهوف قريبة من مومباي في الهند ، صور كثيرة منحوتة في الصخور تمثل الاله « سيفا - Siva » مع امرأته « ساكتي - Sakti » و « بارافاتي - Paravati » بشكل خشنوي وتوجد من بين هذه الصور واحدة يبلغ طولها ستة أقدام ، ولها اعضاء ذات تذكر وتأنث ، أي نصفها ذكر ونصفها انثى . وكان اسم الالهين « سيفا وبارافاتي » قبل الانفصال « فيراج - Virage » وفي ما ذكر الماع لملاقة الاديان الاولى وأساطيرها الوثنية بعبادة الجنس ، وقد تكون خرافية لتعليل ما جهل الانسان حقيقته .

وفي دراستنا للاديان الكثيرة ومقابلتها ، نجد اكثر الشعوب كوّنت لنفسها فرضيات خاصة عن اصل الخليقة وكيفية حدوثها ، وعن الآلهة التي تحكم العالم اما بواسطة الشعراء والمنجمين والسحرة ، او بواسطة الاحلام وتفسيراتها . ومن جهود هؤلاء اشتقت الاساطير التي تبحث عن الآلهة وقوى الطبيعة ، وعن الجن والشياطين والارواح الشريرة ، ثم تطورت فاشتقت الاديان وفيها اثر للعبادة ، ثم اشتق علم الكائنات الباحث عن تكون العالم .

والاساطير في عناصرها تختلف عن الاديان ، لان الاديان المنقولة عن الآلهة

(١) كتاب عبادة الجنس للدكتور « وول - Wool »

او عن قوى الطبيعة الخارقة تخلو من عبادة تسمى اساطير وتحتوي على عبادة وقرابين .

والدين (١) في اساسه شكل او تجسيد يقيمه المتدين للمعبود وفيه الفروض والطقوس التي تمارس لعبادة الاله . وقد عرف « سيرزو — Cecero » ان الدين هو احترام للآلهة ، وكل ما يتعلق بالخوف من الاله والتفكير بالكائنات المقدسة والورع لأجلها ، وفي نظر المؤمن ان الدين الحقيقي ما يتسك به هو ، وما سواه فدين باطل .

ولكن لفهم حقيقة الدين والاديان لا بدّ من الرجوع الى الازمان السابقة التي عرف فيها الدين . وكما قلنا في ما سبق ان العلم لم يكشف لنا ماذا كان يعتقد به الانسان الاول ، اي عندما كان لا يتكلم . ولذا لا نعلم عن عبادة الانسان في الحقبة الاولى من وجوده ، لأن الجهل اسدل عليها الستار ، وما بقي من الآثار التي يرجع تاريخها الى ما قبل مليون سنة لا يمكن ان ترينا شيئاً يدل على ان الانسان المذكور كان له دين او أتعب دماغه بالبحث عن مسائل عقلية غامضة ، وكل ما يمكن فرضه ان الشعور الديني بدأ ظهوره منذ العشرة آلاف او العشرين ألفاً ، وهي فترة قصيرة وضئيلة بالنسبة لتاريخ نشأته . ثم تطورت العبادات وتطورت الاديان وكان لها في بعض الادوار علاقة بعبادة الجنس ، يدلنا على ذلك وجود آثار بارزة في جميع الاديان ذات علاقة بهذا الدور من العبادة .

فالاديان الخاصة بالعرق الآري تشير جميعها الى الاله بكلمة « أب » . « فالألياذة والهيسود » تورات اليونان ، و « الريغ فيدا » تورات الهنود ، و « العهد القديم » تورات الاسرائيليين ، و « الانجيل » كتاب عيسى وما كتبه الحواريون ، « والقرآن » كتاب المسلمين ، فيها الاشارة المجازية للدلالة على لفظة « الأب » او الرب للدلالة على المعبود إله الخلق والخلقة .

(١) كتاب اصل الاديان للأستاذ — J. Macabé ، وكتاب « الله » لمحمود عباس المعاد ، وكتاب الالهية في المعتقدات الوثنية والاسلامية للدولوجي وكتاب « شريعة حموراني » للمؤلف .

ومن المحتمل ان فكرة الدين نشأت في آسيا ، لان نشأة الانسان كان فيها ، وان كان بعض العلماء يذهب الى انها في امريكا ، والبعض يدعي ان اجناس البشر لم تنشأ في محل واحد بل في اماكن متعددة عندما كانت الظروف الطبيعية صالحة لنشوء ونمو هذه الاجناس .

على ان العلماء يتفقون بان اقدم الآثار المكتوبة وجدت في المنطقة الواقعة حول البحر المتوسط وفي آسيا الصغرى ، والهند ، وما بين النهرين « بابل ، وآشور » ، وفي بلاد مصر . ويغلب على الظن ان الانسان الاول نشأ ضمن هذا المحيط وفيها وجدت آثاره المدونة .

في الهند توجد كتابات مقدسة تسمى « الريغ فيدا » تعد من أقدم كتب العالم ، ويرجع تاريخها الى / ٢٠٠٠ / او / ٥٠٠٠ / سنة قبل الميلاد ، وكانت هذه الكتب قبل تدوينها تنقل بالسماع ثم دوت قبل المسيح بستماية سنة والبعض يقول انها دوّنت قبل ألف سنة من الميلاد .

ومن تعاليم « الفيدا » الاعتقاد باله واحد اسمه « براهما » ولكن له خواص ثلاث تجسدت في واحد :

« الإيجاد — Creative ، والحفظ — Preservative ، والهلاك — Destructive » .

وباعتبار الهنود ان « براهما هو الموجد ، والخالق ، وفيشنو — Vishnu هو الحافظ ، وسيفا — Siva هو المهلك » والثلاثة يؤلفون الثالوث الهندي في شكل له رؤوس ثلاثة ، اورأس واحد له وجوه ثلاثة .

وفي جزيرة « الفيل — Elephants » التي اشرنا اليها ، بالقرب من بومباي مغاير اتخذت معبداً ونحتت في صخوره مجموعة من آلهة الهند بشكل تماثيل لها آلات جنسية . ولما احتل قدماء البورتغال تلك الجهات شوهوها ، ولكن بقي منها إله قائم في الوسط هو اعظمها يمثل الثالوث الهندي .

وبعد ازمان كثيرة اتجه الهنود الى عبادة إله سموه « إندرا — Indra »

اي السماء ، وإله آخر سموه « النار — Angy » ثم تطورت الديانة البرهمانية الحديثة فعدت نوعاً من عبادة الطبيعة .

وفي كتاب « الريغ — فيدا — Rig - Vida » تعاليم كثيرة تتناول الطقوس الدينية وانشيد التمجيد . ثم لا كتبت تعاليمها المنقولة بصورة كتاب اختصر الكثير منها ، وادخل بعض الامور التي لم تكن موجودة ، ونسخ منها بعض ما كان يروى عن الكهان .

وبحسب الأساطير الهندية تمثل الآلهة باعضاء لها اربعة او ستة اطراف او اكثر كما كان عند اليونان ، دلالة على القوة . ولما ظهرت اليهودية والمسيحية ، تطورت الديانتان نظير « الريغ فيدا » . فالتوراة أو العهد القديم كانت ستين رسالة وضعها اربعون شخصاً خلال ستمائة سنة من الكتاب الأول الى الكتاب الأخير ، وبدلاً من ان تكون كتاباً واحداً منزلاً من عند الله ، أصبحت مجموعة كتب تبحث عن التاريخ والقانون والسير ، وفيها ترنيمات وانشيد وخطب وضروب أمثال واحلام وهجويات وخيالات وغراميات ، وفيها ما يدل على انه انتاج فارسي ، ككتاب « استير — Ester » وهي ابنة مرداش من قبيلة بنيامين تزوجها « اكسيروس » ملك العجم عام ٤٦٥ — ٤٨٠ قبل الميلاد ونجحت قومها من ظلم « هامان » وزير الملك .

وبعض الكتب الواردة في مجموعة التوراة لا يعرف اسم واضعها ، ولكن يستدل من موضوعها انها مأخوذة عن كتب قديمة لم يعرف أثرها . ومما وجد في التوراة عن قصة الطوفان والخليقة وتوقف الشمس لاستراحة احد الابطال ، وقصة مسح الناس احجاراً أو ملحقاً لسؤالاتهم الفضولية ، وجد مثله وارداً في كتب البابليين والآشوريين ، وفي كتب « برهما » وكلها أقدم من التوراة بألف سنة او أكثر .

والمعلوم علمياً ان القسم القديم من التوراة منقول بالسمع والرواية قبل ان تكتب التوراة بقرون عديدة ، ثم كتبت بعد ذلك بكلمات ذات حروف ساكنة

وموصولة ببعضها البعض ، ثم فرقها الكهنة ليسهل على القارئ أخذ النفس عند تلاوتها ، ووضعوا للكلمات الحروف الصوتية وذلك قبل الميلاد بستمئة عام .

ونظراً لما ذكرناه يمتقد العلماء ان كل كلمة كتبت في التوراة ليست وحيًا من الله ، لأن الكتب — كما قلنا — ليست واحدة ، بل قسم منها يبحث عن الاله والالوهية ، وقسم يبحث عن الحياة الآتية ، والقسم الثالث يبحث عن الفروض والاوامر والعبادات ، وهي مسائل بحث عنها الاقدمون من فلاسفة اليونان والكلدان والهنود والمصريين وأمم اخرى قديمة وثنية .

ويتبين من دراسة التوراة ان العهد القديم يقول باله واحد (١) وهو « يهوا » ، والعهد الجديد يقول بالثلاث . والاله الواحد الذي اشار اليه العهد القديم ليس إلهًا للعالم ، بل هو إله خاص « بإسرائيل » ، اي انه إله قبلي إله « يعقوب واسحق وابراهيم » ، وكان لبقية القبائل آلهة خاصة كما يفهم من قول « راعوت - Ruth ، لنوما - Noami » وهي حماتها « سأذهب كما تذهبين ، وسأسكن حيثما تسكنين ، وسيكون شعبك شعبي وإلهك إلهي » .

واليهود عندما هاجروا من مصر كانوا شعباً منحطاً أولياً ، فاقبسوا عقائدهم وعاداتهم من المصريين ، لانهم بقوا في مصر زمناً طويلاً . ولما توسطوا في التيه عبدوا العجل واتخذوه إلهاً لهم ، ولم يخطر لهم توحيد الاله ، ولا اتجه تفكيرهم لحل المسائل الغامضة لجهلهم .

ولما جاءهم « موسى » أسس لهم مملكة « دينية » جعل الاله الواحد حاكماً لها ، واعتبر نفسه رسولاً مرسلًا من عنده وادعى انه كلمه الخاص ، وانه سينقل اليهم ما يوحى اليه من اوامر ونواهي وجعلهم الشعب المختار ، وظلوا يعتقدون ذلك رغم ان التوراة فيها رسائل تدل على وجود آلهة غير اله اسرائيل

(١) دلت حفريات « لاغارهت : رأس شرا » في شمال اللاذقية ، على ان الكنعانيين الذين سكنوا هذه المدينة قبل الميلاد بالفي سنة ، كانوا يقولون باله واحد يتصرف بالكون وتستمد من قوته بقية الآلهة .

في زمن موسى وما بعده ، كما جاء في سفر التكوين بأن الاله عندما أراد خلق الانسان قال كانه يخاطب قوى خارقة او قوى فوق الطبيعة « نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا » .

وقال في الاصحاح الثاني من سفر التكوين : « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفاً بالخير والشر » .

وفي ذات الاصحاح ذكر عن لسان الحية : « بل الله علم انه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر » . ومضت ألف سنة واكثر والعهد القديم ينقل تواتراً . ثم وضعت الكتابة رموزاً لما كان يقرأ في معابد اليهود للحفاظ .

وعندما جاءت المسيحية وهي مكملة لما جاء في التوراة من نبوءات وغيرها ، ادعت الكنيسة بأن العهد القديم والعهد الجديد هما كتاب واحد ، ولكن الاكتشافات الحديثة بيّنت ان الاول مأخوذ عن ديانات الآشوريين والبابليين والسومريين والمصريين والكلدان ، وفيه الكثير مما ورد عن هذه الاديان ورموزها ، مما جعل العلماء يقولون بأن التوراة منقولة عنها لتشابه الاساطير والروايات .

وبما ذكره الكاتب اليوناني « لوسيان — Lucian » عن قصة الطوفان : « ان هذه القصة كما روتها التوراة بذاتها حجة لمن يدعي ان كتب اليهود مأخوذة عن تلك الاعم » .

وقال « سيليوس » ان الذين كتبوا رسائل موسى ، نقلوا عن اليونان حكايات « ديوكليون — Deucalion » و « پيرا — Pyrrha » وقد صدق في قوله لان الحق في ما ادعاه هو ومن قبله ، فقد ظهر للعالم بعد مضي القرون ، ان ما ورد في كتب اسرئيل منقول عن الاثنين ، وان الروايات العامة الواردة في الكتب كانت سائدة بين سكان آسيا الصغرى وسكان بابل وآشور .

ولا يستغرب هذا لان رجال الكنيسة المسيحيين والجماعات المؤمنة تعتقد

بأمور هي مجموعة أقوال شائعة بين العامة مأخوذة من النظريات والمباحث التي قام بها آباء الكنيسة الاقدمون ، ومن الآثار الادبية التي كتبها شعراء « الفردوس الضائع » ، ميلتون ، وفيرجيل ، « والكوميديا الآلهية » لدانتي وغيرها ، ومن عقائد اخرى وطقوس مأخوذة عن المجوسيين ، وخاصة من ديانات « زرادشت ، ومانى والبوذية ، والغنوسية اي الالادرية » ، ثم تبدلت .

وفي جمع نيس عام / ٣٢٥ / بعد المسيح قررت المجتمعات المسيحية الكنائسية المنعقدة « الوهية المسيح » . وجاء بعدها مجمع استنبول عام / ٣٨١ / بعد الميلاد ، وقال بالوهية « روح القدس » واتم التثليث الذي اصبحت تعتقد به جميع الطوائف المسيحية ما عدا طائفة الموحدين — Unitrians .

ومع ان البروتستانت لا يعتقدون بعصمة البابا ولا بجبل مريم بغير دنس ، فانهم يقرون بنظرية « الثالوث الالهي » وهي عقيدة قائمة على ذلك الاساس الذي يقوم عليه الايمان بعصمة البابا ، وجبل مريم العذراء .

وأما القرآن فهو كتاب يحتوي على تعاليم نبي الاسلام الذي ظهر بدينه الجديد عام ٦١٠ بعد المسيح . وفي ما اتاه نجد كثيراً مما ورد في اليهودية والنصرانية القديمة ، ولكنه لم يقر بالتثليث بل قال بالوحدانية المطلقة وعبادة الاله الواحد وبأن الرسول محمد عليه السلام أرسله الاله مبشراً لما بين يديه من التوراة والانجيل ومنذراً قومه بالحق .

وكانت الآيات التي تنزل عليه تجمع وتكتب على الواح من الخشب والحجر والعظم والجلد وأوراق البردى ، وبمعد وفاته جمعها اصحابه ورتبوها كما امر الرسول بترتيبها في حياته . وخلافاً لبقية الكتب الدينية بقي القرآن سليماً من كل تحريف وتبديل .

والقرآن فيه الكثير من التعاليم الاخلاقية والمدنية والدينية والسياسية ، وفيه رموز افتتحت بها بعض السور وفيه الوعد والوعيد لمن آمن بالله ورسوله ، ولن عصي الله ورسوله .

والاسلام يشير الى ان الجنة نعيم المؤمنين وجهم جزاء الجاحدين الكافرين
والشركين العصاة .

هذه هي الكتب السماوية التي وصل اليها رقي الفكر الانساني في الاولوية
والدين « الريخ فيدا ، والتوراة ، والانجيل ، والقرآن » ، وهي الاساس « للبراهمية
والبوذية ، واليهودية ، والمسيحية ، والاسلامية » .

وهذه الاديان تعدّ ادياناً بالمعنى الصحيح لاحتوائها على عقائد وفرائض
وعبادات وطقوس وشعائر لعبادة الاله يقدسها اتباعها وتعدّهم بحياة سعيدة ، ومن
يخالفها منهم تنذرهم بحياة شديدة العذاب .

والاديان السماوية تجمعها خصال حميدة مشتركة تدل على تطورها وتوارثها ،
وانها مستمدة من منبع واحد لروايات عامة تناقلها سكان جنوبي وغربي آسيا
وسكان شمالي افريقيا خلال قرون لم تعلم ، ورواها الرواة عن الانسان الاول ،
الذي بدأ يُفكّر ، الى الانسان الذي بدأ يُورخ .

ويقول « ادامس ميك » :

لا بد^(١) لنا من القول ان الدين ليس هو ما يقال عما وراء الطبيعة ، او
ما يقال عن الاساطير التي تمثل مبدأ الخليقة ، ولا عما يحكى عن وجود الانسان
وكيفية خروجه من الجنة وهبوطه الى هذه الدنيا ، ولا عما روي عن توالد
آدم وتكاثر أعقابه ، بل هو عبادة (الاله) وما يتعلق بهذه العبادة من صلوات
وترانيم وطقوس وقرايين ، وما وراء هذه العبادة من فكرة تربط الانسان
بالقوة العاقلة الخالقة ، ولو خلا الدين من هذه العبادات ومتعلقاتها بطل ان
يكون ديناً .

ودليلنا انه لا يزال في آسيا عقائد عديدة يمارسها المؤمنون بها كالكونفوشية ،
والشنتوية ، والطائية ، والبوذية ، ولكنها ليست ديانات بالمعنى المتعارف .

ومن هذه العقائد اتخذت اليابان (البوذية) وكانت قبلها تدين بالشنتوية ،

(١) كتاب تاريخ الاديان في الشرق « لأدامس ميك - L. Adams Meck »

ثم مزجتها بالاولى وجعلت منها ديناً يسمى « طريق الآلهة » .

ومن تعاليم البوذية في اليابان المرسومة على الهياكل : « لا تسمع الباطل ، ولا تقل الشر ، ولا ترَ الفاسد » . والغريب في تعاليم الشينتوية خلوها من التعاليم التي تخص عبادة الاله ، وخلوها من الاوامر التي تنظم سلوك الانسان الاخلاقي ، لأن الياباني - كما يقول احد الكتاب - يعرف ما يجب عليه من حسن السلوك باتباعه « الميكادو » امپراطور اليابان وسليل الآلهة . وقال (ماتوري) الذي عاش في عام / ١٧٣٠ - ١٨٠١ / بعد المسيح : ان ارادة الميكادو هي الدليل الجلي لمعرفة الخير والشر .

وبحسب تعاليم الشينتوية ان « الميكادو » ينحدر من آلهة الشمس وهو المسؤول عنها ، وعلى اليابانيين ان يعبدوا البطولة والابطال خاصة آباء الميكادو واجدادهم . وعندما ان قوى الطبيعة هي وسائل الارواح تمثل الآلهة ولكن دونها مرتبة .

اذاً فالشينتوية هي عبادة الآباء والابطال . واما « الطاوية — Taoism » فهي من تعاليم « لاو - تزو — Lao - Tzo » الذي عاش في عام / ٥٠٠ / قبل المسيح ، وكانت امه حملته / ٨٤ / سنة في رحلها . وبحسب تعاليمها انه قضاه في التأمل والشفاعة وتهيئة فكرة عن الحياة .

وبعض الصينيين يدّعي ان حملته كان اقل من هذه المدة ، ويعتبرون قضية حملته معجزة لرسالته . ومهما تكن المدة / ٦١ او ٨٢ / فالهم ان هذا المذهب عرف في الصين بانه « طريق الحياة » وليس ديناً بالمعنى المتعارف عليه ، لأن ليس فيه تعاليم تتعلق بعبادة الآلهة او عبادة الاله الواحد . ولأنه خال من ذكر لاله . وكل ما فيه تعاليم تشير الى كيفية ممارسة الفضيلة وتنفيذ « الوصية الذهبية » وكلمة « تا - او » معناها « الطريق » .

وبهذا الاعتبار نجد الشعبين الصيني والياباني يعبدان الرجال ، اي ارواح الآباء .

وما يسمى بكونفوشيوس او « شينغ - تو - تزي — Shing - Tu - Tzé » عاش في زمن « لاو - تزي » وتعرف الاثنان على بعضهما كما يرويهِ المؤرخون .

والاثنتان بشراً بذات العقيدة ولم يقلوا شيئاً عن الاله والآخرة ، ولكن «كونفوشيوس» وضع قاعدته الذهبية التي علمتها المسيحية وهي : « لا تفعل بالغير ما لا تريد ان يفعله بك » .

وفي الواقع ان الكونفوشية لا تعترف باله . وليس فيها عبادة موجهة لاله ، وهي مع الطاوية والسينتوية تحوي ما يجب عمله في الحياة للوصول الى السعادة دون ان يكون فيها شيء يتعلق بالاله او بالآلهة او بالآخرة .

وفي حدود ٥٠٠ قبل الميلاد ظهر في الهند « غوتاما - Gutama » وكان أميراً ، ثم ترهب وترك المال والمرأة الجميلة زوجته التي تسمى « حابافادي » وكرّس نفسه للعبادة والتقوى حتى اصبح عظيماً ، ومن زوجته المذكورة التي حلت فيها روح الحقيقة جاء « بوذا » الذي كان من دعائه ، وبوذا كان يسمى « المعلم » وفي سيرته واسمه ، الشبه الكبير بينه وبين المسيح في الديانة المسيحية .

ويقول التاريخ (١) ان « بوذا » كان اعظم ملحد ، ثم بعد وفاته اهملت تعاليمه وانكرت تماماً ، ولكن عبده الناس المؤمنون به كاله ، في حين كان اهمل في حياته كما اهملت تعاليم المسيح وانكره قومه ، ثم آمن به الحواريون بعد موته وعبده المسيحيون .

وبعد وفاة « غوتاما » روى الهندوس عنه أساطير عديدة واعتبروه صورة عن « الفيشنو - Vishnu » الاله الخالق .

وكان من تعاليم البوذية ان الشقاء لا ينفصل عن الحياة بل يلازمها ، وبعد الحياة تحل السعادة مع « النيرفانا - Nervana » وهي الانفصال عن الوجود ونهاية الروح في « الفناء » .

وفي تعاليم البوذية للوصول الى هذه السعادة لا بد من اتباع طرق أربعة : الاولى « يقظة القلب » ومعناها الاعتقاد بان الشقاء والوجود يسيران جنباً الى جنب ، اي « فقدان السعادة جزء ملازم للحياة » .

(١) كتاب « انجيل بوذا » ترجمة عيسى سابا .

الثانية « الخلاص من الشهوات الفاسدة وترك الشعور بالانتقام » ويعتبر عشق الرجل للمرأة من الشهوات الفاسدة رغم انه رابطة الانسان .

ولهذا لا تعجب اذا قلنا ان الذين عدوا من معلمي الشعب المتدينين قديماً كانوا يدعون للرهبنة ، ويعلمون الناس ان افضل شيء في الحياة هو ترك الدنيا وعدم الزواج ، وعدم الاتصال بالمرأة . وقد تبعهم بعض الرؤساء المسيحيين في الازمنة القديمة ونادوا أن كل من تزوج اضاع حظه من دخول السماء . وقديقي متصوفة الهندوس والبوذيين يقولون بالرهبنة مع انها تعصّب عام ضد سنن الحياة استحوذ على كثير من عقول المتدينين .

وقد جاء في كتاب تعاليم « بوذا » :

يا من تطلبون الحياة اعلموا ان الخلود وراء الفناء .

السعادة هي حياة البر والاحسان .

ان الكنز الدائم هو البر والحق .

كل مركب منحل ، وأما الحقيقة التي ينتهي عندها كل مركب ويفنى حسب نظام الطبيعة فهي وحدها التي تبقى ابداً .

الاجساد تصير الى تراب ، ولكن الحقيقة العقلية التي تسكن الجسد وتتصرف به لا تفسحل أصلاً .

الحقيقة لا تعرف ولادة ولا موتاً ، لا بداءة ولا نهاية ، هي الجزء العقلي الخالد ، هي صورة عن الأبدية .

الحقيقة هي بوذا .

عندما يحس الانسان بالحقيقة في عقله يصل الى الخلود ، ولا شيء يمنع ذلك سوى القلوب الراغبة في الشهوات .

الذات سبب الاثانية ومصدر الخطيئة وهي تصوّر باطل وزائل .

إذا أعرضنا عن الانانية نبتعد عن كل ضرر .

وكل ذات انانية خاطئة تنحل وتبدد .

من غمس ذاته بالحقيقة عاش حياً في « النيرفانا » ومن دخل النيرفانا اندغم في بوذا .

الحقيقة موجودة في كل شيء ، ففي الحجر موجودة ، ولكن الحجر أصم جامد لا خير فيه .

والحقيقة موجودة في النبات ، انه يحيا ويموت ويزهر ويشمر ، وله جمال خارق ولكن ليس له ضمير .

والحقيقة موجودة في الحيوان ، انه ينمو ويتحرك ويحافظ على كيانه ويتعلم كيف ينتخب النافع ويتجنب الضار ، ان فيه ضميراً ولكنه ضمير ناقص ، هو ضمير الذاتية وليس ضمير الحقيقة .

ان ضمير الذاتية يلقي غشاء على عيني العقل ويخفي الحقيقة ، فهو اصل الضلال ومصدر الوهم الباطل ، وجرثومة الخطيئة .

الذات الانانية هي مصدر كل شر وكل خلق سيء وكل جريمة ترتكب وكل شهوة تقود للعذاب .

قداسة الحقيقة هي التي تشفي الآلام وتعطي السلام .
من امتزج بالحقيقة لا يموت ، وان مات جسده .

الحقيقة هي « بوذا » و « بوذا » هو الحقيقة .

ولولا رسوخ هذا الاعتقاد لما هجر « غوتاما » امرأته الجميلة الفاتنة ، ولا قال المسيح « أقول لكم الحق كل من ترك بيته ، أو اخوته ، أو اخواته ، أو امه و اباه ، أو امرأته واولاده ، أو اراضيه لأجلي ولانجيل ، ضوعف له في الحياة الابدية » .

الثالثة : « الخلاص من الشك والضلال والجهالة والبدعة والقساوة والغضب » .
الرابعة : « الخير العام » .

والبوذية لم تتم (١) بلاد آسيا في وقت قصير الا بعد القرن الخامس ، ثم دخلت اوروبا ونشأ عنها مذهب جديد يسمى « الغنوسية » فزاحم المسيحية في الاربعائة سنة الاولى من وجودها ، وسبب انهيار اديان الرومان الجميلة واليونان المتعددة ، وهدمها ودك صروحها .

وكما كان للمسيحية طوائف عديدة فان للبوذية ايضاً طوائف عديدة تبغض بعضها البعض بنسبة معكوسة لما بينها من اختلاف الايمان .

فالبوذية في اليابان والصين احتفظت بعبادة الاجداد والابطال التي هي اصل ديانة السكان ، وأضيف اليها تعاليم « غوتاما » ومن اثر ذلك يوجد في الصين في « كانتون » معبد فيه ٥٠٠ / خمسمائة إله هي صور للآباء والمعلمين والابطال والاموات ، حفرت من الخشب وزينت بالذهب وسميت لكثرة ما عليها من جواهر وحلي من ذهب « الآلهة المذهبة » يجلس في وسطها « بوذا » وكلها مما يعبد البوذيون .

وبوذية « الاما » وبلاد التبت تشابه بطقوسها الكنيسة الكاثوليكية ، ولكن لا تشابهها بتعاليمها . ومن طقوس « الاما » « كهنوت المترهبين الذين يحلقون قمة رؤوسهم ويترهبون كالباپاوات والاساقفة ورؤساء الاديرة والرهبان والراهبات » ومن عاداتهم « انشاء الأديرة ، واجراء المرائم المؤثرة ، واستعمال الاجراس ، والنواقيس ، والمسابع ، والصور ، والبخور ، والماء المقدس ، واقامة الاحتفالات الدينية ، والصيام ، والاعياد ، واجراء الاعتراف ، وعبادة العذراء ، واستخدام المطهرات » .

وللبوذيين صلوات وأدعية يسبحونها بمساجمهم كالكاثوليك . ولما كانت البوذية تقدمت الكاثوليكية بمئات السنين في عقائدها ، وطقوسها ، واحتفالاتها ، وجنائزاتها ، فلا شك ان الانسان ليعتقد بان الثانية قد اقتبست افعالها عن الاولى

(١) من كتاب « اصل الأديان » للمستتر مالكابا - Mr - MaIcabé

رغم ما ابتته الهياكل الوثنية من طقوس كانت تجري ايام الرومان ، ومن آثار كثيرة لا تزال بارزة في الديانة المسيحية .

وحيث ان عادة تكرار الصلوات ، وذكر القديسين مرات عديدة ، وتسبيح الاله او الآلهة في كيفية مخصوصة وابعاد مخصوصة ، من موجبات الدين ، فان البوذيين كي يخففوا عن المتعبدين مشقة تكرار الألفاظ واعادتها مراراً اعدوا اسطوانات فيها كل ما يجب ان يقال ، وما على الطالب الا ان يديرها ويسمع ما فيها فتغنيه عن الاعداء ، او انها تدار بقوة جريان الماء ، وما على المصلي الا ان يدفع للكهنة الاجرة فيديرها على حسابه دون ضرورة لوجوده ، بل يستطيع الذهاب الى عمله لقضاء حاجاته بعد دفع ما يترتب عليه .

ومن اعمال الكهنة البوذيين ، انهم يمرنون البيغاء على ترديد اسم الاله « كريسنا رادا — Crishna - Rada » فتقولها بدلاً عنهم وينالهم الثواب كأنهم تلوها بأنفسهم .

وما يقال عن « بوذا » من الروايات ، يطابق تماماً وحرفياً ما يذكر عن القديسين « بالارم ويوسفات » من حكايات أفرغت في قالب مسيحي ، والحقيقة انها من اقوال « بوذا ولا كيا — Lakya ، وموني — Muni » .

وقضية الاعتراف باله واحد ، وقضية الحياة بطهارة ، وقضية نقي وجود الآخرة تتفق عليها البوذية ، وعدد ممن يتبعها / ١٣٨٠٣١٠٠٠ / والكونفوشية وعدد اتباعها / ٣٠٠٨٠٠٠٠٠ / (١) ، والشينتوية والطائوية وعدد اتباعها / ٤٥٠٠٠٠٠٠ / ، وخلافاً للبوذية التي تقول ان الفضيلة تجعل النهاية والزذيلة تؤخرها ، فان الأديان المذكورة تقول بالسعادة وتنتفي العذاب .

ومن الأديان المنتشرة في آسيا ومعظم أفريقيا ، ويمعد معتقوها ما يقارب / ١٥٨٢٧٠٠٠٠ / ، الديانة المسماة « بالأنيمية — Animinism » ، وهي

(١) دائرة المعارف البريطانية .

تعتقد بوجود نوع من الارواح تسكن في جميع الاشياء ، ويتفرع عنها « الفيتيشية
— Fitishism » .

وتوجد بين سكان امريكا الشمالية ديانة من نوع السحر ، يقوم بها الكهنة
الهنود ويبلغ عدد المؤمنين بها / ١٥٢٨٠٠٠٠ / وتسمى « بالشاميزم —
Shamnism » ، وهم يعتقدون بان للانسان اربعة ارواح :

واحدة تعيش في الاحراج والغابات خارجاً عن جسم صاحبها وتمثل في
صورة اي حيوان كان « تمساح او سلحفاة او ذئب او اسد » او غيرها من
البهائم ، ولكن لن تسكن في جسم حيوان اهلي .

ومن تتبع آثار بابل وما ظهر في ديانة البابليين من عقائد تبين له ان الديانة
البابلية كانت في الاصل نوعاً من الفيتيشية والشمينزية وهي شبيهة بما كان يعتقد
« السهاديون — Samaydes » وقبائل سبيريا .

وبحسب هذه العقيدة ان العالم مليء بالأمراض وارواح الشياطين وليس من
وقاية ضدها إلا بالتعاون والحجب والتأتم ، ولهذا كانوا يصنعون هياكل من
صور الملائكة وثيراناً مجنحة على مدخل بيوتهم او على شبابيكهم لتقي الساكنين
شرّ ارواح تلك الشياطين كما يفعل البعض في زمننا الحاضر فيضعون على بابهم
نعلاً او خرزة زرقاء ، او غيرها وقاية من عين الحاسدين ، ومنهم من يضع
صوراً أخرى تستعمل في بلاد الغرب ومنها ما يستعمل في بلادنا ولا يعرف معناها .
ومنها التزيينات التي تزين بها الزخرفات الخشبية ، على صور شتى ورموز فيها التثلث ،
ورؤوس الحراب ، وزهرة بثلاثة تويجات .

وكان تطور العبادات الى عبادات جنسية ودخول رموزها في العقائد تطوراً
اخيراً ليس في ديانة البابليين فحسب ، بل في جميع الأديان التي أثرت فيها هذه
الافكار .

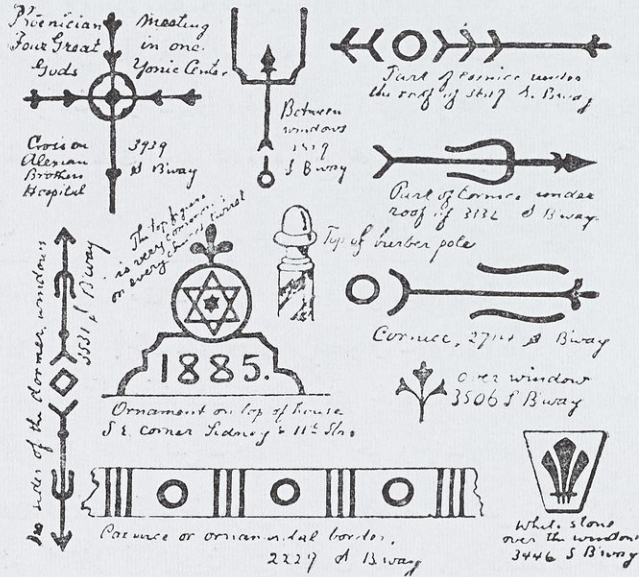
ومن المحتمل^(١) ان تكون الاقوام البربرية القديمة قد مارست هذا النوع

(١) كتاب « ادونيس » لسير فرايتزر .

من العبادة كسكان آكاديا وفينيقيا ، وكان لها - على ما يظن بعض المحققين - معنى مقدس وفكر نبيل ، ولكن الحقيقة ان الاعياد التي كانت تمارس فيها عبادة الجنس كانت مظهراً انحطاطياً لبقايا أديان قديمة .

وفي آسيا الصغرى (١) عبد كثير من السكان « آشر Asher » وهو القضيب في اللغة الفينيقية أو المستقيم والفاتح لأنه يفتح غشاء البكارة ، ويقابله في آلهة المصريين « بتاح Ptah » ، وسمى الاسرائيليون إلههم « جهوا - الاله » بسم الفاتح . حيث ورد في سفر التكوين الاصحاح الثلاثين والآية ٢٢ : « وتذكر الاله راشيل وسمع بها وفتح رحمها فجلت وولدت . »

وفي الاصحاح التاسع والعشرين والآية ٣١ : « ورأى الرب ان كسيثة Loch مكروهة ففتح رحمها . » وعبد المصريون « آنو - Anu » ، وهو - Hoaa ، وهما يمثلان القضيب والخصيتين . ومن المحتمل ان يكون هذا المبدأ عبد في كل محل ، وعنه أخذت الاشكال المشابهة لاعضاء التناسل .



(١) من كتاب عبادة الجنس للدكتور « وول » في مجته عن اصل التثليث

وفي تاريخ البابليين الديني، انهم عبدوا إلهاً مثلثاً مركباً من « انا - السماء ، واي - Ea الأرض ، ومولج - Mulge تحت الأرض » . ولم يكن لتحت الأرض معنى « جهنم » كما هو المفهوم في الأديان الحديثة ، ولكن المعنى الذي كان يعرفه اليونان باسم جهنم Hades أي العالم الذي تسكنه ظلال الموتى او اشباح الموتى .

وفي المعتقدات المصرية القديمة يوجد إله عال مخنث « ذكر وأنثى » شبيهه بالآلهة المار ذكرها ، ومنها نشأ التثليث المصري المركب من « اوزيريس - الآب ، وايزيس - الام ، وهارباكرات - الابن Harpakrat » ودامت الديانة المصرية اكثر من خمسة آلاف سنة ثم تطورت وكثرت آلهتها واختص كل قطر ، وكل بلدة ، وكل مدينة ، وكل مقاطعة بآلهتها ، وتعددت الآلهة وكثرت الاسماء وصعب على العلماء معرفة أساطير المصريين وديانهم كما يجب . ومع هذا فكل ما عبد من الآلهة كان يحمل طابعاً ثلاثياً ، وكان العدد « ثلاثة » مقدساً في نظرهم . وأجمع الجميع بعدها على عبادة اوزيريس « الآب » وايزيس « الام » وحوريس « الابن » وعبد معهم « بتاح - Ptah » الفاتح نكالتي في مكان يساعد الاله « ثوث - Thoth » في محاسبة الارواح وله امرأة إلهة تسمى « مات - Mat » تعتبر إلهة الصدق ، وكان « را - Ra » هو الاله الاعلى . وهنا يجد القارئ جدولاً بالآلهة ذات التثليث كانت تعبد في مصر مع محلات عبادتها :

الآب	الأم	الابن	المحل
أمين را - Amen-Ra	مت - Mut	خنوس - Khnus	طيبة
بتاح - Ptah	باخت - Pakht	ايمحوتن - Imhaten	منفيس
هاصور - Hassuer	تاسن نفرت - Nefert	بنتو خروت - Pnbto-Pkhrut	اومبوس
اوسيريس - Osiris	اوزيس - Oses	حوروس - Horus	في كل مصر

وقد عبدت هذه المجموعة من الاسرة الالهية باخلاص أكثر من غيرها ، وكان لها التأثير العظيم في الأديان التي تعاقبت بعدها . فالفينيقيون كان لهم مثلث مؤلف من ثلاثة آلهة « من الشمس والقمر والأرض » . والرومان واليونان كان لهم مثلث آخر مؤلف من ثلاثة آلهة سموها الأقدار التي تتصرف بالحياة وهي

ترمز الى الماضي والحاضر والمستقبل ، وكان « للسكاندينافين » مثلث شبيه بهذا مركباً من ثلاث عذاري « أورد - Urd ، وفيراندي - Verandi ، وسكولد Skuld ، وهي الاخرى ترمز للماضي والحاضر والمستقبل وتجلس تحت شجرة الاسغارد - Asgard ، وتتصرف بمقدارات الآلهة والبشر ، وكان للهنود مثلث مركب من براهما في الوسط ، وفيشنو عن اليمين ، وسيفا عن الشمال ، ولم يكن قابلاً للتجزئة وكان لفظ « أوم - Aum » رمزاً له وهو مؤلف من « A براهما » ، « U فيشنو » و « M سيفا » ولكن العوام لم يدركوا ما يحويه من عقيدة فلسفية فعمدوا « سيفا » وحده .

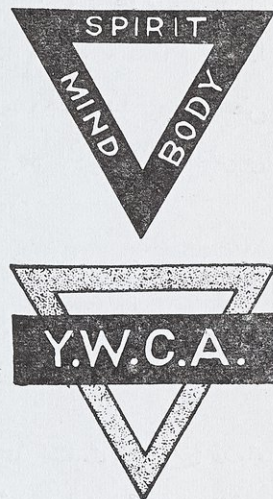
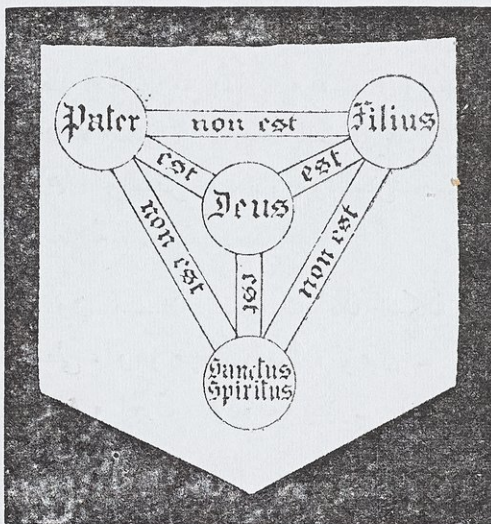
وفي كتابات « بادما بورانا - Padma - Purana » « ان فيشينو الاكبر أراد في اول الامر ان يوجد العالم ، فخلق من طرفه اليمين « براهما » وأراد ان يحتفظ به فخلق من يساره « فيشنو » وأن يهلكه فخلق من وسطه « سيفا » وبهذا يكون « فيشنو » الواحد الثلاث ، يخلق ويحفظ ويهلك . ولهذا يعبد البعض « براهما » والبعض « فيشنو » والبعض « سيفا » ولكن عليهم ان يتجنبوا التفريق بين الثلاثة .

وفي بلاد المكسيك كان للسكان مثلث عبده كما عبده سكان امريكا الوسطى ، وهو مركب من « توهيل - Tohil » الرعد ، ومن « أفهكس - Avihex » البرق ، و « غا فيتز - Gage - Vitz » الصاعقة .

ومع اننا اذا تتبعنا ماورد في التوراة لانجد فيها اسماً للتثليث ، فان قدماء المسيحيين في اوائل عهدهم بدأوا يتفلسفون عن التثليث ثم قرروا « الأب والابن وروح القدس » عقيدة لهم . وكانت فكرة الاب قديمة في التوراة ثم اضيفت فكرة ألوهية المسيح في عام ٣٢٥ بعد المسيح في مجتمع « نيس » ثم فكرة ألوهية روح القدس في عام ٣٨١ في مجمع الآستانة ، ومن بعدها أخذ المسيحيون يؤمنون بأن الاله واحد في ثلاثة لا يتجزأ ولا ينفصل ، وبقيت طائفة واحدة تمتد بثلاثة الهة منفصلة بعضها عن بعض كما كان قدماء المصريين يعتقدون ، ثم جاءت طائفة الموحدين - Puritans بعد قيام « لوثر » وانكروا التثليث وقالوا

بإله واحد خلافاً لما اعتقده هؤلاء ، وبقي التثليث شعاراً عاماً في جميع الفنون والعقائد الكنسية .

وفي القرون الوسطى استعمل المسيحيون مثلثاً شعاره « Est ومعناه الكائن » و « Non - Est ومعناه عدم الوجود . و « Pater - ومعناه الأب ، و « Filius ومعناه الابن » ، و « Sanctus - Spiritus ومعناه روح القدس » ، و « Deus ومعناه الالهة » ، فكانوا يقولون الأب هو روح القدس ، وروح القدس ليس الابن ، والابن ليس الآب ، ولكن الآب هو الله ، وروح القدس هو الله ، والابن هو الله . والله هو الآب والابن وروح القدس .



التثليث ، رسم من القرون الوسطى ولكنه مستعمل للآن

واتخذ قدماء اليونان والرومان إلهاً سموه « كوبيد - Cupid » وهو إله الحب وصوروه حاملاً سهماً إشارة للقضيب ، ووجهوه نحو المرأة دلالة على الحب الشرعي .

وكان للهند إله يسمى « إله الحب - Kama - Deva » صوروه يحمل سهماً

وقوساً وأركبوه فوق حمامة اشارة للجماع . وعبد اليونان والرومان إله الخمر Bachus ، وكان يعد إله الخمر والسكر والفجور ، وجملوا له عيداً خاصاً استحلوا فيه معاطاة النساء دون حد ، وكانت لهم عصاً تسمى « عصا إله الخمر » يصنعونها من قضيب ملفوف وحوله اغصان العنب وعناقيده ، وفي رأسه كوز من الصنوبر يمثل تأثير الخمر والشبق والحب الشهواني . ثم انتقل الرمز الى الكنيسة المسيحية فنصب على كنيسة القديس بطرس في روما ، وزينوا بعدد منه سقف الكنيسة من الداخل .

ومن غريب ما ورد في كتاب الاساطير^(١) والخرافات « الفراتر » بحق النبوة « أن آريوس - Arius قال في عام ٤٠٠ ميلادية ، بأن من طبيعة النبوة ان الأب كان في وقت من الأوقات دون « ولد » ، ثم ان الكنيسة المسيحية في مؤتمر « نيقيا » كفترت من يقول بأن الولد لم يكن وجوده مستقلاً بذاته وحرمة من ايمان الكنيسة ، ولكن السبائيين - Sébellians وهم طائفة من المسيحيين يقولون ان التثليث هو مظاهر ثلاثة لاله واحد ، كما قال بذلك فلاسفة اليونان ، ومنهم أفلاطون الذي علم تلاميذه ان الانسان يتركب من الجسم والروح والعقل . واعتقد اليونان ان « الأرض » أوهبته الجسم ، و « القمر » أوهبه نفسه ، و « الشمس » أوهبته روحه .

وفي عقيدة البعض ان عقل الانسان لو لم ينطبع فيه من الأصل « ثلوث الجنس » لكان يحتمل أن تزول من فكره الثلاثيات الاخرى ، لأن « الذكر » كان مثلاً يعمل على اللقاح كعضو واحد ، مع انه مركب من ثلاثة أجزاء ، فبقي أثر الفكرة في نفسه يحاول ، طبعها في كل معبود وفي كل قضية تفسيرية .

وكما نشأ التثليث في عقيدة اكثر الأديان والعقائد ، وثبت في رموزهم ومعايهم وتعاليمهم ، فان أول معبد أنشئ للاحرار البنائين وهو « معبد الفرسان » في عام ١١١٨ أيام « جان ده مولاي » اتخذ الالوان الثلاثة شعاراً له وهي « الاحمر والابيض والازرق » وقسم الدرجات الى ثلاث : « مبتدى » ، و « منته » ، و « فارس » ،

(١) كتاب الاساطير والخرافات في العالم - لفراتر

مقابلاً للدرجات التي أوجدها المذهب انباطني الاسماعيلي : « الفدائي ، والرفيق ، والداعي » .

ولم تكف الماسونية بالالوان الثلاثة ، بل جعلت المثلث والتثليث في اكثر رموزها واشاراتها واقوالها ، فهي تقول بالحرية والمساواة والاخاء . وتقول بالانوار الثلاثة ، وبالقوى الثلاث « الحكمة ، والقوة ، والجمال » . وفي رموزها تستخدم « المثلث ، والزواية ، والبركار » شعاراً لها ، وعندما يتقدم الطالب نحو الهيكل يخطو ثلاث خطوات .

ويهدف البناءون عند انصرافهم ثلاثة هتافات . ويطلقون بمطارقهم ثلاث طرقات ، وقبلما يدخلون يقرعون على الباب بثلاث دقات ، مما يدل على تأثير فكرة التثليث في ذهنية الواضعين لها .

وفي الماسونية تعاليم ورموز وألفاظ ، تدل على ان مآخذها وتعاليمها تعود للتعاليم المصرية ، والفينيقية ، واليهودية ، والاسماعيلية ، وكلها عريقة في القدم .

وبعدما وصلنا الى هذا الحد من تتبع نشأة الدين وفكرة الالهية والتثليث منتقلين من الاقوام البدائية الى الاقوام القديمة ذات الحضارات ، الى الامم المؤمنة بالديانات والكتب السماوية ، الى الكنيسة المسيحية والى الماسونية ، وما قاله الفلاسفة الاقدمون ، نرى من الضروري ان نذكر اصل العقيدة الالهية بنظر القرن العشرين ، وبنظر المسلمين الذين هم يحملون مشعل التوحيد والتجرد والاطلاق ، فنقول :

جاء في كتاب (الله) للعالم الكاتب الاستاذ عباس محمود العقاد ، عند بحثه عن اطوار العقيدة الالهية ما يأتي : « يعرف علماء المقابلة بين الاديان ثلاثة اطوار عامة مرت بها الامم البدائية في اعتقادها بالآلهة والارباب :

١ - دور التعدد — Polytheism

٢ - دور التمييز والترجيح — Henotheism

٣ - دور الوحدةانية — Monotheism

ففي الدور الاول، كانت القبائل تتخذ لها ارباباً تعد بالعشرات، وقد تتجاوز العشرات الى المئات، ويوشك في هذا الدور ان يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده، او تعويذة تنوب عن الرب في الحضور وتقبل الصلوات والقرايين.

وفي الدور الثاني، وهو دور التمييز والترجيح، تبقى الارباب على كثرتها ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرهما، إمالانه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الاخرى بالزعامة وتعتمد عليها في شؤون الدفاع والمعاش، وامالانه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الارباب المختلفة، كأن يكون رب المطر، والاقليم في حاجة اليه، او رب الزواجر والرياح وهي موضع رجاء او خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الارباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية.

وفي الدور الثالث تتوحد الامة فتجتمع الى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الارباب في كل اقليم من الاقاليم المتفرقة. ويحدث في هذا الدور ان تفرض الامة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب سيادتها، ويحدث ايضاً ان ترضى من اله الامة المغلوبة بالخضوع لها مع بقاءه وبقاء عبادته، كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع.

ولا تصل الامة الى هذه الوحدانية الناقصة الا بعد اطوار الحضارة، تشع فيها المعرفة، ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت شائعة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية، فتصف الله بما هو أقرب الى صفات السكّال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في اطوارها السابقة. وكثيراً ما ينفرد الاله الاكبر في هذه الاعم بالربوبية الحقة، وتنزل الارباب الاخرى الى مرتبة الملائكة او الأرباب المطرودين من الحضيرة السماوية.

والرأي الراجح عند علماء المقابلة بين الأديان، ان الاعتقاد بالثنائية Dualism يأتي أحياناً كثيرة بعد الاعتقاد بالوحدانية على الصورة التي أجمعناها، وهي الوحدانية الناقصة التي تأذن بوجود الأرباب معها، أو بتنازع الوحدانية، بين إله دولة وإله دولة اخرى. وأثبت من هذا عندهم - اي عند علماء المقابلة -

ان وحدة الوجود Pantheism تأتي بعد جميع هذه الادوار توفيقاً بين النقائص والضرورات ، واثباتاً لوجود الله من طريق الثبوت الذي لا شك فيه ، وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والايمان .

ثم يقول العقاد : « ولم تكن ارباب الالام الماضية في جميع اطوارها نوعاً واحداً أو مثلاً لفكرة واحدة ، ولكنها انواع شتى يمكن ان تجتمع في الانواع التالية :

١ — « ارباب الطبيعة » : أو الأرباب التي تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والشمس والقمر والسماء والربيع والصيف والشتاء والخريف .

٢ — « ارباب الانسانية » : وهم ارباب تقترن باسماء الابطال والقادة المحبوبين والمرهوين ، ومحسبهم عبادهم من القادرين على الخوارق والمعجزات .

٣ — « ارباب الاسرة » : وهم الاسلاف الغابرون يعبدهم ابنائهم واحفادهم ويميئون ذكراهم بالحفلات والمواشم المشهودة ، كما يحيي الناس ذكرى الموتى في هذا الزمن ويزورونهم بالاقوات والالطاف .

٤ — « ارباب المعاني » : كرب العشق والغرام ، واله الحب ، ورب الحرب ، ورب الصيد ، ورب العدل ، ورب الاحسان ، ورب الخير والسلام .

٥ — « ارباب البيت » : كرب الموقد ، ورب البئر ، ورب الجرن ، ورب الطعام .

٦ — « ارباب النسل والخصب » : وهي على الاغلب الاعم في صورة الاناث ويسمونها بالامهات الخالدات ، وقد ترقى مع الزمن الى واهبات الخلود بعد هبة الحياة .

٧ — « آلهة الخلق » : التي ينسب اليها خلق الارض والسماء ، والانسان والحيوان .

٨ - « الآلهة العليا » : وهي آلهة الخلق التي تدين عبادها بشرائع الخير وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للحاسن والاخلاق ، وتضمن السعادة الابدية للارواح في عالم البقاء .

وهذه الطبقة من طبقات العبادة هي أرقى ما بلغته الانسانية في اطوارها المتوالية ، واستعدت بعده للايمان بالله واحد لجميع الالكوان والمخلوقات ، بغير استثناء أمة من الناس .

ومن العسير جداً ان يُبنى من هذه الاطوار جميعاً سلم متعاقب لا تتقدم فيه درجة على درجة ، ولا يتلاقى فيه نوعان أو أكثر من نوعين من العبادات . ومع هذا فأطوار العقيدة الالهية تشعبت بين الناس ، فلم تطرد على مراحل متشابهة في جميع الامم ولا في جميع الازمان .

ثم يقول : « وإذا احطنا بوجهها العظمى ، وجدنا ان عقيدة الارواح لم تفارق اطوارها الاولى ، وان عبادة الاسلاف امتزجت بعقيدة الارواح ، وعقيدة الجنس كانت طوراً من الاطوار لا يزال التثايت من آثارها . ثم اتسعت نظرة الانسان الى دنياه حتى التمس لها علة في السماء ، فكانت الشمس هي اكبر ما رآه وتوجه اليه بالعبادة ، ثم اصبحت الشمس رمزاً للخالق حين تجاوزها الانسان بنظره الى ما هو أعظم منها وأعلى ، ثم بعد اعتبار الشمس رمزاً للقوة الكونية لم يبق إلا قبول التوحيد الصحيح » .

ويبدو هذا الترقى الديني من ترقى العقل في تفسير كلمة (الاله) . فكلمة (ايل) في الآرية مرادفة لمعنى القوة أو البطل ، ثم أصبحت كلمة (الايل) بالتعريف مرادفة لبطل الابطال أو للبطولة المطلقة ، كما نميز عالماً بكلمة (العالم) مع التعريف لنقول انه العالم دون سواه . ومن فكرة البطل الى فكرة الله الحي القيوم الاول الآخر الصمد الدائم الذي لا شريك له تاريخ طويل هو تاريخ العقل في الترقى الى التوحيد .

ويقول الاستاذ فريد وجدي في دائرة معارفه ، في آخر قسم من بحثه عن الدين :

« ان فطرة الدين ستلازم الانسان مادام ذا عقل يعقل به القبح والجمال ،
وذا روية يحيلها في الكون والكائنات ، وستزداد فيه هذه الفطرة حياة وقوة
على نسبة سمو مداركه وسمو معارفه ، ولكن الامر الخطير الذي يجب أن
نعرفه هو ان الانسان لن يعود من الدين الى روحه المجردة عن الحوادث
المسكانية والزمانية ، وعما فهم من قبله منه .

انه سيعتقد بالله لكن غير متقيد بما ورد في علوم الكلام معتبراً ان اكثر
ما قيل في هذا المجال من الفضول ، وسيعتقد بالانبياء والمرسلين ، ولكن غير
واقف عند الحدود التي حدّها الاولون في هذا الباب ، وسيعتقد بالكتب السماوية
لكن غير مرتبط بما فهمه الاقدمون من كيفيات وحيا وحدود سلطانها . انه
سينشئ لنفسه حياة دينية تعتبر في حقيقتها ترقياً في معنى الدين ، على نحو ما وصل
اليه بعض المتصوفين من طريقي الكشف والنظر ، ولكننا لا نرى هذا العهد
قريباً منا ، لأن الناس لا يزالون اسرى كل قديم وان لم يعتقدوه ، معادين لكل
حق إذا لم يرثوه ، وهذه الدولة الدينية لا تنشأ إلا اذا قامت دولة الاخلاق
الفاضلة ، والعلوم العالية ، وان غداً لناظره قريب ، ،

والذي يستتج مما تقدم ان ترقى الانسان في العقائد الدينية ، يتبع النظم
الطبيعية في ترقى العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الاولى مساوية لحالته الاولى
وكذلك كانت علومه وصناعاته . ولا يعيب الفكر الانساني جهله بالعلل الطبيعية
والقوانين التي تحكم مظاهرها ، بينما هو يرى أثرها ويحس بتأثيرها ويدرك
وجودها . انه يدرك وجود الشمس منذ نشأته ، ويدرك فعلها في الطبيعة وفي
الحياة ، ولكنه بقي جاهلاً معرفة دورانها وقوانين حركتها ومظاهر نورها
وحرارتها الى ان مضى عليه اكثر من سبعة آلاف سنة ، ثم ارتقى تفكيره
وتوسع بحثه ، وارتقى ادراكه للقوى انعامية التي تتحكم في الكون فاكشف
عالمها واحوالها وبمعداتها وتركيبها وقوة حرارتها وعناصرها ، وعلاقتها مع الشمس
الاخرى ، ومع الافلاك التي لا حد لحصرها ، ولا امكان لمعرفة أبعادها والى
أين منتهائها .

واذا رجعنا الى أصول الاديان في عصورها الاولى ، فلا يدلك ما كانت عليه من تعدد الآلهة والاساطير والخرافات والمقائد علما ان فكرة التدين لم تكن موجودة ، بل لأن الحقيقة الكبرى كانت اكبر من ان تتجلى للعقول كاملة شاملة في عصر واحد .

فأيا كان الرأي في جوهر الدين فالنقص في العبادات الهمجية امر مفروغ منه ولا يستدل منه على نفي ولا اثبات ، وانما يصح كما يقول « العقاد » ان يوصف بالغرابة لسبب واحد وهو هذا الاجماع على الاعتقاد أيا كان موضوع الاعتقاد ، كما انما يوجد الاستعداد للعقيدة اولاً ثم توجد العقيدة على اختلاف نصيبها من الرشد والضلال ، او توجد الملكة أولاً ، ثم يوجد موضوع الاعتقاد . ولا تتوقف صحة الملكة على صحة الموضوع .

والذي يظهر ان في الطبع الانساني جوعاً الى الاعتقاد كجوع المدة الى الطعام .

ويتفق علماء المقابلة بين الاديان على تأصل الطبيعة الدينية في طبائع بني الانسان من اقدم التاريخ ، ولكنهم لم يتفقوا على اصل العقيدة او اصل الباعث عليها .

وفي كل حال لا بد لها من باعث ، واذا خفي الباعث فلا دليل على بطلانها لانها لا تأتي بغير باعث يؤدي اليها كأنها ما كان .

والذي يلخص من اقوال العلماء عن الباعث لفكرة الدين والالوهية الامور التالية :

اولاً — الحاجة التي كونت الاساطير .

ثانياً — ملكة الاستحياء Anismism على رأي « تايلور » وهي الشعور بما حول الانسان من قوى الطبيعة على اختلافها واثارها الرهبة والرغبة والخوف في نفسه .

ثالثاً — السحر وتخيل الانسان وجود الارواح والأشباح .

رابعاً — ضعف الانسان والتجاؤه الى الاستمداد من قوة تعينه على المقاومة.

خامساً — شعوره بمظمة الكون واحساسه بخفاياه واسراره .

سادساً — كونها ظاهرة اجتماعية نشأت من حاجة الغريزة الاجتماعية .

سابعاً — حالة التسامي وارتقاء التفكير الانساني وسيره نحو التكامل .

ولهذا كانت الادوار الثلاثة التي مرَّ بها الانسان وآخرها دور التوحيد ، وهو دور الوعي الكوني ، تجاوباً لما اقتضته سنة النشوء والارتقاء في فهم العلة الاولى للوجود التي لن يدرك كنهها العقل مهما سما به الادراك ، ولكن لن يستطيع فرضها بأن حقيقتها معنى لا ذات له ، او قوة لا وعي لها .

والعقل بحسب ادراكه أن كل شيء في الوجود تابع لهذه الحقيقة يستلزم ان تكون الذات مطلقة الكمال في الوعي والارادة والعلم والمقدرة والخلق والايجاد والابداع . وبحسب ادراكه للموجودات على ما هي عليه ، لا يستطيع وصفها إلا بما يعتقد من مميزات الكمال وموجبات الوجود والوعي المطلق .

ولما كان التطوُّر العقلي في فهم الحقيقة نتيجة لتطور الحاجة والبيئة والعلم ووسائل المعرفة ، ولذا صدق فريد وجدي في قوله : « ان فطرة الدين ستلازم الانسان مادام ذا عقل يعقل به القبح والجمال ، وذا روية يجيها في الكائنات وستزداد فيه هذه الفطرة حياة وقوة على نسبة سمو مداركه وسمو معارفه » .

اما الدين فلا يستقيم بغير إله تتصل به المخلوقات ، ولكن ما هي الوساطة للاتصال ؟ وما هي كيفية الاتصال ؟ وكيف نعلم اننا على اتصال ؟ فذلك موقف على استعداد الفكر لقبول الاتصال ، وعلى مقدار استعداده ، وعلى نوعية اتجاهه الذي لا يتوقف على صحة المنطق ، ولا على مبادئ الفلسفة والرياضيات ، ولكن على صحة النفس وسلامة الفكر ، وعلى ابعاد المادة وما تتصف به المادة من حظيرة الوعي المطلق والادراك المجرد ، لأن الله مهما تكن ذاته وصفاته ، فلن تتصل به عقولنا إلا عن طريق الحب المطلق ، والجمال المطلق ، والخير العام ،

والابداع والنظام العام ، الذي يسيّر الوجود وما في الوجود من كائنات نحو الكمال المطلق .

والحقيقة التي يجب ان نفهمها ان من فكر في الله فكر في « ذات » ، ومن آمن بالله آمن « بذات » ، ومن تدبّر الله قال بالكمال المطلق المنزه عما يصف به الانسان ذاته من مظاهر المادة . ومن قال الكون هو الله ، والله هو الكون ، فلم يصنع شيئاً سوى اضافة مرادف آخر للكون ، كما قال شوبنهاور الفيلسوف الالماني ، لأن الخالق لا يكون هو الخلق ، ولا المظاهر المادية تكون هي الحقائق الالهية .

وامام هذا الاستنتاج يقوم ادعاء من يقول ان ما في الوجود من خلق وكائنات ونظام وابداع وتكامل وتنوع ، هي نتائج قانون الصدفة الذي هو خاصة من خواص المادة ، وان كل ما نلمسه من آثار المادة وصورها ليس تابعاً لقصد ولا غاية ، ولذا لا نستطيع تصوّر السببية ولا الغائية بأنها صادرتان عن قوة واعية ، بل كل الاحداث يمكن تعليلها بالمصادفة والتكرار .

فالحياة مظهر من مظاهر المصادفة ، وتطورها ناتج عن المصادفة ، وتنوع الاحياء من خصائص المادة التي يتصرف بها وبأعراضها قانون المصادفة . ولو كان القصد الناشئ عن القوة الواعية المجردة موجوداً ، وهو الباعث لكل مظاهر الوجود ، لما رأينا المتناقضات في كل الاعمال وفي كل الخلقات ، ولما وجدت هذه الاديان وهذه المعتقدات ، وهذه الخرافات والتأويلات ، وكلها من صنع الانسان وتجارب لما في غرائزه ، وكلها لا تخلو من المتناقضات التي لا يقرها عقل ولا يقوم عليها برهان .

ولننظر الى تكوين الارض كيف كانت ، وكيف تطبقت ، وكيف نشأت فيها الحياة ، وكيف نمت فيها النباتات والاشجار بعدما برد سطحها وتكوّن الماء ، وهبطت الامطار ، وجرت الانهر ، وتكوّنت البحار ، وكيف وجدت الحيوانات وكيف تطوّرت ، ثم كيف انقرض منها من انقرض وبقي منها من

بقي ، وكيف تنوّعت وكيف يأكل بعضها بعضاً ؟ ثم لننظر الى ما هو الانسان وماذا فعل فيه قانون النشوء وما بقي فيه من آثار الحيوانات ؟ ثم لننظر الى ما هو العقل ، وماذا يعمل العقل ، وبماذا يتأثر العقل ، وكيف يزول وتوقف مظهره ؟ ثم لننظر الى الاجسام وكيف تموت وتنفى ، وكيف انها وما على الارض محكوم للفناء لا بفعل قوة واعية عاقلة ، ولكن بفعل الطبيعة وبفعل التصادمات التي ستقع على الارض أو على الشمس ؟

ومثل الارض مثل بقية الاجرام والافلاك ، تعمل فيها المصادفة والتكرار دون قصد معلوم او وعي مفهوم .

ماهي هذه المصادفة ؟ ولماذا يقول العقل بالمصادفة وهي لا تحل مشكلة الوجود ولا تفسر لنا مظاهر الوجود ؟ ولماذا يدعيها هؤلاء العلماء وشواهدهم ليس يقوم عليها برهان ؟

هل سبب ذلك تحيرهم وقصور العقل عن فهم « المجرد الكامل » ؟

هل لأن البوذية لم تستطع إدراك العلة الاولى ، فتململت من وطأة الحس والجسد ، وهربت منه الى الفضاء او « اللاوعي » ، على أحسن تقدير لتجد السعادة في العناء وقتل الحس ، والتصوّف والفضائل الخلقية .

هل لأن الصينيين جهلوا ما وراء الحياة وعبدوا الأسلاف ، وما همهم في الحياة إلا حسن السلوك ؟

هل لأن الفارسيين رأوا النار مصدر الحرارة وباعثة الحركة فعبدها وعبدوا الشمس والنور ، وقالوا بالثنائية صاحبة الخير والشر والسعادة والشقاء .

هل لأن اليونان في ادوارهم الاولى ، لم يهتدوا لغير عبادة القوة والجمال فقالوا بهما ومثلوهما في هياكلهم ، مترجمين بذلك عن غرائزهم ، وتبعهم الرومان فقلدوهم في آلهتهم ، وزادوا عليها ما أوحى به احتكاكهم بالبابليين والآشوريين وغيرهم ؟ .

هل لأن بني اسرائيل حاروا في أمرهم ، فقلدوا المصريين في عجلهم وأصنامهم
وآلهتهم ، ثم تقررنا بالتوحيد واتخذوا لهم إلهاً خاصاً بقوميتهم فأعطاهم الوصايا
العشر ، ليكونوا أسعد من غيرهم ؟

هل لأن المسيحيين وجدوا في المسيح ما ينقذهم من ظلم اليهود والرومان ،
فاتبعوا تعاليمه التي لم تلهمهم غير ترك الدنيا ، وطلب الملكوت والخلاص من
الخطيئة التي هي الأساس ، ولا بدء من الفداء والخلاص لابن الانسان الذي هو
ابن الخطيئة ، ثم تسربت اليهم فلسفة اليونان فتأهوا في بديانها وتآهت كنيستهم
في نظريات الفلاسفة الاغريق والسريانيين والعبريين والرومانيين ؟

هل لأن ابي الحسكاه « كاليس المليونى » كان يقول ان الماء أصل كل شيء ،
وان الروح تحرك المادة ، واعتبر المغناطيس روحاً تجذب الحديد ؟

هل لأن خلفه « انكساندر » علّل وجود الموجودات بدورات كونية قال
بها الهنود والبابليون وهي تستمر الى ما لا نهاية ؟

هل لأن « اكسينوفان اليوناني » كان يعتقد بأن الانسان يتخيّل أربابه على
هيئته ، ويعزو لها الصفات من خير وشر وهي من اخلاقه ؟

وهل لأن « هيرقليطس » ادعى ان « الكلمة — Logos » هي مساك الوجود
كله ، وانها هي النظام الذي يحيط به ، وهي التي تصنع الجميل والخير كما يصنع
الناس الشر والباطل ؟

وهل لأن « فيثاغورس » كان يعتقد بتناسخ الارواح وبطلان المادة وتجدد
الدورات الكونية ، وان لا حقيقة غير الحقيقة الالهية المنبثقة في الكون كله ؟
وان العدد هو أصل كل موجود لانه يلازم الوجود ؟

وهل لأن « الكسفوراس » كان يعتقد ان العقل جوهر مجرد خالد وواحد
لا يتعدد ، وهو مصدر حركة دوائر تدفع ما خف الى اعلى الكون ، وتهبط بما
سفل الى مركزه ، أي القوة الدافعة والقوة الجاذبة ؟

وهل لأن « بارمنيد » ادعى بأن لا وجود لغير الواحد ، وان كل وجود غيره

وكل ما نراه من التعدد والتغير إنما هو وهم الحس وخداع الظاهر ؟
وهل لأن « فرينون » الذي عاش أيام الاسكندر الكبير علمهم تلامذته أن
اصل الموجودات كلها « النار » ، واصل النار الهيمولي ، والله هو العقل الفاعل ،
والهيمولي هي المادة المنفعلة ، والذي يحرك المادة قوة عاقلة ؟

وهل لأن إمام اللاهوتيين والفلاسفة الرواقيين « كليمناس » ، كان يقول
بوجود الاله لاسباب أربعة وهي : الوحي ، وعظمة الخيرات التي تجود بها
الارض والسما ، ورهبة النفس أمام اشراق الوجود وظواهره الرائعة ، وهذا
النظام المحكم ؟

وهل لأن « كريسيوس » كان يقيم الدليل على وجود الاله بأن الكون
أكبر من أن يخلق للإنسان وحده ، فوجوده عبث أن لم يكن هناك إله أكبر
من الإنسان . والإنسان يعجز عن خلق الكون ، فلا بدء للكون من خالق
أعظم من الإنسان ؟

وهل لأن « أبيقور » كان ينسب الاله والروح الى مادة لطيفة كالاثير
او أرق منه ؟

وهل لأن « سقراط » آمن بخلود الروح وسلامتها من الفساد بعد الموت ،
وانها ترجع الى معدنها الاول من الصفاء المنزه عن التجسيد والتركيب ؟

وهل لأن « افلاطون » اعتقد بتناسخ الارواح وتجدد الآجال حسب الاعمال ،
وقال بمقدرة العقل الالهي وتغلبه على المادة وبكمال الاله المطلق ؟

وهل لأن « ارسطو » آمن بأن الله هو العلة الأولى والمحرك الاول ،
وأيد قوله بمنطقه بأن المتحركات لا بد لها من محرك ، والعقل المطلق هو
المحرك الاول وعلو العلل ولا يقبل التسلسل ، ومنزه عن التعدد والنقص والتركيب
ومستغني بوجوده عن كل موجود ؟

وهل لأن الاسلام قال بوحدانية الخالق وانه هو الذي بدأ الخلق ثم
يبيده ، وهو بكل خلق عليم ، وله المثل الاعلى من صفات الكمال جمعاء

ومزيد فعّال وعليم ودائم وازلي واليه ترجع الامور ، منزّه عن المادة وما يعترّيه من تحول ونقصان وصفات ، ولا يلد ولا يولد ، ولا يحده الزمان ولا المكان ، وهو موجود في كل موجود ولا يشابهه شيء ، وهو على كل شيء قدير .

وهل لأن المسلمين بالنسبة للفكرة اللوهمية ، ووحدة الاله ، وصفاته الذاتية والثبوتية (١) انقسموا كما يقول صاحب الملل والنحل الشهرستاني الى ثلاث فرق اصحاب العقل واصحاب النقل والتسليم ، واصحاب النقل مع الحجة والبرهان ، وان اصحاب العقل كانوا يقولون بان كمال الله هو عين ذاته ، وان ماهية الله هي عين وجوده ، وأنه أول الموجودات وهو فاعلها ومبدعها .

وان اصحاب العقل والتمسك بحرفية اللفظ سخفوا سخفاً ينكره كل عقل سليم في فهم الصفات فأثبتوا لاله اعضاء مجسمة وقالوا بتميزه في المكان وأجازوا رؤيته بالعين كما ترى المحسوسات .

وان اصحاب النقل مع البرهان ادعوا ان الصفات موجودة والكيفيات مجهولة والبحث عن سر الذات اشراك وتركه ادراك .

وهل لأن «ديكارت» (٢) في القرن السادس عشر بعد الميلاد ، يرى ان وجود النفس ووجود الله حقيقتان ثابتتان بغير برهان ، وان اثبات وجود العالم يتوقف على ثبوت وجود الله ، وان وجود الصانع الكامل الابدئي دليل حقيقة وجود العالم ، وحيث ان الانسان يفكر فهو موجود ؟

وهل لأن «جورج بركلي» المولود في القرن السابع عشر ، يرى ان لا وجود لغير العقل ، وان وجود المادة في الخارج هو من عمل العقل ، وان

(١) كتاب الملل والنحل للشهرستاني

(٢) تاريخ الفلسفة في القرون الوسطى (لبرتراند راسل)

اعراضها كالامتداد والشكل والحركة هي اعراض فكرية لا توجد في خارج العقل ، وكذا اللون والطعم والصوت ؟

وهل لأن «لوك» يقول ان المعرفة اليقينية بوجود الله تزيد على كل معرفة لم تكشفها لنا الحواس ؟

وهل لأن «سبنوزا» يعتقد ان الله والكون والطبيعة جوهر واحد وهو واجب الوجود ولا يتعدد ، ولهذا الجوهر فكر وامتداد وكل ما في الوجود من المفعولات والمحسوسات مظاهر للفكر والامتداد ، وعنده ان الفكر تبدو مظاهره في عقل الانسان ، والامتداد تبدو مظاهره في الاجسام ، والله علة الاشياء وهو علة ذاته ، والله هو الانهاية ، والله حاضر في الطبيعة لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه لانه لا انفصال عن الانهاية وهي الله !

وهل لأن الفيلسوف الالماني «لينتز» يدعي ان ايس في الامكان أبدع مما كان ، وهذا العالم ليس بالعالم الوحيد الممكن في قدرة الله . وفي الوجود جواهر لا اعداد لها كل منها وحدة بمثابة مرآة للوجود يختلف نصيبها من الصفاء والجلاء باختلاف ممثلها ، وهذه الوحدات لا امتداد لها ولا مقياس إلا مقياس الحركة المجردة ، والله أعلى هذه الوحدات ومنه تصدر القدرة وتنقل اليها؟

وهل لأن «هيوم» الفيلسوف العظيم يقول ان اثبات وجود الله لم يكن رغبة من رغبات العقل ، ولكنه رغبة من رغبات الضمير والشعور ، وعنده ان الاسباب التي تشكك الفيلسوف في الايمان هي بعينها الاسباب التي تبعث المتدين للايمان كالآلام والشروع ، والرجاء والسعادة ؟

وهل لأن «ريد» يبني فلسفته على الحقائق الدنية التي يقرها الادراك السليم ولا تحتاج الى برهان ، ومنها وجود المدركات وهي العالم الخارجي ، ووجود القوة المدركة وهي النفس الانسانية ، ويقول ليس من المعقول ان يكون أساس الوجود اكذوبة ، او ان يكون الوجود غير موجود ، وان ادركناه على غير حقيقته الخفية ، بل وجود الله حقيقة من حقائق الادراك السليم ؟

وهل لأن الفيلسوف « هاملتون » يبني فلسفته في الدين على فلسفته في اصول المعرفة ، وعنده ان الادراك موقوف على الكيفية ، فلا يقبل الادراك ما ليست له كيفية Un Conditioned وعنده ان قولك تفكر مرادف لقولك انك تضع حدوداً وشرطاً لا تفكر فيه . والوجود المطلق لا يدخل في حيّز التفكير ولا تدركه العقول ، وليست نتيجة ذلك أننا ننكر الوجود المطلق لأن معرفتنا بقصور معرفتنا لا ينتج منه ان نجعلها حكماً في الاثبات والانكار وانما تستلزم هذه الحقيقة نتيجة اخرى وهي ضرورة الاعتقاد ، وانه لازم لاتمام عقل الانسان ؟

وهل لأن « كانت » وان كان يؤمن بالله فانه يكل الايمان الى الضمير ولا يعتمد فيه على البراهين العقلية التي تستمد من ظواهر الطبيعة ، والعقل عنده لا يعرف غير الظواهر الطبيعية ولا ينفذ الى حقائق الاشياء في ذواتها ، وعنده الروح فاعلة ابدأ وليست مفعولاً ، او موضوعاً للمعرفة . والايمان مسألة علاقة بين الله وضمير الانسان ، وليست بين الله والطبيعة ، فمن ضمير الانسان نستمد الدلائل على وجود الله .

وهل لأن « هيجل » يؤمن بالله على نحو يشبه الايمان بوحدة الوجود وعنده ليس في الكون غير العقل ، والعقل هو الكون والله ، وهو العقل المطلق يتجلى في الموجودات على سنة مطردة وهي الثنائية ، اي كل موجود ينشئ نقيضه ثم يجتمعان في موجود اكمل من الموجود الاول ويعود هذا الموجود الاكمل فينشئ نقيضه ... ويكون هذا التطور سبيلاً الى استيفاء الحقيقة من وجوه عدة بدلاً من حصرها في وجه واحد ؟

وهل لأن « فولتير » يقول : لو لم يكن الله موجوداً لوجب ايجاده في العقل او الضمير ؟

وهل لأن امام المتصوفة « الغزالي » يقول : ان مسألة العبقرية الدينية سموً بالذوق والسلوك لادراك الحقيقة الالهية ؟ ويقول فيلسوف المتصوفة ابن

العربي « لا موجود إلا الله ولا يعرف الله إلا الله فاثبتوا » .

وهل لأن بعض المتصوفة يدعي ان الله هو جميع هذه الموجودات لا على سبيل التجزئة والفرقة ، ولكنها تكن فيه كما يكن الربع والنصف في الواحد ؟

وهل لأن بعض الصوفيين الآخرين (١) يرون الطريق الى الحقيقة الالهية من داخل النفس كما هي من داخل العالم ولا تفني واحدة عن الاخرى كل الغناء ، ويرون ان نفس الحس لا يكفي للوصول الى الله ، بل لا بد من عمل وعلم . ويتفق الجميع على ان الحب الالهي يشمل العقل والشعور وكلهم يلتبس في الحب شفاء من الحيرة وحلاً للنقائص واقتراباً من الحقيقة ؟ كما قال محي الدين بن العربي :

وقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي	اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فرعى لغزلان ودير لرهبان
ومعبد اوثان وكعبة طائف	وأواح تورا ومصحف قرآن
ادين بدين الحب اين توجهت	ركائبه فالحب ديني وايماني

وهل لأن اهل الفلسفة الوضعية يقولون ان البشر يتقدمون من طور الدين الى طور الفلسفة الى طور العلم الوضعي ، ثم يعتمدون على هذا العلم وحده في كل معرفة يدركونها ولا وسيلة الى الادراك غير التجربة والمقابلة والاستقراء ، ومهما يجهد العقل فلن يصل الى حقيقة ما ، بغير هذه الوسيلة ، فادراك المسائل الغيبية من وراء امد العقول ، وقد تستغني العقول عن ادراكها ، لأنها لا تغير حياتها على هذه الارض وهي حياة قائمة على التجارب في حدود المعلوم من القوانين والنواميس . ولذا قال « كونت » وهو امام هذه الفلسفة بان الدين حاجة انسانية لاغنى عنها ؟

وهل لأن جميع البراهين التي استدلت بها الفلاسفة على وجود الله لا تخرج

(١) تاريخ التصوف في الاسلام

عن برهان الخلق ، وبرهان الغاية ، وبرهان الاستكمال والاستقصاء ، وبرهان الاخلاق او وازع الضمير ؟

وهل لأن من الماديين من يجزم بأن هذا الكون كله ، لا يحتوي شيئاً واحداً يلجئنا الى تفسيره بوجود غيره ، ولا استثناء عندهم في ذلك ، لا للنظام ولا للعقل ولا للحياة ؟

قد تكون هذه الأسباب وغيرها هي التي جمعت قضية الألوهية وأثبتت وجود الاله قضية لا تدخل في نطاق البراهين العقلية ، ولا في نطاق البراهين المادية ، ولا في نطاق براهين الحيرة والتردد والشك ، ولا القول بالمصادفة التي لا تفسر لنا حقيقة الكون وما فيه من مظاهر الوعي الكوني ، والعقل المدرك الذي هو موجود بغير تجزئة ولا تقسيم ، وملكة حية تعمل عملاً حياً ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه ، وقد يخطئ في بعض الأشياء ، ولا يضمن الاصابة في كل شيء ، ولكن الخطأ ينفي العصمة الكاملة ولا ينفي الوجود ولن يقدح ذلك لا في وجوده ولا صلاحه للتفكير .

ولذا كان ادراك الاله كما تدرك المؤثرات المادية في الخارج لا سبيل له ، إذ سيبتل الاله ان يكون إلهاً إذا قام الدلائل المادي على وجوده ، كما قال « غاندي » .

ونحن في كل حال ، لا ندرك ماهية الاله ، ولكن نفي وجوده بالبداهة العقلية وبالوعي الكوني الذي هو أعمم من العقل المجمل وأعظم منه وأعرق في اصالة وجوده مع الحياة الانسانية منذ نشأتها الاولى ، وهو في طبيعة الانسان مصدر الايمان بوجود الحقيقة الكبرى التي تحيط بكل موجود .

وأما الحيرة وان كانت مبدأ البحث ، والشك وان كان اول خطوة للاستقراء والتجربة ، ولكن للانسان وعي بما في الكون من جمال ، وله وعي بما فيه من نظام ، وله وعي بما فيه من أسرار والغاز وقوانين وعيوب ، فاذا احتجب الجمال عن اناس وأسفر على اناس « كما يقول الاستاذ العقاد » فليس

بقادح في وجوده أو صدق الاحساس بمعانيه ، وإذا تناسقت البداءة « ارياضية » والنظم الكونية في بعض العقول ، فليس يقدر في هذا النسق انه مضطرب او مفقود في غيرها من العقول ، واذا خيّل الى فريق من البشر ان هذا الكون سرمدي خلو من الاسرار والغيوب ، فليس لهذا الفريق حق الاستئثار بالتصديق او النفي دون الفريق الذي يستشعر تلك الاسرار الغيبية ، ويبادلها المكاشفة والمناجاة .

والحقيقة التي يجب ان يقال ، ان البراهين الفلسفية والعقلية جميعاً لاتنفي عن الوعي الكوني في مضاربة الايمان بالله والشعور بالعقيدة الدينية . وان الاحاطة بالحقيقة الالهية شيء لاينحصر في عقل انسان ، ولا في دليل يتمنخض عنه عقل الانسان .

والعجيب في تفكير الماديين انهم يستجيزون الكمال المطلق في كل عنصر من عناصر الوجود إلا عنصر العقل وحده فانهم يحدونه بالعقل الذي يتراءى في تكوين الانسان دون سواء ، فلا حدود عندهم لمادة الاكوان ولا لاستمرارها في الزمان والمكان ، ولا لما اشتملت عليه من القوة والحركة والتكرار ، ولكنهم اذا تكلموا عن اشرف هذه العناصر وهو العقل ، أجازوا حصره في البنية الانسانية ولم يطلقوه من الحدود التي اطلقوا منها جميع عناصر الوجود .

فكيف جاز ان تكون المادة قادرة على خلق العقل ثم جردوها منه ملايين الملايين من السنين قبل ظهور الانسان بين هذه الموجودات ؟

ان القول بان الحياة والعقل من عمل حي عاقل قضية عقلية لاغبار عليها ، وان القول بان المادة هي مصدر كل شيء في الكون يلجئنا الى فروض لايقربها الحس ولا يقبلها المنطق ولا توافق القسطاس الذي جملة الماديين مرجعاً لجميع الآراء والاحكام وهو قسطاس المشاهدة والدليل المحسوس .

ولا قناع العقل ، واراحة الضمير ، وازالة الحيرة ، ونفي المصادفة ، نقول ان المدم معدوم ، والوجود موجود ، موجود بلا اول ولا آخر ،

ولا نقص ولا نهاية ولا قصور .

وأما الشرور والآثام والآلام ، فأعراض نسبية ترينا جانباً واحداً من الصورة الخالدة في فترة واحدة من الزمان ، وهي من مستلزمات الحياة ومن ضروراتها .

والمسألة ليست في وسعنا ان نشق ، وفي وسعنا الا نشق ، ونحن في اضطراب او لا اضطراب ، انما هذا مقتضى الحياة والحياة بدون هذه الاختبارات لا ترتقي في سلم التطور ، ولا تتجه نحو مطالب الكمال . وليس لك ان تزعم انه منكر ولا انه غير منكر لأن عواملها مجهولة لديك وما من شيء كامل الا العقل الانساني متطلع الى اكمل منه ، ثم الى اكمل ، الى نهاية النهايات وهي الغاية التي لا مزيد عليها ولا نقص فيها .

وهذا الموجود الكامل ، موجود لاحالة لأن وجوده في التصور اقل من وجوده في الحقيقة ومجرد تصوّره مثبت لوجوده ، وبهذا الاعتبار يثبت وجود الاله لأنه غاية الكمال .

ثم «لأن الحس والعقل والبدئية جميعاً تستقيم على سواء الخلق حينما تستقيم على الايمان بالذات الالهية ، وان هذا الايمان الرشيد هو خير تفسير لسر الخليفة بقله المؤمن ويدين به الفكر ويتطلبه الطبع السليم» .

واما المذاهب التي يذهب اليها العلماء الطبيعيون والماديون والالهيون في البحث عن العلة الاولى ، والعقل المجرد ، وعن المحرك المطلق وتتلخص في مذهب تطور القوانين الطبيعية ، ومذهب التطور الخالق ، ومذهب الارادة ومذهب التركيب الكامل في الموجودات العضوية وغير العضوية ، والموجودات المتداخلة كالحق ، ومذهب الفكر الابدئي ، فلا تحل مسألة الالهية لانها من صنع العقل ، والعقل لا يستطيع ادراك ذاته وهو لم يحل لنا مسألة الحياة ، ولا مسألة الشعور عن بعد ، ولا مسألة التنويم المغناطيسي ، ولا يفسر لنا الاحلام ولا الايحاء الباطني ، ولا الكشف وتحضير الارواح ونحن نحس بها

كما نحس بوجودنا ووجود العالم الخارجي المحيط بنا ، وما لم تحل هذه المسائل فسنبقى في حدود الشعور البديهي والفرضيات العقلية التي تطورت وتطور الى ان تصل الى الدرجة التي وصلت اليها الفرضيات الرياضية والفرضيات الطبيعية في حل معميات القوى الكونية .

وأمام ما يلقاه العقل من نقد في سلوك الانسان وحياته ، وحياة المجتمع ، وأحداث التاريخ وعلاقاته ، وعقائده ، وأخلاقه ، ومعاملاته . سيبقى في شك من معظم الفرضيات التي فرضها ووصف بها الاله وعلاقته مع الانسان ومع الخواص الحية ومع القوى الطبيعية والموجودات المادية ، وكلها صفات تنطبق على الانسان ومن خلق الانسان .

ومن الغريب أن يشتغل بها اللاهوتيون ويشغل بها الفلاسفة وهي من صنعنا ، ولو تجنبناها وانصرفنا الى التفكير بالعلمة الاولى ، كما نفتكر بالقوى الطبيعية وزيد معرفة ظواهرها وقوانينها دون ان نتصور لها نفعاً أو ضرراً ، شراً أو خيراً ، علماً أو جهلاً ، عدلاً أو ظلماً ، لأن هذه الامور نسبية من صنع حياتنا وطبيعة غرائزنا ، وليست من صنع الخالق ولا من طبيعته ، لتقدمنا نحو فهم الحقيقة .

وما لم نعلم حقيقة الحياة ونهايتها ، ونعلم حقيقة العقل ومصيره ، ونعلم حقيقة الوجود ومصيره ، فلن نستطيع أن ندرك حقائق الوجود والموجد . وكل ما ندركه ان وجودنا حقيقة ، وحياتنا حقيقة ، وتفكيرنا حقيقة ، والعالم بأدراكنا حقيقة ، وعقلنا بمظاهره حقيقة ، والحقيقة تتجلى لنا في حدود الوعي الذي يفرض علينا الاستقراء والقياس والاستنتاج والبعث وراء المجهول والمعمي ، والمطلق ، لادراك الكليات التي هي من خواص العقل الانساني ولا حد لتطوره ومدروكاته ، ولا حد لعددها ، وخواصها ، ومظاهرها في الكل المطلق .

وعند هذا نختم البحث عن تطور الفكر في قضية الالهية وتطورها والتثليث وتطوره .

المراجع العربية

- ١ - « الله » لعباس محمود العقاد
- ٢ - « انجيل بوذا » ايسى سابا
- ٣ - « دائرة المعارف » لمحمد فريد وجدي
- ٤ - « الملل والنحل » للشهرستاني
- ٥ - « مشكلة الالهية » للدكتور محمد غلاب
- ٦ - « شريعة حمورابي » للمؤلف
- ٧ - « الالهية في المعتقدات الوثنية والمعتقدات الاسلامية » لفاروق الدملاجي
- ٨ - « تاريخ الفلسفة الاسلامية » ليوسف كرم
- ٩ - « تاريخ الفلسفة اليونانية » لبرتراند رسل
- ١٠ - « تاريخ الفلسفة في القرون الوسطى » لبرتراند رسل
- ١١ - « مقدمة ابن خلدون » لابن خلدون
- ١٢ - « تاريخ التصوف في الاسلام »

المراجع الانكليزية

- 1 - Oriental - Philosophy, Dr. Adams Meck
- 2 - The Meaning of God - Hocking
- 3 - The Golden Buch. - Frazer.
- 4 - Sex Worship. Dr. Wall
- 5 - Mystism and Freudism and Psycology. Dunlap
- 6 - Origin of Religion. Malcob.
- 7 - Encyclopedia Britanica
- 8 - Encyclopedia Islamica

الشخصية وتكوينها

المعرفة العلمية :

ان شعورنا بالشيء لا يفيد معرفتنا بحقيقته ، فلذا نطلب المعرفة العلمية القائمة على المشاهدة ، والاستقراء والبحث ، والتجربة ، والقياس ، والاستنتاج ، ونحكم لنعلم ما بنا وما يحيط بنا وما يقع تحت حواسنا ومشاعرنا . والمعرفة غاية الادراك ، والعقل بلا معرفة ولا ادراك آلة محطمة ، وإذا تحطم العقل فقدت اللذة وتحطمت الحياة . ولذا قال الصوفيون : « اللهم زدنا بك معرفة » لانها لذتهم الخالدة .

الفرو بين المعرفة الشعورية والمعرفة العلمية :

ان الانسان ليأكل الطعام ويشعر بطعمه ، ويعلم انه يستقر في الجوف ، وإذا اكتفى من وجبته يشعر بالشبع ثم يجوع . ثم بعد حين يعود الى تناوله شأنه بذلك شأن بقية الحيوانات ... فما قيمة الانسان اذا وقف عند هذا الحد ؟ لا قيمة له ! ان قيمته بالمعرفة عن اكله وعن عمله ، لا بالشعور الذي يشعر به عند تناول الطعام .

ان انساناً حبته الطبيعة بالعقل ليعرف ماذا يأكل ؟ وما قيمة ما يأكل ، وما هو تركيب طعامه ؟ وما هي عناصره ؟ وما هي خواص غذائه ؟ وهي تفرض عليه أن يعرف كيف يستحضر الاطعمة والكمية اللازمة لبقائه فلا يفرط بما يتناول ، وتسأله ان يبحث ويستهدي ليعرف ما فائدة اللحم ، والدهن ، والماء ، والأملاح ، والخضار ، والفواكه وغيرها ، ولماذا يتناولها في اوقات معينة ، ثم تهديه الى كيفية مضغها ، وبلعها ، وكما مرة يجب ان تمضغ ؟ وماذا يحل بها اثناء المضغ وبعد البلع والى اين تذهب ؟ وتزيده اطلاعاً فتعلمه ما يحل بالمواد من

تحليل وتركيب وتغيير في الجوهر والشكل ، وكيف هضمها معدته وأثرت فيها المخمرات والمهاضات المعدوية ، ثم سافرت مودعة لتستقر في الامعاء المديدة ، وتوحي اليه بما للصفراء والافرازات المعوية من تأثير ميكانيكي في انهاء فعل الهضم ، ثم تطلعه على كيفية الامتصاص والتمثل وبناء الخلايا والانسجة والالياف والعضلات ، بعد أن يمر الغذاء من الكبد ويختلط بالدم الأزرق ويذهب الى الرئتين ، وقد عاد الى القلب ليدور في جميع الاوردة والشرايين والأوعية الشعرية ، وتكشف له عن استمرار الحياة فتظهره على كيفية تولد الحرارة من احتراق الانسجة والخلايا واحتراق الاغذية ، وكيف تطرح الفضلات وتحولها بعد حرقها الى مواد قابلة الطرح والتصفية ، فتخرج من معمل الجسم بواسطة الامعاء والكليتين ، والجلد والرئتين والمبولة .

وقد لا يكتفي العقل بهذه المعرفة ، بل يطلب المزيد فيعيد نظره وبصيرته الى الاحاطة بتشريح الجسم ، ومعرفة وظائف الأعضاء وكيمياء البدن وقوانين الحياة وقوانين الطبيعة وتاريخ الارتقاء ، ثم تسع احاطته فتشمل الاجنسة ، والانسجة ، والغدد ، والصحة ، والمرض ، والجراحة ، والجراثيم ، والتوليد ، ثم يزداد أفق اتساعها فتشمل علوم الكون وعلوم الطبيعة ، وعلوم الاجتماع ، وعلوم النفس والدين والرياضة وغيرها ، مما يجعل المعرفة تامة كاملة ، وتجعل العقل راضياً ، فتجيب لي ولك الحياة ، وتمتعنا باللذة التي لا يعقبها ألم ، لانها لذة العلم والمعرفة .

تأثير الشخصية في مجرى الحياة الاجتماعية :

إذن السبب الاول لاسماعكم هذه المحاضرة هي « المعرفة » ، اما السبب الثاني « فتأثير الشخصية » السوي منها وغير السوي ، أي الصحيح منها والمريض على مجرى الحياة الاجتماعية .

وهناك سبب آخر أوجه قرار منظمة الامم المتحدة الذي يقول في الفقرة الثانية من المادة (٢٢) من قانون حقوق الانسان : « يجب ان توجه التربية الى

تنمية الشخصية تنمية تامة ، وقصدهم من هذا التوجيه اعتقادهم بأن تنمية الشخصية تنمية كاملة تقلل الاختلافات ، وتزيل الشرور بين الأمم والافراد ، لأن الشخصية السليمة النامية نمواً سوياً تحسن استعمال هذه الحقوق وتجعل المجتمع صالحاً لحياة الافراد وسعادتهم .

سبب خذلان العرب في سياستهم وموقفهم :

وبهذه المناسبة أذكر ان أحد الاساتذة ، ادعى بأن سبب خذلان العرب في سياستهم ، يعود اكثره الى خذلان الثقافة والمثقفين ، الذين تولوا قضية فلسطين وتحملوا مسؤولية انقازها سياسة وحرباً ، ان مدعاه فيه الحق ولكن ليس كل الحق . ولو تعمقنا في التحليل لوجدنا أن سبب الخذلان مردّه « اعتلال الشخصيات التي أدارت سياسة فلسطين أيام الانتداب ، والشخصيات التي تولت انقاذ فلسطين بعد زوال الانتداب » .

ان شخصياتهم كان ينقصها عناصر القوة ، والادراك ، وبعد النظر ، والثبات ، والشجاعة ، والصراحة ، والارادة ، فلم يدركوا خطورة الموقف ، ولا قدروا ما يحيط بنا من قوى ، ولا اهتموا لسياسة الدول وتنازع الأمم ، ولا أعدوا للكفاح ما يلزم ، بل انصرفوا الى التباطؤ والانتظار ، وقبول المفاجآت ورضوا بالحكم الواقع فأصيبوا بالخذلان ، وفشل تديرهم واضاع العرب الموقف والمجال . لقد انتابهم الالهواء والمطامع ، ولعبت في قلوبهم المنافع والحرص على الزعامة والسيادة ، وطغت على مذاكراتهم وخططهم الانانية والتفرقة ، فانحرفت شخصياتهم عن جادة الصواب ودلوا بذلك على اعتلالهم .

ما هي الثقافة ؟ :

نعم ، ان الثقافة تدريب لطبيعة الانسان الادبية وتنوير لمدركااته الباطنية ، هي صقل وتشذيب وتحضير لتقدير الفكر والفن ، والمنافع البشرية ، هي نضوج في المقدرة الاجتماعية ، وعامل في بلوغ الافراد والجماعات غاياتها المثلى . ولكن

لوصح أن الخذلان والنصر بين الأمم والافراد ينتجان عن الثقافة لوجب علينا التساؤل : لماذا غلبت المانيا على أمرها وانكسرت جيوشها واستسلمت الدول الغالبة ؟ أليست ثقافتها وعلمها وعلمائها تفوق ثقافة الغالبين وعلمهم وعلماءهم وتربيتهم ، وتفوق ثقافتنا نحن العرب أضعافاً مضاعفة ؟ .

السبب ان الألمان خذلوا كما خذلنا نحن ، لسبب ضعف شخصيات القائمين ونقص نموها وشذوذها ، فأخطأوا وكان عليهم أن يقدروا مصائر الامور قبل الاقدام ، وان يحدّوا من نزعاتهم الشخصية في سبيل المصلحة العامة وسلامة الامة.

ما هي الشخصية ؟ :

تقول كتب الفلسفة ان الشخصية لا تفيد وجوداً مستقلاً ، وعندهم لولا البيئة الاجتماعية ووجود الأفراد ، ولولا المقابلة بين الشخصيات لما فهم للشخصية معنى . ويقولون ان في الامكان تسميتها بالمقدرة الاجتماعية ، أو بالنشاط الاجتماعي Social Energy الذي يقاس بما عند الغير من مقدرة ونشاط مع ما لديك أنت منها ، فاذا فقدت المقدرة فقدت شخصيتك تماماً . فماذا يعنون بهذا الرأي ؟ وهل نظرية وجود الشخصية هي من وضع العقل الذي من شأنه التصنيف والوصف والتحديد ؟

أجل ، ان كلا الأمرين صحيح وهو الواقع . إذ من المعلوم ان الشخص عندما تبرز فيه خصلة فريدة يشتد بروز شخصيته ، لذا لا نستطيع تصوّر مجتمع يستحق الخدمة والتقدير ان لم تتألف افراده من شخصيات تتحلى بمزايا نادرة ، وصفات بارزة وقيم اجتماعية مفيدة .

والناس كما يختلفون بالقيم المعنوية والمواهب العقلية والمقدرة الانتاجية ، ويتباينون بالفهم والذكاء والتربية ، فانهم يختلفون ويتباينون في شيء آخر غير ملموس هو « الشخصية » التي يصح ان نقول عنها اننا نعرف صفاتها ولا ننكر وجودها ان لم تكن مستقلة .

بيان عناصر الشخصية :

وتوضيحاً للقول ، لوطلب واحد وظيفة او عملاً او خدمة في احد المعامل ، او المصانع او الادارات او الخدمات وقدم اسمك للاستعلام عن شخصيته ، التي يفرض انك تعرفها فماذا تنتظر ان يأتيك السؤال .

لاشك ان المراجع سترسل اليك كتاباً تسألك فيه الاجابة عن خبرة الشخص ، ومعرفته ، ومهارته في العمل الذي يريد ان يتولاه وتطلب ايضاً وافياً عن اخلاقه وسيرته ومعاملاته وعاداته ، وستجيبهم حسب تقديرك الجدي ، ان الطالب لطيف المشرة ، قوي الشخصية ، يندمج مع عارفه ، ويألف مع رؤوسه ، ويتعاون مع رفقائه ومع من هم دونه ، وتؤكد هذا الوصف بأن الطالب عفيف النفس نظيف اليد ، نقي اللسان ، أديب الطباع ، مهذب الاوضاع ، شجاع يثق بنفسه وجريء يعتمد على كفاءته ، بشوش في حديثه منصف في احكامه ، وهو متصف بجمال المنظر واعتدال القوام ، ومكدر في عمله ، لبق في تصرفاته ، مظهره يوحي بالثقة والطمأنينة ، ولبسه يدل على الذوق والكياسة . وبعدها سنقول انه ممن يعتمد عليه وتتمنى له التوفيق والنجاح وتتمنى ان يكون جميع الموظفين والمستخدمين من هذا الطراز وفي جميع النواحي ممن يقدر هذه الصفات ..

الا ترون في هذا المدد من الصفات والخصال ، مايدل على نمو الشخصية واعتدال تكوينها وحسن علاقاتها ، وان الطالب قد جمع العناصر التي تضمن له القبول وتكسبه حسن السلوك مع عائلته ومجتمعه ، وان ما يلزم للشخصية من صفات أدبية وعقلية تلازمه ايضاً ؟

لقد اسلفنا القول ان الشخصية مجموعة صفات جسمانية وعاطفية وعقلية ، وخصال اجتماعية تتفاعل مع بعضها البعض ، وتتكامل في شخص معين يعيش في بيئة اجتماعية نعتبرها وحدة تمثل بهذا المجموع الذي يمثله بالجسم من حيث انه مجموع اعضاء والنسجة وهيكل ، وسوائل وعضلات ، وغدد واعصاب ،

وظائف تجري وافعال تسري ، والجميع يتعاون لحصول الشخصية على العناصر التي تتأثر بمقومات الجسم ومقومات العقل . فالمعرفة لتحليل الشخصية تتناول تركيب الجسم واعضائه والنفس واعمالها واقسامها ومظاهرها ، وتتناول تأثير كل منها بالفرد والمجتمع .

والاحاطة بصورة اوسع ، يجب ان نلم بالشخصية واعراضها وصفاتها وبالشخصية العلمية واعراضها وصفاتها ، لكن ذلك مداره علم النفس وعلم الامراض النفسية فلا نتعرض لهما .

واذا تتبعنا نشوء الصفات وتكامل الحاصل في الشخصية السوية ، نجد لكل دور من ادوار الحياة صفات خاصة ، فما يتجلى في شخصية الطفل هو غير ما يتجلى في دور الصبا والرجولة ، وما يتجلى في دور الشيخوخة والكهولة هو خلاف ماضى من الادوار ، لان الحياة تتبع قانون النشوء والارتقاء والانحطاط ، وتبقى في تحول مطرد .

عوامل الشخصية :

اما العوامل المؤثرة في تكوين الشخصية فخمسة : البنية ، وكيمياء الجسم ، والغرائز ، والعقل ، والمحيط .

١ - البنية : إن البنية عامل فيزيكي ، والتميز بين الصفات البدنية وتأثيرها ، والصفات العقلية وتأثيرها في الحياة العادية غير واضح ، ولا يمكن البت بينهما إلا في الصفات المجردة . لنأخذ مثلاً حجم الجسم ، فصغره وكبره يؤثران في العلاقات الشخصية مع الآخرين ، وفي اعتباره لهم واعتبارهم له ، وتبرز الشخصية في هذه العلاقة ، ويؤثر الجسم في السلوك بطرق دقيقة ، فيتحكم كبار الاجسام في صغارها ، ويتظاهر الأولون بالهكم والشدة والفكاهة ، ويتظاهر الآخرون بالجدية والتأكيد ، ويغدو الوضع برهاناً لقوة العضلات ونموها وكبر هيئة الجسم وضخامتها وتأثيرها في تكوين الشخصية .

٢ - المواد البيولوجية - الكيميائية : يعود تأثير هذه المواد كما ادعى الأقدمون في الأمزجة الاربعة التي وصفوها «بالمزاج الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي» وقالوا هنالك مزاج آخر يسمى العصبي ، أي الذي يكثر فيه انسائل العصبي ، كما يكثر الدم في الدموي والليف في البلغمي ، والصفراء في الصفراوي ، والسوداء في السوداوي .

ولعلنا بما تفرزه الغدد الصماء من افرازات تدور في الدم وتؤثر في أمزجة الانسان وطباعه وسلوكه ، ولعلنا بما للامزجة من تأثير في الشخصية ، يمكننا تعليل ما ادعوه بالهرمونات والخموات والمواد التي تفرزها الغدد المذكورة دون اللجوء الى السوائل الاربعة .

ولبيان الواقع نأخذ مثلاً مادة «الادرينالين» وهي مادة عضوية مركبة مؤثرة تفرزها الغدة الكظرية ، وتدور في الدم فتحدث تقلصاً في الأوعية الدموية ، وانقباضاً في عضلات القلب ، وزيادة في التنفس ، وسرعة في الدقات القلبية ، وصعوداً في الضغط ، وتكثر عند الحدة والخوف والتهيج والغضب ، وعندما يفاجأ الانسان بسماع ما يهيج ، أو رؤية ما يثير الشعور .

وتزيد لكثرتها انفعالات الجسم ، وتهيج الاعصاب والحركات فتؤثر في افرازات غدد اخرى كالغدة النخامية والصنوبرية والدرقية وفوق الدرقية وكغدة المبيض وغدة الخصى ، وهذه الغدد يتناول تأثيرها نمو العظام والعضلات ، وكثرة الشعر أو قلته ، ونمو الاعضاء التناسلية وتتعمك في حالة الجلد وفي افعال الاعضاء وافعال الدماغ وفي نشاط النفس ، وفي حالات اخرى ذكرتها كتب الطب ، وبينت ما ينتج عن افراطها وقلتها أو انعدامها ، من خلل مرضي ومن تبدلات وتحولات فيسيولوجية تؤثر في سير الوظائف وفي الصفات الشخصية .

وما دام الواقع بهذه الصورة ، فالادرينالين يوجب الغضب والانفعال النفساني ، والدرقنين يوجب العزيمة وثبات الارادة وغيرها ، وتوجد حالات اخرى لا يزال العلم يجد وراء استكمال اكتشافها .

ومثلما تؤثر الهرمونات في تكوين الشخصية ، فإن المسكرات والمكيفات والمخدرات والمنهات ، كالافيون والحشيش والكوكائين والمورفين والتبغ وغيرها مما يستعمله المدمنون يفسد خلايا الجسم وخلايا الدماغ ، ويؤثر في صفات الشخصية فيفسدها ، ويضعف القوى العقلية والضابط النفساني ، ويسوق اصحابها الى اعمال تعتبر في نظر الطب « شاذة » وفي نظر المجتمع « فاسدة » .

٣ - فعل الغرائز : ومن العوامل الهامة نذكر الغرائز ، وهي موروثات الحي تختلف قوتها وشدتها وتأثيرها باختلاف المحيط والتربية ، واختلاف الوراثة والاقوام والاجناس .

وعلماء الفيزيولوجيا لا يتفقون في تحديدها وعددها ، فيقرّ بعضهم انها اثنتان ، والبعض يقول ست عشرة ، ومنهم من يدعي ان منها ما هو الأصل ومنها ما هو الفرع . وفرويد وجماعته يقولون ان غريزة حفظ الذات ، وغريزة حفظ النسل هي الاصل ، وما سواهما فرع . ويدعي فرويد ان غريزة حفظ الفرد واختها هما سبب الاجتماع وبعثا المدنية ، وموجد الشرائع والآداب ، وفي سبيلهما يشتغل العقل ، وتعمل العواطف ، وتسير الحياة . وله على ذلك نظريات وتفسيرات لاثبات مدعاه لا مجال لبحثها ، وقد اشرنا اليها عند بحثنا عن مذهب فرويد .

عدد الغرائز : على أن اكثر علماء النفس يذكرون للانسان ست عشرة غريزة ، أهمها غريزة الجنس ، وغريزة الدفاع عن الذات ، وغريزة التغذي ، واللعب ، والزحف ، والانشاء ، والاجتماع ، والاستطلاع ، والتجسس ، والتقليد ، والايحاء . ويذكرون مع هذه الغرائز المقاتلة والتسلق والهرب والخوف والمقاومة ويعدون النفور والتأكد الذاتي من الجملة .

وتأييداً لما للغرائز من تأثير ، نلاحظ ان الشخص الفلاني اكثر معايشة واجتماعية من رفيقه الثاني ، والاجتماعية والانسجام عنصر من عناصر تكوين الشخصية ، ونلاحظ ان زيداً يميل للايجابية ، فيفوق غيره في العمل والانشاء والانتاج ، بينما نلاحظ أن بكرأ يميل للسلبية فهو هدام ، ويجب الابطاء والنفرة

ونعلم ان فلاناً عطوف على ارحامه وأهله وذويه ، يحسن على الضعفاء والايام ، ويشفق على الأطفال ، لأن غريزة الأمومة قوية في تكوينه الشخصي ، ونجد صديقاً لنا يحب المرح ويميل للزاح ، ويستعمل النكتة . وغيره تغلب عليه الشراسة ، وضيق الفكر ، وتظهر على وجهه علامة العبس والمشاكسة ، لأن غرائزه تغلبت على قواه الفكرية .

وعندنا ، ان ما أفاد المجتمع وزاد في نمو الشخصية من الصفات اعتبرناه سويًا ، وما سبب الانحراف والشذوذ والضرر اعتبرناه غير سوي ، ولولا مرض الشخصيات واندفاع سلطان الغرائز ما ظهرت المفاسد .

٤ - العقل الواعي وتأثيره : وهو العامل الرابع .

قلنا العقل الواعي تفريقاً له عن العقل الباطن ، والحقيقة اننا لا زلنا نجعل ماهية العقل وكيفية وقوع الوعي والادراك . والذي يزيدنا جهلاً هل العقل الواعي افراز من الدماغ ؟ أم الدماغ آلة للمظاهر فقط ، أي الفعالية العقلية ؟

ان العلم لم يجزم بأن العقل افراز من الدماغ كافراز الصفراء من الكبد ، ولم يجزم بأنه مستقل عنه كما يعتقد الفلاسفة والصوفيون والروحانيون .

ومع ان الماديين « علماء السلوك وعلماء الطبيعة وعلماء البيولوجيا » يؤمنون بأنه افراز من الدماغ بدليل ان أي آفة او مادة تصيب جوهر خلايا الدماغ تعطل عمليات العقل أو تميئها ، فان بعض علماء الفيزيولوجيا كعلماء العقل يقولون ان الدماغ آلة العقل ، وكلاهما شيئان متلازمان خطين متوازيين بينهما صلة . ويقولون اذا كان الدماغ آلة العقل فلا يعني افرازه بل مدار ظهوره . وفي كل حال ، ان ما نعرفه عن العقل هو مظهره الثلاثة : « الاطلاعية ، والمطفية ، والارادية » وهي تخص الذات ، أي انها التي تطلع وتدرك وتريد وتتصرف بمدركاتي ومشاعري وغرائزي ومنها تبنى شخصيتي .

أما تأثير العقل في الشخصية ، فيتبين لنا من مشاهدة البطيء الفهم والقليل الانتباه كيف ان تقصيره من هذه الناحية يجعله بعيداً عن معاشره المجتمع فلا يمس

الحيط الاجتماعي بشؤون وعلاقته . وحيث اننا منقادون لغرائزنا بمقدار ادراكنا لحاجات الغير بحسب تخيلنا ما يفعله لو حل محلنا ، ونسبة ما تجهزنا التربية من تدريب وتهذيب . فالعقل الواعي والعقل الباطن إذا أصيبا بضعف أو آفة أو مرض نفسي قبل الادراك وقبل التقدير ونقصت استجاباتنا الشخصية واحتل ميزان الضابط النفسي ، وانطلقت الغرائز لتعمل عملها دون رقيب ولا اعتبار فتتحرف الشخصية عن الحالة السوية وتصاب بالدوافع المرضية التي تستحوذ على الارادة وتصرفها كما تريد .

وكما يقتضي لتطبيق المبادئ السامية قدرة نفسية في محاكمة الامور ورؤية الاشياء على حقيقتها ، فالاعمال العلمية والآثار الفنية والمشاريع العمرانية والمخترعات والمكتشفات يقتضي لها عقول راجحة وأذهان وقادة وشخصيات جبارة جعلت العلماء والفنانين والمباقره والنبغاء ورجال القيادة والادارة خير ممثل لها ، وكانت آثارهم وأعمالهم خير نتاج لها . ولولا أن حياتهم مثلتها شخصية نامية كاملة ما فاقت في قوتها وعظمتها ومزاياها جميع من كانوا من أهل ذلك الزمن .

وتدلنا الاحصاءات والدراسات من جهة ثانية ، على ان عقول المجانين والمشاين ومرضى النفوس هي دون الوسط ، وان شخصياتهم ارتكبت الجنايات والشواذات وعاثت في المجتمع فساداً فساد غرائزهم وضعف عقولهم وسوء وراثتهم وتربيتهم ولم يكن تفكيرهم أعلى من تفكير من استطاعوا كشف اسرارهم وفصح جرائمهم وتمدياتهم .

وتبين لنا من تدقيق شخصيات الاطفال المتأخرين وفحص اذهانهم واجسامهم بالمقاييس العلمية ان سر ما بهم مردّه الى مركب النقص الذي يهدم قوة الشخصية الادبية ويولد الصفات الناقصة .

وتدل التحقيقات السيكولوجية والتربوية ، على ان الاطفال ضعاف الارادة وأصحاب الشذوذ ومن نما فيهم مركب النقص بسبب فساد المحيط وسوء التربية يغلب عليهم الرياء ، والنفاق ، والانانية ، والانتقام ، والتميع الخلق ، وسوء التغذية ، وتأخر النمو يترك في الجسم آثاراً ينتج عنها الملل والضجر والشراسة

والعناد وغيرها من سوء الطباع التي لا تعالج إلا بإزالة الاسباب والعوامل وارجاع الشخصية الى سيرها الطبيعي وحالتها السوية .

كيف يعرف الانسان شخصيته : واذا سألنا كيف يستطيع الشخص تمييز شخصيته وتقديرها ؟ أجبناه عليك بمعرفة الذات ، عليك بنفسك ، عليك باتباع الآية الذهبية : « وفي انفسكم أفلا تبصرون ؟ » . وماذا بعد قول علي رضي الله عنه : « اعرف نفسك أولاً ، ومن عرف نفسه عرف ربه » ، ولديك المقاييس العلمية وطرق المعرفة ، فاتبعهما لتكون الرجل الذي يثق بنفسه ويفهم مدى استعدادده .

١ - إن الطفل يميّز ما هو تابع لذاته وما هو غير تابع لها عن طرق التأكدية التي يظهر مفعولها في سلوك الطفل اول عمره وتساعد على مقاومة الجذب والدفع من جهة الى جهة ، وتسوقه في الامتناع عن تسليم نفسه والقبض عليه ، وكلما تقدم نموه أظهر الميل لاثبات إرادته التي تقاوم الاشياء الخارجية وتمنعه ان يجعلها جزءاً من ذاته ، وبهذه الطريقة يستقيم أمر التمييز .

ولا تنحصر الارادة بمقاومة الاشياء الخارجية ، بل تمتدّ الى مقاومة الاشخاص والنفرة منهم ، ثم الاستسلام لهم اذا ما شعر الطفل بالعجز وأراد التخلص بدون نزاع .

٢ - ومن الجائز ان يحصل التمييز بين نفس الطفل وبين الافراد الآخرين اكثر مما بينه وبين الاشياء القريبة منه والمحبة اليه .

ومع اننا في الغالب نعرف « ذاتنا » عن طريق الارادة والرغبة فالحقيقة « ان الذات » أساس الادراك ، فأنا أعرف ذاتي واعرف انها تفكر ، وانها تقاوم ، وهي التي تنازع وتقترح وتسابق لانها تدلني على مقدار محدوديتي ، وبواسطة اختياري تفهمني اني لست قوي العضلات ولا قوي الاطلاع لأفعل هذا الشيء ، ولا تحمل هذا الثقل ، وكلما تقدمت في العمر عرفت درجة عقلي .

فلنتصور طفلاً صغيراً ولد وليس بمقدوره ان يميّز نفسه عن الاشياء المحيطة به ، ثم يري رجله ويمدها شيئاً كبقية الاشياء كاللعبة مثلاً ، ثم يتعلم بعدها

ربط المراتب بالاحساسات الحركية الجلدية الآتية من اطراف القدم بواسطة الالياف العصبية ، فيتكون لديه من هذه الاحساسات والاحساسات العضوية ما يحتفظ بالخاصة الباطنية التابعة للذات . ولذا ألحقت المراتب والسموعات والروائح والذوقيات بالاشياء الخارجية ولم تعتبر من الذات .

٣ - ومن المؤكد ان كلاً منا يحاول قياس ذكائه بالنسبة لذكاء الآخرين ، أو بالنسبة للوظائف التي يشغلها أو يشغل مثلها غيره ويحتفظ بسر النتيجة . وقد يفتقر البعض فيقدر ذاته زيادة عما هي ، وقد ينصف البعض فيقدرها كما هي ، والبعض يجهلها لجهله ، ولكن لا تعجب إذا قلنا بضرورة هذا التقدير لننقذ انفسنا من مركب النقص ، أو من مركب الغرور « ورحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده » .

٤ - الاعتماد على النفس : وما نجده في كتب علم النفس وعلم التربية ، كلمة الاعتماد على النفس كثيرة الاستعمال فماذا تعني ؟ انها تعني الميل للثبات والمقاومة والارادة ، والحكم لآظهار الشخصية ، والاعتزاز الاجتماعي ، وفائدتها انها تشعر صاحبها بوجود ذاته التي ليست مجموعة صفات ، بل هي الفرد وما يعرفه عن نفسه وكيف يدركها وما يشعر بها وماذا يريد لها ، هي الباطن الذي يمارس الاختبارات ويدركها ويميز بين عالم الخارج وعالم الباطن .

٥ - المحيط والتربية : ومن مكونات الشخصية المحيط والتربية ، ونعني بالمحيط عالم الانسان الاجتماعي بما فيه العائلة والمدرسة والمهنة والمجتمعات التي تساعد على بروز الشخصية وما يمكن فيها من وراثة واستعداد . وإذا استثنينا الوراثة التي تحمل في طياتها النافع والضار من الموروثات التي تسبب الانحراف والتفكك منذ البداية ، وإذا أهملنا الشروط الصحية والتربوية عند نشأة الطفل فإن اهم عوامل تكوين الشخصية يعود الى المحيط الذي يعيش فيه الفرد فتنازع الافراد العائلية ، وسوء القراء ، وفساد المجتمع ، مما يساعد على تشويه الشخصية . والتربية وما ينتج عنها وأهميتها بالنسبة للفرد والمجتمع ، أمر لا يحتاج الى تدليل ولا تطويل .

ولا يخفى علينا تطورات التربية ، وما تسمى اليه الامم الراقية لتهيئة ابنائها علماء وتربية وثقافة ، وما تصرفه من الاموال وما تشيده من المؤسسات لهذه الغاية . إن هذا لواضح في التقارير والميزانيات الصادرة عن حكومات تلك الامم .

والتربية لا يقتصر أمرها على اعداد برامج التدريس وفتح المعاهد ، ولكن على درس طبيعة الطلاب ومعرفة شخصيتهم دراسة علمية ، لتقدير استعدادهم وفهم ملكاتهم ، والاحاطة بما فيهم من وراثة ومن نقائص ومن مواهب . فالمواهب تساعد على ابرازها وتنميتها ، والنقائص تسعى الى تشخيصها ومداواتها بالطرق النفسانية والتربوية . والملكات العقلية تدربها وتغذيها لتحقيق الغايات المثلى .

انحراف الشخصية : وقد يبلغ انحراف الشخصية بسبب انحلال الارادة وضعف الضابط الاول الى درجة من الشذوذات تجعل صاحبها خطراً على نفسه وعلى ذويه وعلى المجتمع . ومن انحراف الشخصية ووقوعها تحت تأثير الاستحواذ والدوافع المرضية تعدد الشخصيات ، وتظهر اعراض الامراض العقلية والامراض النفسانية التي يقوم علم الامراض السيكولوجية بتشخيصها ومداواتها .

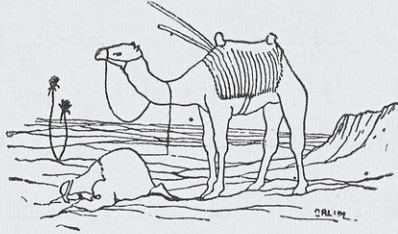
ولذا ما لاحظنا نسبة المصابين في الشواذ ، وسوء الارادة ، وفساد الشخصية ، أدركنا مصير المجتمع الذي يعيشون فيه ، وقدرنا مصير الامة التي تكثر فيها الشخصيات العليلية .

اكمال الموضوع : واكمالاً للموضوع أرى من الواجب تنبيه افكاركم الى الدراسات العلمية التي يقوم بها علماء البحوث العقل وسائر امراض النفس ، وعلماء مقاييس الذهن ومقاييس الشخصية ، وما وصلت اليه دراساتهم من وضع مقاييس اختبارية لمعرفة التوافق في الزواج بين المتعاقدين ، ولمعرفة حسن الاستعداد وتعيين الدراسة للطلاب ، وفي تقدير كفاءة المستخدمين للعمل الذي يطلبونه ، وتعيين الخدمة التي يستطيع المجددون ادائها ، وما كان للنتائج التي وصلوا اليها من فائدة .

ولما كانت المقاييس ليست واحدة ، وما كان موضوعاً لناحية معينة هو

خلاف ما كان موضوعاً للنواحي المطلقة . اختلف العلماء في المقاييس التي تكشف عنه ، وبما ان بيان الأنواع ليس موضوع محاضرتي ، اكتفيت بالإشارة إليها مؤملاً ان يكون كل منكم معلماً لذاته وهادياً لشخصيته « ومن لم يكن لنفسه حكيماً ومرشداً فسد التدبير في معاملته ، وحر الطيب في شفاؤه » .

يقول المربي الكبير « جاكوب فام » في بحثه عن التعليم والتربية : « ان التعليم في كل زمان ومكان عملية يقوم بها جيل بعد جيل قصد اعداد الجيل الآتي لحياة اصلح ، ولاضطلاعهم بمسؤولية الحياة ، ولا تخرج التربية في كل حال عن كونها تجربة قد تصيب وتخطيء ، وقد تنفع ولا تنفع ، شأنها في هذا شأن جميع التجارب التي يقوم بها أهل الفكر » .



وعى الانسان في الافراد والجماعات

١ - ما هو الوعي ، وما هو العقل ، وما هي النفس ؟

يتميّز الحي عن الجماد بخمسة أشياء : « التفاعل ، والتغذي ، والنمو ، والحركة ، والتناسل » وهي من فعالية الحياة ودوام وجودها ونشاطها . وقد مرّ على وجود الحياة منذ نشأتها حتى زماننا هذا ما يقدر بمائة وخمسين مليون من السنين ابتدأت في أبسط الصور ، وارتقت الى ان وجد الانسان الذي يشترك في هذه الخواص الخمس مع كل حي ، ثم يعتلي عن جميع الانواع وطبقاتها ، ويفوقها في سلم النشوء والارتقاء بما يتحلى به من عقل واع آلت له الدماغ . ما هذا الوعي ؟ وكيف يتم ؟ وهل الأحياء بأجمعها لها وعيها وإدراكها ؟ وما الفرق بينهما وبين الانسان ؟ .

ترد على ألسنتنا التي نتخاطب بها وفي اللغات التي تعبر ألفاظها عن معاني النفس عدة كلمات كـ « الوعي ، والعقل ، والذات ، والروح ، والنفس » ، فهلا يجب تحديد المقصود منها كي يصح التخاطب ويفهم المقصود ؟ .

ان الأدب يعدد المقاصد والمفاهيم لهذه الألفاظ ، فقد يرد في علم الدين كلمة « عقل » ، ويقصد بها « النفس » ، وفي علم الأخلاق ترد كلمة « الروح » ، ويقصد بها « العقل » ، وفي علم الفلسفة ترد كلمة « العقل » ويقصد بها « النفس » ، وترد كلمة « الذات » ، ويقصد بها « أنا » ، التي تختبر حالة الوعي ، وتدرك الاحساسات ويراد بها كل ما يقوم به العقل والوعي والروح . ان كل هذه الالفاظ وما يقصد منها هو من وضع العقل للتعبير عن فعالية الحياة ومظاهرها ، فلو توقفت الحياة وتعلّلت لزال المظاهر من وعي وعقل وروح ، ومن تفاصيل وتغذي ونمو وحركة وتوالد ، فنحن نقول الوعي ونقصد منه ادراكنا لما هو خارج

عن نفسنا . وأما كلمة « الذات » ، فتقصد منها « أنا » وهي كل ما في الحي ، والروح قد يعبر بها عن الحياة ، وقد يعبر بها عن العقل ، وقد يعبر بها عن القوة التي تظهر خواص الحياة .

وعلى كل ، فالحياة أكمل ما فيها العقل ، وأكمل ما في العقل « الواعي » .

٢ - العقل الواعي والعقل غير الواعي :

يقول علماء العقل تسهيلاً للوصف والافهام ، إن للإنسان عقليين : « عقل يدرك ما هو خارج عن انفسنا ويعي علاقات الجسم معه » ويسمى « العقل الواعي » وعقل لا يدرك ما هو خارج عنا ولا يعي علاقته مع جسمنا ويسمى « العقل غير الواعي » أو العقل الباطن أو العقل اللاشعوري .

إن العقل الواعي يحكم اعمالنا بإرادتنا . وأما العقل الباطن فلا يحكم اعمالنا بإرادتنا ، ولكنه يحكم اعمالنا واعمال الجسم دون علمنا ودون إرادتنا ، فحكم الأول يجعلنا نشعر بما نعي وبما نريد . وأما الثاني فلا يجعلنا نشعر بما يؤثر بنا ولا بما يصدر عن الجسم من افعال جسمنا لانه دون وعينا ودون إرادتنا ، وإذا نظرنا الى العقل من هذه الوجهة فنظرتنا تقسيمية وليست حقيقية ، لأن العقل وحدة لا تتجزأ وكل لا انقسام في وجوده ، ومع ذلك نجد أن العقل الواعي في سلم النشوء أحدث زمناً من العقل الباطن ، ودليل العلماء على ما ذكر ، تأثير المخدرات والمكيفات في الجهاز الدماغي ، الذي هو كما قلت موطن العقل وآلته التي بها تظهر فعاليته ومظاهره ، وكيفية بدء هذه المؤثرات ونهايتها .

فالمخدرات والمكيفات « كالكلوروفورم » ، والمورفين ، والحشيش ، والأفيون ، والخمور ، والتبغ ، والكوكائين ، وغيرها ، تبدأ بتنبيه أرقى القوى العقلية في سلم النشوء ثم بالتي تليها ثم بالمراكز الخاصة بالافعال الحيوانية ومن بعدها ينتقل تأثيرها الى الخفض ، والتخدير ، والتعطيل بذات الكيفية والترتيب .

فشارب الخمر مثلاً في بدء شربه تنبيه قواه الذهنية فيزيد وعيه وانتباهه ،

وتقوي ذاكرته وخياله ، ثم تتضاءل فيزداد فيه فعل القوى اللاشعورية او قوى العقل الباطن ، وهي العواطف وما يتفرع منها والفرايز وافعالها ، ثم تتضاءل فتقوي القوى الحيوانية الخاصة بأفعال الاعضاء والغدد ، ثم تتضاءل افعالها وتبائلاً الى ان يحصل الاغماء ، ويزداد السكر والتخدير فتتعطل وتتوقف بالموت . ولهذا اضطر العلماء الى فرض هذا التقسيم بالنظر الى حالة الدماغ وتأثيرات هذه المواد فيه .

ولتقريب الافهام ، يمكننا تقسيم « العقل » او الجهاز العقلي بالتعبير المادي الى طبقات يختلف فيها الوعي : فالطبقة الاولى وهي الاعلى « تامة الوعي » ، والطبقة الثانية وهي الوسط « ضئيلة الوعي » ، والثالثة وهي الاسفل « عديمة الوعي » . والسبب أن العقل (يفقد الوعي التام في حالة النوم ، ويفقد الوعي الضئيل أي الثانية في حالة السكر ، ويفقد الثالثة في حالة الاغماء) ، وأما في الحالة العادية من الحياة ، فالاقسام الثلاثة تستمر في عملها كوحدة تامة ، ولا يبطل منها إلا الوعي التام اثناء النوم بسبب « تراكم المواد السمية وانفصال الوصلات العصبية ، وقلة ورود الدم الى الخلايا الدماغية ، وكثرة احتقان الدماغ من شدة التعب ودوامه » ، وإذا بطل الوعي التام في النوم فإن الوعي الثانية تبقى في فعاليتها تصعد اليها الدوافع ظاهرة ، اي عارية أو متخفية أي متنكرة فيعبرها العقل ، ولكن بضالة لا توجب الانتباه ، وقد تحفظها الذاكرة عند اليقظة أو لا تحفظها فلا يتخطرها العقل .

ومن الأدلة على وجود « اللاواعية » ان النائم يرى في نومه « الرؤيا » وفيها امور قد تكون منسجمة وقد لا تكون منسجمة وقد تكون منطقية أو غير منطقية ، انما هي من اختبارات الذات دفعها الدوافع الخارجية والداخلية الى طبقات العقل وكانت مكبوتة لا يسمح الرقيب بها فسارت في طريقها ، لأن الرقيب عامل اليقظة والانتباه في عطالة فلم يمانع بها ، فتكوّنت وتماثلت في ساحة الوعي وشعرت بها الذات كما هي ، ولو كانت صورها والاختبارات بما يثير العقل الباطن بشدة لاستيقظ العقل وتنبه الذهن الى ما كان وتذكر العقل ما رآه .

ومن قبيل المثال والمشابهة نقول : ان الانسان وهو في اليقظة قد يقصد مكاناً لأمر معين ، فيسير في طريقه مشغول الفكر غير واع لخطواته أين توجه ، ثم لا يلبث أن يرى نفسه قد اتجهت لطريق آخر وسارت فيه دون علم منه ، وقد يقصد الانسان الى مكان ويخلو لنفسه ويفتكر وحده ثم تراه يحرك شفتيه ، وأحياناً يخطو خطوات رواحاً ومجئاً ، وأحياناً يحرك يديه ويشير بها حسبما يحول في فكره ، وأحياناً يضحك ويبس دون سبب ظاهر ، فاذا دخل عليه صديق وشاهده على هذه الحالة ظنه مصاباً بعقله ، وإذا سأله مستوضحاً استغرب ، وانكر كأنه لم يأت من الافعال شيئاً لانه لم يكن واعياً ، بل كان العقل اللاواعي يسيّره ويحركه ويوحى اليه .

وفي كثير من الناس والاطفال ، نصادف من يتكلم في نومه ، ومن يعمل أعمالاً غير اختيارية دون إرادته ، ثم إذا سألتهم في الصباح لم يتذكروها بل انكروا حدوثها ، ومنهم من يقص عليك ما حدث له وما حفظه .

ومن قبيل المتعارف يقول أحدنا اذا عشق شخصاً أو عشق عملاً ، لقد ملك عليّ عقلي ولبي ، لانه يستهويه ويشغل منه كل حواسه ومشاعره ، فلا يبي سواه . واذا زاد شغفه به وزاد تملكه هام به ووله ، واتي أعمالاً غير اختيارية لوعى اليها لما أقدم عليها ، وقد تكون سبب سقوطه وقد تكون سبب نبوغه .

ويحدث أن تكون امام منصتك تكتب مقالاً أو تقرأ كتاباً استغرق ذهنك وعواطفك ، فاذا دقت الساعة أو دخل رجل من الباب وخرج ، وسئلت عن الساعة كم دقت ؟ ومن دخل عليك ؟ لقلت : لا أدري مع ان اذنك نقلت الصوت وسمعت وقع الاقدام ، ولكن عقلك الواعي شغله عامل آخر منعك من الانتباه والادراك لما حملته الاعصاب ذات الحس الناقل اليك من العالم الخارجي وما يقع عليه . وكما وقع لك هذا يقع للمصابين بحالات انفعالية ، أو بحالات عصبية مرضية او من هم تحت تأثير الایحاء والاستهواء والتنويم ، فيأتون أعمالاً شاذة لا تصدر عن صاحبها وهو في عقله السليم أو في حال الوعي السليم .

ولماذا ؟ لاننا كما بينت نعيش في عقليين ونفرض وجودها للضرورة والتعليم ،

وان كنا لا نفهم ماهية كل منهما ، ولا نعلم ان كان هناك وحدات مستقلة عن بعضها البعض ، أو ان العقل يعمل كلاً لا يتجزأ .

٣ - المجري الفكري وكيف تتكون فينا الأفكار :

وقد وجد العلماء بسبب ما تقدم من الحقائق ضرورة لتصوير مجاز للفكر كأنها تسير بلا انقطاع ، سواء كنا نياماً أو يقظين ، وفرضوا بأن المؤثرات التي تنقلها الحواس تقع في مجرى الفكر بواسطة المسالك العصبية وتنقل الى مراكز الدماغ ، فما وقع في وسط المجري أو على سطحه عقلته الواعية ، وما كان واقعاً على طرفي المجري أو غاص في عمقه لم تعقله الواعية الى ان يحدث ما يرفعه الى سطح المجري ويدخله ساحة الوعي فيعقل .

ان هذا التصوير وضعي لبيان الكيفية ولعله كذلك ومن يدري ؟ وهو من قبيل الاستدلال على المؤثر من الاثر ، ولو صحَّ وأمكن حل مسائل العقل بهذه الفرضية لكان ما تصوّره العلماء هو الواقع ، وإلا وجب استبداله بغيره ، إذ من الصعب مشاهدة أفعال الدماغ أو مراقبة أعمال العقل ، كما نراقب أعمال الموجودات الخارجة عنه . ومما فرضوه أيضاً ادعائهم ان الأفكار التي تتكوّن من اختباراتنا في الماضي والحاضر لا تزول ، بل قد تبقى مدة على سطح الواعية ، ثم ترسب الى قعر المجري فتستقر ويتكوّن منها ما نسميه « العقل الباطن » الذي قال عنه « فرويد » وتلاميذه انه مستودع غزير يتعلق بعواطفنا وميولنا وغرائزنا ومنسياتنا منذ الطفولة .

٤ - معرفة الوعي بالجهاز العصبي :

ان علم وظائف الجسم المسمى بعلم الفيزيولوجيا ، أثبت بالدليل القطعي أن أفعال العقل تتوقف على فعالية الجهاز العصبي وسلامته ، بمعنى أن الجهاز المذكور هو العضو القائم في اظهار مظاهر العقل ، وأن الأغذية والأدوية والتربية والوراثة والأمراض وأعمال البدن التي تؤثر فيه تؤثر في العقل والوعي . أما

تأثيرها فظاهر في الحيوان والانسان ، وفي الانسان نشاهدها في افراد البشر ، الذين يختلفون في المعيشة والحياة والتربية والمحيط والتغذية فيتفاوتون ذكاءً ورقياً .

والذي لا شك فيه ان اولاد السكيرين والمصابين بالزهري ، وبالعداءات السيئة ، يقلّ فيهم الذكاء وتنحط مواهبهم وقواهم البدنية ، والغذاء إذا فسد أو قلّ أفسد الجسم وأضعفه ، وأفسد العقل وأضعفه ، لانهما متلازمان ، وما يؤثر في الاول يؤثر في الثاني والعكس بالعكس .

٥ - هل العقل فعل من افعال الدماغ أم هو مستقل يتوقف ظهوره على

سيرة الدماغ ؟ :

ان العلم لم يجزم بأن العقل كالصفراء يفرزه الدماغ ، ولم يجزم بأنه فعل مستقل عنه ، فالفلاسفة يقولون باستقلاله وبوجوده مجرداً ، وعلماء المادة ينكرون قولهم ويقولون بان العقل من افعال الدماغ يفرزه كما تفرز الكبد الصفراء .

والرأي الصحيح اننا لا نعرف الحقيقة ، فلو عرفنا ماهيته لقلنا برأي علماء المادة ، أما واننا لم نعرف ماهية العقل بعد ، فعلينا ان نساير علماء العقل الذين يقولون بأن العقل والدماغ شيان متلازمان تخطيطين متوازيين بينهما صلة ، وإذا كان الدماغ هو آلة العقل ، فلا يعني ذلك انه افراز منه بل مدار لظهوره كالقوة التي لا نعرف ماهيتها ، ولكن نعرف مظاهرها عندما يتجلى النور في المصباح الكهربائي ، وعندما تتجلى الحرارة بالنار ، وعندما تتجلى الجاذبية بالحديد المغناطيسي . فـ « ديكارت » لم يثبت له في الوجود شيء غير العقل ، إذ قال : « انني أفكر وأعلم من ذاتي انني افكر » ، فاذا أنا موجود ولي عقل يدرك وجودي لولاه ما عرف شيئاً في الوجود ، عقلي هو الحقيقة وما سواه فلا أعلمه . وهو من القائلين باستقلال العقل ، ويتبعه من العلماء « فريمون » و « أوليفرلودج » وكلاهما من علماء الطبيعة ولكنهما من المؤمنين بالعقل وانه غير المادة . وأما العلماء السلوكيون والفيزيولوجيون وعلماء النفس الحديثون ، فلا يرون هذا الرأي بل

يعدون العقل كما أسلفت آنفاً، عملاً من أعمال الدماغ وافرازاً منه ، وفي كل افراز عمل كيميائي وميكانيكي وكهربائي .

٦ - بماذا نعرف العقل ؟ :

ان العقل وان كنا لا نستطيع معرفة ماهيته ، ولكننا نستطيع ادراك مظاهره ، وهي كما تبدو لنا تنقسم الى ثلاث : الاولى (١) (الاطلاعية Cognitive) أو الوجودية ، وهي التي تمكننا من معرفة الموجودات على ما هي عليه ، والاطلاعية تخص ما نسميه «الذهن» فاذا عرفت شيئاً ، فلا نلّي ذهناً يطلعي على ما أريد معرفته ، فالذهن لهذا عضو المعرفة .

والثانية (العطفية Affective) وهي تتعلق بمدروكاتنا للألم واللذة واحساساتنا بهما ، فأنا إذا أحسست بشيء وأدركته فلا نلّي ذو عاطفة تشعّر بما وقع عليّ .

والثالثة (الارادية Conative) وهي تتعلق بما نريده أو نسعى اليه وبها تتمثل الارادة ، فاذا قصدت شيئاً أو أردته فلا نلّي (ارادة به) .

وحيث أن الذهن هو مركز المعرفة ولا تحدث معرفة بلا وعي ، وكل وعي لا بد ان يحدث فكراً ، فالاطلاعية لا تصدر عن الذات ما لم يكن هنالك وعي . وأما العاطفية فقد تحدث ويكون الوعي ضئيلاً ، وقد لا يكون هنالك وعي ، ولكن إذا قوي الوعي وتحول الشعور الى الذهن وتآلف مع الاختبارات تكون فكراً . ولذا قد تعمل العواطف فينا وتسوقنا للعمل دون وعي ولا فكر ، بسبب تسلط العقل الباطن وسلطانه على النفس .

والفرق بين العاطفة والفكر ، أن الاولى مركزها العقل الباطن ، وهي اختبارات الغرائز . والثانية ومركزها الذهن ، وهي اختبارات العقل الواعي .

(١) راجع هذا الموضوع في بحثنا عن فيسيولوجيا الواعية .

٧ - ما تتركب منه المظاهر العقلية الثمينة :

واتباعاً للتقسيم الذي فرضه الفيزيولوجيون ، فإن الحافظة والتصور والخيال والبرهان والقياس والاستنتاج والحكم وغيرها من مركبات الذهن ، هي عناصر الاطلاع يشتد بروزها في حالة الوعي التام .

وان الحزن والألم واللذة والسرور والحرص والكدر وامثالها ، هي عناصر العاطفة ، يشتد بروزها في حالة الانفعال الباطني . وان الانهماك والرغبة والطمع والاستبداد وغيرها هي عناصر الارادة ، يشتد بروزها في حالة الميل ، وكلها تزداد بروزاً وتقلّ بحسب استعداد الجهاز العصبي ، وبمقدار المؤثرات الحسية وبنسبة التربية والمادة .

وليسهل عمل العقل كجموع يوجد رقيب ينظم الدوافع التي تريد الصعود الى مجاري الواعية ، فما كان ملائماً للوعي والذهن ، وكان صعب الدخول ارسله الى السطح ، وما كان لاجابة للواعية والذهن فيه ولاصعوبة في مروره ارسله الى مقرّ العقل اللاوعي ، أي العقل الباطن ، كي لا يتعب العقل في اختيار كل ما يرد اليه .

ومن هنا تنشأ العادة التي هي تكرار الوظيفة ، فيسهل ممارستها دون الوعي ، وتحل في العقل الباطن وتتكوّن منها الغرائز . فالغناء والعزف والرقص والمشي والركوب والسباحة والرضاعة وركوب الدراجة والرسم ، وغيرها من الافعال التي نأتيها بتوالي الحاجة والدافع ، وتشكر مع الاوقات ، تصبح من العادات ، لسهولة جريان الاحساس بها الى مراكز الدماغ ، دون انتباه الواعية لها في كل مرة . فالعادة اذن تفاعل في اللاشعورية وسهولة في الاحساس دون ايقاظ الانتباه والوعي لراحة العقل .

٨ - الغرائز وعملها بالعقل :

وقد قيل ان الغرائز وهي عادات مكتسبة وأفعال متكررة ، موجودة في

الاحياء موروثة فيهم عنن تقدمهم ، تعمل عملها مستقلة عن الارادة ، وتعمل لتسهيل الحياة واعمال الجسم ، وهي في الحيوانات اكمل مما هي في الانسان واكثر عدداً لأن الحيوانات محكومة لغرائزها ، والانسان محكوم لوعيه وعقله .

اما عددها في الانسان فمختلف به ، وبعض المحققين ينفون وجودها ويقولون ان كل ما يأتيه الانسان مكتسب لا موروث ، ونحن إذ نعددها في هذا البيان نصف ما حققه بعض العلماء وأقرت به كتب علم النفس .. فهم يذكرون للانسان ثلاث عشرة غريزة وهي :

- ١ — غريزة الجوع أو الشبع او غريزة طلب الغذاء .
- ٢ — غريزة الدفاع أو المقاومة ، وهي تتطلب الخوف والفرع والحرب والروغان والاحتيايل وغيرها من عناصر العاطفية .
- ٣ — غريزة الامومة والابوة ، وهي تتطلب الشفقة والمحبة والمساعدة والصبر والعناية وغيرها مما نسميه « بالعواطف الانسانية » .
- ٤ — غريزة الاطلاع ، أي التحري لمعرفة المجهول ، وهي تتطلب السؤال والتجسس والاستقراء والسعي .
- ٥ — غريزة النفور والكره ، وهي تتطلب الميل والرغبة وتقدير الجمال والجاذب والحب والتقرب مما يستميل عاطفة الجنس .
- ٦ — غريزة الادعاء الذاتي ، وهي مظهر الانانية ، وتطلب التملك وحب الشهرة وحب التغلب والغرور .
- ٧ — غريزة الهرب ، وتعد من غرائز حفظ الذات .
- ٨ = غريزة الاجتماع : وهي تتطلب الالفة والتعاون والسكن والاتحاد والعيش جماعات .
- ٩ — غريزة الطاعة والالتقياد : وهي من متعلقات الاجتماع والمدنية .

١٠ - غريزة الكسب : وهي نتيجة حاجة الجسم للغذاء وعجزه عن تناوله مباشرة من الطبيعة كبعض الحيوانات التي لا تعيش الا على افناء غيرها.

١١ - غريزة الاستعداد والاستغاثة : وهي سبب الاعتقاد بالقوة الخارقة او ما وراء الطبيعة ، ومنها نشأت الاديان وفكرة الدين .

١٢ - غريزة البناء والتركيب : وهي من موجبات التقليد والتفنن والاستنتاج.

١٣ - غريزة الجنس : أي الميل نحو اتحاد الاثنين الذكر والانثى ، وهي تتطلب الحب والولع والمفاداة والتضحية والجراحة ، وتعتمد من ام واثبت الغرائز واقواها فعلاً وتأثيراً .

وعلى رأي العلامة « فرويد » مؤسس البسيكولوجيا الحديثة : « ان جميع الغرائز تمثل في غريزتين اساسيتين هما « حفظ الذات » و « حفظ النسل » . وبحسب أبحاثه يقول : ان كل ما في الحياة من افعال وأعمال وسنن وقوانين ترمي لهذه الغاية .

والغرائز اورثتنا اياها طبيعة الحياة مع تقدم الاجيال ، في سلم القدم والنشوء بحكم اطوارنا وتعدد ذاتيتنا ، وتؤثر في ذهنيتنا و اخلاقنا وافعالها ، اذا قوي الذهن ، سارت ضمن نطاق الوعي والارادة ، والا سيرتنا دون ارادتنا وكنا محكومين لها كالحيوانات العجباء .

ان الانسان لا يعيش بلا عواطفه ، ولا يعرف لذة الحياة بدون آلام ولذائذ ، ولكن غاية الحياة ليست دوام اللذة ولا دوام الألم . إذكم من لذة انتهت بها حياتنا ، وكم من ألم عجل بموتنا . فالبشر خلقوا ليستفيدوا من عواطفهم بهذيب غرائزهم وتنمية مواهبهم تحت حكم العقل والارادة ، وقد تكون الوجدان « وهو الضابط الداخلي لتوازن المشاعر والعواطف ، وللتمييز بين الحق والباطل والنافع والضار والخير والشر ، واتخذ مقره في الذهن عضو المعرفة والاطلاع .

٩ - المصائب واسباب الشرور :

وكنتيجة منطقية لكل ما تقدم ، يتبين لنا ان العقل في حالته الطبيعية ،

وفي حالة صحة الضابط الوجداني يقوم بأعماله وأفعاله على الوجه الطبيعي المفيد للحياة ودوامها وفعاليتها وتقدمها ، وفي الحالة المرضية ، وفي حالة اعتلال الضابط المذكور ، يقوم عكس ذلك ، وعلى الوجه الذي تتأتى عنه المفسد والشرور نتيجة لسوء الوراثة ، وفساد التربية ، ووجود العلل والأمراض التي تحرف الدوافع العقلية ، وتمكنها من الاستحواذ على قوى الذهن والارادة وال عاطفة ، فتسوقها لغير ما يرتأيه الضمير ، وعليه يرتكب الانسان ما يرتكبه ضاراً بنفسه وبني جنسه من حيث يمي ما يفعل ، ومن حيث لا يمي ما يفعل .

١٠ - وعي الجماعات :

ان جماعات الانسان كالأفراد في عقليتها الشعورية وعقليتها الاشعورية ، وعلم الاجتماع لا يزال يبحث عن تلك العقلية ومظاهرها وقوانينها ، ولما يهتد لجميع ما يجب معرفته وهو يرى أن للعائلة والحكومة وللشركات والدول وللقبيلة عقلية خاصة تشبه عقلية الفرد ودونها رقياً وتقدماً .

لا أريد التفصيل والاسهاب في البحث عن كل ما اهتمدوا اليه بهذا الشأن ، ولكني أوجز القول بأن عقل الجماعات محكوم للعاطفة ، كما ان عقل الأطفال محكوم لها ، فهم يعملون تحت تأثير الاشعورية أكثر مما يعملون تحت تأثير الذهن . والنسبة بين عقل الفرد وعقل الجماعة ، كالنسبة بين عقل المتوحش وعقل المتمدّن .

وتختلف مقاييس عقل الجماعات باختلاف عقول الأفراد التي يتألف منها المجموع . فأعم الارض وشعوبها ليست بدرجة واحدة من الرقي ، او بنسبة واحدة من العقلية .

ان وعي الجماعات محكوم للغرائز ولم يرتق بقدر ارتقاء الفرد ، فتوجد له الطبيعة ذهنياً يحكم ، والسبب عدم ارتباط اجزائها كارتباط اجزاء الجسم بعضها ببعض .

قال « كوستاف لوبون » في كتابه « روح الجماعات » :

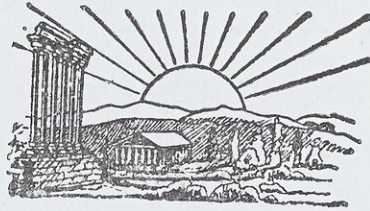
« ان الجماعات تعمل بالاشعورية ، تسيئرها غرائز التقليد والمحاكاة ، ويظهر عليها الاستهواء والايحاء والتردد والتهور ، وكلها من عناصر الاشعورية » .
وشبه عقليتها بمقلية الزنوج الذين لا تزال مداركهم منحلة . وقوله يدل على الحقيقة ، لأن من يتبع أعمال الشعوب ويراقب تاريخها ويدرس تجمعاتها وثوراتها وحروبها ، وما يجري في محاسنها ومجاسلها ، يجد أموراً وافعالها وقراراتها ومذاكراتها ، لا تحوي الأثر العميق لجهود العقل ، ولا المنطق الصحيح لكل ما ذكر ، ولا الغاية المثلى التي يتطلبها الفرد .

وعقل الانسان كما تعتوره الدوافع المرضية ، وتستحوذ عليه وتدفعه لآتيان الأفعال الشاذة ، كذلك عقل الجماعات قد تعتوره الدوافع المذكورة ، وتستحوذ عليه فتدفعه لارتكاب الظلم والقتل والتعدي وانتهاك الحرمات التي تواضعت عليها الهيئة الاجتماعية لسلامة المجموع كالحرية والاستقلال .

إن عقل الجماعة لم يعرف العلماء أين مستقره ، حيث لم يتكامل ارتباطها كمجموع واحد ، فيتكوّن الجهاز الخاص به كما يتكون في الفرد ، وقد تحتاج الجماعات الى اجيال عديدة حتى يتكامل نموها وتتم بها الأدوار الشوئية التي مرت بالانسان ، فتترابط افعال الأفراد ، وتصبح كل أمة بمثابة عضو من أعضاء المجموع ، يعمل لمنفعته ومنفعة بقية الاعضاء .

ومع أن الأديان ورجال الإصلاح والشرائع ، التي وضعها الانسان لتهديب والإصلاح وتعاون الناس ، قد سعت منذ آلاف السنين لإيجاد الوعي الشامل ، وإيقاظ العقل العام ، فإن الغاية لم تتحقق . وعلى هذا سنبقى محكومين للاشعورية وسيبقى العالم عرضة لفواعل الغرائز زمنياً طويلاً ، وعرضة للتنازع والاختلافات والانقسامات ، وعرضة للثورات والحروب ، والمظالم الوحشية التي ترتكبها الدول

والقبائل والجماعات بشقى الوسائل ، تارة تحت ستار السلامة الاجتماعية والمصلحة العامة وسيادة الدولة ، وأخرى تحت ستار التعاون والوصاية والسلم العالمي ، وكلها من فعل الغرائز ، تندفع بتأثير المطامع والشهوات وحب التسلط والسيادة ، وتثيرها قوى خفية فعالة ، كالرأسمالية والاحتكارية والصهيونية ، وتنازع الطبقات ، والاستثنائية في المغام ، واستثمار جهود العمال وغيرها من العوامل التي يحاول عقلاء المجتمع واصحاب المثل العليا منهم مداواتها وازالتها رحمة بالبشر ، ومساعدة لزمن الوعي المنتظر .



ما أفاده العلم للانسان

١ - ما أفاده العلم هو نتاج العقل :

إن ما أفاده العلم للانسان هو نتاج العقل منذ نشأته حتى الآن .. يتعلم الطلاب في معاهد العلم ، وهم في تطور حديث في المعرفة والادراك الشامل ، فيظنون انهم استكملوا هذا التاريخ ، وحققوا في كل ما حواه سفر الوجود الذي لانهاية لمعارفه ، أو انهم ادركوا بثاقب نظرهم جميع اسرار المجهولات .

٢ - لماذا يجرب طلاب العلم الحقيقة :

فلا عجب إذا جحد بعضهم الحقائق وآمن الآخرون ، ويتعمق العلماء في أبحاث المادة والقوة وما وراءها من عوامل ، وتختلف نتائجهم في اقرار العلة وادراك الحقيقة ، ويتقدم الفكر في مضمار المعرفة ، ولكن يبقى متخبطاً في دياجير الحيرة ومجاهل الاسباب ، لا يعلم متى يصل به العلم الى ابواب الحقيقة ليلمسها ، ويكون على يقين منها .

٣ - معنى السلب والجحود والحقيقة :

بأي شيء يزول الجحود؟ أالفرض والاستدلال ، أم بالنفي والحيرة ؟ ومتى تتحد العقول وتتخلص من أوهام الشك والمعجز والنيكران ؟ وما هي الحقيقة في نظر العلم الصحيح وهل بالامكان الوصول اليها ، وكيف يكون ؟

أيها السادة ، ان السلب والجحود بكل امكان او احتمال عجز العقل في النهاية ، ومكبرة يصاب بمرضها من نقص توازنه العقلي ، وخانه المنطق السليم ، واختلّت مقاييسه العلمية .

والحقيقة اثبات الامكان ويقين بالموجود والواقع الذي ندرك وجوده ونستدل
بأثره . وإذا كانت المستحيلات البديهية لا تحتاج لدليل ، فالحقائق البديهية ايضاً
لا تحتاج ، وما ثبت اثره استحالة نفيه .

٤ - مثال لجهرلنا بما هي عليه معرفة دودة القز :

ماذا نقول ، عن دودة القز الراقدة في بيتها الذي نسجته لنفسها ، الموقوفة
ليوم البعث ، اذا انكرت ما في الوجود من علة وقوة ، وجحدت امكان
البعث من مرقدتها ، ونفت انها ستنشأ خلقاً جديداً يغير معالمها ، ويكسبها ألواناً
زاهية وأجنحة تطير بها في الهواء ، ويغذيها وينمّيها ويعطيها حياة اخرى وجسماً
غير جسمها السابق .

ألسنا في جحدنا الامكان وجهلنا ما وراء النسيج المحيط بنا في العالم وادعائنا
ما لم نعلم ، ونكراننا ما وراء المادة والقوة نشبه الدودة الراقدة النائمة في جهل
المصير ؟ لها يوم ، ولنا يوم ، وللعالم يوم ، وللحقيقة الخلود والازلية .

٥ - انقسام العلماء الى قسمين : الماديين والروحانيين :

ايها السادة

ينقسم العلماء الى فريقين : فريق يشتغل علماءه بالمادة دون النظر الى ما
وراءها من عامل روحي قد يكون موجوداً وذا علاقة بها ، وفريق يشتغل علماءه
بالمادة ، ولكنهم ينظرون بعقلهم الى ما وراءها من عامل روحي قد يكون
موجوداً وذا علاقة بها .

الأولون يسمون « علماء المادة » لانهم لا يعلمون للمادة مظهراً آخر غير ما
وجدوه في مشاهداتهم وتجاربهم ، والآخرون يسمون « علماء ما وراء الطبيعة » (١)

(١) لقد كان منهم معظم فلاسفة الاسلام كابن رشد والفارابي وابن سينا ، والرازي ، والفيزيائي ،
وابن العربي ، كما كان منهم معظم فلاسفة اليونان وفلاسفة القرون الوسطى .

لأنهم يعلمون ان في عالم الطبيعة مظاهر عديدة ، لا يمكن تفسيرها ولا تعليلها بالاسباب المادية الصرفة ، ولذا يقرّون بوجود القوة المطلقة من قبيل الاستدلال على المؤثر بالآثر ، ويسندون لها خاصية المظاهر المتعددة ، ويطلقون عليها قوة « ما وراء الطبيعة » ويعدون من مظاهرها « الحياة ، والعقل ، والروح ، وهي مسميات لما نشعر بوجوده وفعله ونجهل ذاته وكنهه .

٦ - الموجودات التي تتشكل منها القرصية : الحقيقة ، الجمال ، الخير :

يقول علماء ما وراء الطبيعة ، إن في الوجود ثلاثة اشياء يستطيع الانسان الوصول الى قسم منها ، ويعجز عن الوصول الى ما يتبقى منها ، وهذه الاشياء هي : « الحقيقة والجمال والخير » التي إذا تكاملت في موجود سمي « قدسياً » وإذا نقصت فلا وجود للكمال ، انها مجردات ضرورية لاتمام الوجود الكامل . ولكن اذا كان البشر لم يصلوا تماماً الى هذه الاسس الكاملة ، فانهم يستطيعون السعي وراءها والعمل على نيل واحدة منها على الأقل ضمن قابليتهم ومحدوديتهم ، ولكن باتساع مدارك الانسان واستنارته في المعرفة قد يتسنى له مع الجهود الصادقة ان يحصل على جزء من العناصر الباقية .

٧ - غاية العلم وسبب تباين العلماء :

ولما كانت الغاية من العلم معرفة المجهول والوقوف على الحقيقة ، فان العلماء يخطئون كثيراً اذا ضيقوا بحتمهم ودراستهم ، حول نقطة واحدة من الدائرة ، وحجبوا نور بصيرتهم عن رؤية ما في الوجود من نقاط أخرى تفيد المعنى ، وتدل على القيم التي يملكها الواقع الواضح .

نعم ، ان المعرفة قد تكون لديهم كثيرة ، ولكن كان يجب أن لا ينقصهم الشيء الاكثر بالنسبة لمجموع الأشياء ، حتى لا يضلوا الهدف ويفوتهم البحث عن كل شيء .

٨ - ماهي الفلسفة الحقيقية ؟ :

ان الفلسفة الحقيقية لا تنظر للشيء بعين واحدة ومن جهة واحدة ، بل تنظر وتبحث عنه من نواحيه العديدة وجهاته المختلفة ، وتراه بكل العيون وتدرس قضاياها واحتمالاتها من جميع وجوهها ، وترجم عن الحقيقة والامر الواقع ، فتتخذ صاحبها من هفوات أهل العقول الضيقة والمدارك المحدودة ، الذين يظنون بأنفسهم التكامل وصحة العلم وتعام الاحاطة .

وما دام المفروض على طلاب العلم الحقيقيين أن يتجهوا للوجود من جميع جهاته ليدركوا معناه ، ويفهموا كماله ، عليهم ان يخلصوا للحقيقة ، ولا يجحدوا درس كل احتمال ، حتى لا يبتعدوا عن الواقع « وأقرب المبادئ الى الطبيعة ما وافق الاختيار » .

٩ - تحول العالم وانقسام العلماء فرقا لدرسي الأشياء ونتيجة ذلك :

ان من خواص العالم دوام تبدله وتحولة وتنوعه ، فالعالمين مهما أبدى من قوة ، لا يستطيع وحده تمييز جميع الموجودات ودرسها بأجمعها ، ولذا تحتّم على العلماء ان ينقسموا فرقا فرقا ، كل يشغل في دائرة اختصاصه ، لدرس الاشياء والملاحظات ، وبذلك توسعت دائرة العلم ولم ينفرد بها أحد يدعي ما لا يعلم ، لأن ما يمكن للواحد منهم أن يعلمه ، لا يخرج مقياسه عن نقطة واحدة يحملها الطائر بمنقاره من خضم الانهائية .

ومن تقسيم العمل بين العلماء ، استطاعت البشرية ان تملأ دماغ الانسان بالمعرفة المجموعة منذ بدأ ارتقاؤه حتى يومنا الحاضر . ولولا التقسيم مع حفظ العلاقة بين ما يشغل فيه الفريق الواحد والفريق الآخر ، لتج الجهل وعدم المعرفة بما يفعله كل منهم ، وأدى الى حصر دائرة الفكر والادراك ، واستحالة توسيع الفلسفة .

ولذا رجّح العلماء درس مناهج ما اشتغل به الفلاسفة ، الذين استنارت

بصارهم ولم يلجأوا الى الطرق الضيقة في فهم الحقائق وتعليلها ، فأزالوا ما كان بينهم وبين أهل الاحاطة والتوسع من نزاع سببه عدم فهم بعضهم بعضاً ، وأدركوا عندها محيط الوجود وفهموا الحقيقة وتوفقوا للغاية .

١٠ - ما تراه العين « عين العلم » من فضاء الكون :

وما لاشك فيه أن عين العلم قد اتسعت ، فأصبحت ترى في الكون فضاء لا حده له ، تسبح فيه عوالم من الاجرام الكروية فيها مشتعل وحر ، وفيها مظلم وبارد ، تفرقت بدون قصد ، لكنها اتبعت النظام والترتيب في حركاتها وعلاقاتها ، ولها حركة قابلة القياس والتحديد ، ومكان معين يعرفه العلم ويخبر عنه .

١١ - المادة وانقسامها وانقسام العلوم :

وإذا ما فحصنا المادة عن كثب ، بما لدينا من مقاييس وكواشف وضوابط ومعايير وآلات دقيقة صحيحة ، نجدها مركبة من ذرات وجواهر Molecules & Atoms ذات حجم وبناء وطور معلوم ، ونجد الجواهر - ونحن ندرك وجودها - ليست منتهى ما تتركب منه المادة ، بل هي بذاتها مركبة من كهربائية سلبية وإيجابية ، تظهر انها ايضاً مركبة من اشياء شبيهة بالكتل الكبيرة ، ولها حركة معنادة ذات منطقة وقوانين جميلة تتحرك بموجبها ، وترتيبات محفوظة ضمن الجواهر تسير على غرارها .

وعندما نقرب من المنطقة الداخلية لدرسها ، تراءى لنا كأنها خالية ، وهي في الواقع مملوءة بشيء يصهر جميع اجزاء المادة ويذيبها الى « كل » عام يحمل القوة والاهتزازات من واحد الى آخر .

ومن هذا العلم الذي يبحث عن المادة والاثر وما يتعلق بهما ، يتكوّن ما نسميه « فلسفة الطبيعة » ومن درس حركة الذرات والكتل السائرة بقوانين متكاملة ، ينشأ علم آخر مجرد يبحث عن الصورة والعدد نسميه « علم الرياضيات »

ونستدل من نظرياته الكثيرة ، القائمة على اساسات اختبارية صغيرة ما هو مثال جلي لافعال العقل المدهشة ، ويتفرع عنه « علم يتعلق بالعدد وحده يبحث عن المسائل الرياضية بالكميات الفرضية » يسمى « علم الجبر » أحد موضوعات العقل العربي الجبار .

وعلاوة على ما تقدم يدرس العلم « تكاثف الذرات - Atoms - Affinity » والنماذج التي تتحول اليها وذلك بواسطة « الكيمياء » المعدودة من أهم أقسام الفلسفة الطبيعية .

ومن اوضاع الذرات المعقدة ، يتجلى لنا انبعاث شيء جديد للحقيقة قادر على تكوين الاساسات الطبيعية للمضويات الحية التي لا يشابه درسها درس الاعمال الكيميائية ، لأن مقدرة العقل على ذلك لا تزال محدودة .

انا وان تمكنا من البحث عن هذه المضويات ، فتدقيقاتنا لا تستقيم إلا بالدساتير الفيزيكية والكيمائية التي عرفناها ، ولكن الواسطة بعدها تبقى عاجزة عن ايقافنا على الحقيقة ، فنضطر للتعليل والفهم ان نرجع الى ما نسميه « فعل الحياة » ونكوّن منه علماً يسمى « علم الحياة » ، ونجعله مستقلاً عن غيره يدرس التركيب الذري والاختلاط الناشئة عنه في الاحياء ، وتطور النشوء والارتقاء والنمو وقوانينه .

١٢ - الحياة ومصرها :

وعلى كل ، فالحياة مهما تكن هي التي تسيّر قوة الوجود ، وهي آتية من الشمس تتحوّل منها لايجاد بنية لا تتمكن الكيمياء ولا الفيزياء من ايجادها بدون فعل الحياة ومساعدتها . فالقوّمات البحرية ، وخلايا النحل ، وأعشاش الطير ، وكل ما في الطبيعة من المظاهر الحية شاهد على تلك القوة الخاضعة بأعمالها الى نواميس المادة والاثير التي تساعدنا ، ولكن ليست المسببة لوجودها .

١٣ - ماذا نتج عن الحياة :

لقد وجدت الحياة ، ومن فعاليتها وجد علم النبات ، وعلم الحيوان ، وعلم

الزهور ، وعلم الحشرات ، وعلم الطيور ، وكلها موجودات تمتاز بالفعالية والنشاط والفراز والجمال ، وما ينسب الى الفرح والسرور ، ثم حصل ارتقاء تدريجي في سلم الاحياء عجل بمظاهر الحياة ، واستدام في تقدمه مائة مليون واكثر من السنين ، حتى وجد العقل ، وبه وحده ابتداء اول عمل انساني .

١٤ - أفعال الحياة :

وبفعل الحياة ومن اختباراتنا الذاتية ، نعلم بأن الفرح والسرور واللذة والامم والحضارة والكدر والحب والبغض والقصد والارادة والرغبة والشعور والامل والالهام والوحي والايمان ، هي حقائق موجودة لا مجرد أوهام ينفها الشك والجحود الاعمى ، انها حادثة ، ومن مجموع الاشياء الكونية مهما يكن اعتبارها ، وجد « علم النفس » وغيره من فروع العلم للبحث عنها وعن الروح البشرية التي تمارسها .

وإذا كان علم الدين قد تناولها من جهتها العلمية ، فإن علم الالهيات ، أو علم اللاهوت ، نظر اليها من جهتها الفلسفية ، وكلاهما من العلوم الكلية يبحثان عن الكليات ، كما ان هنالك علوماً اخرى تتعلق بمجزيات الوجود كعلم « طبقات الأرض » يبحث عن بنية الأرض ، وتاريخ تكوينها ، والعوامل المسببة لنشوءها وتحولها ، وكيف حدثت الحوادث التي سببت ما نراه فيها من تطبق وتغير مستديم ، و « علم الجغرافيا » يبحث عما فوق القشرة الارضية وما يحيط بها من هواء وفضاء ، و « علم التاريخ » و « علم الاجتماع » و « علم الوقائع » ، هي من متعلقات البشر وحياتهم الاجتماعية .

وهناك علم يعد من العلوم الكلية وهو « علم الحياة » ، يتناول الأحياء من نواحيها المختلفة ، كعلم الوظائف يبحث عن الوظائف العضوية ، وعلم التشريح يبحث عن أقسام البنية ، وعلم الحيوانات والنباتات يبحث عن انواعها وصنوفها وعاداتها وطرق معيشتها ، وعلم الطب يبحث عن المرض والعلل ومداواتها . وتوجد

علوم أخرى كعلم الزراعة ، وعلم الهندسة ، وعلم الميكانيك وما يتفرع عنها ،
تتعلق بالأرض كما تتعلق بالإنسان .

وأما علم الحقوق والسياسة والاقتصاد فملاقتها بالمجتمع ، كما ان علم الفلك
والاجرام يتعلق بالعوالم السابحات في الكون ، يبحث عن بنيتها وبمدها وتركيبها
وقوانينها وسيرها وعلاقاتها ببعضها .

١٥ - استخانة الاصطاطة بكل العلوم :

ان كل ما ذكر تراه العين الواسعة ، وكله نتاج العقل البشري يدل على نموه
وتقدمه وارتقائه .

١٦ - الأدب والفن ومطائرها :

وقد يتبادر الى الذهن سؤال مهم يقول :

هل يستطيع العلم ، أن يلم بكل شيء يتعلق بالوجود ؟

الجواب : كلا ! لأن دائرة الادب والفن ، ومملكة الخير والجمال لا تزالان
خارجتين عن حدوده . ولكن ألا يحق لنا الدخول الى سرهما وفهمهما واكتشاف
ما فيهما ؟ أجل يجب البحث كرجال محبين للحقيقة ، لاننا اذا انكرنا وجودها
جعلنا فلسفة الطبيعة وعلوم المادة لا تزيد قيمتها عن قيمة العظام المجردة إلا شيئاً
قليلاً ، مع اننا نستطيع ان نكسوها لهما ، وان نبعث فيها الروح والحياة .

والحقيقة التي لا ينكرها العاقل ، ان الروح البشرية تحب الادب والشعر ،
وتحب ان تستقر وتعمق فيهما ، اكثر مما تحب من تحريات العلم وتخبطاته .

ولماذا ؟ انها تريد ان تلهو وان تهيم في فضاء الخيال المطلق ، ومن حقها ان
تفعل ما دام لهوها وهيامها يسببان وجود الجمال في الموسيقى والشعر والبناء

والرسم والنحت والتصوير . وهل بغير هذا نجد في « رسالة الغفران » و « رسالة
الجحيم » ، الإلهي ، وفي روايات شكسبير ، وفي السونيتات ، والبانتيون Pantheon ،
وفي معابد بعلبك وروما وقصور الحمراء في غرناطة ، وجامع الصخرة في القدس ،
وفي بدائع الرسوم والصور ، وأشعار الشعراء الخالدة ما نلجده من جمال ولذة ؟

ولكن هل الاكتشاف في هذه المنطقة هو المقصود لذاته ، أم المقصود الإيجاد
الحقيقي له ؟ إذ لولاه لما كان الفن وجود يعظمه العلماء وتعبد به النفوس وتخضع
له الرؤوس ، ويهم به شكسبير وداتي وأنجيلو وشيللو وبتوفن وواغنر ، ولما
عشق الأنبياء والعلماء والفنانون مبادئ الحقيقة والخير والجمال ، وتعالى نفوسهم
في عالمها ، حيث شاهد كل بقدر بصيرته واستعداده لمحات من الحقيقة لا تتغير
فاعتزوا وسعدوا .

إن طرق البحث مهما تعددت فهي واحدة ، وسواء أكانت في الدين أم في
الفن أم في العلم ، فهي تتجه لنقطة واحدة : « الحقيقة » ، لأنها غاية الغايات
وهدف الجميع .

١٧ - الحقيقة والمادة :

وما دام لنا شعور حي يوجهنا نحو الحقيقة ويدفعنا وراءها ، فأفهامنا لا بد وأصلة
إلى محيط الخير والجمال ، وبسعيها للوصول إليه وهي الأمنية المسيطرة على نفوس
البشر نصل إلى معرفة الحق كما قال « كيت » : « إن الحقيقة لا يقدر على حصرها
أحد ، ولا على احتكارها أحد أو جماعة ، لأنها جزء من القدسية ، ومع أنها
حقيقة والوصول إليها يندر ، فهي تثير العقول بعظمتها ، ومنها تظهر صفات الجمال
بأبدع ما نتصور ، وأبهى ما يمكن للعقل إدراكه » .

ولما كانت الأشياء على ما ذكر من الصورة ، فكيف نقول بمادية العلم ، أو
نرضى من رجل العلم في أي طور من أطواره أن يحول بصره عن رؤية آيات
الوجود ومعاني الموجودات وصورها التي لا تعد ؟ وكيف يجوز حصر الفكر

في نطاق قوانين المادة وحركة الذرات والجواهر؟ وهل هذا هو طريق الصواب، لأن كل شيء في الطبيعة خاضع لقوانين المادة الأساسية، مع أنها قد تكون بذاتها منقادة لقوانين أخرى؟.

١٨ - ما قاله لابلوك وما قاله نيوتون :

لقد قال « لابلوك » عندما سأله نابليون : أين الله — في عالم الرياضيات — ؟ أجابه : انني لم احتج لحل هذه القضية ، إذ كان يستخرج نظرياته بحسب قوانين المادة والقوة فقط ، ولذا كان جوابه ناقصاً من وجهة فلسفة الوجود ، كما كان جواب زميله العالم « نيوتون » ، الذي عندما استكمل علمه في تدقيق مسائل الطبيعة شعر بالنقص الذي يعتريه في التعليل ، فرجع عن رأيه وقال بالحقيقة .

ولكي يتضح اختلاف الهدف لبيان الفرق بين من ينشد الحقيقة المطلقة ، وبين من ينشد الحقيقة المقيدة بالمادة نقول : ان نيوتون اختصر علم السماء بقوانين وأنظمة أساسها الفرضيات الرياضية ، ثم آمن بالحق فأوحى الى العالم بصحيح المبادئ التي جعلت كل ما في المادة من « جواهر فردية » ، و « حركات ذرية » ، و « الكتلونات » قابلة الحل ببراهين مستمدة أساساتها من الفرضيات المذكورة والمبادئ الميكانيكية .

واما « لابلوك » فقد ابتدع فرضيته المشهورة ، التي تخالف روح الفلسفة الالهية فقال :

« أعطني مقدمات ، وأعطني ذكاءً بشرياً رياضياً يفوق الحد ، لأعقب لك طريق كل جوهر فردي واعين محركة الذي سار عليه ، والذي سيسير فيه ، فكل ما في الطبيعة من ماض وحاضر ومستقبل يمكن حسابه بدون صعوبة » .

١٩ - ليس من السهل قبول مدعي المادية :

ولكن لو صح قوله ، فهل من السهل الجزم بمسألة بدء الفعالية الآتية ،

أي الحياة في سلّم الأحياء ؟ كلا ! انها لا تزال قيد البحث .

ان طريق « الذبابة » وهي تلعب حول الشيء المعلق ليصعب تعيينه واستنتاجه من المقدمات الفيزيكية والمبادئ الميكانيكية ، فكيف بكل ما في الحياة ودرجات الحيوان والانسان من مظاهر الحياة ؟ . فاقول برأي حاكمية المبادئ المادية في عالم النبات والحيوان لا يزال مشكوكاً فيه ، ولهذا لا يمكن حلّ مسائل الحياة بقوانين المادة .

٢٠ - الحياة وما هيها :

ما هي الحياة ؟ انها شيء لا نعرف غير مظهره ، وهي تستخدم المادة وتستكملها وتحوّل الجهد الطبيعي - Physical - Energy ، الى طرق جديدة وتقطع لسان البر لتوصل البحرين ، وتقيم قناطر العبور لتوصل البرين ، وتخرج من الارض شجراً وزهراً ورطباً وفاكهة ازواجاً ، انها تمطر الصحراء فتسيل فيها الجداول والانهار وتبدل حالة الاقليم ، وتسق مفارش المياه ، وتمزق الجبال ، وتقت الصخور ، وتعمل ما انتجته المدنية ، ولا يقتصر عملها في الأحياء العليا ، بل تعمل في الأحياء الدنيا بخلايا النحل ، وتسهلك حبة القمح لتخرج من البيضة ريشاً بديع الشكل ، ومن البذرة زهوراً جميلة لا عدّها لها ، وتطمع الدودة ورق التوت لتوجد أجنحة الفراشة البديعة ، واذا ما ارتقت علت بروح الانسان فوق جميع الموانع المادية والجسدية ، وسكنت مناطق الذهن لتلهو بالخيال والفن والشعر ، وتتخذ الأشياء الخارجة عن نطاق الحس واللس مادة مغذية لذاتها تلتذ بها نفوسنا ، ونشعر منها أنها قريبة من ذلك الوجود المقدس الكامل .

إذن ، ما نعرفه عن هذا المؤسس العامل الذي سميناه « الحياة » هو قليل جداً ، وقليل بالنسبة لما ستجده الحياة . ألا نتذكر بأن كثيراً من الافعال التي نسميها كيميائية قد برهن « باستور » على ان مسببها كائن حي ، وان هذا الكائن الضئيل المجهرى يدبر ما ظهر من تفاعلاتها ونتائجها الكيميائية ، بطريقة عجيبة شبيهة

بالتفاعلات الكيميائية التي يجهزها ويعملها الكيميائي في مختبراته ؟ أليس التخمر والأفعال الهضمية من أعمال الأحياء المجهرية « خلايا كانت أو فيروس او جراثيم » لها خدمة في الزراعة ووظيفة في نشر الامراض أو محاربتها .

كيف تتعامى عين العاقل عن رؤية الحق أمام هذه المظاهر الحية ؟ وكيف يجدها المنطق السليم ، إلا ان يكون الانسان مكابراً أو مقلداً ؟ ان ما يقبله العقل ويدركه المنطق ، هو أن الحياة شيء حقيقي وموجود ثابت ، يفيدنا القول به بقاء باب التحقيق والبحث مفتوحاً ، ويمكننا من طرق علم المجهولات واكتشافها ، ولعلّ يوماً يأتيها فنهدى الى ثمرة الموضوع الذي له ما بعده .

٢١ - الحياة مادية فرضية :

ولا بد من القول ان غاية ما وصل اليه علمنا عن الحياة انها فكرة « فرضية » لا بد منها تلازم المادة وخواصها ، ولكن ربما يكون للحياة وجهة اخرى ، لاننا نجدها تشرق وتثيب ، وتظهر في المادة الجامدة مدة ثم تفارقها ، ولها نظير في عالم الطبيعة كقطرات الندى تظهر فوق اليابسة ثم تختفي ، ولكن اذا كانت قطرات الندى لا توجد إلا فوق جسم جامد ، تقف عليه ويتراءى للهمجي انها تظهر وتختفي وهي مرتشحة عن الجماد ، واذا كنا نعرف عنها غير ما عرفه ذلك المخلوق الأولي ، إذ نعلم سبب حصولها ، وان لها وجوداً دائماً ثابتاً ، وانما تكونت بشكل آخر غير مرئي ولا ملموس وهو البخار ، وما وجوده في صورة القطرات إلا حادث موقت .

أفلا يتضح لنا من هذا التشابه الظاهري كيف تتجلى الحياة عند حلولها في المادة « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، ندرك مظاهرها السامية ، خاصة عندما ندقق في الدرجات العليا من الاحياء في الانسان ، حيث يوجد العقل والارادة ، وهما ليسا جهداً انما يستخدمان الجهد ويسوقانه للطريق المؤدية للغاية كأنما يقصدان شيئاً ثم يبلغانه ، وان لهما خاصة التمييز بين الحق والباطل ،

والصديق والعدو ، والنافع والضار ، ويعملان فيما هو خارج عن نطاق « قوى المادة » ولهما دوافع أخرى ويتأثران من المستقبل ، ويستكشفان الماضي .

ان الدليل واضح ، ولنلاحظ ان قوة الانفجار عمياء تنطلق من مكمنها فلا تزيد ولا تنقص ، غير ان كيفية تطبيقها وما ينتج عنه يعلمه العقل ويتنبأ عنه . فالمادة هي جهد في صورة حركة مستديمة تدفعها « القوة » ، ولكن ليس للقوة ولا للجهد حركة من ذاته ، ولا ضابط يصح ان يكون لها عاملاً يدير نفسه ، ولا فيها خاصة الجهة ، اي القصد والغاية ، وما فيها نسميه « الشدة » فقط ، ولهذا يعتبر الجهد كالقوة ، يحفظ ويبقى تحت تأثير المدبر المؤثر فيها ، بالواسطة ومساعدة القوى المادية ايضاً .

فيتبين من هذا ، ان تغيير مجرى الحركة ، حركة المادة ، يحتاج لقوة تعمل عليها نخلوها بذاتها من الآنية - Spontanity أي العفوية ، ولكونها عطلة بذاتها Inert تماماً .

وحيث ان المادة غير آلية ، فالضغط يدفعها للامام وتسير في حركتها عمياء ، لا يؤثر فيها المستقبل ، ولا لها من تلقاء ذاتها طريق معين ولا غاية محدودة .

٢٢ - العقل ومزاياه :

أما الكائن الحي الحائز للعقل ، فوضعه خلاف ما ذكر ، انه يندفع للامام شاعراً بحالته وترحاله ، وبما يأمر او يؤمر به وينقاد اليه . وله صفات وخواص تميزه ، منها الجوع والعطش ، وادراك الاشياء على ما هي عليه ، واطلاعه على المستقبل ، وسيره في الطريق المعين .

وأما « عقله » فزبدته « النية والغاية » ، وان أنكر بعض العلماء وجود القصد والغاية في الوجود ، وقالوا بالصدفة فجحودهم لا يسلم به مادام النظام يملكه الوجود ، والانسانية تملك الغاية والارادة ، ونحن علينا ان نتمسك « بالعقل »

لأننا نشعر في نفوسنا بوجود قوة التدبير في العالم الحي والجامد ، ونؤيد قولنا
بمحبتين : ما نشاهده وما نشعر به ، ونقول عن المادة مهما تكن انها « حمولة
العقل » . وحلوله فيها وسيلة للعمل المتبادل في صور الاشياء الحالية وأشكالها .

وان العقل ينطوي ضمن ترتيبات المادة المعقولة ، سواء كانت عاطلة أم
جامدة . هذا طريق الجبل أليس رمزاً صحيحاً لشيء إنساني ؟ نعم هو رمز
العقل ، لانه يهدي الساري الى جهة معينة ويوصله الى غاية مقصودة ، مع أن
الطريق بذاته عطل ، فالجهد لم يكن من الجهد الطبيعي ، وانما من عمل العقل
كالصوت الموسيقي تخرجه آلة ناعقة يحركها محرك ميكانيكي ، ولكن العقل يدبر
العامل ، وهو الموجد للنغم والتناسق والايقاع ، ولولا دماغ الموسيقار لما
وجدت « النوبة » وما كان للصوت وظيفة ، فييجاد الانغام وتنفيذها يحتاج
آلة ، والآلة تحتاج في وضعها وترتيبها لفاعل قد يترجم النغم عن عقله وهو بعيد
عنها بعد المشرقين .

٢٣ - ماهية العقل ومظاهره :

وبعد ، فالدماغ هو آلة العقل ، وبه تظهر مظاهر الحياة بأكمل ما يمكن
وتبقى محفوظة في المادة ، ومن قال بأن الموسيقى يمكن تجسيمها بالنوبة فتبقى
محافظة للعزف مهما طال الزمن ، فقد فاته ان المحفوظ ليس رسم الصوت ولا
صور الحوادث والوقائع كما هو في الشريط ، ولكن عقل الفنان ، وعقل الممثل ،
وعمل الانسان الذي أبدع ذهنه ، فأنتج الموضوع ومثل الرواية وأنشأ العمران
وخلق من الجماد اشكالاً وصوراً واشياء ، وبقي خالداً في ما صنعه ووضعه .

ولو فرضنا أن يد الحدثان امتدت الى النوبة أو غيرها فغربت ، فهل
باستطاعة المادة أن تميد نفسها ؟ انها لا تعود ، ولكن لو بقي الواضع حياً لاعاد
العمل بقوة عقله ، سواء أكان الاثر قطعة موسيقية أو بناء أو لعبة أو شعراً ،
وبكلمة اخرى ، ان العقل لم يمت ، وفي استطاعته أن يعيد ما أنشأ وجسمه

مرة ثانية . ومن هذا يتبين أن ادراك الشكل الجميل بذات المعنى ينبه الفكر ، الى ابداع شيء آخر ، أبداع من الشكل الاول ، ويدل على فعالية العقل وبقاؤه .

وبعد ، فإن مذهب المادية حقيقة ناقصة لم تشكامل معداتها للتصوير والتحديد ، فما يظهر في المادة هو تولّتها بالحياة ، والذي يبقى لها الحياة هو حملها انطباعات العقل ، ذكريات الراسم الذي أوجد ما أوجد ورسم ما رسم ، وألبس الصور « الروح » فذهب عمره « وهو مدة بقاء الجسم في فعاليته » وبقي عمله حافظاً لشخصيته وأيقناً لمعانيها . لذلك كان في ألوان علّم السارية رمز يحفظ ذكرى البسالة والتضحية والوطنية ، وشهادة أرواح الألوف من ابناء الوطن رفعت لأجلهم هذه الراية ، تذكر من ينظر اليها من الجنود فيعبدونها ويمجدون معانيها .

واني لاعتقد حقاً ، بأن لبعض الآثار الشخصية التي تتعلق بأشياء أرضية معاني ربما تكون مهمة ، ولكنها لبعض العقول النيرة سفر واضح المعنى تدرك مراميها وماهياتها . ومن هذا القبيل ما ترمي اليه العبادات الدينية ، والطقوس الرمزية ، فإن المؤمنين بها وان أيدوا مذهب المادية ، ولكن سبب وجودها هو المبالغة بالشيء أو نكرانه بتاتاً .

ان المادية موجودة في كل شيء بنسب مختلفة كوجود الراديوم والمغناطيسية في نسب مختلفة وهي تجسّد لآظهار العقل ، ولكن للتجسد درجات أكلها اجسامنا الحاوية لما نحن عليه ، ومع هذا فتجسدها بهذه الصورة هو منتهى الكمال ، وقد يحتمل ان شخصيتنا لا تظهر في العالم الارضي ، بل في عالم آخر ، إذا قلنا بوجود النفس السامية .

وحيث مرّ بنا أن ذاتية بعض الشخصيات العبقريّة تبقى محفوظة في الآثار التي وضعوها ، وانها تكون بمثابة الروح في الجسم الحي ، وبما أن فصل الروح عن البدن قبل أوانها جناية كبرى وجرم يستحق مرتكبه القصاص ، فالتجاسر على تخريب الآثار البديع في أي شيء كان ، جناية تفصل شخصية الواضع عن اثره قبل أوانها ، ويستحق مرتكبها القصاص الدائم ، ويجب أن نتذكر بأن تجسّد

العقل في البشر له درجات أعظمها ما ظهر في المبدعين والمخترعين والمكتشفين والفنانين .

٢٤ - المادة صمولة العقل :

وختاماً ، ان المادة هي صمولة العقل ومحكومة له ، وان الصورة بما حوته من ذرات المادة لم تلتصق وتأخذ شكلها المتجسد إلا بقوة العقل التي عالجت الذرات وسكبتها ورسمتها ، فاذا انتشرت بتعاكس قوى التلاصق ، انتشر الرسم واختفى أثر العقل .

كم من مبان عظيمة ومعامل صناعية وآلية ، وكم من أجهزة علمية وصناعات دقيقة محكمة تقيماً عقول المهندسين الذين استخدموا قوى الطبيعة دون أن تمسها أيديهم ، فكان عملهم بحسب قوانين المادة ، ولكن لا بعمل المادة وانما باتقيادها لارادة العقل وقواه التنفيذية التي لم يؤثر فيها الموت ولا الزمن فيما أرادته وقصدته ، وان يكن اصحابها قد تداركهم الموت واختفت اجسادهم .

والحقيقة ، اننا لو نسبنا دوران الافلاك ، وتوجات النور ، وحركات الأثير ، وغروب الشمس وشروقها ، وهذا الكون اللامتناهي ، الى الفعل الفيزيكي والكيميائي والى الصدفة العمياء ، وانكرنا النظام العام والجمال الظاهر في كل شيء والابداع الذي لانهاية له ، لقضينا على كثير من العلماء المشتغلين بمظاهر الطبيعة ، والذين قد هدتهم معرفتهم ، وهدتهم بصيرتهم ، الى الاعتقاد بأنهم يمثلون عقلاً فوق العقول ، وقوة مدبرة فوق كل قوة ، هي « الاله » الذي قال عنه احد الفلاسفة : « بطل الاله أن يكون إلهاً إذا قام الدليل المادي على وجوده » .

فهل بعد هذا نلحد بالحق وننكر الحقيقة ونكابر بالحسوس ونحجم أن نقول : « ربّ زدني علماً » ، « وانك يا إلهي فوق كل ذي علم عليم » .



مقاييس المدنية

١ - سبب الموضوع :

تتحارب الأمم اليوم في شتى انحاء العالم ، وكل يدعي سبباً يبرر عمله الذي يموت من جرائه ملايين الناس ، ويضيع في سبيله أعز ما أنتجته العقول البشرية منذ مئات السنين .

على اننا مهما حاولنا تفسيراً لتلك الظاهرة الوحشية التي تحدث غالباً في كل ربع قرن أو أكثر ، لا نجد لها علة غير طبيعة المجتمع التي تدفع الغرائز لارتكابها بعد ان يمجز المنطق السياسي ، وتفشل المحاولات المعقولة في حل المشاكل الواقعة ، ولكن أليس ما يقوله الساسة وزعماء الدول اننا نحارب لانقاذ المدنية وتخليص الشعوب من ذل العبودية ؟ هو الخداع بنفسه ؟

لنسلم بذلك ولنُدع الدواعي الاخرى ونقول ، إذأ ليس انقاذ المدنية وحرية الشعوب هما الغاية ؟ ! ولكن ألا يخطر على الفكر سؤالنا ما الذي يهدد المدنية ؟ وما الذي يقضي على حرية الشعوب ، حتى تثار ثورة الأمم وتشهر السلاح وتسوق الجيوش وتريق الدماء وترمي بالقذائف العواصم والمدن ، وتهدم العمران ، وتقتل بالطائرات والمدافع ارواح الابرياء ؟

ماهي تلك المدنية التي يحرص المجتمع على حفظها ، ونقاتل في سبيلها لسلامتها وتقدمها ؟ وهل الانسان مدني الطبع ؟ وماذا نفهم من معنى التمدن ؟ وان هذا الرجل مدني ، وهذه الامة متمدنة ، وهذا الرجل متأخر عن المدنية ، وهذه الامة متأخرة عن غيرها في الرقي والمدنية ؟

وما دام الانسان مدني الطبع ، فلماذا يقاتل ضداخيه في الانسانية ويسلبه

حريته ، ويهدر دمه ، ويهدم بيته ومصنعه ؟ ولماذا يود القوي ان يذل غيره ، وماهي الحرية او الحريات المقدسة التي نحارب لأجلها ، ويجب ان نعمل للحصول عليها والاحتفاظ بها مهما كلف الامر ؟ وهل الحرية من ضرورات الحياة الاجتماعية ومتماتها حتى نحصر عليها ، ونحصر معها على وجود المدنية ، لأن الاولى توجد بوجودها وتزول بزوالها ؟

وترد علينا أسئلة اخرى تقول : هل نحن ايها العرب مدنيون كغيرنا ؟ وهل لنا مدنية أم اننا متأخرون بعرف الذين يناضلون عن المدنية ؟ وهل للمدنية مقاييس لنحكم بها على انفسنا أو على غيرنا باحدى الحالتين ؟ وهل لا يجب أن نعد العدوة لنكون عند حسن الظن ، فلا نتوقف حيث كنا في سيرنا ، والامة كائن حي متى توقف عن الحركة تأخر ، وكلما تأخر اضع حق الحرية وحق المدنية ، وحكم عليه بالذل والاستعباد ؟

هذا ما جال في فكري ، عندما أردت ان احضركم في موضوع مقاييس المدنية ، والموضوع كما ترون هام جداً ، لانه ينير لنا سبيل الفهم لمعرفة اسباب الحرب ونتائجها ، ويعلمنا واجباتنا تجاه هذا العهد ، وتجاه المستقبل الذي ينتظرنا ونحن أفراد أمة تنشد الحرية والاستقلال وتطلب السيادة والرقى ، ونرجو ان نكون بين الامم ذات كيان مصون ومدنية عامرة مفيدة لنا وللعالم . وفوق ذلك يوحد اهدافنا ويفهمنا الغايات التي يدعيها المخربون .

ومع تبسطي في هذه المقدمة ، سوف لا اتطرق لكل ما ورد فيها من الاسئلة ، بل أود ان احصر بحثي في المدنية ومقاييسها ، لانه في نظري يسهل عليكم اجابة الاسئلة من تلقاء انفسكم ويكفيكم مؤونة التفصيل . والمرء متى كانت له مقاييس صحيحة لتقدير الوقائع وتحري الحوادث واستنباط الجهول ، وكان صاحب فهم وذكاء ومنطق سليم لتعليل الاسباب والدوافع ، يهون عليه حصول المعرفة اللازمة لتقرير ما يجب عمله ، وفهم ما اغلق فهمه .

٢ - ماهي المدنية ؟

المدنية ليست سكنى المدن او سكنى الحواضر ، ولا انتقال الانسان او الهيئة الاجتماعية من حالة بدائية الى حالة حضرية فحسب ، بل هي فعل مستمر تدريجي لاصلاح طبيعة الانسان وسلوكه وتهذيبهما . وبعبارة أصح وأعم ، هي حركة تطويرية ارتقائية ، لابعاد الهيئة الاجتماعية عن حالة البداءة وسوقها نحو حالة مركبة تنشأ أساسين : بقاء الانسب ودوام التقدم ، كلما كان باعثاً لحفظ الحياة وحفظ النسل ومفيداً لحاجة الفرد والمجتمع ، والمفيد ما يمنع قوة الهدم والفساد الذي يُعطل « فعل الاستمرار » الموروث في وعي البشرية .

وقد يقول احدكم كيف يحصل الاصلاح والتهذيب في طبيعة الانسان وسلوكه ؟ وكيف يحصل التقدم البشري ويدوم الرقي ، والانسان كما هو مدني الطبع هو وحشي الطبع ، يجمع النقيضين في عمله ، يبني ويهدم ، ويحب الحرية والحياة ويهدمها بيده ؟

أجيب على ذلك ان الانسان مهما كان ، فهو محكوم لغرائزه وعقله ، وهو بفعل الغرائز وعمله الدائم ، وطبيعته الانشائية والاجتماعية ، وتأثير المحيط والحاجة يتألف مع افراد وجماعته ، وينتظم بقوة الفكر والالهام والاختبار بوحدات اجتماعية مركبة تتعاون وتوجد لتعاونها الانظمة ، والآداب ، والشرائع ، والتقاليد ، والمؤسسات التي تتفق على وضعها لضمان البقاء وتأمين الحاجة .

وبفضل العقل والوعي الانساني ، وتأثير قوة التربية والعلم ، تستمر الافراد والهيئات الاجتماعية في تهذيب غرائزها وسلوكها ، وتعمل لتحديد دوافعها المرضية الشاذة ، والخضوع للضوابط النفسانية ، والاحكام الوجدانية ، حيث يكفل لها التدرج واحكام العلاقات ، ونجاح المعيشة والاعمال ، وهذا هو التمدن بعينه ، والغاية التي ترمي اليها المدنية .

فأنا وانتم مدنيون ، لأن طبيعة الحياة البشرية ، وطبيعة المجتمع الانساني

أرادتنا ان نكون اجتماعيين ، نعيش جماعات لا نعيش افراداً . ومتى كنا كذلك لا بد لنا من منافع متبادلة ومنافع مشتركة ، ولا بد لنا من قانون وانظمة تضمن لنا البقاء والنجاح ، ولاحفادنا السلام والدوام ، وتكفل لنا الصلاح والتقدم ، ولا بد لنا من وازع ادبي وديني ، وقوانين نلجأ اليها للاحتكام اذا اختلت العلاقات بتسلط الغرائز والمطامع ، وخرجت عن حدود التعقل والمنطق ، ولا بد لنا من التنظيم المستمر لتسيير مصالحنا وتسهيل اعمالنا ، تلك سنن الحياة والمجتمع ، بوجودها ودوامها وفعلها تصلح طبيعة الانسان الوحشية ، وتظهر طبيعته المدنية ، وتنعم بما نسميه نعم الاجتماع .

ولما كان للامم مدنيات لا تعد ولا تحصى ، منها ما اكل الدهر عليه وشرب ، ومنها ما توارثنا آثاره في الخرائب والاواني والادوات والمنشآت والصناعات ، ومنها ما توارثنا خلفاته الفكرية واللسانية والصناعية ، ومدوناته العلمية والادبية ، وتنظيماته واعماله الاقتصادية والعمرانية ، فان لكل منها الفضل في ما تتمتع به من نعم الحضارة والنتاج الفكري .

واذا قسنا ما كان عليه الانسان الاول قبل نصف مليون سنة ، وما كان عليه يوم عاش في الكهوف في عصره الحجري ، وما انتقل اليه بعده في العصور التي مررت قبل التاريخ وبعده ، وما هو عليه الآن ، علمنا ان المدنية حقيقة ثابتة وانها — كما قلت — ظاهرة الحياة تعمل فيها سنن النشوء والارتقاء وقانون الانتخاب والبقاء ، وفيها تعمل عوامل الهدم والبناء ، وعوامل الاصلاح والافساد تبعاً لطبيعة الامم واستعدادها ، وطبيعة التطور الفكري ، والغرائز وما يحدها من وازعات الاخلاق والدين والتربية ، وطبيعة المحيط والحاجة وتأثيرها .

وحيث اننا نبحث عن المدنية ومقاييسها ، فمن المفيد ان نبحث عن علاقات الامم ، لأن هذه العلاقات هي روابط المدنية ، فاذا صلحت وعمت وثبتت وهو المطلوب الاجتماعي ، قلّت الخصومات وقلّت الحروب ، وتقرب دعاة السلم من هدفهم المنشود .

ان بحث العلاقات الدولية ، هو بحث النظريات الاجتماعية التي تسود عالم

السياسة منذ قرون حتى وقتنا الحاضر ، واذا كنا نعلم بأن الحرب مهما قيل فيها ، ورغم بربريتها وويلاتها وخائنها هي ثورة اجتماعية تهيم التطورات المقبلة والنتائج المتوقعة في جميع نواحي الحياة والاصلاح ، فان النظريات والمبادئ التي كانت تسيطر الحركات الشيوعية ، والاشتراكية ، والنازية ، والفاشستية ، والديموقراطية ، والرأسمالية وغيرها ، سوف يحدث فيها تحول وانقلاب عظيم ، بسبب هذه الحرب العالمية وما أوجدته من ضرورات واختبارات تحم على قادة الأمم ومفكرها ، جمل الجهود الانساني والعلاقات الدولية والاصلاحات العامة ضمن اهداف الحركة الاجتماعية التعاونية ، التي تركز على تضامن مصالح الأمم واشتراكها في التنظيم العام الذي يحدد المنافع الدولية والعلاقات المذكورة ، ويوجد لها دستوراً عاماً للفصل في ما ينتج عنها من اختلافات ومشاكل يصعب حلها ، ويقيم لها محكمة او عصابة دائمة تلجأ اليها الدول ، وتفصل في ما يعرض عليها لتضع حداً للمنازعات والمخاصمات والتعديت ، وتدفع الخوف والعوز عن الأمم التي تكون معرضة للفتح والاستعباد .

وماذا وراء هذا ؟ أليست المدنية الحقيقية التي تعمل لاسعاد الناس باصلاح طبيعتهم وسلوكهم ؟ أليست المدنية الفاضلة التي يتدرج الانسان في مضارها ، فتتنظم بها أفعال الأمم وتترابط مصالحها ، ويعلو وجدانها العالمي ، ويتقوى شعورها الحي فنعلم اننا لا نستطيع انكار حق الحياة لكل أمة ، وحق معاونتها وانهاضها حتى لا يبقى في العائلة الانسانية من افرادها من لا تحترم حقوقه ، ومن لا يتمتع بحريته ومن لا توهب له الفرص اللازمة لظهار مواهبه ، ومن لا يجد من اخوته عطفاً او معاونتة ليسير في طريق النهضة والرقى ؟

فاذا كانت الغاية من هذه الحرب ، ان نصل الى هذه النتيجة ، فنعم ما يدعيه رسل الحرب ، ونعم الشهادة التي ينالها المدافعون عن حرية الشعوب وسيادتها .

اما وقد اتهمنا من تعريف المدنية ، ومن تعريف نظريات الأمم في العلاقات الدولية ، فلنكمل الموضوع ببيان المقاييس التي نحكم بها على الأمة بأنها مدنية او غير مدنية ، وما نسبة تقدمها او تأخرها .

٣ - مقاييس المدنية :

لا شك ان كل مقياس في تقدير المدنية ، لا يقوم على اساس الخير العام والصالح العام فهو فاسد ، وكل تقدير لا يتناول حفظ الذات وبقاء النسل ، لا يدخل في نطاق الصالح العام . ولهذا اذا أردنا الحكم على أمة ما ، بأنها متمدنة أو غير متمدنة ، وجب علينا ان نتحرى الامور الآتية (١) :

أولاً : هل افرادها يعيشون برفاه عام وسلامة عامة وحرية شاملة ؟ ولماذا ؟
لان الامة التي ينعم بعض افرادها بنعم الحياة من حرية ، ومال ، وحماية ، وصحة ، ومسكن ، وعيش وغيرها ، ولديهم جميع الوسائل لوقايتهم وتعليم اولادهم ولزيادة ملكهم ، بينما الآخرون من افراد الشعب يتألمون من المرض ، ويتمذبون من الحرمان ، لا تمد أمة متمدنة مهما كثر عددها ، ومهما اتسعت املاكها ، ومهما زاد عمرانها وغناها .

ولذا ، فالمفروض من صحة القياس ، ان يكون لمجموع الشعب ما للأقلية المتنعة من جميع المؤسسات ، والوسائل ، والحقوق ، والنعم ، فينال كل نصيبه بقدر جهده واستعداده واحتياجه .

وعلى هذا ، تعتبر الملاجيء العامة والمستشفيات التي تعني بصحة الناس جميعاً ، والمدارس التي تقبل الفقير والغني لتعليمه وتنشئته نشأة صالحة ، والحكومة التي تهتم بصحة الشعب وسلامته ، ويهتمها تنظيمه والتفريع عنه ومساعدته للعمل والتنظيم ، والجمعيات التي تهتم عنايتها البؤساء ، واللقطاء ، والايام ، والمحرومين ، واصحاب العاهات ، كله من دواعي رفاه الشعب وسلامته ، ودليل تمدن الامة ورقها .

ثانياً : هل الامة قادرة على التحكم بقوى الطبيعة والمجتمع واستثمارها ؟

(١) جاء ذكر هذه المقاييس وبيان مضمونها في كتاب « مبادئ السياسة العالمية » للبروفسور هوكينغ .

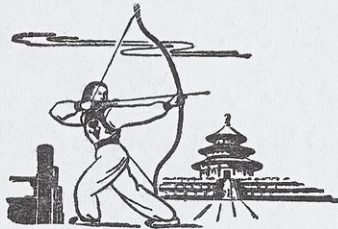
وفي هذا القسم تتخذ مقدرة الشعب على تنظيم الادارة ، وإقامة الشركات التعاونية ، والشركات الصناعية والاستثمارية ، وعلى مقدار انتاجه الزراعي والاقتصادي والعلمي ، وعلى ما له من مقدرة على التصدير والتوريد ، وإيجاد الاسواق التجارية ، وتبادل الانتاج من مواد اولية او مواد مصنوعة مع غيره من الامم ، وعلى نسبة ما لديه من مؤسسات علمية للتعليم ، والدرس ، والتجريب ، والاختبار ، والتجربة ، وعلى عدد ما ينتجه من مكتشفات ومخترعات ، وعلى ما له من منشآت عامة ، ومؤسسات عمرانية كالخطوط الحديدية ، والطرق ، والمباني ، وعلى ما يستطيع تطبيقه من قوانين العلم وقواعده في شؤون الحياة ، وعلى مقدار استخدامه لمولدات القوة من ماء ونور وكهرباء ومولدات الثروة من معادن وشلالات ، وأراضٍ وجبال وغيرها من موارد الطبيعة وقواها واستخدام ذلك في الصناعة ، والنقل ، والانارة ، والبناء وغيره . وهذا لا يتم الا بقوة العلم وقوة العقل ، ولا ينال الا بالتربية والتعليم ، ووجود العلماء الذين هم اكبر عامل في بناء المدنية والحضارة ، وعلى مقدار ما تتعاون جميع افراد الشعب في المجهود العام ، وتشترك في تقاسم النفع والخير العام ، وهذا لا يكون إلا بالتنظيم والتخطيط ، واستخدام الكفاءات من رجال العلم والاختصاص .

الثالث : هل للأمة من القوى الاذبية والروحية ما يكفل لها سلامة الذوق وحسن آداب المعاشرة والمخاطبة ، وأدب الكتابة ، وشرف المعاملة ، وكرم الضيافة ، وسعة الخيال ، مع سمو العاطفة والفكر في الشعر والموسيقى والرسم ، وما يدل على تدين تغذي به الروح وتهذب به الاخلاق ، ويبعث بالشعور الى ما وراء الطبيعة ؟

فاذا كانت الأمة مالكة لتلك المقاييس ، وكان لمدينتها ما يحقق صحة هذه المقاييس ، حكمنا عليها بالتمدن ، وعلى مدينتها بأنها مدار للرقى الحقيقي ، وحكمنا بأنها جديرة بالحرية ، واهل للسيادة والاستقلال . وإلا فمدينة البدوي في صحرائه التي لا يحدها الاق ، وفي خيمته التي لا يمتدي عليها سلطان ، وفي حرته التي لا تحدّها القوانين الجائرة ، ولا يقضي عليها الاستبداد ، وفي عيشه الذي تلهيه

الطبيعة ، وفي غذائه الذي يناله بمرق جيئنه ، وفي ابله وغنمه التي يراها وتضمن له دوام الهناء تنقله على ظهرها وتحميه بوبرها وتغذيه بلبنها ، وفي تأملاته التي تمتد بصرها الى حدود الأفق الأعلى ، وتسير في طبقات الأرض وتحصي ما عليها ، وفي خيالاته التي تلهمه الوجدانية ، وتعلمه الاستقراء والاستنتاج ، وقراءة اسفار الطبيعة وما فيها من معميات ، وتعرفه التجربة والاختبار فتشحن ذهنه وتجيب له الهدوء والسكون ، كما تجيب له الاسفار والتنقل وتحمل الآلام والرضى بما قسم له ، وتوحي اليه بالشعر والغناء وهما عزاءه وسلواه في الوجود وترجمان عواطفه ، إذا ما لعب بها الهوى واستمالها الحب ، وأحب حياته اذ يسمو به الى الشجاعة والكرم والنبيل ، ويلبسه المجد والافتخار والقوة لمقاومة الصعاب ، أقول ان مدينة البدوي الحر في ما رسمت له لآلف مرة خير من مدينة تستعبد الانسان ونذله وتحرمه من حريته ، وتسوقه للبلاء ، وتعلمه الفتك بأخيه والاحتيايل على صديقه والاساءة للمجتمع ، وتضن عليه بالعيش والمؤاساة ، وتجعله عبد العادات واسير الشهوات ، وضئيل الفكر ، وفاسد الأخلاق ، ومقضيأ عليه وعلى هنائه بالحرمان ، والعوز ، والمرض ، والفقر ، والتشرد . وكلها شر مهلكات الامم واطخر ما يصاب به المجتمع .

أجل ، ان كان ذلك في الماضي فلن يكون في القرن العشرين ، وضمير العالم بعد هذه الثورات المتوالية ، وبعد هذه التجارب الأليمة ، وبعد تحقيقه بأن لا حياة بدون ما ذكرته من المقاييس ، سيجعل المدنية نعمة للجميع ، وستشارك الامم في بنائها على ما يكفل للجميع الحرية والسعادة والاطمئنان .



المبادئ وتطورها وتأثيرها في الأفراد والجماعات

من المباحث الاجتماعية الهامة التي يجب البحث فيها والاكتثار من شرحها وتطبيقها ، حتى يستقر تأثيرها في قلوبنا وتستحوذ على مشاعرنا ، وتدعونا للعمل بروية وفكر واعتقاد ، قضية المبادئ وتطورها وتأثيرها في الأفراد والجماعات .

وقد اخترت هذا الموضوع ، لاعتقادي ان المبادئ هي عنوان الفرد والجماعة ، كما هي عنوان الاخلاق والحياة ، وان مقياس القيمة الفردية والاجتماعية لكل منا يظهر بالمقدار الذي تعمله المبادئ في سير حياتنا وفي اسلوب تفكيرنا .

وقبل إقامة الأدلة على ما تقدم ، سأعطي بتحديد معنى المبدأ ليصح الفهم والتخاطب ، ومن ثم ننتقل الى المقدمة ، ومنها الى النتيجة التي أرجو ان تكون خاتمة الموضوع .

ما هو المبدأ ؟ لنلاحظ ، ان كلمة مبدأ لفظ قديم ، ولكن معناه الجديد مولد وحديث . وقد اعتاد الناس أن يقولوا « فلان من اصحاب المبادئ » ، و « انا من مبدئي كذا وكذا » ، و « هذا مبدأ طبيعي » ، و « الاحسان من المبادئ الاخلاقية » ، الى آخر ما هو وارد في مصطلحات العلوم والكتابة ، وفي كلام المتكلمين والمحاضرين . فما هو المقصود ؟

أعتقد ان المقصود من اللفظ ليس معنى واحداً ، بل معاني شتى ، وان القائلين مهما تعددت وجهات نظرهم للمعاني فانهم يتفقون بأن الغاية هي « الطريق المعين ، والاسلوب المقرر ، والاساس المتخذ » فقولهم فلان من اصحاب المبادئ ، أي « من اصحاب الطرق المعروفة المتفق على ماهيتها ونتائجها ، تسييره وينصاع اليها » . وانا مبدئي يأمرني بكذا وكذا معناه « اني لا اتبع في اعمالي إلا الاسلوب الفلاني ، فأعامل الناس بالشرف كدستور لي ، ولا اقوم إلا في الساعة السادسة

لأبشر عملي ، ولا أتخلف عن الاجتماعات الموعودة كواجب عليّ وجزء من حياتي . وغير هذا ، أريد بما قررته واتخذته أساساً لحياتي . « والاحسان من المبادئ الاخلاقية » يفيد أنه من الخطط التي يعتبرها الناس مفيدة وحقة ، والتي توضعوا على انها شريفة وسامية .

والذي يتحصل معناه من مجموع هذه الافادات ، ان المبدأ هو ما يتقرر في نفس الانسان أو الجماعة بسائق الغريزة ، أو الحاجة ، أو الفكر ، للحصول على غاية معينة قد تكون خيالية أو واقعية يرجى من وراءها لذة ، أو منفعة ، أو ارضاء رغبة توجب الهناء .

وينقسم المبدأ الى قسمين : الأول « المبدأ الخاص » يختص بالفرد ، أي بما يخطه لنفسه بنفسه بعد تجربة أو دراسة ، أو تلقين . والثاني « المبدأ العام » يختص به المجموع من جماعة أو هيئة أو امة بـمد تجربة أو تلقين أو مرور الزمن ، كمبادئ الدين ، ومبادئ الدستور ، ومبادئ الحكم ، ومبدأ اللباس ، ومبادئ الآداب الاجتماعية ، ومبادئ التعليم ، ومبدأ العبادات ، والمعاملات الى آخره .

والمبادئ سواء أكانت قديمة أو حديثة ، خاصة أو عامة ليست وراثية ولا ولادية ، ولكنها نتيجة التجارب والاختبارات والتقاليد والتعاليم ، ولذا كان لكل فرد ولكل جماعة مبادئ يعتقدونها بحكم الحاجة ، والبيئة ، والتفكير .

ومن خواص المبادئ انها تتطور وتتحول وتتغير كلما ازداد اصحابها تجربة واختباراً وعلماً ، وهي تتبع سير العقل الظاهر والعقل الباطن ، وترتقي وتتقدم وفقاً لقانون النشوء والارتقاء ، فتكون في نشأتها لاشعورية ، تتبع الغرائز ثم تتطور فتغدو عاطفية تحت تأثير العواطف يسيرها العقل الباطن ، ثم ترتقي فتكون ادراكية أي ذهنية ، تتبع حكم العقل الذي هو مدار الوعي والتفكير والادراك .

والمبادئ قد يظهر مفعولها مباشرة وآنيًا ، وقد لا يظهر ، وقد تلتبس

نتائجها بسهولة وقد لا تلتبس ، وقد تحتاج معرفتها لبحث وصعوبة ، وقد لا تكون كذلك لبدهتها وبساطتها .

ومهما يكن حالها فبقوة تأثيرها لا تنقطع ، ولا تنقص ، متى كانت صالحة . ويستمر تأثيرها بقدر استعداد النفوس لها وتجاوب العقل معها شأن الحصة التي إذا ما أُلقيت على وجه الماء في اليم لا يعلم أحد مدى تموجاتها .

والغالب ان مبادئ الفرد تتجلى بمظاهر العقل وقوته ، اكثر مما تتجلى بمبادئ الجماعة التي من طبيعتها التأثير بمظاهر اللاشعورية ، ولهذا توصف بمبادئ الأفراد بالسرعة والانجاز ، ومبادئ الجماعة بالبطء وقلة الانجاز .

ويشمل المبادئ قانون عام هو قانون بقاء الانسب ، ومعناه ان المبادئ التي تتبع رقي الفكر وتأثر بالبيئة والتربية والزمن ، وتتطور معه طرداً لا عكساً ، يبقى منها ما ثبت صلاحه ، وصحت احساساته ، وجاز اختياره ، وأمكن اثبات نفعه ، وما سواها فيزول ويفنى . ولصحة بقاء المبادئ يجب أن تكون عناصرها متحدة من مدروكات العقل ، وفي حين الحاجة والامكان وملائمة الزمن والغاية .

اما تأثيرات المبادئ فتنقسم الى تأثيرات ظاهرة ، والى تأثيرات باطنة . وكلاهما ينقسم الى ما هو مباشر وغير مباشر ، والى ما هو موقت وما هو أبدي .

ان دراسة تأثيرات المبادئ تعني في الحقيقة درس الفكر البشري وأعمال الحياة فرداً وجماعات ، وفي عبارة أخرى درس المدنية والعلم والسياسة ، لأن الحروب والمنازعات والثورات والانقلابات والانظمة والشرائع والآداب والعادات والجمعيات حتى العلوم والفنون والعبادات والاخلاق والصناعات لا تتحرك عواملها ولا تنبعث حركتها إلا نتيجة المبادئ وفعاليتها المباشرة .

والذي يجب أن لا يغيب عن الذهن ، ان فعل المبادئ خيراً أو شراً ، لا يظهر إلا إذا اختمرت مكوناتها وظهرت صورها من حين التصور الى حين الفعل ، ونزلت من حظيرة الوعي العقلي ، الى حظيرة الشعور الباطن ، واستقرت في

بواطن النفس حيث تنمو وتقوى ، وعندها كما يقول « غوستاف لوبون » :
« تصير المبادئ جزءاً من الخلق ويكون لها التأثير في الحياة ، لأن خلق الانسان
يحتاج في تركيبه الى تراكم طبقات من الاشعورية » ، والدليل انها عندما تستحوذ
على ضمير الاكثرية وتملك عواطفهم ومشاعرهم وأفكارهم ، ينساقون وراءها
انسحاق القطيع ، دون وعي متلذذين بنعيمها وبؤسها .

أضع امامكم هذه الحقيقة وأسألكم التمعن فيها . انها مفتاح التعليل لفهم
الحادثات التي مرّ ذكرها ، وسرّ استشهاد المتدينين في سبيل عقائدهم ، وسرّ
اندفاع العامة في كل الشعوب استجابة لماطفة تثيرهم ، وعلة افراط المهوسين في
أعمالهم ومظاهرهم ، ومعظمهم من اصحاب الشذوذ والدوافع المرضية ، وسبب
انكباب العلماء على التعمق والتوسع في مباحثهم وتحرياتهم ومكتشفاتهم ، وداعية
الفنانين والمختربين الى استكمال مبتدعاتهم وجنونهم الظاهري في ابراز خيالاتهم
وتحقيق تصوّراتهم ، ومبعث شجاعة القواد واقدامهم في حروبهم وثوراتهم ،
ودافع الجماعات والغوغاء للعمل والتظاهر دون حساب للعواقب والنتائج سواء في
تجمعاتهم او احكامهم ، او في استسلامهم او مقاومتهم ، في قبولهم او رفضهم .

اما اسباب تطوّر المبادئ فهي كما قلت آنفاً : « البيئة والزمن ، والاختبار
وتقدم العقل ، والحاجة والاستعداد . وأما كيفية حصول المبادئ ، فاليكم
الأمثلة الواقعية :

خذوا مبدأ الحب وهو مثال للمبادئ التي توحىها الغريزة الجنسية . كان
الحب في اول أمره قضاء شهوة واستمتاع رغبة شأن البهائم ، ثمّ تطوّر فصار
مدار الفة وتبادل منفعة ، ثمّ تقدم فصار آلة متعة وهو واستسلام . ثم عندما
ارتقت المدارك البشرية في فهم موجبات الحياة ، وارتقت الاعتبارات الاجتماعية ،
أصبح الحب غاية لدوام الترابط والالفة وتقاسم مغارم الحياة ومغانمها ، وتبادل
العواطف والافكار .

ونتيجة لكل ما تقدم ، أصبح الحب اليوم بنظر المرأة والرجل ، معبد آمال ،
وصحيفة فرقان ، ومنبع إلهام ، وقضية فلسفية للتعبّد ، وغاية تطلب ، يطلبه

المثقفون لالذة حيوانية ، ولكن لضرورة اجتماعية ، لا لتلذذ جسماني ولكن لتلذذ روحاني ، ويطلبه أهل الشعور الحي والحساسية المفرطة للإبداع والتسامي في خيالهم وفنونهم وشعرهم ورسمهم وإلهامهم ، ويطلبه العلماء لفهم الحقائق ، ويطلبه الصناع لتكامل عملهم .

فهل رأيت كيف أصبح مبدأ الحب بتطوره سبباً لخلود البشرية ، وواسطة للترابط الانساني ، مما جعل العلاقة بين الشخصين علاقة روحية تسمو بالنفوس ، وتخضع لسلطانه ، وتسمو بالروح فتحفظ الاجسام من الشهوات الحيوانية ، وتخدم النسل فتقيه شرّ الأندثار ، وتخدم المدينة فتقيها شرّ الفساد لفعله وقوته وجاذبيته .

ثم خذوا بعد هذا مبدأ « الدين » وهو مثال لما تخلقه المشاعر والعواطف . كان الدين في اول أمره مظهراً لمظاهر الخوف والهرب من قوى الطبيعة وأملاً في خيرها وارضاء لها ، ثمّ تطوّر فصار مظهراً للرجاء والتقرب اليها لنفعها ، ثمّ انتقل فصار مظهراً للخضوع والتضحية والاستسلام لقوى الحيوان والانسان ، ثمّ تقدم فعدا مظهراً لاستمتاع النفس بما حرم عليها ، أو يحجز الطالبون عن نيته فاكتنفته الأساطير والخرافات والسحر والأضاليل والخيالات ، وسترتة الطقوس والرموز والقرايين ، كما أثبتته فرويد في مذهبه التحليلي .

ولما استنار الفكر وأدرك مصادر القوى الطبيعية وعلم خواص المادة ، وشاهد مظاهر الحياة تحول عن المبادئ الخفية الى المبادئ الظاهرة ، وبدأ بعبادة الكمالات والفضائل المتجلية في شخصية الملوك والأبطال والرؤساء والاصنام التي تمثل رغبة أو فكرة قامت في نفس المؤمنين فاتبعوها زانين وعددوها بحسب اهوائهم . وفي الدور الاخير تكاملت فكرة الاتصال والاستمداد وسعي الفكر الى طلب شيء آخر تمثل فيه المقدرة والقوة المطلقة ، والفضائل الكاملة والصفات السامية المزهة عن الشبه والزمن والمكان والعدم والفناء ، فلم يجد المؤمنون شيئاً يرضي ضمائرهم ويعبر عن مدروكاتهم غير المبدأ القائل بالالوهية المجردة ، ولكن عددوها في طبيعتها وجمالها مثنى وثلاث واربعة واكثر .

وأبعدوها عما يتعلق بمسأوى المادة ووصفوها بكل ما هو كامل .

وكان فلاسفة الهنود والبابليون والمصريون واليونان ، يعتقدون بالالوهية المتعددة وباله واحد جامع . ثم تفرد اليهود بعبادة « ياهوه » الاله الواحد ، وتبعهم المسيحيون والمسلمون الذين فاقوا من تقدمهم بتفكيرهم الالهي ، جاعلين الاله مطلقاً خالياً من كل قيد وتحديد مادي ، من كل تعدد وحلول وزمن وحصر وشبيه في السماء او في الارض ، فتطور الدين بهذه الكيفية من الشعور بسلطان الطبيعة وقوة الانسان ، الى الشعور بسلطان قوة مطلقة علة الوجود والمسيطرة عليه الى التفكير بوصف تلك العلة بأعلى ما يمثل الكمالات .

ان مرور هذه الادوار التطورية خلال سبعة آلاف او عشرة آلاف سنة حتى بلغت ما وصلت اليه ، تدل على سنة الطبيعة وحكمها الجاري في كل موجود يبتدىء بسيطاً ، ثم يرتقي ويتطور ويكون عرضة للتبدل والتغيير حتى يتكامل .

ومثل هذا حصل لمبدأ العلم الذي يمثل تطور المبادئ الفكرية .

فالعلم في القديم كان أساسه الحس والوهم والخيال والاساطير ، وكانت الحقائق مبعثرة دون تمييز ولا تمحيص ولا تصنيف ، ثم أخذ الانسان يدون تجاربه واختباراته واكتشافاته بلسان يحيطه الغموض والابهام والحيلة ، ثم تطور العلم فتناولته الفلسفة والنظريات المجردة ، الى ان تقدم الانسان في تفكيره ، وأكب في القرون الاخيرة من المدنية والنهضة الحديثة على نقد ما كان لديه من علوم ومعارف ، وتمحيصها تمحيصاً مجرداً مبنياً على التجربة والاختبار والمنطق الصحيح ، فانكشفت للعلماء خفايا الحقائق ، وما في انكون من قوى وقوانين .

وكان القرن التاسع عشر والقرن العشرين خير القرون التي ساعدت على التطور العلمي بسرعة ، لانطلاق العقل من قيود الماضي وعنعات التقاليد ، ومدعيات العلماء الاقدمين ، وتأسس العلم على مبادئ لا يتطرق الشك الى صحتها ، وهي مبادئ التحري والبحث ، والاستقصاء والتجربة ، والاختبار والتطبيق ، والقياس والاستنتاج والحكم . وكان اشهر من خدم العلم من العرب « ابن سينا »

وابن رشد ، وابن جابر ، والبيطار ، والرازي ، والفارابي ، والبيروني ، وابن هيثم ، وابن الطفيل .

ومن علماء الغرب « دكارت ، وكانت ، وهيكل ، وسبينسر ، ودارون ، وادم سميث ، وغوته ، ولابلاك ، وغاليلي ، ونيوتون ، وماكسويل ، وكهنتن ، وفارادي ، وكليفن ، وولتا ، وطوسون ، واديسون ، وكنتام ، وبيكون ، وروسكين ، ولامرتين ، ورنان ، وجان جاك روسو ، وفولثير ، ولوثر ، وسبانيوزا ، وغت ، وكارليل ، وجون لوك ، ومونتيسكو ، وفرويد ، وانشتاين » وغيرهم من علماء وفلاسفة ومخترعين ومكتشفين وادباء .

وبفضل مساعيهم وتفكيرهم ومبادئهم ، اتجهت المدنية الى الحد الذي وصلت اليه ، واتجه العلم الى التعمق والتوسع والارتقاء ، بحيث لم يبق له حيد في علوه وسموه .

وقد كان الناس قبلاً يسخرون من كيمياء ابن جابر ، ومن نظريات دارون ، ومن تجارب غاليلي ، ومن فلسفة سقراط ، كما سخروا من نظرية كولومبوس ، ومن تجربة هارفيه ، وضحكوا من ارسطو وافلاطون ، ولكن المبادئ لم تبال بسخريتهم وضحكهم ، بل استمرت في سيرها وتطورها حتى قاربت النضوج ، وبلغت ذروة المثل العليا والخلود . اما التأثيرات الحاصلة من هذا التطور فتقسم الى قسمين : الأول يتعلق بالمجتمع الانساني ، والثاني يتعلق بالفكر الانساني .

فالأول : يتناول انتقال السلطات من أيدي الملوك والرؤساء الى ايدي الشعب . وحرية الفكر والعمل والضمير واستقرار المبادئ العلمية في نواحي الحياة العملية ، وترتيب وتنظيم المجتمع ووحدته وترابطها ، وتوقف النزاع الديني وزوال التعصب الاضطهادي وضعف السلطات الاكليزيكية ، وتطور العادات والآداب والاعتبارات الحياتية ونزوحها نحو الديمقراطية ، وانتشار الاشتراكية والتعاون الأممي ، وتلاشي اصول الطبقات البشرية وقيام شريعة الأمم المتحدة .

والثاني : يتعلق بالحركة الفكرية والعلمية ، وهي :

- ١ - استقرار المبادئ العلمية على أسس التجربة والاستقراء والقياس الصحيح .
- ٢ - نموّ الروح القومية والوطنية والغيرية والذوق والتهديب .
- ٣ - الغيرية الظاهرة في الهبات والجمعيات الخيرية .
- ٤ - الانسانية المجردة وحقوق الانسان .
- ٥ - بروز الجمال .
- ٦ - التحكيم العام .
- ٧ - السياسة الدولية .
- ٨ - الروابط الاقتصادية .
- ٩ - تقدم الاخلاق العملية .

هذا ما يمكن تعداداه باختصار . ولما كنا قد وصلنا الى هذا الحد من الموضوع أقول ، ان كل ما مرّ معنا يعدّ مقدمة للنتيجة التي أشرت اليها . فما هي هذه النتيجة ؟

مما لا شك فيه ، أن النتيجة من وجود المبادئ وتطورها هو تكوين ما يسمى بالوجدان الاجتماعي والمثل العليا ، التي تستهدف وحدة الامم وتأمين التعاون والسلام .

ما هو الوجدان ؟

ان النتيجة من وجود المبادئ وتطورها تكوين الوجدان الفردي والوجدان الاجتماعي والمثل العليا ، التي تستهدف ايصال الانسان الى التكامل الاخلاقي ، وايصال الامم الى وحدة التعاون والتعامل والسلام العالمي ، والوجدان باعتباره متمماً للمبادئ وتطورها ليس عضواً آلياً ولا مركزاً ذهنياً ولا قوة مادية ، بل هو شعور قائم في ذاتية الفرد والمجموع ، يأمر صاحبه باتباع المبادئ التي اكتسبها واستقرت في نفسه ، واعتقد بصلاحها لحلّ قضاياها وايصاله الى الغاية

النافعة . فاذا كان الوجدان سليماً من النزوات الحيوانية ، والانفعالات الدنيئة ،
نظر الانسان من الباطل واتبع الحق . وأما قوته فيستمدّها من الفكر السليم ،
والتربية الصالحة ، والتعاليم السامية .

قلنا إن الوجدان شعور قائم في الذات ، ولم نبيّن أين مستقره فأين هو ؟

لقد اختلف العلماء والاخلاقيون في ماهية الوجدان وأين مستقره ، فالبعض
يعتبره الضابط الاخلاقي ، ينظم ما بين العقل الباطن والعقل الواعي من علاقات ،
وان مركزه في بؤرة الوعي . والبعض يقول ان الوجدان هو أعلى مركز ادبي
كائن في روحية الانسان .

والحقيقة انه شعور خاص يتصف به الانسان المدرك ، دون الحيوان غير
المدرك ، وبه يمتاز عن بقية المخلوقات ، ونسبة قوته يسمو اعتبار الانسان الادبي
وهو قائم في الذات الواعية .

والوجدان الاجتماعي يوجد في نفس الجماعات ، ويتصف بذات الصفات التي
يتصف بها وجدان الفرد ، ولكنه دونه قوة وارتقاء ، لأن المجتمع الانساني لا
يزال بوعيه وادراكه ورقيه متأخراً عن رقي الفكر الفردي .

ووجود الوجدان ضرورة حياتية ، إذ فقدانه يسبب عدم نفاذ المبادئ
وعدم تحقيق المثل العليا . فاذاً لارضاء النفس ، والتسامي بالاخلاق ، وتحقيق ما يرضي
النفس الانسانية ، يجب تغذية الوجدان وتنميته والحفاظة عليه .

وعملآ بما تقدم ، أسألكم ان تراجعوا انفسكم وتفحصوا وجدانكم ومبادئكم ،
فان كان لديكم منها ما يحكم أعمالكم وتصرفاتكم وتفكيركم فامتحنوها وحاسبوا
مسايعكم وأعمالكم ، لتتحققوا من سلامتها وانسجامها مع وجدانكم ، وعندئذ
تضمنون النجاح والهناء ، وهذا ايضاً من واجبات الانسان .

ان الذي يفقه نفسه يفقه غيره ، ومن لا يفقه نفسه كيف يفقه غيره؟ وكيف
يعمل مع بني جنسه؟ وكيف يستفيد من مجتمعه؟

لاحظوا ان الوجدان متى فقد من النفس غذا الانسان انانياً . والانانية
علة ما تقاسيه الانسانية من عذاب وتنازع واضطراب وشقاء .

لقد كانت الانانية صفة عامة للزعماء ، وصفة مستحوزة على الملوك والامراء
والاغنياء والحكام ، فسببت أفظع الحوادث في تاريخ الانسانية . كم من دماء
سفكت ، وكم من أعراض هتكت ، وكم من حروب ثارت ، وكم من اموال سلبت ،
وكم من معالم هدمت ؟ بسبب انانية المسيبين لها .

ولو ان لهؤلاء المخلوقات وجداناً يردعهم ، ومثلاً علياً تنهاهم ، لما اصاب
الناس ما اصابهم ، ولما اصاب المدنية ما اصابها ، ولما شقيت البشرية بهجمات
جنكيز خان وتيمورلنك وهولاكو ، وبمحاكم التعذيب ، ومحارق الابرياء ،
واضطهاد الأحرار .

على ان الانانية مهما سيطرت فنمو الغيرية التي هي من أسمى المبادئ ، ومن
أهم عناصر الوجدان الانساني ، يقضي على معظم شرورها ويحد من سيطرتها ،
ويساعد على انتشار الديمقراطية والاشتراكية . فلولاها ما زال التعصب الداعي
للاطائفية والعصية الجاهلية ، وقويت الفضائل الوطنية ، وارتقت الانسانية
ومثلها العليا .

ولما كنتم من رجال المبادئ وحماة الوجدان ، فعليكم ان تختاروا لانفسكم
خير المبادئ ، ولبناء حياتكم خير المثل ، ولوجدانكم خير الثقافة .

ان الغيرية صفة انسانية ، ومن مقومات المبادئ تحض على الاهتمام بالغير ،
وتقديم المساعدة الى المحتاج ، ومعاونة الضعيف ، وتضحية المنافع الخاصة ،
وتربط الفرد بالمجموع برباط التعاون وتبادل الخير حسب المبدأ القائل : « حب
لأخيك ما تحبه لنفسك ، وعامل أخاك كما تحب ان يعاملك ، وكيلوا للناس
بالصاع الذي يكال لكم » .

وهذا المبدأ هو العنصر الأساسي للوجدان الفردي والوجدان الاجتماعي ،
وهو الباعث للشعور الانساني الذي يفيض تعاليمه على المجتمع ، ويجعل افراده اذا
تألم عضو منهم تألم العضو الآخر .

انه الدستور الذي قالت به الانبياء ، وقادتهم الى الهداية ودعوة الخلق الى الحق ، وحببت اليهم الجهاد والموت في سبيله ، لأنه السبيل القويم لبقاء الاخلاق الفاضلة ، وبقاء الروابط الاجتماعية ، وبقاء الوجدان الانساني حياً سليماً .

لنتبع سيرة الأنبياء وتعاليمهم وندرس أعمالهم وكتبهم ، انها ولا شك مثال خالد للغيرة ، وسفر واضح للمبادئ السليمة ، وطريق مستقيم للمثل العليا ، ومبعث قوى الانسانية لتكوين الوجدان .

هذا عيسى ماذا أوحى الى قومه ؟ ألم يوح اليهم بالحببة ؟ لماذا جعل دستوره ، اجبثوا بعضكم بعضاً وباركوا لأعينكم ؟ ولماذا قال : ان الله محبة ؟ . انه شاهد الخصام بين طبقات الناس . شاهد الظلم يتحكم في رقاب الضعفاء والبؤساء . شاهد الرومان يذلون الشعب ، والسبائين يسخرون من الناس ، والقضاة يحكمون على البريء بالسجن والعذاب ، فأوصى بالطاعة وقال : أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وأعطوا ما لله لله ، ليقضي على الأنانية ويؤدي لكل ذي حق حقه . ودعا للسلم والحببة وترك الدنيا . وقد تبعه غاندي نبي الهند بهذه المبادئ ، وبهذه التعاليم ، فخلص قومه من الاستعمار ، ومكنهم من استعادة حريتهم ، وتحرير بلادهم ، وأخذ استقلالهم .

وهذا محمد نبي العرب ، جاء قومه يهديهم الى الوحدة واتباع الحق ، وعبادة الاله ، فأذوه وضربوه وأخرجوه من ديارهم ، فصبر على أذاهم ، وتحمل اضطهادهم ، ولم يأس من اصلاحهم ، وثبت على دعوتهم ، لا يبالي بذاته ولا براحتة . ثم دعاهم الى الاخوة ، وحذرهم من التفرقة والفتنه ، وآخى بينهم ، وشارك أصحابه بؤسهم وآلامهم ، وطهرهم من رجس الجاهلية .

ولما قويت دعوته ، وانتصرت جيوشه ، حطم الأصنام ، وأزال معالم الشرك ، وجدّد قوى العرب ، وقوّى مواهبهم ، وأبرز ما فيهم من استعداد للخلق والابداع ، ووضع بين ايديهم تعاليمه وما أوحى به اليه ، فحقق وحدتهم ، وهذب أخلاقهم ، وأكسبهم المبادئ السامية ، وعزّز اخوتهم ، واحيا وجدانهم ، وسما

بأرواحهم ، ووضع لهم قواعد الحياة الحرة الشريفة ، وعلمهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأزال ما بينهم من اختلاف سببته الانانية ، وأمرهم بالشورى ليستقيم أمرهم ، وسأوى بينهم ، ليكون أفضلهم من اتق واتبع الحق وأدبى ما عليه لأخيه ولله ورسوله ، وأطلق لهم حرية العقل والوجدان ، ليسيروا في الارض ، وينظروا عاقبة الظالمين ، وما في الوجود من عبر وآيات ، وطهرهم بطهارة الجسم والروح ، ليكونوا اقياء أوفياء رحماء فيما بينهم . ثم دفعهم لهداية العالم ، فخرجوا يحملون بأيديهم مشعل العلم ، ومشعل العدل ، ومشعل الدين ، ففتح قومه الممالك بفضل ما اكتسبوه من المبادئ ، وبفضل التعاليم التي قوت عزيمتهم ، وأوجدت وجدانهم ، وأسسوا الحضارة التي نشرت ربوعها على معظم الممالك ، وانارت طريق الحق والهداية لمعظم أمم العالم .

أتظنون ما حصل للعرب غير طبيعي ؟ كلا ! انه طبيعي ، ولكن إذا تساءلتم : لماذا وهن العرب وتفرقوا وانحطوا ، واستعمروا ، وأضاعوا استقلالهم ؟

ان ذلك ليس من طبيعة المبادئ ، ولكن من غلبة الانانية عليها . انها من العناصر الهدامة التي تحت وقوت بينهم . انها من الحروب التي ولدتها المطامع . انها من الرجال الذين فقدوا المبادئ الاسلامية . فعلينا أن ننعظ ونعيد سيرتنا الاولى . فالغيرية أساس ، وانتشار الثقافة الحرة ركن للبناء ، وانماء المبادئ لتكوين الوجدان يزيل الصعاب ، والعلم يشق طريق العمل ، والوجدان الاجتماعي يحفظ الروابط .

ولنعلم ان اعتناق المبدأ ، يجب ان يكون مقروناً بالتضحية والاستمرار ، ليدوم فعله وتأثيره في النفس ، ويصبح عنصراً من عناصر تكوينها ، وقوة تخرج ما في النفس من صور وتضعها في حيز العمل .

تصوِّروا ان خمسة عشر الف اسبارطي قهروا مائة وخمسين الف فارسي على رأسهم « دارا » العظيم .

الاسبارطيون أخلصوا لمبادئ وطنهم وقوميتهم وحريتهم ، وضحوا لاجلها

بدمائهم وثبتوا فغلبوا ، وفازوا وانتصروا . والفارسيون أخلصوا لانانيتهم وشهواتهم واعتمدوا على كثرتهم وسلاحهم ، ولم يثبتوا في ميادين الشرف فانقلبوا وذلوا وقهروا .

وما قولكم عن القرطاجني ، الذي أقسم بشرف آبائه لينتقم من قاتل ابيه ، فغزا روما ، وأذلَّ عرش القيصرة ، ورجع منصوراً ؟ وانتقم لرأس ابيه وكرامته وعزته .

وما قولكم يتسيم يخرج من صحراء الجزيرة بلا سلاح ولا مال ، فيحرق بلاده وينصر قومه ويكسر اعداءه وينشر شريعته ؟

ما السر في ذلك ؟ أليس الايمان الذي قال عنه المسيح : لو كان لاحدكم ذرة من الايمان وقال للجبل زل لزال .

وما الايمان ؟ أليست المبادئ التي استقرت في النفس وملكت زمام الوعي والمواطف ؟ أليست المثل العليا التي تعشقها النفس ؟ .

ان قوة المبادئ متى مزجت الروح واستحوذت على العقل ، كانت مثل القوة الذرية ، لاتقف أمامها الجبال ، ولا الحصون ، ولا الرجال ، بل تغلب عليها وتذكها دكاً .

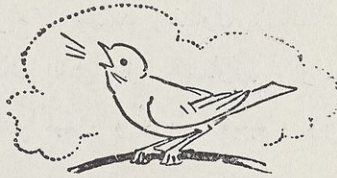
ما كان ابو بكر وعمر وعلي وعثمان وخالد بن الوليد ، وعبيدة بن الجراح ، وابن العاص ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، ومحمد القاسم الثقفي ، وعقبة ابن نافع ، وقتيبة ، وزياد ، وسعد زغلول ، وغاندي ، لينتصروا في قيادتهم ومعاركهم ، لولا الايمان الذي حلَّ في قلوبهم ، والمبادئ التي اكتسبوها من تعاليم دينهم ، فقوّت عزائمهم ، وأثارت حميتهم ، وحبيت لهم الشهادة .

ومثلهم قام في العالم آخرون يدينون بدين العلم والانسانية ، فدكوا صروح الجهل ومعاقل الظلم ، واحدثوا ما اكسب العالم الانساني نهضته وتقدمه وما يتحلى به من مدنية وعمران ورفق .

والمبادئ كما تحتاج للثبات والاخلاص ، تحتاج للشعور بالمسؤولية وسلامة
الوجدان وصحة العقل ، لأنها تعمل ولا تتظاهر . والمسؤولية فيها مسؤولية اديبة
روحية نفسية لا اكراه فيها ولا اجبار ، ولكن مسؤولية ارادة واعتقاد
وايمان . ولنتنبه الى أن أحسن تشبيه لتأثيرها هو الاثير الذي لا يرى ولا يلمس
ولكن وجوده وفعله ثابت ونافذ . فلنبشر بمبادئنا ولنعمل بقوتها لنصل الى غاياتنا
وأهدافنا . ان مدينة الغرب لم تنهض ولم تتخلص من التقاليد البالية ، إلا عندما
انتشر بين أممها وأفرادها العلم وغزتها المبادئ الحرة ، وترعرعت فيها أسس
الديموقراطية .

ان حاجتنا اليوم لانتشار العلم والمبادئ الحرة والايمان بالمثل العليا وفعلها ،
كحاجتنا الى الغذاء والكساء والدواء لادامة الحياة . ولكن الاقوال وحدها لا
تكفي لاستخدام القوة والنهوض ، انما نحتاج للوعي ، والعلم ، والعمل ، والتنظيم ،
والاخلاص ، والتضحية ، والجرأة ، والاقدام .

أمور لا شك بأنها أساس كل نجاح ، والسلام لا يتم بالانانية وتبسيط المهام
وفساد الشعور والتعاقس ، فلنحترم الآراء والمبادئ ، ولنتعاضد ظاهراً وباطناً ،
ولنعمل بايمان وقوة لبقاء المبادئ وحياة الانسانية .



البرجوقراطية واهدافها في التنمية والتمرية

١ - الغاية من الاستقلال :

ان الحصول على الاستقلال التام الناجز، لا يعد الغاية من جهاد دام خمسة قرون . فما هي غايتنا ؟ لماذا نشكي ونشتكي وننالم ونصيح ، وقد اصبحنا سادة بلادنا ، احراراً في ما نريد وما لا نريد ؟

هل يعوزنا المال والزمن والرجال ؟ أم تعوزنا الارادة والجرأة والثبات ، حتى نجنب أملنا ولا نلص فرقاء بين الامس الغابر واليوم الحاضر ؟ .

هل مبعث شكوانا حيويتنا وطبيعتنا الحساسة ؟ أم آمالنا العديدة واهدافنا السامية ؟ .

كيف نعالج أمورنا وننتحرر من القيود التي غلت ايدينا ؟ .

وما هي الوسائل التي تنقذنا من اخطاء الجهل ومبادئ الاستكانة والتذمر، وتنهض بنا بحماس وقوة ونشاط ، كما نهض غيرنا وتدفعنا الى الامام ، كما دفعت من سبقنا ، فارتقى وتقدم خطوات وأميالاً ؟ .

هل تنقصنا المواهب والاستعداد الفطري ؟ أم ينقصنا شيء آخر ، بدون لا نستطيع ادراك ما يلزمنا ، وتدارك ما نحتاجه للبناء والانشاء ؟ .

وإذا سعينا لنكون من الناجحين في صناعاتهم وتجاراتهم وزراعتهم ومنشآتهم ومؤسساتهم واخلاقهم وآدابهم ومعاملاتهم ، فلماذا يجب عمله لبلوغ النجاح ؟ وما هي أدلة النجاح ومقياس التقدم والرقى ؟ .

٢ - ما يتطلبه الديمقراطية :

لا شك بأن هذه المسائل وأمثالها ومالها من اهداف ووسائل ، مما يجب ان تعالج بعلم واخلاص ، ويحاج عليها ويشر بها ، وان يعلمها طلاب العلم واصحاب العمل ورجال الدولة ونواب الامة وزعماء الاصلاح والجهاد الوطني ، والمؤمنون بالديموقراطية ، ومن يودون لوطنهم العزة والمناعة والرفاه .

وما دام الاستقلال كما يقول علماء الاجتماع والسياسة وسيلة لا غاية ، فان كل استقلال لا يؤدي الى طمأنينة النفوس ورفاهية الشعب ، ولا يهيء الاجيال للبقاء والتقدم ، ولا يضمن للافراد حرياتهم ، ولا يصون الحقوق والعلاقات التي تربط المجتمع افراداً وجماعات وحكومة ، ولا يرمي المصالح العامة والخاصة باستتباب الامن ، واستقرار النظام ، وادارة الامور بعقل وتجرد ونزاهة ، يورث الاضطرابات وينشر الفوضى ويعرض الوطن الى اخطر العواقب .

واذا كانت المدينيات قد اختلفت أنظمة الحكم فيها بين الحكومات المطلقة والحكومات النازية والديكتاتورية والاشتراكية ، والملكية الدستورية والحكومات الاشتراكية المتطرفة والديموقراطية الحديثة ، فان خير نظام يتبع هو النظام الديموقراطي الذي يجب ان تسري مبادئه في روح الشعب ، وتطبق اساليبه في المجالس النيابية ، والحكومات ، والمدارس ، والعائلات ، والمصانع ، والشركات ، والنقابات ، والمؤسسات الخيرية ، والهيئات التعاونية ، بحيث يعمل الجميع بعميدة مشتركة ، وذهنية موحدة ، وغاية تمثل ارادة الشعب ومصالحه .

٣ - ماهي الديمقراطية ؟ :

تقول الفلسفة السياسية عن الديمقراطية : « انها نظام موضوع للحصول على قرارات تشريعية تحقق الصالح العام بجمل الشعب تصدر عنه تلك القرارات بواسطة انتخابه افراداً يمثلون ارادته ويجمعون لتنفيذ هذه الارادة . وهذا

معناه أولاً ان هنالك صالحاً عاماً هو منار السياسة التي هي بسيطة بحد ذاتها ، يستطيع كل عاقل ان يراها ويناقشها ، ولذا لا عذر لمن لا يقدرها ولا يراها ، ولا معنى لوجود شعب لا يفهمها ولا يرى الجهالة والبلادة وعدم الاجتماعية . ثانياً ان هذا الصالح العام يدل على جميع المسائل التي بطبيعتها ، اما ان تكون خيراً للشعب او شراً ، وعلى ضرورة اتفاق الافراد بوجود الارادة العامة او بوجود مبدئها على الاقل .

٤ - ما يقول ادوار بنيتي عن الديموقراطية :

وتأييداً للتعريف المذكور يقول رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا في كتابه [الديموقراطية] : « ان الديموقراطية لا تزال في نظري تمثل أرفع درجة في سلم البناء الاجتماعي ، لانها تدعو الى تشييد البناء على أساس احترام القيم المعنوية للفرد . ولذلك لم يكن نضالنا ضد النازية والفاشية حرباً على أحلام الجرمانيين الطامحين الى السيطرة على العالم فحسب ، بل كانت جهاداً في سبيل هذه الدعوة الديموقراطية أيضاً ، وفي سبيل إخراجها إلى حيز التطبيق . »

ويختتم كلامه بقوله : « وما غاية الحرب التي خاضتها الامم المتحدة إلا تحرير الانسان وصون كرامته ، وان تصبح حقوقه الاساسية الى جانب الحريات الاربع - ويعني بها « حرية القول والعقيدة ، وحرية الرأي والعبادة ، والتحرر من العوز والفاقة ، والتحرر من الظلم والاستعباد » - محور الوجود الانساني في العالم كله . »

« يجب على ديموقراطية المستقبل ان شاءت بلوغ هذه الغاية ، أن تؤمن المساواة الفكرية والاقتصادية مع المساواة السياسية التي حملتها في الماضي الى ابناء الامة الواحدة ، وعليها ان تدرك جيداً ان المبادئ الديموقراطية يجب ان تعدي حياة الامة الداخلية لتصبح شريعة سياستها الخارجية . وها هي عبر الحرب تعلم الدول الكبيرة والصغيرة ، أن المجتمع البشري لن يتقدم ما لم تقم فيه سلطة سياسية عالمية تحل النظام والقانون المقام الاول في العلاقات بين الدول . »

٥ - مبادئ الديمقراطية :

والذي يستنتج من كل ما تقدم، ان الديمقراطية سواء أكانت عامة ام خاصة ، اجتماعية ام اقتصادية ، سياسية ام ثقافية، تنطوي على مبادئ اساسيين : « ارادة الشعب ، والصالح العام » وهي خلاف لبقية المذاهب الاجتماعية والأنظمة الحكومية ، التي منها ما اعتبر الفرد للدولة وحده من حرياته وتصرفاته لسلامة الدولة ، فانها قد اخذت بمبدأ العدل الاجتماعي والتعاون الاجتماعي ، وجعلت الدول الظافرة التي اراقت دماء الملايين من ابناءها للقضاء على السيطرة الديكتاتورية وعلى فكرة التصرف بعقول الشعب وحرياته وجهوده ، لحساب طبقة مستأثرة متحكمة تحت ستار مصلحة الدول تعدل قوانينها ونظمها ، لتمكين السواد الاعظم من الشعب ، ان يقسم ثمرات الظفر و ثروات الدولة لتأمين مستقبل ابناءه وترفيه افراده وتحسين حياته .

ونحن الذين قبلوا النظام الاجتماعي الديمقراطي ، كما تجلّى في دستورنا واسلوب حكمنا ، وفي تشريعنا الصادر عن ممثلينا لهذه الغاية ، يجب ان لا نغفل عن تطورات العصر وتيارات المجتمع ، ولا نهمل حق الشعب وآماله فنسعى الى تحقيقها . والمرب احق الناس واولاهم بفهم الديمقراطية وتطبيق مبادئها ، ويجب ان نربي اولادنا وانفسنا على تأدية ما تفرضه علينا من تضحيات ومسؤوليات ، فنعتمد الى محاربة الامية والجهل بنشر التعليم الصحيح بين جميع الافراد ، والى احترام الرأي وصيانة الحرية والخضوع للنظام ، وتكوين الاحزاب لا المنافسات وخدمة الاشخاص ، ولكن لتنفيذ البرامج التي تعالج قضايا البلاد ، والى حسن انتخاب النواب ، والى العمل التعاوني المشترك لازالة الفوارق الطبقية ، والاقتصاد في الجهد القومي ، و لرفع مستوى الحياة ، والقضاء على اسباب البطالة ، والعوز ، والفقر ، والمرض ، والاخذ بأيدي الافراد والجماعات لتحقيق مقومات المدنية ومقاييسها الصحيحة .

٦ - أهداف التعليم والتربية :

ولما كانت الديمقراطية لا تقوم على أساس الجهل ، بل لا بد لها من وعي

قومي ، ومن تطور اجتماعي في الافكار والاخلاق ، فان أهم ما يبتدأ به هو العلم والتربية . ولماذا ؟ لأن المواهب القومية تحتاج لنمو وتربية ، والاذهان تتطلب تنويراً وارشاداً وفقاً لاستعدادها ، حتى يتبع الأفراد والجماعات اهدافها ومثلها العليا في التنظيم والانشاء للحياة الراقية . وإذا صح أن للرقى مقاييس وللديموقراطية أدلة ، فأعتقد ان اصحها معاهد العلم والتربية ، ونخابر التعليم والتجربة . ولكن ما هو الرقي؟ وأي تعليم يبعث النهوض والتقدم ؟ .

٧ - ادلة الرقي والمدنية :

اجيكم وتسلمون معي ، بأن الرقي ليس في الزينة وجمالها ، ولا في الملابس وناقته ، ولا في المأكل ونفاسته . والمدنية ليست في كثرة البنيان واتساع العمران ، ولا في انتظام الطرق وهندسة الجنائن ، انما في امور اخرى في الانسان هي مصدر الحركة والنمو ، وباعثة التجدد والاتساع ، وسبب التقدم والازدهار . ففي الفرد نستطيع ان نقول « الوراثة ، والاستعداد والفعالية ، والمقاومة ، وقابلية الائتلاف ، والملاءمة مع المحيط ، ومقدار النمو ، ونتاج العمل » . وفي مجموع الامة هي « سيادة الأمة على قوى الطبيعة ومقدار قدرتها على استخدامها واستثمارها للصناعات واحتياجاتها الحياتية ، وسمو اخلاق الشعب وحسن علاقته الاجتماعية ، وادبه الفكري ، ورفاهية المجموع في العيش ورضاءه في الحياة » .

وما لا جدال فيه ، ان السيادة على قوى الطبيعة لا تتم بدون العلم ، واستثمارها لا يكون بدون تطبيق مبادئ العلم وتعاليمه وأساليبه في كل مرافق الدنيا وشؤون الحياة « في الارض والبيت والعمل ، والادارة حتى في الغذاء والكساء والبناء » ، إذ كيف تسخر قوى الطبيعة وافراد الأمة يجهلون قوانينها وخواصها وفوائدها ؟ .

وهل من يجهل الكيمياء ، والنباتات والحيوانات ، وعلوم طبقات الأرض والمعادن ، ووظائف الجسم ، ومنافع الصحة ، وفوائد العقاقير وخواصها ، وما يعترى الجسم من اوباء سببها الجراثيم وما يصيبها من امراض ، وكيف تعالج ، وغيرها من العلوم والفنون يستطيع مقاومة المحيط ومؤثراته ؟ وهل ينمو العقل

البشري وتوسع مداركه ويقوى على الاختراع والاكتشاف ، وهو مهمل مقيد بعيد عن العلم والتربية ؟ وهل تؤسس المعامل وتنشأ الصناعات وتنجح الشركات بدون معرفة علمية ؟ .

وهل يدفع العدوان ويستتب الأمن والنظام ، وتضان حقوق الانسان بدون معدات ووسائل حربية هي نتاج العقل وعمل العلماء ؟ .

واما سمو الاخلاق المنطوية على الصدق ، وحب الخير ، وشرف المبادئ ، ونبيل الافكار ، وتهذيب المعاشرة ، وطيب الطباع ، ورقة الشعور ، وحنونة الخيال ، ولا نهائية التصور فيما وراء الطبيعة ، فزايا وصفات مكتسبة وخلقية ، وهل تتأنى إلا عن العلم والتربية ؟ .

وما دامت هذه الأهداف هي غاية الديموقراطية ، وأساس الرقي ، وما دام التعليم والتربية الأداة الصالحة لها ، وما دام واجبنا في عهدنا الاستقلالي التأسيس والانشاء لوطن حر كامل السيادة ، كافل لحسن العيش والرفاه ، وما دمنا نعتشق مجد الآباء ونطلب استعادة مجدهم واداء رسالتهم ، فيا ترى أي تعليم ينفعنا ، وأي المدارس تحقق لنا تربية أولادنا ؟ وأي منهج من مناهج التربية والثقيف ننبهه ؟ هل نعلم اولادنا ليكونوا لأبويهم وذويهم ؟ أم لطائفتهم ووطنهم وقومهم ؟ وهل نربهم ليكونوا اصحاب ارادة وعزم وتشبث ، أقوياء الجسم اصحاء الذهن ، يعتمدون على انفسهم ، ويتقنون بنجاحهم ، ويعرفون ما في الحياة من متاعب ومصاعب ، أم نزيدهم تبعاً لنا ، مستسلمين لارادتنا ، متكئين على مواردنا ، مرتزقين من الوظائف ، مسيرين بتيارات المحيط وتقاليده المجتمع ، اسرى للاهواء والمطامع ؟ وأي سياسة تعليمية ننبهها ؟ .. أسياسة التعليم الحر النظري ؟ أم التعليم المهني العملي ؟ أم التعليم الزراعي والصناعي ؟ أم التعليم الثانوي والتعليم الجامعي ؟ .

أسئلة هي من صميم الحياة ومن ضرورات اليوم ، ولا بد لنوي الأمر من آباء وحكومة ومجلس ، أن يفكروا فيها ويقروها ، ويهيئوا الجيل لما يجدونه خيراً لهم وله في تطبيقه وانجاحه .

٨ - صلاح التعليم وشروطه :

على اننا لن نتأكد من صلاح التعليم وملاءمة التربية لأهدافنا وحاجتنا ما لم
يقم كيانها على اساس الثقافة القومية ، والتفكير العلمي ، والوحدة الوطنية ،
والتعاون الاجتماعي المدرسي ، والمساواة في الفرص . ولن تقيدنا التربية المدرسية
في جميع درجات المدارس وانواع العلم ، ما لم نعمل لانماء الشخصية وتقوية
الخلق الادبي ، وتنوير الذهن بالحقائق الواقعية ، والمعارف العلمية العملية ،
والانقياد الى المثل العليا في المعاملات والسياسة والاقتصاد ، وما لم يتمكن طالب
العلم بعد الانتهاء من تحصيله أن يفهم غيره بفصاحة ومنطق سليم ، ما يجول في
فكره ، وما لم تكن له مثل عليا استوحاها من رجالات التاريخ والادب والاجتماع
والاخلاق ، ومن السير التي تعلمها وقرأ عنها واقتدى بها ، وما لم يكن له
العزم والارادة والرغبة لتطبيق هذه المثل العليا في أعماله ومعاملاته ، وما لم
يبق نشاطه متأججاً وفعالته متزايدة ، بحيث يتسع علمه وتسمو مداركه ، وما لم
يستطع تكيف نفسه في أي محيط ، وفي أي عمل ، وفي أي وظيفة ، وفقاً لما يريده
ولما يتطلب منه للنجاح والثبات .

٩ - كيف يؤدي رجال التعليم هذه المهمة ؟ :

والذي اعتقده ان رجال التعليم لن يوقفوا في اداء مهمتهم ، ان لم يقفوا على
هذه المبادئ ويعملوا بموجبها ، ويملأوا حاجات الوطن وطبيعة المحيط وتاريخه
وموارد ثروته وموقعه ، ويبحثوا عما فيه من قوى طبيعية قابلة للاستثمار ، وما لم
يفهموا تكوين الامة الاجتماعي واحوالها الروحية والسياسية والادبية ، وما لم
يحيطوا بالنظم القائمة وبالعادات الجارية والتقاليد السارية .

واعتقد انهم لن ينالوا الثمرة المرجوة من علمهم وسعيهم ، ما لم يعرفوا نفسية
الطفل وذهنيته والادوار التكوينية التي يمر بها جسمه ودماعه ، وما يطرأ
عليها من تحولات وعلل ، وما لم يدركوا كيف تنمو قواه البدنية والفكرية
والروحية .

وأعتقد انه من الضرر الفادح تسليم اولادنا ، وهم ثمرة حياتنا وسبب وجودنا الى مربين لا يعرفون الغرائز وتأثيرها في عقل الطفل وباطنه ، وفي تحكمها في الطباع والاعمال الاشعورية والميول والمواطف . ومن الويل ان يتناسوا ما جهزتنا به الطبيعة من وراثة وافعال منعكسة ، وعادات ومحيط وجهد ذهني ، واستعداد لحل قضايانا الحياتية .

١٠ - حاجتنا الحاضرة :

وبما اننا بيننا الغاية من الاستقلال ، وعرفنا معنى الديمقراطية ومبادئها واهدافها ، وشرحنا ضرورة العلم والتربية ، وفصلنا مقاييس الرقي وأدلة التقدم ، وبحثنا عن أهداف التربية والثقافة ، وحاجة الانسان والمجتمع منها ، وذكرنا مطالب الحياة وما اعدته لنا الطبيعة ، وعددنا ادلة النجاح وانواع المدارس ، وما يتحتم على الآباء اختياره ، وأتينا على بحث ما يترتب على المعلمين ورجال التربية معرفته ، فقد بقي علينا أخيراً وكنتيجة لما تقدم ان نذكر حاجتنا الحاضرة من التعليم والمدارس والتوجيه المفيد ، وهي اهدافنا التي نود الوصول اليها في عهدنا الاستقلالي الديمقراطي .

ان حاجتنا كبلاد زراعية تعيش من موارد الارض ، وتقع في ملتقى موصلات الشرق والغرب ، ومطبوعة بطابع التجارة والصناعة ، إذا أخذت بعين الاعتبار وقدرنا ما نحن عليه من الامية وضرورة محاربتها والقضاء عليها ، ونظرنا الى ما مررنا من ادوار الحكم وانواعه ، وما خلفته في نفوسنا ومجتمعنا واخلاقنا من اسواء وآثار ، وما أبقته بيننا من مقوّمات ، وعلمنا ما للمرأة وتعليمها وتربيتها من اهمية في المجتمع ، وما لها من تأثير في حياة العائلة وخصامتها وسعادتها ، وفي تربية النشء الجديد وتهيئة النهضة المنتظرة ، استطعنا ان نوجه تعليمنا وتربيتنا ، كما تفرضه علينا الحاجة وتطورات الحاضر ، ونظامنا الديمقراطي ، وما يقول به العلم حسبها مرّ ذكره .

ونظرة الى ما بلغته المدارس الرسمية في سوريا من حيث العدد والنوع ،

ترينا ان التعليم الاولي والابتدائي والثانوي ، وان ازداد اتساعاً عما كان عليه أيام الحكم العثماني وإيام الانتداب الفرنسي ، فانه من حيث الحاجة الملحة والضرورات المبرمة لا يزال بعيداً عن الغاية .

فالمدارس الابتدائية بلغت ٨٥٥ مدرسة رسمية تحوي ١١٢.٠٣٥ تلميذاً وتلميذة ، والمدارس الثانوية بلغت ٣٠ مدرسة تحوي ١٤.٣٢١ تلميذاً وتلميذة ، والمدارس المهنية بلغت ٦٠ مدرسة تحوي ٩٦٢ تلميذاً ، وتوجد ٩ معاهد أهلية تحوي ١٧٢٢ تلميذاً وتلميذة . فهل يكفي هذا للقضاء على الامية ؟ .

فلو فرضنا ان ربع السكان يحتاجون الى العلم ، ويجب ان يكونوا في المدارس ، كما دللت على ذلك احصائيات الدول الراقية ، فان سوريا يجب ان يكون في مدارسها ٧٥٠.٠٠٠ طالب وطالبة باعتبار نفوسها ٣ ملايين . وإذا أحصينا النفوس بصورة فنية وقدرنا أن نفوسها تبلغ اربعة ملايين ، لكان عدد الذين يجب ان يكونوا في المدارس مليون شخص ، فكيف يقتضي لهؤلاء من المدارس ومن المعلمين والزمن .

واذا نظرنا الى الكليات الثانوية ، والى عدد المتخرجين منها ، هالنا ان لا نجد لهم مخرجاً يؤمن مستقبلهم . ألا يبقون حيارى مزودين بنظريات العلم ، ولكن غير مزودين بتطبيقات العلم ، تنقصهم ادلة النجاح ، وينقصهم ما يفيد البلاد ، وهي بلاد زراعية كما قلنا ٧٥ ٪ من سكانها يتعاطون الزراعة ، والبلاد بأجمعها تعيش من نتاج الارض ومحاصيل الزراعة ؟ .

أين التعليم الزراعي والتوجيه الزراعي في هذه المعاهد الثانوية ؟ واين المدارس الصناعية الزراعية ؟ واين كليات الهندسة الزراعية ؟ واين الخابر والحقول الزراعية ؟ .

ان هذا غير موجود ، والموجود هزيل وقليل وناقص ، فكيف إذا تزدهر اقتصادياتنا ؟ وكيف يمكننا استخدام الآلات الحديثة ، والطرق الحديثة في استثمار ثروتنا الطبيعية ؟ وكيف يزيد انتاجنا وتزداد ثروتنا وصادراتنا ، والمزارعون على ما هم عليه منذ القرون الوسطى ، لم يتقدموا الا القليل في زراعتهم وحياتهم ؟ .

هذه بعثتنا العلمية تذهب الى الغرب ، فهل خصص اكثرها للعلوم الزراعية والدراسات الزراعية ؟ .

كان الواجب ان نرسل المئات من شبابنا لهذه الغاية ، حتى اذا عادوا افادوا البلاد في التعليم وفي الارشاد وفي التطبيق .

اننا في حاجة الى مدارس علمية عملية زراعية ، الى مدارس وكليات لكل منها طابعها الخاص . . فبعضها للأثمار ، وبعضها للحبوب ، وبعضها للمواشي والالبان ، وبعضها للعروج والغابات والمراعي ، وبعضها للاغنام والدواجن ، وبعضها للزهور والطور والنبالة ، وبعضها للكيمياء الزراعية والسمادات المختلفة ، وبعضها للقطن ، وبعضها للصناعات الزراعية التي هي عديدة ومفيدة اقتصادياً .

ونحتاج الى مدارس مهنية تتناول شتى الصناعات والمهن اليدوية وهي لا تعد ، تؤسس في المدن والمحافظات والأقضية ، لترفع مستوى الحياة ، وتسهل قضاء الحاجات ، وتخدم الحكومة والجيش وتفيد الناس ، وتقسم الى زمر حسب علاقاتها كالمهن الميكانيكية التي تتناول مهنة المحركات والسواقة وتركيب المطاحن ودواليب الهواء وتصليح السيارات والغاريف ، وكهين الكهرباء التي تتناول التنويرات والتديدات الكهربائية والبرق الاسلكي والراديوات وغيرها ، وكهين الخطوط الحديدية ، وصناعات النسيج وآلاتها ، والبثور وأعماله ، والخزف والآجر والخوابي وصناعتها ، والحداة ، والنحاسية ، والزخرفة ، والنجارة ، والخياطة ، والحياكة ، والبناء ، وما شابه ذلك . ولتحسين هذه المهن يجب تعليم طلابها النظريات العلمية والتطبيقات العملية ، حتى تتقدم ويرتقي المستوى المهني والصناعي ، ويميل اليها ذوو الحاجات .

والمدارس المهنية تعم اليوم البلاد الاميركية والبلاد الغربية بصورة لم يسبق لها مثيل ، لأن المدارس العالية والجامعات لا يستطيع كل الطلاب ان يصلوا اليها او يتموها لاسباب عديدة ، فلكي لا يبق منهم أحد عالة على المجتمع يعمل بوجي التقليد لا بوجي العلم ، أحدثت هذه المدارس وانتشرت وثبتت فوائدها .

اما ما يخص المرأة وحاجاتها ، فيختلف عن حاجات الرجال في امور تتعلق بالعائلة
والبيت والاولاد والمجتمع ، وهذه مهن خاصة تعلمها المدارس لتجعل المرأة عضواً
صالحاً يتبوأ مكانته ويؤدي وظيفته .

وليس في بلادنا للمرأة مدارس خاصة سوى دور المعلمات ، ومدارس
الصناعة والجامعات ، وهي لا تفي بكل ما يلزمها ويلزم المجتمع ، فيجب الاهتمام
بزيادة دور المعلمات واحداث المدارس المهنية ، لأن زيادة عدد الطالبات سنة بعد
سنة ، جدير بالتقدير والاعتبار .

والمدارس على مختلف انواعها ودرجاتها ، لا تكفي بعلمها ومحتوياتها المهنية
والصناعية ، لاعداد الانسان وجعله صالحاً لمكافئة الحياة ، وصيانة عقيدته
وضميره واخلاقه ، بل يجب ان يكون نموذجاً صالحاً للعائلة والحكومة والعمل
والشركة والقرية ، حيث يتربى الاولاد على النظام بدون مراقبة ولا عقاب ، بل
يتبعونه بوجود النظام والقيادة الصالحة ، فيطيعون القوانين لأن من منفعتهم
طاعتها ، ويقومون بالواجب ، لا خوفاً ولا رهبة ، بل لانه واجب وفي ادائه فضيلة ،
ويعملون ابدانهم لان التمرين يكسبهم تنوراً ويحفظ أجسامهم من العلل والآفات ،
ويعبدون ربهم ويؤدون ما فرضه عليهم دينهم ، لان العبادة غذاء روحهم واداء
الفرائض وسيلة لطهارة قلوبهم ، ويحترمون الحرية لانها حقهم ، والامساءة لها
اساءة لانفسهم وغيرهم ، ويفتكرون فيما يعملون أو يريدون ان يعملوا ، لأن
العمل بدون فكر وروية مضايح للجهد والعمر ، ويشعرون بالثقة ، لان الشعور
بالثقة يقوي ارادتهم ، ويكسبهم العزة ، ويبعد عنهم مركب النقص . ولتكون
المدرسة بمثابة الاثم يجب معرفة رغائبهم وفهم مسائلهم ومعالجة مشاكلهم بروح
العطف والتقدير ، ويجب ان تكون صلة المعلمين أو المعلمات بالطلاب صلة
الصديق بصديقه والوالدين بأولادهم ، ولجعل جو المدرسة مريحاً للروح
ومهدباً للعواطف ، يجب انشاء الاندية المختلفة وجعلها نظيفة مرتبة ومنسقة .
ومما هو ضروري تأسيس الجمعيات العلمية والادبية والتعاونية لتوجيه حياتهم في
مختلف الشؤون حتى يتعاونوا التعاون المفيد المشترك في العمل الخيري ، ويجب ان
توجد في المدارس الالعب الملهة والتسليلات البريئة تخفيفاً لمتاب الفكر ، وان

يكون نظام الادارة والاشراف يشابه ادارة الحكم القائم على المبادئ الديمقراطية فيقوم بجانب جهاز الادارة التعليمية هيئات تمثيلية للطلاب يمثلون مصالحهم ومصالح المدرسة وينتخبون حسب الاصول ، ويشرفون على منظمات المدرسة والجمعيات ، كما يشرف نواب الامة على جهاز الادارة ، ويقوم الطلاب بأعمالهم رغبة منهم وبسائق الخدمة العامة .

ومن المفيد تعويدهم كيفية الانتخاب والبحث والمناقشة وتقديم الاقتراحات واتخاذ القرارات في المواضيع والمسائل التي سيواجهونها يوماً في الحياة . ومن الواجب اهتمام الطلاب بنظافة المدرسة وموجوداتها وتنسيق المفروشات والاعتناء بها لتتلاءم مع الذوق وتنبه فيهم حاسة الرعاية والاحتفاظ .

ولسكي لا تنقطع صلة المدرسة ، وهي أهمهم مع المتخرجين ، ولمعرفة ما يؤول أمر كل منهم بعد خروجهم ، يجب اتخاذ الوسائل لادامة العلاقة بينهم والاتصال بهم والاهتمام بمصالحهم ، فتكون المدرسة خير مرشد لهم ، ويكون المعلمون مرجعاً لمعالجة قضاياهم ومشاكلهم يزودونهم بعلمهم وتجاربهم وخبرتهم ، ويجب ان يوضع لهذا الغرض سجل خاص يدون فيه كل ما يجري بشأن كل طالب .

واتباعاً لروح التربية الحديثة يجب ان يكون للرياضة ناد وجمعية ، والمطالعة ناد ومكتبة وجمعية ، والمباحث العلمية ناد وجمعية . وهكذا ، لكل عمل يفيد الطلاب ناد وجمعية وقانون حتى يعيش الطلاب ويتغذوا ويتربوا في محيط علمي تعاوني قائم على النظام والحرية واحترام الرأي والقانون والامثال له دون رهبة ، ويجب ان تبرز النزعات البسيكولوجية والعلمية مع النزعات الاجتماعية لجعل التربية العمل الانهائي المقصود منه تكييف الفرد البشري جسماً وروحاً وعقلاً مع محيطه العلمي والعاطفي والاداري ، والا كان من الضرر جعل المدارس قنوطات للعقل ، ومكابس للعواطف ، وزرابيب لقتل النفوس ، وبؤراً لافساد الغراس ، وسجوناً لقتل الحرية . ولا أدل على هذا ، من قول اللورد بيفريدج : « ان قيام الديمقراطية دون تعليم الشعب وثقيفه ، لا بد أن يؤدي الى ان تصبح

ستاراً خداعاً لطفيان جبار لا خلاص منه ، واذا كانت الديمقراطية هي الغاية التي تهدف اليها الشعوب صوناً لحريتها وكرامتها ، يجب ان تعمل جاهدة مخلصه لنشر التعليم ، وان تذيب الثقافة بين افرادها وطبقاتها جميعاً ، لتصبح ديمقراطية صحيحة صادقة ، لا زائفة خادعة .

ويؤيد القول ، بيان امبراطور اليابان لشعبه بعدما استسلمت بلاده للحلفاء ، اذ قال بصراحة ما بعدها صراحة : « لقد غلبنا لاننا لم نتعلم » ومعنى اننا لم نتعلم ، ان تعليمهم وتربيتهم لم تهيناهم لفهم الحياة ، واعداد العدوة واداء الواجب . أليس قول الخليفة عمر رضي الله عنه : « لا تربوا اولادكم لزممنكم فانهم خلقوا لزممن غير زممنكم » ، يشير الى الحقيقة ويحذرنا من الوقوع بما وقعت فيه اليابان .

قال المربي العظيم « جاكوب فام » في بحثه عن التعليم : « ان التعليم في كل زمان ومكان ، عملية يقوم بها جيل بعد جيل ، قصد اعداد الجيل الآتي للحياة والاضطلاع بمسؤولية الحياة ، ولا يخرج التلميم في كل حال عن كونه تجربة قد تصيب وقد تخطيء ، وقد تنفع ولا تنفع ، شأنه في هذا ، شأن جميع التجارب التي يقوم بها الناس . »

الخلاصة :

والخلاصة ، ان محاضرتي فكرة توجيهية ، لعلها تفيد المسؤولين عن مقدرات الشعب ، وتفتح مجال البحث والتنقيب والنقد لمن يريدون الوصول الى أحسن الطرق وأصح الوسائل ، ويختارون الاجيال تلميهاً صحيحاً عن دراسة وقناعة ، لا عن خضوع لأمر او اتباع لتسلسل ، وهذا ما نبتغيه ونرجوه ، وهذا ما يشكر عليه المسؤولون ان فعلوه .

التطور الاجتماعي في سوريا

ان موضوع هذه المحاضرة ، يجب ان يقسم الى الاقسام التالية :

- ١ — ما هو التطور ؟ وما هو التطور الاجتماعي ؟
- ٢ — هل يتطور الاجتماع كما يتطور الحي ؟
- ٣ — ما هي عوامل التطور الاجتماعي ؟
- ٤ — ما هي المقاييس الدالة على التطور الاجتماعي في نطاق التقدم والرقى ؟
- ٥ — من اي عهد نبدأ البحث عن التطور الاجتماعي ؟
- ٦ — ما هي النواحي الاجتماعية التي يمكن البحث فيها للاستدلال على التطور المطلوب ؟
- ٧ — ماذا يستنتج من بحثنا عن التطور الاجتماعي ؟



١ — كلمة التطور :

ان كلمة « التطور » اصطلاح لفظي أضيف الى معجم اللغة العلمية الطبيعية وعلومها كعلوم النبات والحيوان ، والارض وطبقات الارض ، والحياة وغيرها من العلوم . وأول من استعملها في كتبه وتأليفه العالم الطبيعي « دارون » . وفي اللغة العربية يعد مفهومها العلمي حديث العهد ، وأول من استعملها وحدد معناها المرحوم فتحي زغلول في كتابه « روح الاجتماع » و« سر تطور الأمم » اللذين نقلهما عن الفرنسية لمؤلفهما العلامة « غوستاف لوبون » وترجمها عن اللفظة اللاتينية والانكليزية Evolution ^(١) ثم استعملها الكتاب والادباء والعلماء في بحوثهم عن تطور الاخلاق ، وتطور الافكار ، وتطور العادات ، وتطور النفس ، وما شابه ذلك من التطورات اللاحقة بالانسان والحيوان والجماد .

(١) نقلا عن كتاب النشوء والارتقاء « لشبلي شيل »

أما الكلمة من حيث هي ، فمنحوتة من فعل « تطور » المأخوذ من لفظ « طور » ومعناه « الدور والحالة والهيئة والستارة » ، ثم انتقل اللفظ الى علم الحياة ، وعلم الطبيعة ، بمعنى « التحول والتغير » .

وجاء في « تاج العروس » للزبيدي « الجزء الثالث ص ٣٦١ » قوله : « ومما يستدرك عليه الناس « اطواراً » أي اخياف على حالات شتى . وكلمة اخياف معناها مختلفون . يقال « اخوة اخياف » أي امهم واحدة وآبأؤهم شتى . وأما قوله تعالى « خلقكم اطواراً » في سورة نوح آية ١٤ فمعناه « ضرباً واحوالاً » .

وقال ثعلب : أي خلقاً مختلفة ، كل واحد على حدة . وقال الفراء « نطفة ثم علقه ثم مضغة ثم عظماً » . وقال غيره ، إنما اراد اختلاف المناظر والاخلاق ، وتعدى طوره ، أي حاله الذي يخصه . والطور الحد بين الشئين . وطور بمعنى فعل كذا وكذا .

وجاء في تفسير البيضاوي ، نقلاً عن إمام اللغة الزمخشري « وخلقكم اطواراً » أي تارات ، إذ خلقهم أولاً من عناصر ، ثم مركبات تغذي الانسان ، ثم اخلاطاً ، ثم نطفاً (١) ، ثم علقاً ، ثم مضغاً . ثم عظماً ، ثم لحوماً ، ثم انشأهم خلقاً آخر . وبهذا يدل على انه يمكن ان يعيدهم تارة اخرى .

فمفهوم ما اورده الزمخشري ، يطابق مفهوم ما بيّنه « الزبيدي » وهو عين مفهوم ما اراده « دارون » وما اراده « فتحي زغلول » من كلمة تطور ، أي تحول من حال الى حال ، وتغيّر من شكل الى شكل ، بدليل ان الانسان كان نطفة ، ثم غذا علقه ، ثم صار مضغة ، ثم اصبح عظماً ، ثم تكامل خلقه فصار انساناً .

معنى كلمة الاجتماع :

وكلمة « الاجتماع » (٢) لا يحتاج معناها اللغوي الى تفسير وايضاح . وأما

(١) النطفة : كضلة القليل من الماء . العلقه : هي مني الرجل . المضغة : هي قطعة من اللحم .

(٢) عن كتاب علم الاجتماع (لنيقولا حداد) .

معناها العلمي فيفيد « تعاون الافراد تعاوناً يؤدي الى ارتباطهم بنظام لمعاشهم ، واعمالهم في تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه » .

ويعد العلماء ، اجتماع البشر ضرورياً لأفرادهم والا لا يكتمل وجودهم ، ولا تتم حياتهم ، لأن الفرد مضطر الى دفع الشرور الكثيرة عنه ، مثل الجوع والعطش والتعب ، والالام والخوف ، وعدوان بعضه على بعض ، وعدوان الحيوان الآخر عليه ينازعه الحياة ، ومضطر الى مقاومة قواسر اخرى طبيعية كثيرة ، ومحتاج كذلك الى مواد وآلات يتي بها هذه الشرور كالكوت والكساء والمساكن والاسلحة وغيرها ، مما يقتضي اعمالاً كثيرة ، فان كان منفرداً فهو لا يستطيع القيام بها جميعاً ، لأن كل عمل منها يستغرق حياة كاملة ، وقد لا تفي بجزء منه ، فهو لا بد له من الاجتماع وتقاسم الاعمال حتى يتم له التعاون ، بحيث يكون منه الزارع والصانع والجندي والوازع والمخترع والمهندس ، لينتظم وجوده ويحسن بقاؤه .

٢ - اسباب تمييز المجتمع بالجسم الحي :

ولهذا تشبه المجتمع بجسم حي كسائر الاجسام الحية ، مركب من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة هي سلامة الفرد وسلامة المجموع . ووصفه بعضهم وصفاً طبيعياً بقوله : انه نظير الجسم باعضائه ووظائفه .

وتشبيه المجتمع الانساني بالجسم الحي تشبيه قديم أشار اليه ابن خلدون في مقدمته ، وأشار اليه الشيخ الرئيس ابن سينا في كتابه القانون ، وقال به ارسطو وافلاطون ، وتبعهم فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر . وبظهور مذهب دارون ، وتأيد العلماء له في نظريته « النشوء والارتقاء » اصبح التشبيه اقرب الى الحقيقة ، وسهل علينا فهم العوامل التي تحرك فاعلية المجتمع والنوازع التي تهدم تلك الفعالية .

٣ - ما هي عوامل التطور الاجتماعي :

ان الوراثة والتغذية والانتخاب الطبيعي والمحيط وتنازع البقاء ، والعقل

الاجتماعي، هي التي تعمل في تطور المجتمع وتميز هذه الظاهرة الانسانية عن الظاهرة الحيوانية التي تخلو من عامل العقل الاجتماعي. ولما كان الفرد غير مجهز بالوسائل الدفاعية التي يملكها الحيوان، فان العقل البشري الذي يملكه الفرد يمثل العقول المتفاعلة في اصطناع سلسلة الانظمة الاجتماعية، ويحدد الغايات والاهداف، ويوجد الشعور، ويشرك القوى الفكرية بالتطور والارتقاء.

والنسبة بين العقل الاجتماعي، والعقل الفردي، كنسبة الجسم الحيواني والخلايا التي يتألف منها. فانخلية كائن حي قائم بنفسه، والجسم الحيواني ليس حياة واحدة، بل مجموعة حيوات متوافقة في عمل مشترك، هو نمو ذلك الجسم وتوالده، حتى ان خلايا كل مركز من مراكز الدماغ، وهي تعد بالملايين تصنع الفكر مشتركة. ومع ان البشر بفعل الوراثة والبيئات المختلفة وفعل الطوارئ المتعددة مختلفون متباينون، ليس بينهم اثنان يتفقا في فكر، أو عاطفة، أو يقين، أو عمل، اتفاقاً بديهياً، أو ناموسياً، فهم بحكم الطبع متباينون مختلفون متنافرون، ولكن للاجتماع الذي قضت به النواميس الطبيعية، والناواميس الحياتية، والناواميس الجغرافية، عوامل قوية لا ترد، توجب على هؤلاء الافراد ان يعدلوا افكارهم وعواطفهم وارادتهم واعمالهم، بحيث تتوافق وتشاكل وتتجدد، ومن اتحادها يتكوّن الجسم الاجتماعي، والعقل الاجتماعي.

واذا اشترك افراد المجتمع بما ذكرناه، فعلوا ذلك لا عن تفكير خاص، ولكن بفعل العقل الباطن أي: «بالإحياء، والتقليد، والاستهواء، والتشبه، والاقتراس، مما هو خليق بمن ليسوا محكومين للعقل المنطقي، والرشد العقلي.

٤ - مقاييس التطور الاجتماعي :

وتختلف مقاييس التطور، بالنسبة لما ينتج عنه سلباً أو إيجاباً، فمقياس التطور الاجتماعي الإيجابي هو المدنية، ومقياس التطور الاجتماعي السلبي هو التهمر والانحطاط. أما المدنية فلها ثلاثة مقاييس (١) :

(١) نفلا عن كتاب مبادئ السياسة العالمية «للاستاذ هو كينغ».

الأول : مقدرة العقل على تسخير قوى الطبيعة ومواردها لخير الانسان ومنفعته ، في كافة نواحي الحياة ، وهي لا تتم إلا بواسطة العلم والعلماء ، والتنظيم وتقسيم العمل ، والادارات ، والشركات ، والمعاهد ، والمنشآت .

الثاني : رفاية الشعب وسلامته ، وهي تضمن سلامة الجسم ، والنسل ، والروح ، وتنظيم العلاقات ، وحفظ الارواح ، والاملاك ، والخريات ، وحفظ الحقوق ، وضمان المستقبل ، والتساوي بين الافراد فيما لهم وعليهم .

الثالث : الاخلاق العامة ، وهي العمود الفقري من المجتمع ، ترافق العقل الاجتماعي ، وتعمل لتطوره .

على ان المجتمع الحي ، الذي يتحرك وينمو ويعمل بمامل العقلية ، وعامل الرفاهية ، وعامل الاخلاقية ، لا يتطور بحروب تنازعية ، تذهب بجهد الاجتماعي ، وتقصد انتظامه وطمأنينته ، ولكنه يتطور بتطور الافكار والتربية فيحصل على ترابط الناس برباط الثقة والتعاون ، والامل ، والنظام ، والصدق ، واداء الواجب ، والطاعة ، واحترام الوازع الديني ، والاجتماعي ، والقانوني ، فلا تنساق افراده وراء الغرائز والمطامع ، ولا ينسى احد منهم اجتماعيته ، وان عليه حق العمل ، وحب العمل ، ومسؤولية العمل ، وان له حق اجر العمل ، ورفاه العيش ، بكل ما فرضه على نفسه ، ويفرض المجتمع عليه ، لخير وخير المجتمع .

واذا قيل بان الاخلاق تتغير وتبديل بتغير الزمن وتبديل الاحوال ، أجبنا ان الاخلاق التي تواضع الناس على فائدتها ومارسوها ، منذ عرف المجتمع ، وعرفت المدنية ، لم تتبديل ولم تتغير ، فلا يزال مفعول الصدق والامانة والثقة والتعاون ، وحب الخير ، والعمل ، والاحسان ، هو هو ، مانعاً للفساد ، وحافظاً لنظام المجتمع من الانحلال .

وهل من ينكر ان سلامة التفكير ، ورقة الطبع ، وحسن المعاشرة ، وكرم الخلق ، وأدب المخاطبة ، وجمال الفن ، وعمق الشعور ، وسمو الخيال ،

بما يقوِّي تماسك المجتمع ، ويجلب رضى النفس ، ويوجد الرفاه ؟ وهل من عاقل يدَّعي ان المنطق ليس عاماً بين الاعمى ، أو ان تقسيم العمل ليس منطقياً ولا مفيداً ؟ وهل من انسان سليم الخلق والنفس ، يؤمن بان الرشوة ليست سرطانياً في جسم الامة ؟ وهل يستطيع عالم ان يأتي بدليل من تاريخ الاعمى يستشهد به على ان انتشار الفحشاء والمنكر ، وفوضى الحكم والنظام ، وظلم الرعية ، وسوء الادارة ، وفقدان الوازع الدينى والقانوني لم يكن من مهلكات المجتمع ، ولم يقوض بنيان الدولة ؟ .

لعل البعض يتبجح ويدَّعي تعليقات ضمنها المذاهب الشاذة ، والمذاهب الاباحية ، والمذاهب الملحدة ، والمذاهب الهدامة ، من وجودية ، أو استبدادية ، أو شيوعية ، أو فوضوية ، سميت باسماء متنكرة فيرد علينا بها ، ولكن محك العلم ومقاييس الواقع والتجارب تنفي مدَّعاتهم وحججهم ، لانها ليست بما يتفق وسنن الاجتماع ، وقواعد المدنية ، التي لا ينهض بها الا العقل السليم ، والاخلاق الفاضلة ، والمقاييس الاجتماعية .

٥ - صبراً بحثنا عن التطور الاجتماعى :

ولما كان التطور سلسلة مترابطة الحلقات ، فلسهولة التحديد ، سنبدأ بما كان عليه مجتمعنا قبل نصف قرن ، وهي السنون التي عشنا فيها ، ولسنا تحولها ، وعرفنا الادوار التي مرت عليها . فما هي أهم المظاهر الدالة على تطور مجتمعنا منذ ذلك الحين ؟

٦ - النواحي الاجتماعية التي يجب معرفتها التحول فيها لتقرير نسبة التطور :

ان نواحي الحياة ليست واحدة ، فاذا اخذنا بنظرية الشمول والتوسع ، للبحث عن فعالية الحياة الاجتماعية ونتائجها ، والمقل الاجتماعى وتأثيراته ، وجب علينا البحث في آثار التطور في الازياء وما يتبعها ، وفي المآكل وما يلحق بها ، وفي المسكن وما يحويه ، وفي البناء وما يتعلق به ، وفي الزيارات

والولائم والمواسم والاعراس والزينات والمهرجانات والحفلات والضيافات والملاهي والتسلية ، لانها من مستلزمات العيش ، ومن عناصر حياة المجتمع .

تنظيمية المجتمع :

ويجب علينا ان ندرس ونتناول في البحث أثر التطور في أدب المعاشرة ، وأدب الحديث والمخاطبة ، وفي لغة الكلام والتفاهم ، وفي البيع والشراء ، والتأليف والكتابة والمخاطبة ، وفي أدب الرواية والقصص والتمثيل ، وفي الجمعيات والسهرة لانها تمثل تنظيمية المجتمع ووسائله الاجتماعية ، ويتحتم علينا معرفة تطور الصناعة والاجور ، والعمال وارباب العمل ، وتطور النقابات والمهن ، والحرف ، وتطور المؤسسات الصناعية والتجارية والزراعية والتعاونية ، ثم الشركات والادارات والمعامل ، والنقلات والضمانات ، وتطور المكوس والضرائب والثروة ، واسعار الحاجات ، ونفقات العيش ، لانها تمثل ناحية العمل والانتاج في المجتمع .

ثم يجب علينا الوقوف على اساليب الحكم والحكومة ، واعمال موظفيها ودوايرها ، وعلى اساليب الادارة ، وتقسيم قوى الدولة ، ومدى صلاحها وتعاونها ، ويجب البحث في القوانين والانظمة والدستور واصل الانتخاب والتمثيل والتشريع ، وفي واجبات الحكومة ومدى نفاذها ، وفي سياسة الدولة وما لها وما عليها ، لانها من بنائية المجتمع وضرورات المجتمع .

ومن الواجب البحث في معرفة تطور العلم والعلماء ، ونسبة التعليم ، ومقدار انتاج علمائنا وعددهم واتجاهاتهم ، وما هي عليه مدارسنا ومعلموها وبرامجها ، وما هو توجيهها العلمي والقومي . ثم يجب البحث في الرأي العام والدعاية ، والصحف والصحافة ، والمنتديات والجمعيات والاحزاب ، وحرية الفكر والعمل والقول ، وفي المؤسسات العلمية ، والجمعيات التهديبية ، وفي دور التهذيب والارشاد ، ومن يتولاها ، وكيف تؤدي رسالتها ، لانها من عناصر العقل الاجتماعي ونشاطه ، وعليها يتوقف التطور الفكري والاجتماعي .

موجبات الانحطاط الاجتماعي :

ويجب علينا ان نبحث في الامراض الجسدية والعقلية والاجتماعية كالبلغاء والميسر ، والاجهاض ، والجرائم ، والولادة والوفيات ، وفي الخمر والمخدرات ، والامراض التناسلية ، لانها من موجبات تهقر المجتمع وانحطاطه .

تطور النمو الاجتماعي :

ويجب علينا البحث في العائلة والروابط العائلية ، والمرأة ومقامها الاجتماعي ، وفي البيت والمعيشة ، والطلاق والزواج ، والسكن والاطفال ، وفي جهدنا الاجتماعي لسلامة هذه الوحدة الاجتماعية ، وفي طبقات المجتمع وصنوف الناس ، وفي جهدنا العقلي والاجتماعي ، وتزايد السكان ، وتزايد الاعمال العامة ، وتزايد الثروة ، لان ذلك من مستلزمات النمو الاجتماعي .

ويجب البحث في فعالية المجتمع التي تتم عنها مخترعاتنا ومكتشفاتنا ومنشآتنا العمرانية والهندسية وغيرها ، لانها من اسباب تنظيم حياة المجتمع .

تطور المذاهب الفكرية :

ومما يجب ان نبينه ، المذاهب الفكرية والفلسفية والواقعية والموضوعية والعقلية والباطنية والوجودية ، وغيرها من المذاهب التي لها تأثير في توجيه العقل الاجتماعي وفعاليته .

العناصر الهدامة :

واخيراً يجب ان ننظر في العناصر الهدامة لحياة المجتمع والمفاسد التي تلازمه ، والحركات التي تؤخر نموه وتقدمه ، وتعين موقف مجتمعاتنا منها ، وما هي وسائلنا لمحاربتها واستئصال جذورها ، لان بقاءها مهلك لحياة المجتمع ، والمجتمع ان يصلح للبقاء ، إلا اذا تغلبت عناصر البناء على عناصر الهدم ، ورجحت كفة التركيب على كفة التحليل .

اجل علينا ان نبحث فيما تقدم ، إذ بدون معرفته لا يمكن الحكم على
تطورنا التقدمي ، والعاقل من عرف نفسه .

ولكن هل استطيع انا ، أو تستطيع انت ، أو يستطيع غيرنا كشف
هذه العناصر ، وإفاء الموضوع حقه في ساعة محدودة ، ومحاضرة موقوتة ؟
لا اظن ذلك ممكناً .

لذلك سوف اسلك طريق الاختصار والاجمال بقدر المستطاع ، وابحث
في اربعة مظاهر دون غيرها .

اولاً — المظاهر الدالة على تطور عقلية المجتمع .

ثانياً — المظاهر الدالة على تطور بنائية المجتمع .

ثالثاً — المظاهر الدالة على تطور نفسية المجتمع .

رابعاً — المظاهر الدالة على تطور فعالية المجتمع .

وعقيدتي ان هذه المظاهر الاربعة من أهم الاركان التي يستدل بها على
المقصود معرفته من تطور المجتمع السوري .

المظاهر الدالة على تطور عقلية المجتمع السوري

تدلنا المظاهر الآتية على تطور عقلية المجتمع السوري :

اولاً : وجود المدارس . والمدارس معمل تهيئة العقول والاخلاق وتربيتها
تربية الجسم والموهب . فتموَّ عدها وازدياد طلابها ، وارتفاع مقاييسها ،
وصحة مناهجها ، وحسن تعليمها ، له الاثر البالغ في تطور الجيل الناشئ .

ثانياً : انتشار التعليم بين البنين والبنات في جميع درجات التعليم وانواعه .
ومن الحق ان انتشار التعليم بين البنات عامل في اسراع التطور والنهضة التي
لا تقوم بتطور الرجل وحده ، بل بتطور الرجل والمرأة معاً .

ثالثاً : إلزامية التعليم من سن الخامسة الى سن الخامسة عشرة لجميع ابناء
الوطن .

رابعاً : وجود الكليات العلمية العالية ، من طب ، وقبالة ، وصيدلة ،
وتمريض ، وحقوق ، وآداب ، وعلوم ، وهندسة زراعية ، ودور المعلمين
والمعلمات ، وفتح ابوابها لكل سوري أتمّ تحصيله الثانوي ، وحاز قصب السبق
والعمل على استكمال بقية الفروع العلمية للجامعة السورية .

خامساً : ارتفاع مقاييس العلم والتحصيل في جميع اقسام الجامعة والمدارس
الثانوية .

سادساً : تأسيس المدارس الريفية وتعميم العلم بين البدو والعشائر ، حتى
لا يحرموا نعمة العلم ، وحتى يتبعوا سير الرقي .

سابعاً : إنشاء المياتم والمعاهد الصناعية والتجارية والزراعية .

ثامناً : نفوذ العقيدة في قلوب الناس بأن طريق الحياة ، واكتساب الرزق
ونيل التفوق ، وكفالة المستقبل لن ينالها طالبها إلا عن طريق العلم والتحصيل ،
ولا يكفي أبناء العصر الحاضر ان يتعلموا القراءة والكتابة والحساب وامور
الدين ، بل هم في حاجة الى نصيب وافر من العلوم في جميع درجات العلم
والتخصص في الكليات والجامعات ، ومعاهد الغرب العالية . ومن لا يتزوّد
لدنياه فلا نصيب له في آخرته ، لان الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا ينالها من
لا يجتهد لتحصيلها .

تاسعاً : ذهاب البعثات العلمية من كلا الجنسين الى الجامعات الغربية
وغيرها لا كمال التحصيل والاختصاص .

عاشرأ : التخصص في شتى فروع المعرفة في أعلى مراتب العلم كالطب
والهندسة ، والكيمياء ، والكهرباء ، والري ، والتمدين ، والاقتصاد ،
والحقوق ، والسياسة ، والميكانيك ، وطبقات الارض ، وغيرها من العلوم
التي تمكن المتخرجين السوريين من خدمة بلادهم وتعزيز رقيها .

ولو شئنا تعداد الجداول (١) للكليات ، والمعاهد ، ودور المعلمين ، وبيان من تخرج منها ، لطال الشرح ، فنكتفي بما اوردناه من العوامل ، لنستدل منها على تطور عقليتنا ، وان انتشار العلم والمدارس ، قد قضى على الفكرة المستحوذة على عقول الآباء في انحاء سوريا ، بان العلم لا يفيد ، وان ما درج الاهلون عليه هم وآباؤهم من الأمية والقناعة والبساطة تكفيهم مؤونة الحياة ومجاهة الزمن .

واذا علمنا بان التعليم الحديث لم يوجد في الثمانين سنة التي خلت ، وعلمنا ان مقوماتنا الفكرية والقومية والروحية كاد الجهل والاستبعاد يقضي عليها ، أقول اذا علمنا ما تقدم وقارناه بما تطوّرنا اليه ، منذ تحررت البلاد السورية ، لقدرنا نسبة التطور ، وقدرنا بُعد الشوط الذي قطعناه في سبيل اليقظة والنهوض .

(١) جاء في الاحصاءات الرسمية ، ان عدد المدارس الاهلية والحكومية في سوريا بلغ في عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ كما يلي : ١٤٧٤ للمدارس الابتدائية و ١٠٨ للمدارس الثانوية و ٦ للمهنية و ٤ لدور المعلمين والمعلمات . وان عدد الطلاب في المدارس الابتدائية بلغ ١٤٧٠١٧ للبنين و ٥٨٦٦٥ للبنات ، وفي المدارس الثانوية بلغ ١٧٩٥٢ للبنين و ٥٩٧١ للبنات ، وفي المدارس المهنية بلغ ١١٢٨ للبنين و ١٩٤ للبنات ، وفي دور المعلمين بلغ ٢٢١ معلماً و ٢١١ معلمة .

أما الاساتذة فبلغ عددهم ٣٥٩٩ معلماً في المدارس الابتدائية الرسمية و ١٦٩١ معلماً في المدارس الابتدائية الأهلية ، و ٤٦١ معلماً في المدارس الابتدائية الاجنبية ، و ١٠٤٠ استاذاً للمدارس الحكومية الثانوية ، و ٧٦٣ استاذاً في المدارس الاهلية الثانوية ، و ٤٣٨ استاذاً في المدارس الثانوية الاجنبية .

وتقول الاحصاءات المذكورة ان عدد الذين نالوا شهادة الكفاءة منذ عام ١٩٤٣ الى عام ١٩٤٩ بلغوا ٨٣٠٢ منها ٦٤٧٩ للبنين و ١٨٢٣ للبنات . وان عدد الذين نالوا شهادة البكالوريا بلغوا سبعة اضعاف ما كانوا عليه في عام ١٩٤٣ ، وانهم في عام ١٩٤٩ بلغوا ٤٠٣١ منها ٣٣٢١ للبنين و ٧٢٠ للبنات .

وقد تأسس التعليم الحديث في أيام فيصل عام ١٩١٨ . وقد دعا لتأسيس المدارس ونشر العلم ، ونادى بان الاستقلال لا يؤسس إلا على العلم . وفي عهده عام ١٩١٩ تأسس المجمع العلمي، واتقلت لغة الدواوين والقضاء والتدريس والانشاء من اللغة التركية الى اللغة العربية ، وقام المجمع المذكور بهذيتها وإصلاحها . ثم تأسست بعده « الجامعة السورية » ويرجع الفضل اليها والى اساتذتها بتدريس العلوم والفنون في جميع اقسامها ، من طب ، وحقوق ، وصيدلة باللغة العربية ، وبفضل ما وضعوه من المؤلفات العلمية ترجمة وتعريباً ، خدموا لغة البلاد ، وأحيوا تراثها ، وجددوا ثقافتها . وبذلك أسدوا الى الألب العربي أجلّ الخدمات . وبعد هذا عمدت الحكومة السورية الى نشر التعليم وإنشاء المدارس وتوحيد البرامج . ولما وضع الاساتذة والمعلمون الكتب اللازمة ، وطبعت ونشرت ، سهل على أبناء البلاد اقتناؤها والدرس فيها ، وارتقت معارفهم ، واستطاعت سوريا ان تباهي غيرها بنهضتها وتفوق كتبها وارتقاء مدارسها ، وأن تسير تقدم العلوم ، وتقدم الفكر الانساني ، ولا تزال جادة في إتمام رسالتها ، والاسراع بنهضة الأمة وتقدمها .

وبياناً لما أسدته الجامعة السورية من الخدمة في نهضة البلاد ، أذكر عدد من تخرجوا من كلياتها ، منذ تأسيسها حتى الآن .

المجموع	بنون	بنات	
٢٠٤٥	١٩٨٣	٦٢	كلية الحقوق
٥٣٤	٥٢٤	١٠	الطب وفروعها
١٩٨	١٩٥	٣	الصيدلة
٣٩٨	٣٧٥	٢٣	العلوم
٧٠	٤٢	٢٨	الآداب
١٨	١٨	٠٠	الهندسة
١٥٤	١٥٤	٠٠	طب الاسنان
٣٤١٧	٣٢٩١	١٢٦	

١٢٦	٣٢٩١	٣٤١٧	
٢١٧	٠٠	٢١٧	كلية القبالة
٢٧	٠٠	٢٧	دار التمريض
٢١	٥٣	٧٤	دار المعلمين والمعلمات
٣٩١	٣٣٤٤	٣٧٣٥	المجموع

وبناءً على ما أنتجه التقدم العلمي ، وما تأتى عن استقلال البلاد ، وممارسة السيادة ، وما فعله الاحتكاك الاجتماعي عن طريق الهجرة والسياحة والسفر ، وعلى عوامل أخرى فرضها الزمن بواسطة الحروب ، نستدل على التطور العقلي وأثره البالغ في التشريع السوري ، وفي الحكم الدستوري ، وفي العمران وما قام فيه من منشآت وهندسة ومواصلات وحدائق وتخطيط ، وأثره في الاقتصاد ، وما أتى به التطور الاقتصادي وأوجده من مهن وصناعات ووسائل فنية وأدوات وآلات حديثة وشركات ، وأثره في تقدم الصحافة والنشر والطباعة والدعاية ، التي بدون العلم وتطور العقل الاجتماعي ، لن تصل إلى ما وصلت إليه ، والمثل الحكيم يقول : البناء لا يكبر عن عقل مهندس .

ما وجد في تواريخ حلب من الحوادث :

ومن يقرأ في تاريخ حلب، لمؤلفه الشيخ كامل الغزي ، وفي أعلام النبلاء لمؤلفه الشيخ راغب الطباخ ، يعلم بأن سكان الشهباء لم يعرفوا لقاح الجدري قبل عام ١٢٤٠ هجرية ، ولا صدرت بلسانهم جريدة إلا في عام ١٢٩٥ هجرية عندما أصدر المرحوم الحاج هاشم الخراط جريدته وتولى تحريرها الكاتب العبقري المرحوم السيد عبدالرحمن الكواكبي ، ولا استعملوا البترول لاضاءة بيوتهم وأزقتهم إلا في عام ١٣٢٥ هـ أي في عام ١٩٠٦ ، ولم تنشأ لهم الحكومة العثمانية مدرسة سلطانية ، أي ثانوية ، إلا في عام ١٣٠٣ هـ أيام جميل باشا ، وانهم لم يزرعوا بذور البندورة التي جلبت من مصر إلا في عام ١٢٧١ هـ

وان التبغ لم يعرفه ويستعملوه إلا في عام ١٠٠٠ هـ ، وان السكاير لم تصل اليهم إلا في عام ١٢٧٠ هـ ، وان محلة العززية لم تؤسس قبل ١٢٨٦ هـ ومحلة التل لم توجد قبل عام ١٣١٠ هـ وكانت مطرحاً للزبل ، وتابعة لوقف الحلوية ، وان السبيل لم يصبح حديقة ، إلا في عام ١٣١٤ هـ ، وكان اسمه قبلاً « سبيل الدراويش » .

فهل بعد هذا إلا ان نقول ، ان مجتمعنا قد تطور وتطورت عقليته لهذه الاحداث وما تلاها ؟

ما هي المظاهر الدالة على بناء المجتمع السوري ؟

ان أهم ركن في بناء المجتمع السوري هو المرأة والاسرة وما يتعلق بهما وزيادة المواليد ، وزيادة نفوس السكان ، وتأسيس النقابات ، وتحول الحياة الفردية الى الحياة التعاونية والاشتراكية وزوال الاقطاعية ، وتجانس الطبقات وتضامن الافراد وغيرها من المظاهر الاجتماعية التي تقوم مقام البنية في هيكل الجسم الاجتماعي .

أما المرأة فنظرة خاطفة الى ما كانت عليه قبل نصف قرن ، وما هي عليه الآن ، ترينا آثار التطور المقصود .

تطور المرأة والاسرة :

فازدياد ترابط افراد الاسرة والمرأة والزوج والاولاد برباط الدين واحكامه ، والقانون وواجباته ، والمجتمع وآدابه واعتباراته ، وتقاسم العمل فيما بينهم لكل نصيبه ومسؤوليته ، وتناقص التعدد في الزوجات ، وقيام القانون العائلي مقام التفريق الكيفي ، وتساوي الجنسين في حدود الاحكام الشرعية والقانونية ، كل ذلك دليل على التطور وزوال القيود المانعة لتقدم الاسرة وهناتها .

ومن حيث الحرية والحقوق ، فقد اصبحت المرأة تمارس حقوقها كما اباحها لها احكام الشريعة ، وما سمح به القانون ، فهي تتعاطى المهن الحرة

والمن الخاصة بها ، تعاطى التعليم والتدريس ، وتعلّم في المعاهد العالية ، وتعاطى المحاماة ، والتجارة ، والطب ، والصناعة، وتشتغل في المعامل وتكسب أجر تعبها ، وتشارك في اعمال البر والخير ، وفي المؤسسات الحكومية وتتولى الكتابة والتحرير ، وتؤلف وتشر افكارها ، وتشتغل في ميادين الجهاد ، والتمريض ، وتقوم بواجبات البيت كأم وزوجة وسيدة .

وان كانت المدن قد نالت حظها من تطوّر المرأة والاسرة ، فان بقية اجزاء الوطن لم تحرم من هذا التطوّر ، بل ان حظها كان عظيماً بالنسبة الى الماضي ، فانتشار المدارس ، وسرعة المواصلات ، ودفع المرأة للاقتباس والمحاكاة في كل ما يرفع شأنها، جعلها تتطوّر وتقبل ما هو الافضل والاحمل لطبيعتها وحاجتها .

وفي باب المواليد ، تقرر الاحصاءات ما يجعلنا نستدل على الزيادة ، وقلة الوفيات ، وتقدم العناية بالصحة العامة ، تقول ان الذين ولدوا في عام ١٩٤٤ في سوريا بلغوا ٥٢٠٢٠ ، وفي عام ١٩٤٨ بلغوا ٥٨٩٠٦ ، والذين توفوا في عام ١٩٤٤ بلغوا ٢٨٨٢١ ، وفي عام ١٩٤٨ ١٩٩٦٤ ، فيكون الزائد في العام الاول ٢٩١٩٩ ، وفي العام الثاني ٣٨٩٤٢ ، يقابل ذلك ما ذكره علامتنا المؤرخ المرحوم الشيخ كامل الغزي في المجلد الثالث « ص ٣٠١ » من كتابه ، بان المجاعة وقعت في حلب عام ١١٧٠ هـ ، فقضت على ٨٧ ألفاً من السكان لفقدان الغذاء واستحالة جلبه من محلات اخرى .

واني أعلم ان الوفيات في حمّاه عام ١٩١٤ بلغت في خمسة اشهر ، أحد عشر ألفاً ، مات معظمهم من التيفوس ، ومنهم من مات من الجوع ولما كنت طبيباً هنالك شاهدت بأمر عيني من أكل الميتة ، ومن أكل الحشيش ، ومن أكل قشور البرتقال وقشور الجبس ، ومن أكل الققط والكلاب . وتقول احصاءات الحرب الاولى ، ان الذين قضوا من سوء التغذية والمرض في سوريا ولبنان يزيد عن نصف مليون نسمة .

زيادة النفوس والمواليد :

وفي باب زيادة السكان ، ذكرت الاحصاءات ان النفوس في حلب بلغت في عام ١٩٣٧ / ٢٦٢ ٦٩٧ / وفي عام ١٩٤٨ بلغت ٣٤٨ ٨٩٦ . أما المجموع في المحافظة فقد بلغ ٧١٣ ٩٥٨ في عام ١٩٣٧ ، و ٩٣٢ ١٤٣ في عام ١٩٤٨ ، فتكون الزيادة في مدينة حلب خلال ١٩٣٧ و ١٩٤٨ تبلغ ١٩٩ ٥٢ ، وفي المحافظة ٢١٨ ١٨٥ ، أي ما يعادل ١٨٠٨١ في كل سنة .

على ان هذا الاحصاء ليس مشجعاً بالنسبة لما يقوله علم الاقوام وتكاثر السكان ، فان سكان المدن عادة ، وفي الاحوال الطبيعية يزيد عددهم ضعفين في كل ١٥ سنة .

تطور الطب والمعالجة :

وبالرغم عما ذكرته ، فان مجتمعنا قد تقدمت اموره الصحية ، فالجديري يحدث قليلاً ، ووسائل الوقاية والمكافحة تتقدم عاماً بعد عام ، والطب يتقدم وعدد الاطباء يكثر . ففي حلب مثلاً لا يقل عددهم عن ١٢٠ وقبلاً ، أي قبل خمسين سنة ، لم يكن فيها من الاطباء القانونيين إلا اربعة او خمسة ، وكانت الطبابة بأيدي المتطببين ، والدجالين ، والمطارين والاجانب .

وبعد ان كان الناس لا يراجعون إلا الحلاقين لمداواة جروحهم أو لجبارة كسورهم ، والمطارين لمداواة امراضهم الداخلية والخارجية ، اصبحوا بعد تقدم العلم يعتقدون ان الاطباء أولى بالمراجعة ، وعليهم مراجعتهم والتداوي عندهم . ولذا كثر المستوصفات والعيادات والمستشفيات ، وكثر عدد الجراحين والمتخصصين واصحاب الخبر التحليلية ، وأسست المراجع التشخيصية للأشعة والتداوي بالكهرباء .

وما يدلنا على التطور الطبي ، وجود القابلات في كل الحلات ، وممظمن مآذونات من الحكومة وخريجات دار القبالة ، ويوجد اربعة عشر مستشفى للتوليد والتطبيب ، وكان التوليد فيها محرماً أو غير معروف .

ووجود المولدين من الاطباء والجراحين في جراحة النساء ، واطباء العيون ، واطباء الجلد ، واطباء الداخلية ، ووجود الادوية والصيدليات ، ووسائل التشخيص ، والمداواة ، جعل العقيدة في اهمية المعالجة وكفاءة الطب ووسائله الحديثة تقوى وتتقدم ، مما ساعد على مكافحة الملل والامراض ، وزيادة نمو السكان ، وإطالة عمر الانسان .

الشركات وزيادة عددها :

وفي باب الشركات وعددها ، والمشاريع العامة وما أسس منها ، تذكر التقارير التجارية والصناعية ، أن عدد الشركات الاهلية المساهمة بلغت ٥٤ شركة رأسمالها ٧٨٥٤٥٠٠٠ ليرة سورية ، وذلك من عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٤٧ ، والشركات المساهمة الاجنبية التي لها فروع في سوريا ، أو انها تتعاطى مع سوريا التجارة بلغ عددها ١١٢ شركة . والشركات تشبه الشرايين في الجسم ، تنقل البضائع وتجلب الآلات ، وتعمل على التبادل التجاري بالاموال والمصنوعات فتزيد نمو المجتمع وتقدمه .

النقابات وتطورها :

وبما يخص النقابات ، وهي مفتاح حركة العمال والعمل ، تعالج شؤون المنتسبين اليها ، وتدافع عن حقوقهم ومصالحهم ، فالاحصاءات تدلنا على عددها والمنسويين اليها وتقول : « ان عدد نقابات العمل في سوريا بلغ ١٢٠ للعمال ينتسب اليها ٢٦٧٩٩ عاملاً و ١٢١ نقابة لارباب العمل ، ينتسب اليها ١١٠٨٦ شخصاً » .

والنقابات لم تكن معروفة قبل خمس عشرة سنة ، بالشكل الذي هي عليه الآن ، ترتبط بالقانون وعليها مسؤوليات . كان هنالك « شيوخ للكار والحرف » يرجع اليهم المراجعون عند وقوع الاختلاف ، فيحكمون حسب العرف والعادة ، ولم يكن لهم ارتباط بالحكومة ، أو ارتباط بالعمال ، كالتنظيم الموجود في النقابات واتحادها .

الصناعات وتطورها :

وفي باب الصناعة ، تقول النشرة التجارية الصادرة عن غرفة التجارة والصناعة (١) بحلب ، ويعود لها الفضل في تزويد الباحثين فيما يحتاجون اليه من معرفة واطلاع : « ان سوريا لم تكن لها قبل الحرب العامة سوى بعض الصناعات اليدوية والحرف المنزلية كالنسيج ، والتطريز ، والنجارة ، والحداة ، والصياغة ، وصنع الحلوى والمربيات ، وعدد ضئيل من الصناعات الاخرى ، ثم تطورت الصناعة ، وزادت حاجة البلاد الى مختلف المصنوعات ، فنشطت المعامل والمصانع لسد الحاجة .

ولما انتهت الحرب العامة ، تأسست في دمشق وحلب وبعض المدن الرئيسية الاخرى صناعات جديدة كصناعة السكر ، واستخراج الكحول ، والفلوكونز ، والنشاء ، وصناعة التبريد ، واستخراج الزيوت النباتية ، وصناعة الزجاج ، والصابون ، والدباغة الحديثة ، والصباغة الفنية ، وصناعة العطور ، والمرايا ، وصناعة قفل الالماس الخ ...

وقد طرأ التعديل والتجديد والتوسيع على الصناعات القديمة ، وأدخلت عليها الاساليب الحديثة والمحركات الكهربائية ، ومن أشهر الصناعات السورية القائمة نذكر صناعة حلب القطن ، وصناعة الغزول والنسيج بما في ذلك غزل القطن وحل الخيوط الحريرية الطبيعية ، وحياسة القطن والصوف ، والحرير الاصطناعي ، والدامسكو والاغباني ، والصايات الحريرية ، والخطاط المصرية ، والمشال المصنوعة ، وصناعة الاسمنت ، وصناعة عصر البذور النباتية ، وصناعة الكونسروة ، وصناعة السكر ، وصناعات اخرى كصناعة الكرتون ، والمستحضرات الطبية ، والمستحضرات الكيميائية ، والمستحضرات الغذائية ، وصناعة البويات ، والشمع ، والشريط للاحذية ، وصناعة السكب والتليس ، وصنع المضخات ، وبعض الآلات والادوات الزراعية ، وصنع الغالات والمفاتيح والمسامير ، والرفاسات ، وصناعة الثريات والمكاوي الكهربائية ، والمدافئ على المازوت ، وصناعة الآتية

(١) نقلا عن نشرة غرفة التجارة والصناعة بحلب لعام ١٩٥١

المزلية من الالومنيوم ، وصناعة الفضة والتليس بالنيكل . وازدهرت من الصناعات القديمة ، صناعة السكاكر والمربيات والحلاوة ، والمكرونة ، والصابون ، والتجديد ، والعطورات ، وصناعة الموبيليا والتنجيد .

وكما ارتفعت الصناعة واتسعت ، تطوّرت زراعة سوريا وارتقت ، وتجلّى تطورها في التوسع ، والتنوُّع ، والغرس ، والتحريج ، وتربية المواشي والدواجن ، واستعمال الاسمدة ، والتراكتورات ، والجارات ، والحصادات ، وانتقاء البذور ، واستعمال المضخات لرفع المياه والارواء ، وتقجير المياه والينابيع ، وجرّ الآقنية ، وحفر الآبار الارتوازية ، وغرس كروم العنب والزيتون ، واستثمار الاراضي البور ، والاعتناء بزراعة القطن والحبوب والأرز ، وإنشاء المشاتل تزود المزارعين بالاغراس ، وتأسيس الدوائر الزراعية والخابر ، وإنشاء المعاهد الزراعية والمؤسسات التعليمية للتدريب وغيرها .

تطوّر الزراعة :

ومن الأدلة على نموّ الزراعة وبنائها ، اتساع المساحات المعدّة للزراعة وازدياد الانتاج لحد عظيم ضاعف ثروة البلاد اضعافاً مضاعفة . وقد جاء في الاحصاءات الجمركية ، ان صادرات سوريا في عام ١٩٤٤ بلغت ١٩٧٠٠٠ طن قيمتها ٨٧ مليون ليرة سورية ، وبلغت ٣٠٧٠٠٠ طن في عام ١٩٤٩ بلغت قيمتها ١١٣ مليون ليرة سورية .

وبعد الانفصال الاقتصادي الواقع في ١٣ آذار ١٩٥٠ ، ولغاية العام نفسه ، بلغت صادراتنا ٤٣٥ الفاً من الطونات قيمتها ٢٠٨ ملايين ليرة سورية .

وتقول غرفة التجارة بحلب ، ان النتيجة المذكورة تعتبر في الواقع حدثاً اقتصادياً هاماً ، يضاف اليه ما تحتله المنتجات الحيوانية ومحاصيل البلاد النباتية ومشتقاتها من المقام الاول بين الثروة النباتية الزراعية .

زوال الاقطاعية :

ومن الأدلة على تطور بنائية المجتمع السوري زوال الفوارق الطبقيّة ،

التي وجدت في عهود الاستعباد والجهل ، فلا طبقة حاكمة في وقتنا الحاضر ، ولا طبقة محكومة ، ولا طبقة اقطاعية ، ولا طبقة مستعبدة ، ولا طبقة سيده وطبقة مسودة ، انما الطبقات ، طبقات تتقاسم العمل والعلم والمقدرة . ولذا نستطيع نفي مدعى القائل بوجود الاقطاعية في سوريا ، مع وجود الدستور والحكم الجمهوري ، الاقطاعية التي تعني ، ان الارض ومن عليها ومن يعمل فيها ملك للسيد الاقطاعي ، وعبيد موروثون له ولاولاده ونسله .

واذا كان من لا يزال يملك الاراضي الشاسعة ويتصرف بها ، مستأجراً الفلاحين ، أو مشاركاً لهم ، فهذا لا يعني الاقطاعية ، واذا جاز للسلطان الفاتح فيما مضى أن يهب الاعشار ، أو يهب الاراضي لولاته وقواده ووزرائه ، فهذا العطاء قد انقطع وولى دون رجعة ، واصبحت الاراضي ملكاً للدولة ، ولم يبق لرؤساء الجمهورية ، أو رؤساء الوزارة ، أو غيرهم أن يهبوا ما لا يملكون . ولذا يجب التفريق بين حق التملك وحق التصرف ، وما هو عليه الفلاح من ظلم وبؤس وعوز . انه يتظلم ويشقى ، لأن الجهل والفقر وفقدان الأمن ، وسوء الادارة ، وضعف القضاء ، وإهمال الاعتناء بحياته وباولاده ومستقبله ، قد جارت عليه وهضمت حقه وحرمته من اتعابه . وما كان الجور والظلم والتعدي والاهمال مما يقول به قانون ، أو يرضى به عاقل ، أو تقره حكومة تريد رفاهية الشعب وتقدمه ، لذلك يجب إرجاع الاوضاع الى عوامها وتحديد مفهوم الالفاظ والمسميات دون تضليل ومعالجة الشكوى بالعدل وحسن التدبير والاهتمام ، وايصال الضعيف الى حقه ، وازالة الظلم دون تسويق وإسفاف الفلاحين والعمال ، بقطع دابر الرشوة ، ومعاينة المعتدين ، وافساح المجال لطالب الرزق الحلال بالكسب والعمل ، وحمايته من كل جور وتعدي ، لان المزارعين والزراع والفلاحين والعمال هم سبعون بالمئة من مجموع الامة وهم عمادها و ثروتها .

وكما برزت آثار التطور البنائي في المرأة والاسرة والنقابات والشركات والمؤسسات ، وفي الزراعة والتجارة والصناعات ، وفي زيادة المواليد والسكان ،

فكان انتقال البلاد من الحكومية التي عاشت ثلاثة قرون تحت وطأتها، وزوال
الاقطاعية وعهود الظلم والجور من مجتمعا ، وحصولها على الاستقلال والسيادة
وتنعمها بالحرية والأمن يعدّ من اعظم التطورات البنائية التي جعلت السكان
انفسهم اصحاب الحكم والسلطان والتشريع والادارة والقضاء والعمل والانتاج ،
بيد ان الانتخابات ، ومنهم رجال التمثيل ، وهم المسؤولون عن سلامة بلادهم
والدفاع عن حدودها وحقوقها ومصالحها ، وهم الذين يعملون على تطبيق
الديموقراطية بواسطة نظامها الجمهوري الذي ارتضوه ، ودستورهم الذي وضعوه .

تطور الحرية وزوال الحكم الاستبدادي :

ولما كان الاستقلال وسيلة لتحقيق الاهداف القومية ، والآمال الاجتماعية
وغاية لنقل الشعب من حالة غير محمودة ، الى حالة ينتظرها ويسمى اليها ، ويعتقد
بسماعتها ، فان حرية القول ، وحرية العمل ، وحرية التفكير والاعتقاد ،
في ظل الاستقلال التام ، والسيادة المطلقة ، نقلت الوحدات الاجتماعية المارّة
ذكرها ، والوحدات الاخرى ، من طور الى طور ، لم تكن لتحصل عليه
سوريا لولا قيام الحركة الوطنية من نصف قرن واشتدادها بعد الاحتلال الى
يوم الجلاء ، ولولا اليقظة العامة ، وانبعاث حب العمل والنهضة ، ولولا اتساع
العلم وانتشاره ، ولولا الشعور بضرورة التعاون والتضامن لما استقلت البلاد ،
ولا تكوّنت النقابات ، ولا ازدهرت الشركات ، ولا تألفت الاحزاب والاندية ،
ولا نظمت مصالح العمال ولا تكاثرت الصحف والمجلات ، وأقبل الناس على قراءتها ،
ولا شجعت الحركات الرياضية وغير ذلك من الاعمال البنائية التي تدل على
تطور البناء الاجتماعي وتدعو للتقدم والارتقاء .

الانتقال من الفردية الى التماونية :

على ان التطور المذكور ، وإن لم يبلغ الذروة العليا من السرعة والتكامل
فانتقال السوريين من الفردية الى الاشتراكية والتماونية ، أي الى توحيد الجهود
وتقاسم العمل ، والاشتراك في العمل يعدّ تطوراً ايجابياً يحمل في ثناياه اعظم
الآمال على دوام النمو وتكامل البناء ، كما يعدّ تطور نقل الاموال من سجونها

في الخزائن والمصارف ، وصرفها في وجوه المشاريع الاقتصادية والاعمال المنتجة خطوة أعظم لا تقف فوائدها على التحويل والاستثمار ، بل يتعدى الى تطور المقايضين ، والمستهلكين ، والناشرين ، والمحامين ، والاطباء ، والمهندسين ، والعاملين ، وغيرهم من عناصر المجتمع .

الاتجاه نحو المدنية الغربية :

ومع العلم بان الاتجاه نحو الماضي والتمسك به قد تطوّر ، وتحول السوريون نحو المدنية الحديثة ، واخذوا بالاقتراس والتعليم عن الغرب ، ومسارة الركب الذي يسير فيه بذات العلم والتفكير والاسلوب ، فالانم كما «قال غوستاف لوبون» «لا تحيا الا بتمسكها بماضيها وتقاليدها ، ولكنها لا تتقدم الا اذا عرفت في الوقت المناسب كيف تتخلّى عما لا يفيدها من تلك التقاليد وعنعنات الماضي» .

والذي يؤيد القول ، ان النفرة من المدنية وتقليد النافع منها ، والكراهة من كل ما هو اجني ، لم تعد بالنسبة التي كانت عليه ، وتعدّت نفسية السوريين ، فرغبوا في ان يتعلموا من علوم الغرب ما يستطيعون الوصول اليه وان يتقنوا عنهم مؤلفاتهم ونتاج قرائحهم ، وان يستفيدوا من مخترعاتهم ومكتشفاتهم ، ويستخدموا اخصائيتهم وتجاربهم ، ويتبعوا نهجهم في البحث والتحقيق .

ونحن لهذه الرغبة نقتبع أنظمتهم ، ونطبق قوانينهم ، ونعلم لغاتهم ، ونجلب من بلادهم ما نحتاج اليه ، ونعطيهم ما يحتاجون اليه ، وسوف نبقي عالة على مصانهم ومعاملهم ، ولا ننكش عما يعرضونه علينا من مدينتهم ، حتى نستكمل طريقنا ، ونحقق مثلنا ، ونستعيد مدينتنا ، والمدنية ليست وفقاً على أمة دون أمة ، والحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها .

المظاهر الدالة على تطور نفسية المجتمع

ان تطور الرأي العام ولا شك ، من أهم ما يستدل به على تطور النفسية

الاجتماعية ، لانه يعدّ الثمرة الناضجة لآعلى درجات المحاكاة ، أي الاقتباس القويم ، وعلى نضوجه توقف التسوية الفضلى في النزاع المستعصي ، الذي لا ينقض بغيرها ، والتسوية أقرب الدرجات الى العدل .

ومن الأدلة على تطور النفسية نظرنا الى الحياة كواقعية تتطلب العمل والاهتمام بها وحبا لها فيها من مباحج، وتكاثر ، وزينة، وتفاخر ، ولذة ، وألم ، وحرمان ، ووصل ، وجهد ، وفناء . ولو تمشى العلم الى قلب كل انسان ، وأضاء بنوره كل مجتمع وكل بيت، لزال الفوارق المصطنعة، واختفت المتناقضات المتكاثرة ، وانسجمت النفوس والطباع ، وارتضت بنظام الاجتماع ، وما دامت نفسيتنا الاجتماعية قد عينت اتجاهنا، فمن الخير ألا نعيش كأئنا على هامش الحياة .

ولكن ليس من الضروري أن تنغمس في حمأة المجتمع الحديث ، أي في المدنية المادية ، دون وعي وتميز ، فالروح والمادة يعيشان لغاية واحدة ، فإن تسلم ضمائنا ، وتسلم اجسامنا ، كانت المادية لنا نعمةً وتقدماً ، وما دامت مقومات الروح ، والدين ، والاخلاق ، والفضائل ، ومحبة الناس ، وحب الخير ، والعلم، في حدود الحقيقة ، هي المحافظة على نفوسنا ، وما دما نبعد عن افكارنا وضمائنا اللامبالاة ، والاحاد ، والاباحية ، وزيد طهارة العرض ، وعصمة اليد واللسان ، فاننا لا نشك في طريق الانتقال والتطور الى ذروة التقدم والمدنية .

ولعلّ من الأدلة الثابتة على تطور النفسية ارتقاء العقائد ، ورفي الأدب الذي تعبر عنه أقلام الحق ، وقصائد الشعر ، وكتابات الصحافة ، ومقالات أهل الرأي والعلم ، ومناهج الاحزاب ، وما ترمي اليه الكتب ، والقصص ، والروايات ، والموسيقى ، والفنون ، والازجال ، والاغاني ، لانها تنبعث عن عاطفة المجتمع ، وتمثل قرارات النفس .

وفي ذكر الرأي العام ، يجب استعراض المواقف الخطرة التي وقفها الشعب السوري من قضية بلاده واستقلالها ، كمثال لتطوره ، فنذكر منها :

موقف الرأي العام السوري من الثورة العامة عام ١٩١٦ ، وموقفه من مظالم جمال باشا ، وموقفه من الخلافة عام ١٩٢٢ ، وموقفه من الحكومات التي تعاقبت ايام الاحتلال الاجني ، والدساتير ، والمجالس التمثيلية التي فرضها ، والادارات التي كوئنها ، والقوانين التي أخرجها ، والاعمال التي ارتكبها من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٤٦ ، وموقفه من التجزئة والوحدة ، وموقفه من المجلس التأسيسي عام ١٩٢٨ ، والمواد التحفظية ، وموقفه من ثورات هنانو والشمخ صالح وجبل الدروز والغوطة والقلمون وجبل الزاوية وحماة وحمص وحلب ، وموقفه من انتخابات عام ١٩٣٢ ، وموقفه من المعاهدة ، ومن الكتلة الوطنية ، والاضرابات ، والوفد السوري ، ومعاهدة عام ١٩٣٦ ، والانتخابات في ذلك العام ، وموقفه من الذين تعاونوا مع الفرنسيين وساهموا في نصرته وتأييده ، وموقفه من قضية فلسطين بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ ومن الحرب الثانية وسنها من عام ١٩٣٩ الى عام ١٩٤٣ ، وموقفه من انتخابات عام ١٩٤٣ والحكم الوطني من عام ١٩٤٣ الى عام ١٩٤٦ ، وموقفه من جيش فرنسا ومفوضي فرنسا ، وموقفه عام ١٩٤٦ من فلسطين والحرب لاتقازها وما انتهت اليه ، وموقفه من جامعة الدول العربية وميثاقها ، ومنظمة الامم والاشترك في عضويتها ، وموقفه من الازمات العالمية ، والازمات الداخلية ، وغيرها من المواقف التي ترينا طرفاً من الأمور التي شغلت الرأي العام وجذبته الى مشاكلها .

ذكرنا ذلك لائن الرأي العام فيما مضى كان ضعيفاً ، بل كان معدوماً ، فصار موجوداً وملهوساً ، وكان همساً فصار مدوياً .

المظاهر الدالة على تطور المجتمع السوري

ان فعالية المجتمع السوري ، أي حركته ونشاطه وحيويته ، ظاهرة أو خفية ، قوية أو ضعيفة ، تظهرها امور عديدة : كالدين ، والسياسة ، والثروة ، والتشريع ، والحرب ، والعمران ، وكذا التعليم ، والاقتصاد ، واللغة ، والاختراع ، والاكتشاف ، والبحث ، والبناء ، والتنظيم ، والتشريع ، والانشاء ، وغيرها ،

كما يقوم به العقل الاجتماعي ، واليد الاجتماعية .

تطور الدين :

في ناحية الدين يؤمن السوريون على اختلاف مللهم ونحلهم ومذاهبهم بالاديان السماوية التي تجمعهم على توحيد الاله وعبادته وطاعة اوامره ، واجتناب نواهيه ، وهم يزدادون تمسكاً بما فرضته كتبهم السماوية ، وبتأثير ما وجدوا عليه وآمنوا به ، يحافظون على الشعائر القائمة والعبادات المفروضة ، يربون اولادهم على حب الاله وحب انبيائه ، وهم كلما تعلموا وخبروا الحياة ، ورأوا بواطن المدنية ، شعروا بضرورة الدين وفضله ، وحاجة النفس اليه ، وحاجة الاجتماع الى وازعات تقيهم المفسد ، وتحبب الى افراده الخير ومحبة الناس .

التطور الحربي :

وفي ناحية الحرب ، وهي قضية تنازع البقاء ، فالسوريون في جميع أزمنة التاريخ أثبتوا تمسكهم بوطنهم واستقلالهم وسيادتهم ، ولهذا الغاية نازعوا الفاتحين والمحتلين ، وقاوموا سلطانهم ، وحتى اليوم لم يتبدل موقفهم تجاه كل طامع أو فاتح ومسيطر، بل تطورت قواهم الدفاعية ، فحروا بلادهم ، وانزعوا من الغاصبين حريتهم واستقلالهم ، وفرضوا سيادتهم ، ولذات الغاية المثلى ، يعدون ابناءهم وجيشهم بايمان وحماس للحرب إن دعتهم الدواعي ، أو للدفاع ان تعدت عليهم البواعي .

التطور السياسي :

وأما تطور المجتمع السوري السياسي ، فبعد نيل الاستقلال تحوّل الجهد العام نحو تأسيس الدولة وتثبيت كيانها من جهاز الحكم الى التشريع والتنظيم الى نشر العلم ، والقضاء على الأمية ، الى تأمين العلاقات السياسية ، الى اصلاحات في كل أجهزة الدولة ، الى تقوية الدفاع ، وتأمين الامن الى رفع مستوى المعيشة ، وزيادة الواردات واثروة القومية .

ومع قصر الزمن بعد الجلاء ، استطاع المجتمع السوري حكومةً وشعباً ان يظهر الفعالية الوثابة في التشريع اللازم لنمو الدولة ورفاهية الشعب والعدالة الاجتماعية ، وزيادة الانتاج ، وتأمين الواردات ، وتقوية المقومات الاجتماعية ، والعمل على تحقيق المبادئ الديمقراطية والوصول الى الغايات التي اشارت اليها المقاييس المدنية .

وفي الامور الدولية ، فقد برزت فعالية المجتمع السوري في دخوله منظمة الامم واشترake في مجهودها ، ثم في تكوين الجامعة العربية ودعمها وتحقيق اهدافها ، ثم في قبوله الضمان الجماعي ، والدفاع الجماعي بين الدول العربية ، وسعيه لاقامة علاقات الود والتعاون على أمتن الأسس معها .

ومع أن العالم يسوده الذعر والخوف والقلق من الحرب وويلاتها، وتنسب الى قلوب أمه سموم المذاهب الهدامة ، فإن مجتمعا السوري لا يزال رابط الجأش يأبى الانحياز لكل طامع أو مستعمر أو مختل يفسد عليه عقائده وخططه التي وضعها لتقدمه وارتقائه .

التطور العمراني :

والمجتمع السوري ، من حيث عمرانه ووعيه وتماسك وحداته قد تطور كثيراً عن أزمنة الغبار ، والوحل ، والسلب ، والسخره ، والسجن في الخانات ، والربط بالجبال ، كأن افراده حمير أو جمال ، وعن زمن النفي ، والتباعد ، والشنق ، والمجاعات ، وزمن الارادات السنية ، وكم الأفواه ، وزمن الحرمان من كل حق قومي أو سياسي ، وانتقل الى زمن الحرية والدستور ، الى زمن فجر العروبة وشروق القومية ، ورأى بأب عينه صروح مجده تبنى ، وثقافته تنسج ، وعمرانه يشيد ، وطرقه تعبد ، ومدنه وشوارعه تثار بالكهرباء وتقرش بالاسفلت ، والماء يصل نقياً الى بيته فلا يظلم ، والسيارات تنقله الى حيث يشاء ، والطائرات تطوف به الفضاء بفعاليته التي ازال التقيت وهيات المعدات .

التطور في ناحية الاكتشاف والاختراع :

وأما في ناحية الاختراع والاكتشاف والبحث والاستقراء والابداع ، فما ظهر منه قليل بالنسبة للأمم التي تكاملت فيها المؤهلات ونضج فيها العقل الاجتماعي ، وتسهلت فيها سبل تحقيق الفكر وما تتطلبه الحاجة ، لأن الحاجة أم الاختراع . ومجتمعنا لا يزال يعمل ويجد في إكمال دور تكوينه ونموه ، أي دور الاستعداد والتهيئة والاقتباس والتعلم ، حتى يستكمل نواقصه من علم ووسائل وخبرة وتجربة ، ومتى أتم ذلك انتقل الى الدور الثاني ، دور الصنع والايجاد والاكتشاف والابداع ، بفعل المنهات الاساسية وهي : الحاجة الى الغذاء ، والحاجة الى الوقاية ، والحاجة الى الزينة ، والحاجة الى الحماية ، والحاجة الى الغذاء الفكري ، والغذاء الروحي ، وكلها مما يأخذ شكلاً اجتماعياً وشكلاً سياسياً ، وشكلاً نفسياً في المؤسسات الاخلاقية والاقتصادية والدينية .

ولما كان التطور الاجتماعي في كل ما بناه لا يقاس إلا بمقاييس المدنية ، فالأمل أن يظل اتجاهنا الاجتماعي موجهاً لتحقيقها وليس لمعاكستها . فالحياة لا يكتب لها التقدم والبقاء ، إلا اذا اتبعت الغاية التي اوجدها المبدع ، وتطورت مع تطور العقل وقواعد العلم ، واتبعت سنن الطبيعة في النشوء والارتقاء وانتخاب الأفضل .

الختام :

وفي الأخير أكتفي بما أوردته من المظاهر الاربعة ، التي لا تشكل إلا جزءاً من نواحي المجتمع ، اعتقاداً مني انها ترينا مجال البحث للوصول الى المقصود .

ومع هذا ، فقد بسطت النواحي اليجابية ، وكان عليّ ان أبسط النواحي السلبية من هذا الجزء اليسير للخروج بنتيجة « هل نحن حقيقة في تقدم أو تأخر ؟ فان كان الأول ، فما هي الخطوات لاستكمال اسباب نضوجنا ؟ وإن كان الثاني ، فما هي الخطوات الرجوع عنه ؟ ولكن لهذا الثاني شأن آخر ،

وبحث أوفر ، والمتسع له أقصر فلنتركه الى يوم يكون فيه المجال أوسع ،
ولنتذكر ما قاله غوستاف لوبون في كتابه «روح الاجتماع» : « ان المجتمعات
الانسانية عويصة التركيب كالافراد سواء بسواء ، فليس في يدنا ان نحوّلها
بجأة من حال الى حال ، نعم قد يتفق أن تحدث الطبيعة تغييراً كلياً فجائياً ،
إلا ان ذلك لا يكون تابعاً لارادتنا ابداً ، فلذلك كان حب بعضهم للاصلاحات
الكلية من اسوأ المؤثرات في الاعم مهما دلّ النظر على حسنها ، لانها لا تكون
مفيدة إلا اذا كان في الامكان تغيير روح الأمة تغييراً فجائياً ، والزمان وحده
هو صاحب هذا السلطان ، والذي يحكم الناس مجتمعين هي الافكار والمشاعر
والعادات ، وكلها امور موجودة فينا ، وحينئذ ليست القوانين والانظمة إلا
صورة من صور النفس العامة التي لنا ، والممثلة حاجتها ، واذا كانت القوانين
والانظمة صادرة عن النفس ، فهي لن تستطيع تغييرها » .

وهذا مما يتفق مع قوله تعالى : « ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما
بأنفسهم » والسلام .



تطور التربية والتعليم في ادوارهما المتعددة

من المفيد جداً ، عند معالجتنا القضايا التربوية والتعليمية ، أن نمرّ بالأدوار التي مرّت عليها الأمم ، وأن نشير الى الاثر الذي تركته كلٌّ منها ، والذي كان باعثاً لنهضتها .

ولاشك ، أن التربية حاجة من حاجات الحياة . ولذا يرافق رقيها رقي المجتمع ، وتقدم بنسبة الحاجة واستعداد البيئة وقابلية المجتمع .

وقد كانت أيام « السبارطيين » (١) ، ترمي الى تنمية الجسم ، والاحتفاظ بالصحة والجمال ، وبذلك أصلحت الفرد ، وأعدته لخدمة المجموع .

وكان من اهدافها ، تنبيه المشاعر ، وتذكيسة العواطف بالأدب والموسيقى والشعر والرياضة . ثم تطورت ، فغدت أيام « الآثينيين » ، وخاصة في عصر ازدهار الفلسفة والفلاسفة ، تعمل لتقوية المدارك ، وتنمية المواهب . وقد بلغت أوجها زمن « سقراط وافلاطون وأرسطو » ، حين كثّر العلماء الافذاذ ، وتقدمت العلوم الطبيعية والرياضية والالهية ، وعمّ علم الجدل والمنطق ، وتشيع كلٌّ مدرسته ومذهبه .

وكان من ثمار تقدم التربية الآثينية الجديدة ، تميّزها بانصرافها لخدمة الطبيعة ، وتقوية المادة ، وترقية العقل ، وتكوين الخلق « باعتبار الانسان آلة خير ومقدرة للاتصاف بالطبائع الجسمية والروحية » . ثم اعتلت الفنون الجميلة :

(١) السبارطيون قوم من اليونان القدامى ، اشتهروا بقوة ابدانهم ، وجمال اجسامهم ، وشجاعتهم في الحروب ، وتربيتهم البدنية والفروسية وقد قاوموا الفرس وعلى رأسهم « داريوس » الفاتح الايراني وكسروا جيشه ، وحاربوا الوثنيين اهابي ترواده ليستردوا زوجة ملكهم ، فغلبوهم واستعادوها .

الاذب والموسيقى والتمثيل والنحت والشعر ، وتبوأ مكانتها اللائقة ، وامتلأت مدارس ائتنا واليونان بالتلامذة المنقطعين للعلم والفن ، يعملون بحريتهم ، ويتبعون مارسمه لهم أساتذهم ، الذين كانوا يحترمون الشخصية ، ويعززون الحرية ، ويراعون مصلحة الفرد والعائلة .

وبعد ان استولى الرومان على مقدونيا ، وامتدت فتوحاتهم الى اكثر مدن الغرب والشرق الادنى وشمالى افريقيا ، نشروا ثقافتهم التي قامت على انقاض اليونان ، وزادوا عليها ما كان باعثاً لاتساع الفكر ، وملائماً لضرورات الزمن .

ويعود للرومان الفضل في ابتكار الاساليب العملية ، والوسائل الصناعية ، لتطبيق الآراء النظرية . فكانوا في تربيتهم ، خيرَ مثالٍ للتربية العملية المادية .

ومما كان مداراً لعنايتهم « البيت » فقد جعلوه المعهد التهذيبى الرئيسى ، حيث يدرّب الابناء ، على الطاعة والتضحية والنظام واحترام الآباء . وبفضل هذا التهذيب استطاعوا الوصول الى المجد ، والغلبة على معظم الاقوام .

ولم يغرب عن بلهم ، اتباع اليونان في تأسيس المعاهد العلمية والمدارج الرياضية . ففي القرون التي مرت على حكمهم ، أوجدوا المدارس ، ودور الكتب ، والمسارح ، والمصحات ، والهياكل ، ودور الخطابة ، ومجالس التشريع ، وأقاموا التماثيل والانصاب ، وأنشأوا القصور ، وأجروا الاقضية ، وعمروا الجسور والطرق الطويلة ، وكانوا عظماء في جميع ما شيدوه ، ففاقوا الامم الغابرة ، في عمرانهم ، وتأسيسهم المدن ، وتشبيدهم المباني الجسيمة الدالة على براعتهم واتقانهم فنون العمارة والهندسة والزخرفة . وكانت لهم براعة فائقة في اصول الحكم ، واستثمار الاقوام ، ووضع الانظمة والقوانين . ودلّت حروبهم الكثيرة التي ظفروا بها ، على مقدرتهم في فنون الحرب وسوق الجيش .

وقد كانوا متقنين للرياضة والنحت والموسيقى والرسم والتمثيل . ويلاحظ في كل ما عملوه وابتكروه وأنشأوه ، انهم كانوا نظاميين وماديين وعمليين ، وان آثارهم تمثل فلسفتهم في الحياة ، وتجسّم افكارهم ، وتعبر عن خلقهم .

ومع ان المسيحية تسربت اليهم إبان عزهم ، ونفذت الى صميم افئدتهم ، وعدلت من عقليتهم المادية ، وانقضت من معالمهم الوثنية ، فإن ما لحقهم من وهن ، وما استقر في عقيدتهم من مبادئ ، وما طبعوا عليه من خلق ، كان كافياً للقضاء على سلطانهم ، وهدم امبراطوريتهم . ولذا لم تتقدم تعاليم المسيح السكالية بينهم ، ولم يتلذذوا بالمبادئ الروحية ، ولا قدروا على فهم الحياة بغير اللذة والشهوة والاستمتاع بالقوة والمادة .

وكان الفرس كالرومان في فتحهم وحروبهم وماديتهم ، ولم يكونوا من ائمة العلم والفلسفة ، ولا من اصحاب الثقافات الفكرية ، ولم يحتفظ لنا التاريخ ، بذكر لمدارسهم ومعاهدهم ونهضتهم العلمية ، قبل ان يكونوا مسلمين .

انهم اعتنقوا الاسلام قبل الف وثلثمائة سنة ، وكانوا يدينون قبلها بالمانوية والزرذشتية ، ومنهم من عبد النار . وكانت لهم أنظمة ادارية ، وقوانين عسكرية ، واصول في الحكم . ولكن لم يكن لهم معاهد مشهورة ، ومدارس عظيمة . ولولا الاسلام واهتداؤهم بتعاليمه ، وامتزاجهم بالثقافة العربية ، لبقى القليل من أدبهم ومن ثقافتهم .

انهم كانوا أرباب بطولة ، وارباب حرب ، ولكن فلسفتهم وعلومهم ، اقتبس معظمها عن الهند وبابل وآشور . وفي دراستنا لها ، نجدها قليلة الغور ، ليس فيها التعمق الفكري الذي لليونان ، ولا الاشراق الروحي الذي للعرب ، ولا الحضارة العملية التي للرومان .

ومن أئمة التاريخ « الامة المصرية » في عهد فراعنتها ، فهي ان ذكرت ، اشير اليها بتعليمها الروحي المنسوج بالاساطير والطقوس الكهنوتية والمراسم الدينية ، بتعليمها الحربي والهندسي والطبي الذي كان من عمل الكهنة ، وطبقة خاصة من الناس ، أحيطت بالقدسية والاحترام .

ولقد حرصت التربية المصرية ، على تقييد الحرية ، وتقييد الفكر ، وخلقت طبقة من الناس ، هم الامراء والقضاة والكهنة والقواد والاطباء ، تقدم لهم الطاعة والاحترام ، وتغنى عليهم الاموال ، ويخدمهم الشعب كأنهم انصاف الآلهة ،

يستحقون السعادة والرحمة ، وما عداهم من الناس فسواهم ، يستحقون الاستخدام والتعب والشقاء . ولذا كان من نتائج هذه التربية ، استسلام العامة للقوة ، وطفان القوة في الحكم ، وقيام الاستبداد مكان العدل .

ولولاقى الذكاء المصري من العناية والتربية العامة ما يستحق ، وكانت المدارس لجميع الطبقات ، ولو تساوى الناس في الحق والواجبات والمنح ، لما دالت دولة الفراعنة ، واستعبد الفاتحون ابناءهم احيالاً وقروناً .

ولكن هذا التفاوت العظيم بين الحاكم والمحكوم ، واستئثار الاول بخيرات البلاد ، وهي أغنى بلاد العالم ثروةً ، وانصياح الثاني ، وهو اليد العاملة المنتجة ، أدنى الى سقوط تلك الدولة ، لأن عدم التجانس ، وكثرة الفوارق ، ودوام الظلم ، من شأنه اضعاف الدولة وتشتيت قوتها . والامة بدون وحدة العقيدة ، ووحدة الاهداف ، ووحدة الواجبات ، لا يكون بين افرادها تماسك ، ولا يتفانى الجميع لبقاء الجميع .

وكيف تتم هذه الامور بدون تربية تشهد الافراد والجماعات ، وتخلق فيهم الارادة والقوة والنظام والطاعة والتضحية ، وتحبب اليهم الواجب والوطن ، وتعلي نفسهم ، وتحفظ كرامتهم ، ليكونوا جميعاً أعزاء في بلادهم ، مصونين في حقوقهم ، احراراً في تصرفاتهم ، منعمين في كسبهم وانعابهم ؟

وبينا كان العالم يعاني سقوط الاخلاق والحكومات ، وبينما كانت الامم تتساقط في مهاوي العار والتخاذل ، ظهر العرب في جزيرتهم ، التي صحت سماؤها ، واتسعت صحراؤها ، وقل مأواها ، ونقيت رمالها ، وسطعت شمسها ، وسلم سكانها من برائن الملل والآفات ، وحفظوا دماءهم نقية ، واعراضهم طاهرة .

ظهوروا يحملون رسالة الحق والاصلاح لتطهير المجتمع ، وجمع شمله ، والقضاء على ما ولدته المطامع المادية ، وتخليص الامم من شرك الجاهلية ، ومن مساوىء الظلم والانانية .

ظهوروا وتعاليمهم مستوحاة من عدل الاله ورحمته وكماله ، ومستمدة من الدين

الحنيف ، الذي نزل به قرآنهم الكريم ، وأتى به نبينهم الهادي الامين .

ظهروا وهديهم العدل والتساوي بين الناس ، والاخوة لجميع بني البشر ،
والرحمة للضعيف ، والحرية حق الانسان .

ظهروا وسياستهم الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهدفهم الانسانية
العامة ، والتفاضل بالقوى ، لا بالحسب والالقب ، والعمل لابعاد الفوضى ،
والتمييز بين الطبقات ، ونصرة العاجز ، وانقاذ المظلوم ، ومعاونة المحتاج ،
ونشر العلم والثقافة ، وتحرير الفكر ، وحفظ حقوق الفرد ، وحقوق الدولة ،
ودرء المفسد ، وصيانة المرأة ، ومنحها الحق لتأدية وظيفتها ، والتمتع بحريتها ،
وادارة شئونها واموالها والكسب بيدها .

ظهروا وغايتهم تحكيم العقل وتحرير الفكر وطلب المعرفة وتعميم الخير .

ظهروا وعقيدتهم صريحة بسيطة ، الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر ، وعبادتهم توحيد الخالق ، والجهاد المادي والمعنوي ، وتنفيذ ما أمروا به ،
وما نهوا عنه ، واداء ما فرض عليهم من مال ، لسدّ عوز اخوانهم ، والدفاع عن
دينهم وأمتهم ووطنهم ، والحج الى بيت الله تجرداً عن كل هوى ومطمع دنيوي ،
غير التعارف واصلاح الحال والتوبة وتقرير ما فيه الخير العام والصلاة التي هي
صلة بين الخالق والمخلوق ، وأداة لتوجيه النفس ، الى ما فيه الصلاح ، وتوجيه
الفكر الى ما فيه التأمل والمعرفة ، وادراك ما وراء هذه الحياة .

وبهذا ، وبما فطروا عليه من حب العلم ، وفهم الحقائق ، واستكشاف
المجهول ، ورغبة في التشييد والبناء ، وبما كان لهم من اخلاق ، كونها طبيعة
بلاדם ، وتقاليدهم ، وحالتهم الاجتماعية ، وضروراتهم الطبيعية ، كصفاء سريرتهم ،
وصحة تقديرهم ، وقوة ملاحظتهم ، وسلامة ادواقهم ، وبما كان لهم من عادات
امتزجت بتفكيرهم وحياتهم ، كتنقيسهم للحرية والاستقلال ، وتعشقهم المجد
والبطولة ، واعتيادهم الحرب والفروسية ، وتكريمهم الشرف والفضيلة ، وحرمتهم
للاجواز والاسياد ، اصحاب الكرم والمفاخر ، وتمسكهم بالعفاف ، وحرصهم على

الامانة ، ووفائهم للعهد ، وتفردهم بالكرم وحماية الجار والمستجير ، واختيارهم الطبيعة واتساع خيالهم ، وبما كان لهم من عصبية قومية ، واعتماد على النفس ، واعتيادهم الخشونة والعيش البسيط ، وبعدهم عن المطامع ، واحتكامهم للعقل ، فقد خدموا التربية ، وأوجدوا مثلاً أعلى للحياة الفردية والعائلية ، ولأصول الحكم والادارة ، وتهيئة الفرد والجماعة ، حيث يكونان متضامنين في ترقى البشرية ، وبذل الجهد لبقائها وبقاء المجتمع مداراً للأعمار والترقى والصالح .

وكان لهذا التطور الفريد في تاريخ العالم العربي ، أثره العميق في الاستقلال الذهني ، والتحرر العلمي ، والتجرد للحقيقة . ولذا أسرعوا في طريقهم ، ومشوا بمقياس واسع في حركتهم ، وقدروا على تكيف أنفسهم حيثما كانوا وحيثما حلّوا فأثّروا وتأثروا ، ولم يُسلّموا بكل ما نقل اليهم ، بل حققوا ودققوا ، واختبروا ودوّنوا . وكان التعليم فريضة ووسيلة ، اتخذوه لتعميم العلم ، وفرضوه على كل مؤمن ومؤمنة ، وأباحوا طلبه ولو كان في أقصى المعمورة .

ومع ان حروبهم لم تقف عند حد ، بل امتدت فتوحاتهم الى اقصى المشارق والمغارب ، فانهم راعوا مكانة الاخلاق ، وحسن المعاملة ، وعزّزوا التهذيب الخلقي ، فكانوا خير الامم في حسن معاملة المغلوب ، وفي تقدير العلماء والادباء ، وفي العطف والمساعدة لدور العلم والمكاتب ، ومؤسسات الاسعاف .

ولم يقتصر سعيهم على الاطلاع ، ونقل آثار السلف من مختلف الامم والحضارات ، بل حافظوا على ما وصل اليه علمهم ، ووصلت اليه يدهم ، وزادوا عليها تحقيقاتهم ودراساتهم وإلهامهم الروحي والعلمي . وكان لهم فضل النقل بامانة ، وفضل الدراسة بنزاهة .

وقد تقدموا في المباحث الالهية وما وراء الطبيعة ، وأصابوا في تجريد العلم عن الخرافات ، وتفوقوا في الاكتشاف والابتكار ، ونالوا في القرون الوسطى ، التي كانت قرون الجهل والتوقف عند بقية الامم ، شرف التقدم في الرياضيات ، وعلم الفلك ، وفي وضع علم الجبر والمثلثات ، وعلم التفاضل والمقابلة . وكفاهم

نقرأ ما اوجدوه من صناعة وفنون ، قامت على اكتشافاتهم ودراساتهم واختراعاتهم ، في الكيمياء والهندسة ، وعلم الجبر والميكانيك ، وعلم النبات والحيوان ، والطب والصيدلة والجراحة ، وفي فنون المعادن ، والنقش والبناء ، والحرب وغيرها من العلوم التي حفظت لنا المكاتب مدوناتها الخالدة ، وضاع منها ما ضاع .

ولا ينكرنّ عالم ولا عاقل ، أن العلم لم تنفك عنه القيود المانعة لمعرفة الحقيقة ، ولم يتخلص من شوائب الاساطير والاهوام ، إلا بعد أن تقدم العرب في علومهم وحضارتهم ، وأثّرت ثقافتهم وطرق تعليمهم برجال الامم الاخرى ، الذين أمّوا مدارسهم وجامعاتهم ، في قرطبة وغرناطة واشبيلية ومصر ودمشق وبغداد وغيرها من مدنها الزاهرة ، وأخذوا عن علمائها الاعلام ، ما كانوا في غفلة عنه .

وبعد أن نهضت اوروبا ، وتبعها أمريكا ، وتطوّرت الحضارة ، وانتقلت الى اعم الغرب ، وتأسست في ممالكها المعاهد والمدارس والمكاتب . وبعد ان انتشرت الفلسفة ، وانتهى النزاع الديني ، الى فهم جديد للحقائق ، وقام الاحرار في فرنسا وانكلترا والمانيا وايطاليا وغيرها ، يعملون لقلب أنظمة المجتمع والحكومة والادارة ، وأتيح للديموقراطية أن تنتصر ، ولأمريكا ان تتحرر ، وللجمهورية ان تتأسس ، تحولت نزعات التربية عما كانت عليه سواء في أثينا او في روما ، او في دمشق وغرناطة ، واتجهت اهدافها الى الترويض ، والأخذ بالحقيقة الواقعية ، ودراسة الطبيعة ، والامثال الى التعاليم البسيكولوجية والعلمية والاجتماعية والتهديبية ، ثم انتهت في وقتنا الحاضر ، الى مزيج انتقائي من الجميع .

واننا لنعلم في عصر النهضة والتربية الانسانية ، اثرأ عظيماً لـ Petrak ١٣٠٤ — ١٣٧٥ م ، الذي حارب فكرة التنسك والزهد ، وعمل على دراسة الآداب العلمية ، وتحليل النفسية البشرية ، وطالب بحقوقها ، وقال بوجوب أخذ حظها من الحياة ، والسعادة الدنيوية .

وجاء عصر النهضة التهديبي ، فكان « بولس فيرجيريوس Paulus Vergerius » في جامعة « بادوا » خير من بحث عن التربية الحرّة ، والهدف الذي ترمي اليه .

وكان فيما قاله بكتابه سنة ١٣٧٤ : « ان العلوم الحرّة . التي تليق بالرجل الحرّ ، هي العلوم التي تدربه على الفضيلة والحكمة . والتربية الحرّة هي التي تعمل على تنمية مواهب المرء السامية الجسمية والعقلية معاً » ، مبرراً عن حقيقة تطوّر هذا العصر .

ومما أدنى الى اعلاء شأن هذا العصر وما بعده ، تعاليم المربي « إراسموس - Erasmus » المولود في عام ١٤٦٧ في « روتردام » ثم تعلم وتنقل بين باريس واكسفورد وكمبرج ، وكان له ولع عظيم في جمع الكتب والمخطوطات . وقد درّس في هذه الجامعات ، وراسل رجال العلم ، واجتمع اليهم .

ومن أشهر أقواله وتعاليمه ، التي لها قيمة علمية والتي تتفق مع الآراء الحديثة :

١ — ان الأم ، هي المربية الطبيعية للطفل في سنواته الاولى . فالوالدة التي لا تعنى بتربية أطفالها ، هي نصف أم فقط .

٢ — لا ينبغي ان يطلب من الطفل الى ان يبلغ السابعة من عمره ، سوى اللّعب لينال الجسم حقه من النمو ، ولا يطلب منه عمل جسدي قبل تلك السن ، وانما على المربي ان يثبّث فيه الاخلاق والآداب الصحية .

٣ — بعد السنة السابعة ، يتبدى العمل الجسدي . ويجب أن يدرس الطفل لغته ، ليتمكن منذ الصغر ، من اتقانها اتقاناً صحيحاً .

٤ — ان اول درس على الطفل ان يتقنه ، هو علم الصرف والنحو ، لأن اللغة خير واسطة لاكتساب المعارف .

٥ — لا يجب اهمال التربية الدينية .

٦ — يجب الاعتناء بقوتي الحافظة والذاكرة ، وهذا لا يكون إلا بشرح الابحاث قبل حفظها ، وبالتفكير المنطقي ، وبالمقابلة والتمييز بين المواضيع المتنوعة .

٧ - التربية العائلية هي الاساس ، ولذلك يجب ان يعرف الوالدون واجباتهم تجاه اطفالهم ، ويجب أن يعودوهم الطاعة .

٨ - ان اهم واجب في تثقيف البنات ، هو بث الشعور الديني في نفوسهن ، ويجب الاحتراز من تركهن بلا عمل ، لأن هذا يدع مجالاً واسعاً لتسرب روح الفساد اليهن .

وبمثل هذه التعاليم ، كانت الجامعات تعمل لنشر التربية ، ثم غلبت عليها روح ضيقت الحدود ، ولم تلبث ان تعدلت وجاءتها الاصلاحات الدينية ، فهدت السبيل الى الاصلاح في روح التربية . وكان الفضل « لمارتن لوتر » سنة ١٤٨٣ - ١٥٤٦ ، إذ رمى باصلاحه لتخليص التربية من رجال الكنيسة ودعمها بالتربية الدنيوية وتعميمها بين جميع الطبقات .

وساعد انتشار المدارس اليسوعية ومدارس بورت رويال - Port - Royal التي انشئت في فرنسا لمعاكستها .

وكان من اشهر العاملين على اتساعها ، ومن مساعدي التعليم ويقظة الافكار العلامة « باسكال ، ولافونتين الشاعر الكبير » ، ولما جاءت سنة ١٥٥٣ ، كان فرانسوا رابيليه Rabelais « من واضعي مدرسة التربية الواقعية ، اي « الريالزم - Realism » ثم تبعه « جان ميلتون Milton » باصلاحات جمّة عدلت الاساليب والطرق التي كانت شائعة في مدارس عصره . وكان من مبادئه « توجيه التربية الى اعداد الرجل للقيام بوظائف الحياة الخاصة والعامة في السلم والحرب بشرف وعقل وبراعة » ، وهي غاية هذه التربية .

وفي أيام « مونتاني Montaigne » اتجهت التربية الواقعية لتقوية الفضيلة وتعزيز الاخلاق ، وقد صرح هذا العالم في رسائله قائلاً :

« يجب على المعلم ان يث روح الفضيلة في نفوس الطلاب ، وعليه ان يبين لهم طرق اكتسابها فهي أمّ المسرات البشرية ، وهي التي تجلب للراء الصحة والمجد والسعادة ، وهي التي ترشده الى كيفية الاستفادة من الاشياء الحسنة » .

واعقب هذا التطور قيام العالم الانكليزي « فريس بيكن » والمؤرخ « كارل فون كرومر » وامثالهما من رجال التجدد ، بحركتهم العلمية لجعل التربية تتلاءم مع الحس والواقع ، لا اعتقادهم ان المعرفة لا تأتي إلا عن طريق الحواس ، فيجب ان تكون مهمة التربية الاساسية ، تدريب المرء على حسن استعمال حواسه ، وتنمية قوتي الاطلاع والادراك ، حتى يتمكن العقل من درس مظاهر الطبيعة وتعليلها ، وبذلك تمكنوا من تطبيق طريقة الاستقراء التي وضعها « بيكن » للعلوم ، واستبدال اللغات القديمة باللغات القومية ، ومحتويات التربية الانسانية اللغوية بالعلوم الطبيعية والاجتماعية الجديدة .

وقد سميت هذه التربية « بالتربية الواقعية الحسية » . وما ورد في طريقتهم التدريسية الجديدة المبادئ الآتية :

- ١ - يجب السير من السهل إلى الصعب ، ومن المحسوس الى المجرد .
- ٢ - تأتي الامثلة والشواهد قبل القواعد .
- ٣ - يجب تمويد الطلاب التحليل قبل التركيب .
- ٤ - يجب الاهتمام بتمويد الطلاب البحث والتنقيب ، فلا يجب أن يقبلوا الشيء الا بعد ان يختبروا صدقه بأنفسهم .
- ٥ - يجب الاهتمام بتفهمهم الدروس قبل استظهارها .
- ٦ - يجب الاعتناء بترغيب الاطفال ، وتحريك شوقهم الى الدرس ، ولا يستحسن استعمال الضغط والاجهاد معهم .
- ٧ - ينبغي استعمال اللغة القومية كواسطة لدراسة كل العلوم .
- ٨ - يجب ان يقدم درس الشيء نفسه على درس الكلمات التي تصفه .
- ٩ - يجب ترتيب الدروس بصورة تناسب البيئة والزمان ، كما انه يجب الاستفادة من الميول الطبيعية التي تولدها الحوادث .

١٠ - يجب ان يعطى المجال لكل فرد للحصول على تربية اولية على الاقل .

١١ - يجب الاعتناء بالالعاب الرياضية حفظاً لصحة الطفل .

١٢ - من الممكن وضع علم في اصول التربية والتعليم يسهل على المدرسين هذه الصناعة الشريفة .

وكان « بيكن » يعتقد أن للبحث والسمي وراء اكتشاف الحقيقة طريقتين :
« الاولى : ان ينتقل الباحث رأساً من المعاني الجزئية الى القواعد العامة مكتشفاً
من فحسه للقواعد العامة الدرجات المتوسطة التي تتصل بها المعاني العامة ، وهذه
هي الطريقة المستعملة .

والثانية : وهي الطريقة المثلى تكون بفحص المعاني الخاصة فحماً دقيقاً ،
والانتقال بصورة تدريجية الى المعنى العام المحتوي على الحقيقة الكاملة ، وقد
سلم بالمبدأ الذي يقول : « بانتهاء الاستقراء يبتدىء الاستنتاج » . ومن قوله :
« ان العلوم لا تكون عملية نافعة ما لم تطبق المبادئ العامة ، التي يتوصل اليها
الباحث عن طريق الاستقراء في الحياة العملية بصورة استنتاجية » .

وكان « رتك الألماني Ratke » المتوفي عام ١٦٣٥ يتبع أسلوب الاستقراء
ويدين بالتربية الواقعية ، ومع انه لم يتمكن من النجاح في تطبيق آرائه ، فانه كان
من المعلمين المصلحين ، وطريقته في التعليم لها قيمتها التربوية وخلاصتها كما وردت
في كتاب تاريخ التربية :

١ - يجب ان تسير في الدروس سيراً يوافق سير الطبيعة .

٢ - لا تمزج بين أشياء كثيرة في وقت واحد .

٣ - على المدرس أن يعنى بمراجعة الموضوع مرات عديدة .

٤ - لا تطلب من التلاميذ أن يستظهروا شيئاً مطلقاً .

٥ - يجب ان يتعرف الطلاب الى الشيء قبل أن يتعرفوا الى أوصافه .

٦ - يجب الاكثار من التجارب العملية .

٧ - ينبغي استعمال الرغبة أي تحريك شوق الاطفال ولا يجوز استعمال القسوة والشدّة .

ولا يقل « جون كومينوس J. Cominus » المتوفي سنة ١٦٧٠ فضلاً عن المربين المار ذكرهم ، فهذا المربي الذي مارس التعليم واضطهد وهاجر وأثف ، كان يعتمد في تعليمه على استعمال الرسوم والاشكال في الكتب الدراسية ، وقد قسم أدوار التربية الى اربعة أدوار :

١ - دور الطفولة الاول من سن ال ١ - ٦ ويشتمل على التربية في المنزل وله في ذلك أنظمة شبيهة بأنظمة فرويل في حدائق الاطفال .

٢ - دور الطفولة الثاني من سن ال ٦ - ١٢ ويستغرق الدراسة في المدارس الوطنية « وفيها تدرس اللغة القومية » .

٣ - دور المراهقة ويمتد من سن ال ١٢ - ١٨ حيث يدخل فيه الطالب مدارس الجنازيم أي « التحصيل الثانوي » .

٤ - دور الشباب ويمتد من سن ال ١٨ - ٢٤ وهو دور التحصيل العالي في الجامعات .

وبعد هذا نزلت التربية نحو الترويض الفكري Mental Discipline ، أي تدريب العقل ليتم نضجه وذلك في تسيير التعليم وما ينتج عنه واعتبار اهمية الشيء الذي يدرس أمراً ثانوياً .

ولهذه النظرية أشكال عديدة ، وإنما تتفق كلها على ان العمل الفكري اذا احسن انتخابه يولد ملكة أو قوة عقلية ، تفوق بأهميتها القوة والنشاط اللذين يصرفهما المرء في سبيل توليدها وهذه الملكة الجديدة تصلح للاستعمال في مواضع وابحاث جديدة قد لا يكون لها علاقة بالموضوع الذي انتجها .

ويقول اتباع هذه النظرية الجديدة ومؤيدوها أمثال « جون لوك » المتوفي سنة ١٧٠٤ والاستاذ « فوليه » بأن اتقان فرع او فرعين بصورة حسنة يكفي ،

ولا حاجة للتوسع في بقية الفروع والمباحث ، لأن القوى العقلية التي تنمو باتقان هذين الموضوعين ، تمكن من سبر غور بقية الأبحاث بسهولة ونجاح ، وقد برروا دعواهم بقولهم ان درس اللغات القديمة في المدارس يفيد الطالب ، لأنه يولد فيه ملكة تساعد على القيام ببقية الامور العقلية . كما ان اتوسع في درس المنطق والجدل والرياضيات ، يولد في العقل قوة الحاكمة الصحيحة التي تساعد في بقية الاعمال العقلية .

وكذلك درس اللغة والآداب ينمي قوتي الحافظة والذاكرة ، وان لم يكن لدراستهما فائدة حيوية محسوسة .

يقولون هذا ولكن يعارضهم آخرون كالأستاذ الطبيعي « هاكسلي » ، والفيلسوف العظيم « سبنسر » وكلاهما يجعل العلوم الطبيعية أساساً للتربية والتعليم . وبذلك اختلفت المدرسة الترويضية عن المدرسة الطبيعية التي يقول بها علماء الطبيعة وفلاسفة النهضة الفكرية الاجتماعية امثال « جان جاك روسو » المتوفي سنة ١٧٧٨ و « جوهان باز دو » المتوفي سنة ١٧٩٠ .

ومما ينتقد على النظرية الترويضية انها مبنية على مبادئ علم النفس القديم ، الذي يقسم العقل الى قوى عديدة كقوة الاطلاع وقوة الخيال وقوة الذاكرة وقوة الحافظة وقوة الحكم والحكمة الخ ... وانها تعمل لتقوية العقل في ناحية دون ناحية ، وهذا مضر بالتوازن الذي لا بد منه ، إذ العقل مهما يكن ، فعلم النفس الحديث يعتبره وحدة لا تتجزأ ، يجب تدريبه ككتلة واحدة ، حتى لا يحتل توازنه ، وعدا ذلك ، فان تدريب الحافظة وتقويتها لا تقوي الاطلاع . والتفوق في المحاكات الرياضية ، مثلاً لا يكسب قوة في المحاكات المنطقية والجدلية ، وبتقديم العلوم الطبيعية وكثرة ما نتج من اكتشاف واختراعات توسع الانسان في الوقوف على اسرار الكون وخواص المادة .

وكان من الدراسات التي تعمق بها قضايا « علم النفس » ووظائف العقل ، ولما جاء القرن التاسع عشر ، كانت مساعي علماء التربية والفلسفة امثال « بستالوزي »

المتوفي سنة ١٨٢٧ و « فريدريك فروبل Frobel » المتوفي سنة ١٨٥٢ ، و « هربرت Herbert » المتوفي سنة ١٨٤١ قد وجهت التربية نحو النزعة البسيكولوجية التي عنيت بمساعدة الطفل على تنمية قواه الطبيعية ، وان يراعي سنة التدرج والترتيب الطبيعي في تعليمه وان يعطى في كل طور من اطوار نموه ، علوماً ومعارف توافق مداركه ونمو عقله الطبيعي .

ومما قاله بستولوزي في هذا الخصوص : « مثل التربية الصحيحة كشجرة غرست بالقرب من مياه غزيرة فأني ببذرة صغيرة من هذه الشجرة ، وزرعت في تلك التربة الخصبة والبذرة ، كما لا يخفى تحتوي على خواص الشجرة التي انتجتها . فالإنسان يشبه تلك الشجرة ، والطفل بمواهبه وقواه الكامنة يشبه البذرة ، ومهمة المربي ان لا يتدخل في نمو الطفل الطبيعي . بل عليه ان لا يؤثر في طبيعته بشيء مطلقاً ، أي عليه ان يترك قوى الطفل الفكرية والخلقية والعملية تنمو كما تشاء ، فلا تعلمه الدين والایمان ، ولكن ينبغي عليك ايها المربي ان تكون عاملاً بواجبات دينك ، ولا تلقنه دروساً في المحبة إذ لا فائدة من هذا الكلام المنمق ، بل كن له خير مثال عملي بأن تحبه محبة حقيقية ، وكذلك لا فائدة من تلقينه افكار الآخرين اذا شئت ان تربي مداركه ، بل فكر أنت أمامه بصورة صائبة ، وإذا أردت ان تلقنه العلوم والفنون ، فلا تطرقها بالكلام عن أقسامها وفروعها ونتائجها ، بل عليك أن تسير أمامه متبعاً طريقة البحث والتنقيب والتجربة » .

ومن مبادئ هذا المصلح والمربي الكبير :

- ١ — الملاحظة أو الإدراك الحسي هما أساس التعليم .
- ٢ — يجب ان يكون تعليم اللغة مقروناً بالملاحظة ، أي بالأشياء التي تدل عليها الألفاظ .
- ٣ — يجب أن لا يصرف وقت التعليم بالحكم والانتقاد .
- ٤ — يجب أن يكون السير في اي فكر كان من الأسهل ثم التدرج الى

الاصعب ، وذلك بمراعاة نمو الطفل أو بالاحرى مبادئ علم النفس .

٥ — يجب ان لا ينتقل من مادة الى اخرى إلا بعد اتقان الاولى .

٦ — يجب ان يرمي التعليم الى تنمية مدارك الطفل أولاً ، لا الى اعطاء المعلومات .

٧ — على المعلم ان يحترم شخصية الطالب .

٨ — يجب ان يكون المدرس قوياً في مادته ومهراً في طريقة التعليم .

٩ — يجب ان تكون العلاقة بين المعلم والطالب مبنية على أساس المحبة المتبادلة .

١٠ — غاية التربية أوسع وأبعد من غاية التعليم .

واما « هربارت » فمن مبادئه ان العقل البشري وحدة لا تتجزأ ، خلافاً لما قاله « أريستو » وجماعته الذين قسموا العقل الى قوى عديدة ، الفكر ، والوجدان ، والارادة ، ثم قسموا هذه الى اقسام اخرى تعرف بالملكات ، وربوا منهاج المدارس ومادة التعليم بشكل يتفق مع هذا التقسيم ، أي انهم عيّنوا لكل ملكة من تلك الملكات درساً ينمّيها ويدربها .

وعنده أن نفس الطفل تكون خلوّاً من كل شيء في بدء حياته ، ولا تحتوي إلا على قوة واحدة ، وهي قوّة الاختلاط بالمحيط بواسطة الجملة العصبية .

وبهذه الخاطلة ينمو العقل ويتكامل ، أي بواسطة الادراك الحسي أو الاطلاع Sense Perception ثم بامتزاج الاطلاعات ، تنمو قوتنا الحكم والمحاكمة ، ومهمة العلم في هذا الصدد ان يحيط الطالب بمظاهر تمكنه من اكتساب هذه الاطلاعات ، وذلك بتهيئة الظروف التي تساعد على الاحتكاك بالطبيعة وبالمهئية الاجتماعية ، فاحتكاكه بالطبيعة يولد فيه المعرفة ، ومخالطته بالناس تولد فيه العطف والشفقة . وليست نفسية الطفل شريرة بالطبع ، وانما هي محايدة بفطرتها ، تسلك سبيل الخير والشر بمقتضى المحيط الذي تعيش فيه ، أو ببساطة أوضح يتوقف

سلوكها احدى الوجهتين ، على الاختبارات الاولى وعلى كيفية امتزاج تلك الاختبارات « الاطلاعات » وتمثيلها . ولهذه النظرية التي أتى بها « هربارت » ، نتيجتان مهمتان في نظر علم التربية والتعليم وهما :

١ - ان أهم ميزة في العقل هي قوة الاطلاع .

٢ - التربية وهي التي تعين محيط الطفل والاطلاعات التي يكتسبها منه .
وطريقة مقابلة هذه الاطلاعات بعضها ببعض هي القوة الأساسية في تكيف الفكر والخلق .

وفروبل ميزته انه مؤسس حدائق الاطفال وواضع فكرتها الأساسية لمساعدة الطفل على اظهار شخصيته والسماح لقواه الكاملة الغريزية على النمو والظهور . وفي اعتقاده انه لن يتسنى ذلك ، إلا اذا جعلنا أعمال المدرسة تدور على محور فكرة « العمل الذاتي » فليست الغاية الحقيقية من حدائق الاطفال ، « اكتساب المعلومات » انما « النمو » . وما المعلومات إلا واسطة للوصول الى هذه الغاية .

ولتدريب الطفل أي لمساعدته على اظهار شخصيته واستعداداته الفطرية يجب اللجوء الى ثلاثة امور : « الحركات والاشارات والغناء » ، وهذه يجب ان تكون مساعدة بعضها البعض . فاذا روى المعلم للاطفال قصة فلا يكتفي بعادة هذه الحكاية من قبلهم بمصطلحاتهم الخاصة ، بل ينبغي له أن يعطيهم انقصة بشكل انشودة تراقبها الاشارات والحركات او يطلب منهم رسم مناظرها على ورق ملون او صنعها من طين او ورق او قصها من خشب ، وبهذه الصورة يشغل الطفل عقله ويستعمل تخيلته ويدرب عضلات يديه وينمو ذوقه الفني .

وفي اواخر القرن التاسع عشر اتجهت التربية والتعليم نحو النزعة العالمية الحديثة وهي الجامعة للنزعة الطبيعية والبيولوجية والاستقرائية ، ويرجع الفضل في هذه النهضة الى الفيلسوف الكبير هربرت سبنسر المتوفى سنة ١٩٠٣ ، ثم الى العالم الطبيعي « هاكسلي . Huxley » المتوفى سنة ١٨٩٥ . وسبنسر الذي يرى ان وظائف الانسان في الحياة هي :

١ - صيانة حياته .

٢ - سعيه لتأمين معيشته .

٣ - تربية أولاده وخدمة أفراد عائلته .

٤ - خدمة المجتمع .

٥ - تقضية أوقات فراغه .

ويقرر بفعل الغرائز، وان الانسان مهما حاول الانفلات من عاملها القوى وتحكمها في تسير العقل والعواطف لن يجد سبباً . وأهم هذه الغرائز كما وضحتها علماء النفس ومنهم « فرويد » وجماعة مدرسته هي الدفاع عن النفس التي تجعل الحياة كفاحاً مستمراً وتأمين النسل وهي اعظم وسيلة لدوام الحياة وأهم هدف لها . والغريزة الاجتماعية التي تجعل الانسان اجتماعياً بطبعه ينضم الى بني جنسه بحكمها وبتأثيرها تكون المجتمع ووحداته ، وتكونت أنظمة البشر ومدنياتهم واديانهم وقوانينهم وعاداتهم وغيرها مما هو نتيجة للبقاء .

ولهذا رأى الغاية من التربية تهيئة المرء للحياة الكاملة ، وقال ان هذا التحضير يكون :

١ - باكتساب المعلومات التي تساعد الانسان في حياته الفردية والاجتماعية .

٢ - بتوليد القوة لاستعمال هذه المعلومات .

وعلى أساس ما ذكر صنف العلوم وبيّن فائدتها كما يأتي :

١ - المعلومات التي تساعد على صيانة المرء ، والحفاظة عليها مباشرة كعلم وظائف الاعضاء وحفظ الصحة والطبيعات والكيمياء .

٢ - المعارف التي تعمل على حفظ الحياة بصورة غير مباشرة كالعلوم والفنون التي تؤمن الثروة المادية كالصناعات والمساكن المختلفة .

٣ - المعرفة التي من شأنها ان تساعد المرء على تربية اولاده وخدمة افراد عائلته .

٤ — معرفة الحياة الاجتماعية والسياسية ، أي تلك العلوم التي تحتوي على
الابحاث الاجتماعية والسياسية والمدنية .

٥ — المعرفة بالعلوم والفنون التي يدرسها المرء ، لتقضية اوقات الفراغ
كالادبيات ، والفنون الجميلة .

وفي وقتنا الحاضر تمتزج النزعات البسيكولوجية والعلمية مع النزعة الاجتماعية
وتنتهي الى جعل التربية « هي العمل الانهائي المقصود منه تكييف الفرد البشري
جسماً وعقلاً وروحاً لمحيطة العلمي والعاطفي والارادي .

والخلاصة ان التربية يجب ان تتفق مع نوااميس الحياة وضروراتها ، لتخدم
الفرد والمجموع ، وتحافظ على نموهما وكيانهما وسلامتهما ، ومع المحيط واحتياجه
لترقية الحضارة واصلاح المجتمع ومع النهضة لخدمة المدنية والدولة في نواحيها
العديدة ومع تطورات الثقافة وروح العصر كيلا يتأخر الفكر وتضنف المقومات
القومية وتجمد الامة ، ويجب ان لا تخرج عن قوانين علم النفس ومبادئ العلوم
حتى لا تبعد الاهداف عن محجة الصواب ولا تستهدف الغايات الى البطالة
وتناقض العمل فتقل الحركة ويتأخر الارتقاء .

ولا أدل على هذا من قول المربي « يعقوب فام » في بحثه عن التعليم واهدافه
إذ يقول : « ان التعليم في كل زمان ومكان عملية علمية يقوم بها جيل بقصد
إعداد الجيل الآخر للحياة والاضطلاع بمسؤوليتها ولا يخرج عن كونه تجربة
قد تخطيء وقد تصيب ، وقد تنفع وقد لا تنفع شأنه في هذا شأن جميع التجارب
التي يقوم بها الناس » .



الاسباب المرضية للعقل

كيفية المحافظة على صحة الطفل في زمن الطفولة

بما لا شك فيه ، ان للعبادات الدينية ، والتراتيل الروحية ، والنفحات الموسيقية تأثيراً عظيماً على نفس الانسان ، وعلى القائمين بها ، إذ تمنحهم راحة روحية ، وسروراً معنوياً ، وسعادة مصحوبة بسكينة وهدوء ، فيتغلبون بها على العوامل المرضية . ثم تؤثر في الروح فتجعل صاحبها يشعر بالرضى والهناء والاشراق ، مما يدل على ان الانسان ليس انساناً بمجموع اعضاءه التشريحية بل بشيء آخر أسمى وأعلى ذي خاصية تفارق جسمه الطبيعي عند زواله ، أي عند الموت الممدود انتقالاً من الحالة المادية ، وإشارة لتغير في الحالة التي عجزت عن اظهارها ومعرفتها « معامل التجارب والاختبارات » .

ولهذا فالجسم الطبيعي وان حفظت مواده بين ذرات العالم الطبيعي ، وتحولت الى مظاهر اخرى من مظاهر الحياة المادية ، فقواء النفسية التي كانت كامنة فيه وهو حي تخنق بين اعماله العقلية التي كانت مشهودة يلاحظها الخبير عند مقارنته اياها بالكمال الفيزيكي ، وبالتقص العقلي الواقع بين زيادة التهيج وبين الجنون .

فالعقل اذاً ، هو موجود ولا ينكره احد ، وهو غير المجموع العصبي ، ولكن كلاهما ذو نسبة وعلاقة ، فاذا حدث في الجسم الفيزيكي اختلال ظهر تأثيره حالاً في العقل ، وأصبح كالشرارة الكهربائية لها اعراض فيزيكية منبعثة عن الاختلال الذهني .

ان علم الاطفال كفرع من علم الطب كان يحوي المباحث المتعلقة بالجسم ناظراً اليه كشيء مستقل عن العقل ، وهو خطأ ، لانه وإن اعترف لدرجة

محدودة بتأثير العقل على الحالات البدنية ، والحالات البدنية على العقل ، والصفات الغريزية على وظائف الجسم ، لكن الموضوع لم يوف حقه ولا التزم دراسة الجسم والعقل كأنهما شيء واحد لا انفصال ، ولذلك دلت الانفعالات المتعددة ، والاضطرابات المشاهدة في الطفولة على لزوم الاعتناء بدرس الطفولية من أوجهها المختلفة بياناً للعوامل المعنية على الاختبارات الظرفية من التأثير على الوظائف البدنية . وعليه اصبح اليوم من الواجب ان يكون علم مرض الاطفال علماً باحثاً عن الجسم وما يطرأ عليه من التبدلات المرضية وما هي ارتباطها مع العقل . لأن الطفل جسم مرتبط مع العقل ، ارتباطاً حيوياً ، اذا تأثر الواحد تأثر الثاني ، ويدلك على صحة القول ، ان ما يظهر مثلاً من تبدل اطوار الطفل كأنها مرضية ، هي في الواقع مسببة عن تشوه بدني كتضخم اللوزتين والتهاب الغلغلة ، ومرض الأذن . فلو درسناها لظهرت لنا العلاقة ، وفهمنا غريزة الطفل .

ولا ينكر ان التشويشات الذهنية الحادثة اثناء البلوغ قد يكون منبتها في الطفولة ، أو ان لها إذ ذاك جذوراً تبدلت في نموها . فالطفولة اذاً جديرة بالاهتمام زيادة عن اعتنائنا الحاضر ، والحق يقال لو قدر العلم والعالم الطفولة حق قدرها لنقصت تكاليف المجتمع وما ينفقه من الاموال في سبيل مقاومة الجنون ، والجنايات ، والسقوط المهني ، وداء التوكل ، وداء الانتحار .

هذا ولا يخفى أن الانفعالات النفسية تؤثر كثيراً في البدن بقدر ما تؤثر العقاقير والادوية في الجسم ، وتأثيرها وان لم يعلم كله فأهميته تتقوى وتتكرر منذ الطفولة الى نهاية العمر . واذا راعيناها أمكننا محافظة الانفعالات وتوجيهها لخير الحياة لا لضررها . ويجب ان لا ننسى بأن اللذة والألم هما « زنبلك » الحركات الانسانية يصدران من تأثير الانفعال النفساني والادراك العقلي . فاذا عرفنا كيف نحفظهما ، وكيف نعني بهما ، قدرنا على تدبير الحركات الانسانية والاستفادة من آلامنا ولذائذنا ، ولكن العلم واسوء الحظ زهل عن تقدير المؤثرات النفسانية ، فانتشر الجنون ، والهستريا ، والتهيج العقلي ، وداء

الجنايات ، وسوء التصرف ايام البلوغ ، لاهمال المربين ايام الطفولة . فنمت عوامل تلك الامراض بدون مقاومة ، وُغض النظر عن تحري اسباب داء الكئول ، والانتحارات ، والوراثات الزهرية في الامم التي فشت فيها سيئات المدنية ، ولم تعلم نافعها من ضارها ، فتهورت في التقليل ، واتخذت اقبح المساوىء انموذجاً للتباع . وأضرّ الداءات وسيلة للملذات ، فكانت العلل والمصائب خطراً على البشرية ، لأن زمن الطفولة أهمل ، فنقصت الافكار وتشوه سيرها ، وانتجت الفوضى ، وكان الواجب ان يتعلم المربون والمعلمون اساسات علم صحة الاطفال ، لان بيدهم أمر تنقيف النشء ، وتربيتهم وتعليمهم ، وكان عليهم ان يعرفوا العوامل المؤثرة في صحة الطفل وتكوينه ، وهي الوراثة ، وما يحيط بال عائلة من ظروف اساسية ، ثم الرفاقة ، والمدرسة ، والزهرة والسياحات ، وما يحويه محيطه الخاص من خدم وجيران ، فهذه الامور لو عرفت لكان بالامكان الحصول على طفولة صحية .

ان قانون البقاء الاجتماعي كان يقول ببقاء القوى ، وإبادة الضعيف ، ولكنه مبدأ قد تحول وكاد يزول ، لأن العصر الحاضر يقول بمبدأ محافظة القوى وتقوية الضعيف ، لذا كان من الضروري ان نعنتي بضعفائنا على احدث الطرق وأفيد الاساليب العلمية حسب قوتهم الكامنة ، حيث الحياة التناسلية تقل في الامم التي تعنتي بذريتها وتكثر في الامم التي لا تعنتي بها ، ولا بتحسينها ، مع ان المدنية لا يمكن بقاؤها في هذه النسبة تزداد رقياً وتقل ذرية ومقدرة على انتاج القوى ، ولهذا اقتضى وجود النمو الصحي ، وحسن التغذية والتربية في اطفالنا ، أملاً ان لا يفقد البشر قوته عدداً وكفاءة ، وان لا يضعف مجموعه مقدرةً وجمالاً ، وللوصول الى هذه الغاية لا بد للهيئة الاجتماعية ان تشمر بمسؤولية المحافظة على نسلها ، وتخصيص قسم من افرادها يشغل في أهم اساليب التهذيب ، ووسائل التحسين ، وعوامل الاصلاح الاجتماعي . ونحن كأمة تريد البقاء والحياة الطيبة ، علينا ان نقوم بهذه المهمة ، ويكون لنا نصيب عظيم منها ، فننظر الى النسل نظرة حكيم يدرس داءاته وعمله في محيط

اطفالنا ، ونبحث عن العوامل التي تعمل على تكييفهم وتنميتهم بدون انتباه واعتناء علنا نبتدى عملاً منظماً ينتج نسلاً صالحاً .

ان الامم الراقية تصرف جهودها وتبذل اموالها لجمع الحقائق المؤدية لهذه الغاية الشريفة وندرس بموجبها مسائل الوراثة والمحيط والتغذية وتعرف ان تعليل كل صفة ناقصة ، أو تشويه طبيعي في الطفل بانه ناتج عن الوراثة لا يخلو من النقص ، لان الوراثة وحدها لا تفسر جميع النواقص ، بل هنالك مسألة الزواج ايضاً وهي من مهمات العوامل ، ولذا وضعتها أمام العلماء لدرسها وتدقيقها .

وقد وجد المختصون بمباحث الطفولة ، بان الطفل يرث استعداداً خاصاً لأمراض مخصوصة ، فلتخليصه من احكام الوراثة ، لا بد من تهيئة محيط صالح يربيه ويهذبه وينمي . فمسألة الزواج اذاً من هذه النقطة مهمة جداً ، واذا اكملنا تدقيقها جعلنا هياجين العقل علماً شاملاً لكل ما له علاقة بالطفل وطفوليته .

ان الزواج يعدّ صالحاً في نظر « علم الحياة Biology » متى جرى على قاعدة انتخاب الصالح ، وتحسين النسل ، وتهيئة المحيط الملائم ، لأن الذهن ، كما يتأثر من الوراثة ، يتأثر من المحيط ، والممارسة ، والاختلاط ، ولأن الطفل في كل عمل يأتيه له غاية ، وفي كل غاية يأتيها له منفعة ذاتية . وقد تكون هذه الغاية من منفعة المجتمع وقد لا تكون ، ولكن سلوكه على كل حال هو الحركة التي تسوقه نحو تحقيق الغاية المنبعثة عن المنفعة الذاتية المبنية على اساس محافظة الذات وتحقيق السوق الغريزي ، وتأمين النسل ، والعلاقة الجنسية ، فاذا قرب من هذه الغايات اصبح مدار تفكره ومطمح اعماله وان اختص بنفسه ، ولذلك تهتم الهيئة الاجتماعية بأمره ، وتسمى لجملة عضواً نافعاً ومشتركا بالمنفعة ، انما لا يمكن ان يكون كذلك ، ما لم تكتسب العائلة والمحيط الاجتماعي شروط الملاءمة والموافقة لانهما عاملان قويان في تكوين صفاته .

ومن البديهي لادارة السوق الطبيعي « انا » ولحفاظة النسل يجب ان

تكون التماسات المعقودة والموضوعة للسلوك الاخلاقي ، خاصة من شوائب المحيط ومواده المغيرة للتربية والتهذيب ، لان النظر اليها ، وهي المكوّنة لاجزاء المحيط ، والمؤثرة في ذهنية الطفل وعقله لمن اعظم الوسائل الممكنة في تنقيص الامراض العقلية ، والوفيات الذهنية ، فاهمالها واهمال كل شيء يسبب التهيجات المنفورة ، وتجعل الولد كسولاً غيباً شريراً وعديم المنفعة ، وهذا خطأ عظيم يوجب الأسف ، ويضع على ظهر الطفل عبئاً ثقيلاً في الحياة لا مبرر لوجوده نتيجة لعدم المبالاة وجهلاً بالآلام العديدة التي يتلي بها المسكين ولأن ابويه ظلماه ، والمحيط قسى عليه فضيق خناقه ، وحرمه نسيم الرحمة والشفقة .

فالمهاجين الصحي اذاً يجب ان يحتوي على عوامل طبيعية وروحية وتهذيبية واجتماعية تعد الفارق العظيم بين حياة النبلاء في المعنى الاخلاقي ، وبين حياة السفلة الساقطين . وهذه العوامل اذا درسناها ، علمنا ما هي التشويشات والاختلالات الفكرية الحاصلة من اتباع اصول تهذيبية شديدة تطبق على الاطفال وهي خاص بالبالغين ، تضغط على عقولهم ، ولا يدركون لها معنى ولا يسعهم تصوّرها ، ثم شاهدنا تأثيرات العوامل الفيزيكية على الروح كنقصان مولد الحموضة ، وعطالة البصر ، والسمع ، والتشوّه البدني واستغنيانا عن معرفة التأثيرات البسيقولوجية المضرة في مدح الطفل وذمه ، ومعرفة نتائج التربية السيئة ، سواء تسببت عن وراثية عقلية ، أو عن تربية عقلية ، أو عن تربية عائلية أو مدرسية .

وحيث قد اتينا على ذكر المدرسة ، فلا بدّ للبحث عنها لانها من العوامل المهمة في هياجين العقل . ان تأثير المدرسة لا شك يوازي تأثير العائلة ، ولذلك يجب الاهتمام بها . فالأولاد في المدارس اذا دققناهم ، نجد ان الناجحين منهم ليس مجموعهم ولا بالنسبة المنتظرة .. فعشرة في المائة يتأخرون سنتين وخمسة الى الثمانية يتأخرون ثلاث سنين ، فما السبب في ذلك ؟ السبب لا يمكن حله بالفحص الفيزيكي وحده ، لأن الفحص المذكور ، وان كشف الستار

عن بعض التشوهات البدنية المتعددة ، لكنه يفتقر للفحص العقلي الذي يعين حد الذكاء وبقية القوى الذهنية .

فنحن اذاً في حاجة لمدارس تقوي هذا الفحص ، وتتوافق مع مرامينا في التربية . وفي حاجة لتبديل اساليب الدراسة التي اضمحلت من مدارس الاثم الراقية ، وابدلت بأساليب خاصة ، تلاحظ فيها حركات الطفل ومظاهر ذهنيته . فلا يتعلم الاطفال كتلة واحدة ، بل افراداً ، لانهم يختلفون عن بعضهم البعض في النمو والقابلية فيصنفونهم بهذا الاعتبار ويدرسونهم بحسب مستواهم .

أما في مدارسنا فلا تزال الحالة على اسلوبها القديم العقيم ، لذلك نجد سقوط الاطفال الذين يأمونها كثير النسبة ، والحقيقة ان سقوط الطالب لا يعود معظمه لضعفه وعدم قابليته ، ولكن لعقامة التدريس والأصول المدرسية التي ترمي لتطبيق شكل واحد من التربية والتعليم على جميع اطفالها المتفاوتين طبعاً وذهنيةً والستيكية ، أي قابلية وليونة . ولا دواء لهذا المعجز الا باتخاذ طريقة التفريد في التهذيب والاسلوب والفرص ، والطريق ، أي بدرس الفرد على حدة ، واعطائه ما يستحقه ، وهي احسن الطرق ، يُقصد منها معاملة الطفل ككائن حي ، مثال ذلك ، لو وُجد ضعف ذهني في طفل قادر على التهجئة ولكنه غير قادر على العدّ واجراء العمليات الحسابية ، فالضروري اذاً تدقيق الطفل ومعرفة لماذا سقط في الحساب ، مع انه قادر على التهجئة ؟ ولماذا هذا الطفل يحسن تعلم الألسنة ويعجز عن اجراء العمليات اليدوية بمهارة ونشاط ، مع ان غيره يفعل عكسه ؟ ولماذا طفل آخر يتعلم عاجلاً بواسطة الاصول المريئة لا بالأصول السمعية ؟ فمعرفة هذه الحقائق هي طريقة التفريد المطلوبة ، وهي الدواء الناجع لاصلاح المدارس ، وطرق التعليم والتهذيب .

ان الطفل اذا كان من ذوي الذهنيات العالية والتفاضل الذهني العظيم ، فيحق لدماعه نيل ما يستحقه من التمرينات ، واذا كان دون غيره مرتبة ، فمن الحق ان يعطى من العناية والتحصيل ما يتفق مع قابليته واحتياجه .

وعلى المدرسة ان تنظر الموهبة الطبيعية ، وتراعي قضية التفريد ، وإلا فسيرها على الاصول القديمة الخائفة للذكاء ضرر ما بعده ضرر ، لأن الطبيعة منحت الطفل الذكي والمتوسط قوة ميكانيكية ومتنوعة لتساعدتها على تحمل مشاق التعب والتخلص منه ، فليس من المعقول ان يحبل الانسان عناية الطبيعة ومساعدتها ويقف في سبيلها . فالطفولية بعد هذا يجب ان تعرف تماماً لادارتها والاشراف عليها ، ويجب تحديد المكنات التهذيبية بالنسبة للقوى الذهنية الكامنة ، إذ لا يكفي ان نقول « تهيج عصبي ، أو داء عصبي » ونعرض عن معرفة السبب الحقيقي لنفس سلوك الطفل واطواره . فكثير من الحوادث التي تسمى « عصبية » ، منشؤها تشويش فيزيكي وانفعال ارادي . ويجب ان نتذكر بان « الجلجلة » ، والاضطراب ، والملل ، والخجل ، والغيط ، والخوف ، والأرق ، والدناءة الشهوانية ، واليأس ، والضحك المستريكي ، والصداع ، والشقة ، وسوء الهضم المتكرر ، والسوداء ، وعدم ضبط النفس ، والعبوسة ، والبطالة ، والعداء ، والبلاهة ، واللكنة ، وغيرها من الاحوال ، اذا حصرتنا سببها بالتهيج العصبي ، أو المرض العصبي ، اخطأنا تداويها ، واستحال علينا شفاؤها ، ولكننا اذا اردنا التغلب عليها اقتضى لنا فهم اسبابها ، وشروط التربية اللازمة لمعالجتها لانها قابلة البرء ، وذلك متى درسنا عقلية المصاب بها ، وفحصنا جسمه فحصاً دقيقاً لتبين النواقص الطبيعية المصاب بها ، ثم نعمل بمدها لاجراء الاساليب الفنية لازالتها .

أما اسبابها ، وكيفية منعها ، أو تصحيحها وبأي واسطة يمكن ؟ وهل يمكن تشخيصها ودرؤها قبل وقوعها ؟ ولماذا تظهر في الاطفال ؟ فهي اسئلة يسعى الهياجين العقلي حلها ، ولا يخصص درسه وابجائه في معرفة الذاكرة والحكمة ، والبرهان ، والادراك ، بالمعنى الكلينيكي لعلم النفس ، بل بالتحري وفهم الطفل عموماً ، كأنه فرد بشري متمم للهيئة الاجتماعية ، مع الاعتراف بالفراغ ، والانفعالات ، وقوة الارادة ، وكل اساسات الخلق ، معتبراً ايها كالعجينة بعوادها المختلفة ذات قوى متباينة وقابلة للانطباعات غير المتناهية ، الصادرة عن الظروف التي توضع فيها ، فما تحويه الظروف ينطبع عليها . ويعتني

الهياجين العقلي بالجنين قبل وضعه ، وبالطفل اثناء رضاعه ، وبالألم مدة حملها ورضاعها حباً بسعادة مولودها . ويجارب العادات المضرة التي يفعلها الاطفال ايام طفوليتهم ، كخص الاصابع ، والاستمناء وما شابهها . ويدقق حركات الطفل واعماله في السنتين الاولى من عمره ، ويبحث عن رقي الذهن ، وتصحيح كل تشويه فيزيكي ، مثلاً يكبر الطفل في السنة الرابعة ، وقد استحكم التشوّه في جسمه ، وأثر في دماغه . والوصول الى هذه الغايات يتخذ الاساسات الآتية :

اولاً — اجراء الفحص الفيزيكي للبدن تماماً ، وتصحيح كل تشويه في الجسم ، والمبادرة اليه قبل استفحاله . وفي هذا الخصوص ، يجب الانتباه الى التغذية ، والعين ، والأذن ، واللوزتين ، والجهاز العصبي ، والجهاز الافرازي ، والدورة الدموية ، والفعل التنفسي ، فاذا كان فيها نقص ، يجب ازالته ، أو علة يجب مداواتها ، لانه اساس للفائدة الفيزيكية ، ومساعد للقول المأثور : « ان العقل الصحيح في الجسم الصحيح » .

ثانياً — اجراء الفحص العقلي حسب اصول « استانفورد » المعدلة عن اصول « به تيت وسيمون » وهي كافية لبيان المعلومات العمومية عن الذهن ، ويجب الانتباه عند اجرائه الى ان استحصا « الفاضل لقوى الذهنية Quotients » لا يكفي لتحقيق الغاية في معرفة العقل تماماً ، حيث معرفة التفاضل الذهني تفيد عن السطوح الذهنية ، وأما سر المعرفة عن أوجه العقل الكثيرة التي يتعين بها شكل الخلق ونموه ، وحالة السلوك ضمن قابلية المحيط العقلي ، فتحتاج لزيادة في الفحص ، خاصة فيما يتعلق في المسائل العقلية ، كحكاكة الاطفال ومراكزهم الذهنية ، واصحاب المتكررات ، والسوابق المرضية الروحية ، كما اشار اليه الدكتور « غلبك » في تدقيقاته البسيقولوجية . ويجب تعيين قابلية التشكيل ، أو التأسيس Organisation ، وقابلية التعليم ، وقوة التصوّر ، ونوع الحافظة ، وقوة التمرکز ، والانتظام في الحركة والترابط ، وقابلية تعيين الجهات وتمقيها ، ومقدار الشعور الادبي .

ثالثاً — اجراء التحري التهذيبي — وهذا يقسم الى قسمين :

اولاً : كواشف بيداغوجية في الفروع المختلفة التي تدرس في المدارس العمومية .

ثانياً : تحليل دقيق للأساسات المختلفة الداخلة في الدرس ، مع كيفية العمل لترقية التلميذ ، وإعطائه الشهادة ، وضرورة التدريس الفردي ، وتوجيه التهذيب الى النقاط ، والوسائل التي لم تطبق ولم تجرب لآن ولكن ينتظر من تطبيقها فوائد عظيمة ، تخدم النمو العقلي .

فبعد هذا ، لا لزوم للقول بان وضعية التلميذ تجاه المعلم والمدرسة ، هي ذات تأثير اكثر وأهم من تأثير قصر البصر ، أو التهاب الأذن اللذين يمنعان مجاري البصيرة من ان تنفذ الى معرفة ما يحتاجه العقل من التعليم العقلي . ان نقص العقل الناتج عن نقص النمو ، لا يعادل نقص العقل الناتج عن سوء التربية ، فالثاني يفوق الأول ضرراً ، لان الفن بمقدرته تقوية الضعيف ، وتعديل النواقص البدنية بالوسائل العلمية ، لكن يصعب عليه تلافي النقص من النوع الثاني ، إلا اذا اتحدت مساعي المدرسة والعائلة على تدقيق المحيط الاجتماعي للطفل ، واجتنب ما يخل بنمو عقله ، وأعطى له المساعدة الأدبية والاجتماعية حسب أدواره الذهنية ونموها ، فعندها يحفظ النسل ، وتقل المصائب البشرية ، ويكون الهياجين العقلي خادماً لرقى البشر فرداً ومجموعاً .



ما يجب على الطالب والطالبة أن يعلموه

أيها الطلاب والطالبات تذكروا دائماً :

- ١ - أنكم ورثة الأجيال الماضية ، وآمال المستقبل الذهبية .
- ٢ - ان المدرسة هي عالمكم الخاص بكم ، دخلتموه في هذا العهد الجديد لتتأقلموا وتستعدوا . تهيأون للقيام بواجبات الحياة ، وتستعدون لخوض معارك المجتمع واجتياز الصعوبات .
- ٣ - ان واجبات الحياة عديدة ، وهي تزداد شأنًا كلما انتقلتم من دور الى دور « من دور الطفولة الى دور الفتوة ، فدور الشباب ، فدور الرجولة ، فدور الكهولة ، فالشيخوخة » . أما المعارك فليست واحدة ، كما ان الصعاب التي تعتور طريق نجاحكم ليست واحدة . اعملوا لتكونوا جنوداً تؤدون الواجبات بارادة جبارة وايمان ثابت ، وتجتازون الصعوبات والمعارك بمقل وصبر وطمأنينة .
- ٤ - ان المدرسة لا تكون ناجحة ومفيدة لروادها إلا إذا قام أساس بنيانها على : « الارادة والعمل والواجب » ، وكان سقفاً من : « العلم والتربية » ، وأنشئت جدرانها من : « النظام والطاعة والشرف » ، وفرشت أرضها : « بالأدب والنظافة » . فإذا شئت الاستفادة من مدرستكم هذه ، وكنتم حريصين على أن تبقى نقية من كل دنس كقلوبكم الطاهرة ، وأن تكون فردوس سرور لارواحكم يملؤها غبطة وحبوراً ، فاعملوا بالمبادئ التي من أجلها تكونت ، ولا تلوثوها بكتابة مخجلة ، أو تصوير مخل بالادب ، ولا تسيئوا الى سمعتها بمحادثة شاذة أو عمل وضيع .

٥ - ان الحديث الشريف : « الطهور شطر الايمان » يرشدكم بحكمته الفائقة ومعناه العميق الى اهمية الطهارة وما لها من ضرورة في حياة الانسان ، وما جعلها الدين جزءاً من الايمان إلا لتشمل اللسان ، والفكر ، والعمل ، كما تشمل الجسم والمكان .

٦ - يا ابناء المستقبل ، ويا أمهات الغد ، ويا جنود الوطن :

إذا كنتم تتهيأون للعيش الحر ، والكسب الحلال ، والتمتع بسعادة الحرية والاستقلال ، فأول ما يطلب منكم : « الايمان بصحة المبدأ ، والمعرفة بطريق العمل ، والاستعداد لانجاز هذا العمل » .

وإذا كنتم تتهيأون للنجاح في معارك الحياة فأول ما يجب عليكم : « الأمانة ، والاعتماد على النفس ، والشعور بالمسؤولية » .

وإذا كنتم تتهيأون للتقدم فعدتكم : « الجرأة ، والتضحية ، والثبات ، وانتهاز الفرص » .

وإذا كنتم تريدون العزة والكرامة والدفاع عن وطنكم ، فأفضل الخدمات : « الطاعة ، واحترام النظام ، ورعاية القانون ، واداء الواجب » .
لعلكم تشكون في صحة هذه الوصايا ، أو تترددون في تنفيذها ، أو يصعب عليكم اجرائها . اننا نعيذكم من الشك والتردد والجهن ، ونؤكد لكم انها من ائمن تجارب الحياة وأصدقها ، فاسألوا والديكم ومعلميكم ومرشديكم ثم اعملوا بها .

٧ - ان الوالدين والمعلمين والاصدقاء المخلصين لا يغشونكم ، ومن يقف حياته وراحته لاجلكم لا يعتمد خداعكم ولا الاضرار بكم .

٨ - ان الله منحكم نعمة الحياة ، ونعمة العقل ، ونعمة التكوين ، فلا تجحدوا نعمه ، ولا تهملوا العناية بأمرها . انكم اذا حافظتم على صحتكم بالرياضة ، والاعتدال في العمل ، وحسن التغذية ، وراعيتم قواعد العلم ، عثتم بنشاط وفعالية ، وشعرتم بالسرور .

هل رأيتم عليل الجسم والفكر يثبت أمام المتاعب ومشاق الطبيعة ؟
هل وجدتموه سعيدياً في حياته وبين اهله ؟ هل نظرتموه يؤدي واجباته
وينجز مسؤولياته ؟ كلا ! .

٩ - ان الشرور مصدرها اختلال العقل واعتلال الجسم ، وان العقل
الصحيح في الجسم الصحيح ، وان سلامة الوجدان - وهو مصدر
الخير - لا تتأني إلا عن حسن التربية وحسن التثقيف . فلا تجهدوا
عقولكم ، أي لا تحملوها فوق طاقتها فتصاب بالعقم والسقوط ، ومتى
أحسستم بالتعب الفكري ، روّحوا انفسكم بالعبادة والرياضة وتبديل
العمل وتبديل الهواء ، واذا استعصى عليكم حل مسألة او فهم
قضية ، جربوا ان تشاوروا ثم راجعوا اساتيدكم ثم أعيديا الكرة
بأنفسكم .

لا تحجموا عن انسؤال المعقول ولا عن البحث الاصولي للوصول الى
معرفة الحقيقة ، ولا تحقروا المسائل مهما صغرت ، ولا تؤجلوا
واجبكم اليومي الى الغد .

١٠ - قدروا الحقائق ولاحظوا الحوادث ، واعلموا ان كل دقيقة من
حياتكم لها قيمتها ، وانها قوة إذا ذهبت من يديكم لن تعود ، فلا
تضيعوا اوقاتكم سدى ولا تيأسوا من درس لم تنجحوا فيه ، بل
جربوا دائماً ان تعرفوا السبب وتجتنبوا الخطأ .

١١ - تذكروا أن الحسن عدو الأحسن (١) ، فاطلبوا الثاني وتجاوزوا
الاول ، كونوا شخصيتكم بابرار مواهبكم وتقوية ارادتكم ، فلا تلينوا
فيما عزتم عليه بعد تأكيد ، واحرصوا على الحق والدفاع عن كرامتكم ،
واعتروا بأدبكم ووطنكم وأمتكم .

(١) قال الامام علي « رض » ، من قدر لنفسه غاية محدودة وقف دونها ، فقدّر لنفسك
فوق ما تستطيع ، لتبلغ كل ما تستطيع .

١٢ — ليس من العيب أن يعمل الانسان واجبه وأن يخلص لوطنه ودينه
اينما كان وكيفما كان ، وليس من العار ألا ينجح أحدكم في اقدامه
وتجربته ، بل العيب والعار أن تنجحوا بالاعتماد على الغير أو بالغش
والخداع والتزوير .

يجب على كل منكم أن يدرك مقامه ويعزّز شأنه ويحشئ ربه جلّ
وعلا في سرائه وضرائه . واعلموا ان الانسان اذا عثر مرّة فالعثار
من طبعه ولا بدّ من ان تقال عثرته ، كذلك الجواد يكبو مرة ثم
ينهض فيقطع المسافات . فلا تفزعوا من العثار اذا كان في سبيل
الواجب ، وانهضوا وجددوا العزم واقطعوا المسافات، وتخطّوا الصعاب ،
وسيروا بإيمان وثبات تنجحوا .

هذه وصايانا لكم ، غایتنا منها نجاحكم ، فشمروا عن سواعد الجد ، فالوطن
ملق بين أيديكم فان احسنتم فلا تنفسكم وان اسأتم فعلها . راجعوا معلمكم في
شؤونكم وصعابكم وأخبروهم بما تشكون منه ، فهم أولى بارشادكم والأخذ بيدكم ،
ومن يسعّ للشفاء يجد الدواء .

واعلموا أن المدارس كي تضمن لكم الغاية المرجوة والنجاح الدائم ، يجب
ان تستهدف هي ، وتستهدفوا معها الامور الآتية :

- ١ — الثقافة القومية .
- ٢ — الوحدة الوطنية .
- ٣ — المساواة في الفرص .
- ٤ — انماء الشخصية .
- ٥ — تقوية الخلق الأدبي .
- ٦ — تنوير الذهن .
- ٧ — الانقياد للمثل العليا في السياسة والاقتصاد .

المطلوب من الثقافة القومية :

- أ - لغة صحيحة وحب لها ومعرفة بآداب القوم وتاريخهم ووقائعهم .
- ب - معرفة جغرافية الوطن ومنابع ثروته .
- ج - معرفة تاريخ نبغائه الماضين والحاضرين ، وتصوير من كان منهم قريباً من المثل العليا تصويراً واقعياً ادبياً وعلمياً .
- د - معرفة آثاره الخالدة .
- هـ - معرفة مواقفه الشهيرة ومثزاته ومصافيه .
- و - معرفة تطوّر الأمة في نهضتها العلمية والادبية والحربية والصناعية والتجارية .
- ز - معرفة تطوّر الامة في ازائها وما كلفها ومعشرها وآدابها .
- ح - معرفة تطوّرها في عمرانها .
- ط - معرفة علاقات الامة بالامم المجاورة والعالم .
- ي - الاعتزاز بالامة وبفضائلها .
- ك - معرفة مقومات الامة وهي : « اللغة ، والدين ، والتاريخ ، والآثار ، والعادات ، والفنون الجميلة ، والآداب ، والعلوم » .

المطلوب من الوحدة الوطنية :

- أ - حب القانون والدستور .
- ب - الطاعة للحكومة .
- ج - ازالة الاقليمية والمحلية .
- د - مقاومة روح التفرقة والتعصب الطائفي والجنسي .

- هـ - العمل لجعل خدمة الوطن والدفاع عنه مثلاً أعلى لكل مواطن .
و - الحث على رفع شأن الوطن في كل ناحية من نواحيه .
ز - تلقين الواجبات الوطنية في الجندية والوظيفة والدفاع والامن والتعاون وحماية القانون .
ح - الترفع عن امتهان الكرامة والبحث في ما يثير الجدل بين السكان من مختلف العناصر والمذاهب .

وفهم من المساواة في الفرص :

ألا يحرم طالب ماء، حق الاصلاح والعطف ، وان يساعد في الظروف الممكنة على تنمية مواهبه أو اكمال تحصيله أو استعمال ما لدى معه من مختبرات . ويجب أن يعنى بالجميع على حد سواء لتقويم جسامهم وأخلاقهم . فلا يشعرون بالتمييز أو التفضيل، إلا بعد تقاعسهم أو إهمالهم .

أما تقوية الخلق الأدبي فتعني :

- أ - تقوية الارادة .
ب - تقوية الضابط الاخلاقي .
ج - احترام الذات .
د - التمتع بالحرية ضمن حدود القانون والآداب .
هـ - الاقلاع عن المراقبة المباشرة التي فيها امتهان لعزة النفس .
و - الاقلاع عن التحقير والتكدير العلني والمجازاة القسرية .
ز - تمويد التلاميذ التعاون والاعمال المشتركة والتشبث الذاتي .
ح - إيجاد روح الاحسان والمحبة والالفة بينهم .

- ط - تحكيم النظام وعدم التساهل في اداء الواجبات والحرص على الميقات .
- ي - جعل الطالب يشعر من نفسه بخطئه ويتقبل قصاصه برضا .
- ك - تقدير ما يصدر عنه من الخير والاعمال الحسنة بالتشجيع والتجبيد .
- ل - خلق الاعتماد على النفس فيه .
- م - حضه على الحرمة والطاعة للقانون ولاولياء الامر والمعلمين والابوين والعلماء ذوي المزايا الفاضلة .
- ن - حضه على الاحتفاظ بالنظافة والطهارة الروحية .
- س - عدم التعدي على حقوق الغير أو الدولة أو المدرسة وممتلكاتها .

ولتنوير الذهن يقتضي :

- آ - الابتعاد عن الاجهاد العقلي .
- ب - اتخاذ اسلوب الاستقصاء والاستنتاج بدلاً من التلقين في التعليم .
- ج - تعويد التلاميذ الانتباه والملاحظة والاهتمام بكل مظهر أو حادث طبيعي .
- د - انماء القوى الذهنية بصورة متساوية حتى لا تحتل أو تضعف احداها ، فلا يجوز تقوية الحافظة مثلاً وإهمال المحاكمة ، بل يجب تقوية الخيال والتصوّر والتفكير العميق ايضاً .
- هـ - تحبيب الاطفال بالطبيعة والتجارب العلمية وبكل ما هو جميل التكوين .
- و - دراسة مواهبهم ومساعدتهم على استثمارها .
- ز - حمل الطلاب على تحديد التعاريف وتلخيص الموضوعات عقب كل درس من تلقاء انفسهم وبمساعدة المعلم لهم ، لتبقى صور الدروس ومحتوياتها راسخة في اذهانهم .
- ح - تعويد الطفل التحري والبحث واستقراء المواضيع التي هي في متناول فهمه ويده ومحيطه .

ط - اطلاعه على الامثلة العلمية من مواد ومخترعات ومجموعات الخ ...
ي - السياحة مع التلاميذ في المناطق القريبة من وقت الى آخر للدراسة
الاحوال الجغرافية والحيولوجية والزراعية .

ك - زيارة الآثار واعطاء المعلومات عنها .

ل - مراعاة مقدار ساعات العمل الذهني خارج الدروس وعدم تحميل
الاولاد من الوظائف ما يزيد على الساعات المحددة لها .

ويجب حتماً على رجال التعليم ابراز صور المثل العليا في السياسة والاقتصاد
والاخلاق من دراسات التاريخ وكتب التراجم العلمية ووضعها امام التلاميذ ضمن
حدود المعقول والعمل والايحاء بها عن طريق الاقتداء والتمثل . فسياسة صاحب
الرسالة وخلفائه الراشدين واصحابه الكرام ، ومعاوية وعبد الملك وقيادة طارق
وزياد و خالد وموسى بن نصير ومحمد بن القاسم والفاقي و قتيبة مثلاً وولاية عمرو
ابن العاص والحجاج وامثالهم من رجالات العرب ، وسيرة ما هنالك من فلاسفتهم
وعلمائهم ومتشرعهم كابن سينا وابن رشد والفارابي وبختيشوع وابن البيطار
والرازي ومالك وابو حنيفة والشافعي والحنبلي والغزالي وابن عياض والاوزاعي
وابن تيمية وما برز من شعرائهم وادباءهم ومؤرخيهم .

زد على ذلك من ينبغ من رجالات الغرب على اختلاف دولهم ، يجب ان تنفق
ويتبين ما فيها من المزايا الفائقة التي يتحلى كل بها . وعندما تذكر المثل العليا
تحدد عناصرها . ففي السياسة مثلاً يذكر حسن الادارة والدهاء وحل المشاكل
الصعبة واقامة العدل وتأمين الحقوق وايجاد العمران ونشر العلم الخ ..

ويذكر في الاقتصاد انماء الثروة وتوزيع الضرائب بصورة عادلة ، وسهولة
الجباية وازدهار الصناعة والتجارة وحسن المواصلات والاصابة في المعاهدات الخ ..

وعندما نصور المثل العليا للفضيلة لا يؤتى بعناصر لا تتفق مع الطبيعة ولا
مع الواقع فنكون في فضاءنا خياليين ، بل يجب أن نعلم ونبحث عن صعوبات العالم
ومشاكل المجتمع واسبابها واعراضها ونتائجها وطرق معالجتها ، كمسائل الزواج

والقمار والبغاء وداء الكحول والأمراض التناسلية والمذاهب الحديثة كالشيوعية والفاشية والهلترية والاشتراكية والرأسمالية وأسباب اضطراب العالم ، ثم نبث عن تكوين المجتمع ومزايه وما يسوده من قوانين وأنظمة وما يعتوره من مفاسد ، وكيفية درئها بصورة تتلاءم مع ذهنية الطالب وفقاً لسنه ، ولا تفقد قضايا سن البلوغ ، لأنه دور خاص له تطورات وأهميته ، وبهذا نخدم الفضيلة العملية المنطبقة على ضرورات المجتمع وغرائز البشر وعلاقاتهم وتطوراتهم .

ملاحظة :

ان هذه المواد والمبادئ وبعض الامثلة التي بجانبها وضعت لتكون هدفاً للاستاذة والمعلمين والمعلمات تجذبهم نحو الغاية المنشودة من التعليم والتثقيف . وللوصول الى تحقيقها لابد من مراجعة الكتب المختصة بها والبحث مع ذوي الاختصاص للتنوّر والاستزادة . والانسان كما لا يخفى متى وضع نصب عينيه هدفاً ووجه إرادته وجهوده لبلوغه أدرك الغاية حتماً .

وليكن من الملحوظ ايضاً أن الطلاب والطالبات لانماء شخصيتهم يجب ان يتعودوا :
١ — الذاتية ، وهي التي تظهر مزايهم الباطنة والظاهرة فيمايزون بها عن غيرهم في اطوارهم وحركاتهم .

٢ — الفردية ، وهي مبعث تشبههم وقوة ارادتهم واستقلالهم وحريتهم .

٣ — الاعتماد على النفس ، وهو مبعث جرأتهم الادبية وشجاعتهم وشعورهم بالمسؤولية وتقدير التجارب وتمكينهم من دراسة الصعوبات وتذليلها واكتشاف الحاجات وقضاءها .

٤ — النقد ، وهذا لتوسيع مداركهم ، وسوقهم الى القول الحق ، وبيان الحقيقة خدمة للعلم .

٥ — التفكير المبكر ، وهو الذي يبعدهم عن التقليد ويساعدهم على التعمق في الفهم وايجاد ما لم يسبق .

التحقيق الوافي

بأن « المشيمة » ترادف « البهرسة PLACENTA » لا السخند

كتب الزميل الحكيم مرشد خاطر ، في مجلة « المعهد الطبي العربي » ان كلمة « البلاسة » اللاتينية ترجمتها في العربي « السخند » واستعمل اللفظة المذكورة في جميع ما كتب من المقالات الطبية العلمية الى ان اطلعت عليها ، فرأيت ان الترجمة ليست في محلها ، وان استعمال لفظة « سخند » مما يوجب تشويش الافهام عند دراسة الكتب العربية القديمة التي لم تستعملها اصلاً ، فأرسلت له كتاباً لفت فيه نظره لتصحيح الخطأ ، فأجابني بما يأتي :

« اخذت كتابكم الكريم ، وشكرت لكم ملاحظتكم التي ابدتموها بشأن Placenta ، وقد عرفت ان ترجمتها بالمشيمة كانت شائعة ، وان هذه الكلمة قد جرت على ألسنة اطباء الترك ، واستعملها المصريون الذين الفوا وكتبوا ايضاً . غير انني قد عدلت عن استعمالها ، بعد ان جريت مدة من الزمن مجراهم لأسباب أذكر لكم منها شيئاً تحاشياً للتطويل . أكثر ورود « السخند » في كتب العرب بمعنى الماء الذي يكون على رأس الولد . هذا هو معناه المشهور كما ذكروه . على ان بعضهم أورد له معنى لم يذكر لأي لفظة وهو « قوطهم السخند » كالكبدة أو الطحال مجتمعة تكون في السلي ، وربما لعب بها الصبيان « اللسان » . فهذا الكلام لا يوافق إلا ما يسميه الافرنج Placenta وقد سموها بهذا الاسم ومعناه « الحلوى » لأن للبلاسة هيئة مستديرة كهيئة الحلوى التي يصنعونها في بلادهم ، وهي اسفنجية القوام ، وليس للعرب لفظة اخرى لهذا المعنى أو مثله . وأما ان الأكثرين قالوا انها المشيمة ، فالغلط ظاهر لا يحتاج ان يشار اليه ، إذ لم يذكر لها العرب معنى كالذي ذكروه « السخند » .

ولهذا يحسن بنا ان نخصص لفظة السخد للبلاسة ، ونبقى المشيمة الى لفظة « خوريون Chorion » .

ومن العجيب ان الأقدمين من العرب الفصحاء عرّبوا كلمة « Choroid » خورويّد بالمشيمة أو المشيمية ومعناها شبه المشيمة ، وهي الطبقة المعروفة في العين . والحال ان اللفظة الافرنجية مركبة من اليونانية « خوريون Chorion » التي من الواجب علينا ان نسميها « مشيمة » ومعناها الاصلي « الغشاء » ، ومن « ايدوس Edios » ومعناها شبه أو مماثل . اذن كيف قالوا في الكلمة الواحدة مشيمة وذلك للعين وكيف خالفوها مرة ثانية فسموا البلاسة مشيمة وهي غير الاولى ؟ فانلطأ واضح صريح ، والجري على اصطلاح الأقدمين هو الصحيح ، ومخالفة المحدثين لهم مذموم على كل حال . ثم قال :

وردت المشيمة بمعنى غشاء من أغشية العين « في المنصوري في الطب » ، لمحمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١١ هـ وفي بحر الجواهر « المشيمة غشاء يحيط بالجنين ، وفي الأصل على الجنين وبعدها غشاء آخران .

وفي عجائب المخلوقات للقزويني : وعليها « أي على العصبية المجوفة التي تنتهي على قعر العين غشاءان ، أحدها غليظ والآخر رقيق ، فاذا صارت الى عظم العين فارقتها الغشاء الغليظ وصار لباساً ، وغشاء لعظم العين وتسمى الطبقة الصلبة ، ويفارقها ايضاً الغشاء الرقيق ويصير لباساً ، وغشاء دون الطبقة الصلبة وتسمى الطبقة المشيمية لشبهها بالمشيمة . » انتهى

فهذا كلام يدل على ان المشيمة هي غشاء أي الخوريون Chorion ، لا البلاسة » .

وقد قال في آخر ما كتبه : « هذا ما دعاني به التدقيق الطويل الى قبول كلمة السخد في ترجمة البلاسة ، وكلمة المشيمة في ترجمة الخوريون » .
حرر في ٢٧ نيسان سنة ١٩٢٧ م .

وفي ١٢ مايس سنة ١٩٢٧ م ، أجبته على كتابه بنقد ما ورد فيه ، فنشر كتابي الآتي معلقاً عليه ببعض سطور .

قال في المجلد الرابع من المجلة المذكورة « ص ٣٠١ » :

« آتانا من حضرة الزميل الأديب صاحب التوقيع هذه المقالة ننشرها شاكرين له عنايته باللغة ، وسائلين المولى ان يلهم الزملاء واللغويين ، فيسبرون على منهاجه تمحيصاً للحقائق . ثم ذكر قوله : « كنا أول من أشار بترجمة « بلاسنة Placenta » بالسُخذ ، كما يتضح من السنة الاولى لمجلة معهدنا هذه « الصفحة ١٣٤ » ، ثم قرأنا مقالة للحكيم الأديب حنا خياط ، يستفي بها العلامة اللغوي الأب انسئاس ماري الكرمللي ، في بضع كلمات ، منها السُخذ نشرتها « لغة العرب » ، مع استفتاء صاحب المجلة ، ونقلناها الى مجلتنا « مجلد ٣ ص ٦٠٧ » ، وقد أيد العلامة الكرمللي ما كنا استعملناه ووافقنا عليه ، مدلياً ببراهين لا نري حاجة الى اعادتها ، وإذ بالزميل الحكيم عبدالرحمن الكيالي ، يبعث الينا بمقالاته هذه ، الدالة على التقصي والتنقيب مثبتاً صحة ترجمة Placenta بالمشيمة ، وخطأ ترجمتها بالسُخذ .

واننا نلفت انظار العلامة الكرمللي واللغويين والزملاء ، الذين يعنون بلغة الضاد ، الى هذه المقالة ، سائلين منهم ان يبدووا رأيهم بها ، لنتابع الكفة التي نراها رابحة ، وهذا ما لا مندوحة عنه على ما نرى . انتهى .

أما الكتاب فهذه صورته :

ان الاسباب التي استندتم اليها كما يتراءى لي غير وجهة .

اولاً : ان المشيمة تدل دلالة تامة على « البلاسنة » وتقابلها ، ولا شيء سواه . وقد أورد علماء العرب القدماء هذه الكلمة في كتبهم ، واليك البيان : جاء في كتاب الصفوة في الطب والحكمة لمؤلفه جبرائيل بختيشوع ، طبيب المأمون « ص ١٣٥ » ، « الكتاب مخطوط » : واذا وضعت المرأة ، وتأخر سقوط المشيمة ، تعطى طبيخ الحلبة ، أو ماء اللوباء الخ . ثم ذكر ابن داود

الانطاكي في تذكرته : « اسقاط المشيمة ، والجنين ، والفضلات التي تكون بعد النفاس ، وتنقية الارحام » . وكتب العلامة ابراهيم بن عبدالرحمن ابي تبر الازرق في كتابه تسهيل المنافع « صفحة ١١٠ » : « اعلم ان المشيمة ، هي التي تسمى بالخلاص ، فاذا احتبست مع الحامل بعد الوضع ، فهي من الاشياء المخوفة ، فينبغي حينئذ علاجها بالادوية الخ . » . وقال ايضاً : « المرء اذا شرب أخرج المشيمة » . وجاء في كتاب طبي خطي ، لناسخه علي بن محمد من قرية ملند سنة ١١٦٠ : « وأما إخراج المشيمة ، فعصارة الكرب أو بزره تخرجها » . وذكر كتاب المعتمد ، في الادوية المفردة لصاحبه السلطان الملك المظفر صاحب اليمن ، المتوفى سنة ٦٥٦ هـ : « الكرفس شرب مائه يخرج المشيمة ، ويهيج البأة الخ . » .

من هذا يستدل ان علماء العرب القدماء ، استعملوا المشيمة للشيء المستدير المتبسط الذي يخرج من الرحم مع الولد ، أي البلاسة ، فلا الترك ، ولا الذين عربوا من المصريين ، هم الذين استعملوها ، بل اقتبسوها من كتب العرب ، ولا زال الناس عوامهم وخواصهم يستعملونها ويستعملون كلمة الخلاص لجميع ما يأتي معها .

ثانياً : ان كلمة السخند وردت لها عدة معانٍ . وقد جاء في القاموس ، وفي اقرب الموارد ، وفي تفسير غريب الفاظ الحديث « انها الماء الأصفر الغليظ الذي يخرج مع الولد » . وجاء في غيرها معنى آخر ، فهي لوقوع الالتباس في معانيها ، لا تصح ان تكون مقابلاً للبلاسة ، بل مقابلاً لماء الأمتوس الذي سماه بعضهم بماء الرأس .

ثالثاً : ان لفظه بلاسة اليونانية تدل على كعكة منبسطة ، وهل يوجد شيء آخر يشابه الكعكة المنبسطة غير المشيمة التي ذكرها علماء العرب الاقدمون .

رابعاً : ان الخوريون هو غشاء ثانٍ للجنين ، يأتي بعد غشاء الامينوس ، فأصل معناه يدل على « الجلد Cutis » ، أو ما يحيط بنواة الحبة ، وحيث هو

يحيط بالجنين وبغشائه القريب منه ، أي الأمينوس فقد سمي (خوريون) بمثابة الجلد ، أو الغلاف الخارجي ، وهذا يقابله كلمة (السلي) العربية التي تدل على الجلد الرقيق المحيط بالجنين وجمعها اسلا (قاموس) ، وأما سبب التسمية الافرنجية للطبقة الثانية للعين (بالكورويث) ، التي ترجمها العرب بالمشيمية فتأتج من احاطتها بالشبكية ، فهي بمقام السلي الذي يحيط (بالأمينوس) . والعرب لم تضع للكورويث (خورويث) كلمة اخرى ، لانهم رأوها مشابهة للمشيمة بأوعيتها الدموية ، فقالوا مشيمية . وهذا لا يجبرنا على ترك ما استعملوه لانهم اطلقوها على البلاسة ايضاً ، بل يجب الاحتفاظ بها لمشابهتها الحقيقية والاحتفاظ بكلمة السلي لموافقتها الخوريون .

خامساً : ان المشيمة لم يرد لفظها مقابلاً للطبقة الثانية من العين بل وردت مشيمية بالنسبة .

سادساً : قول صاحب الجوهر بان المشيمة هي غشاء يحيط بالجنين غير صحيح ، إذ لا البلاسة ، ولا الخوريون يحيطان به رأساً كما هو معلوم من علم الأجنة والأنسجة ، واذا كان بعدها غشاءان ، فاما ان يكون احدهما هو الأمينوس ، وهذا لا يوافق ، واما ان يكون البلاسة وهو صحيح .

فمن هذه الأدلة يقين صحة اطلاق العرب كلمة « مشيمة » للبلاسة، واطلاقهم « السلي » على الخوريون والساياء ، وهي جلدة فيها ماء اصفر تنشق عن الجنين ، والغرس - وهي جلدة على وجه الفصيل ، والولد ساعة يولد « قاموس » - على الأمينوس ، والسخذ على ماء الأمينوس .

وقد وجدت في كتاب تنوير الاذهان للدكتور بشاره زلزل «ص ١٠٠» من المجلد الاول ما يوضح المقال المتقدم : « ان المشيمة تلتصق بجدار الرحم الباطن فتتسج عروقها بعروق الجزء المقابل لها المسمى بالمشيمة الامية (Placental Maternal) ولا يكون بين المشيمة الامية ، والمشيمة الجنينية (Placental Faetal) اتصال فتتفصل احداها عن الاخرى بدون ان تتمزق . على انه قد يحدث اتصال بين المشيمة وغشاء الرحم المخاطي فلا تتفصل المشيمة

الا وقد جذبت قسماً من الغشاء المخاطي الرخمي وهو المعروف بالغشاء Dicides الذي قسم هكسلي ذوات المشيمة بحسبه الى ذوات الغشاء الساقط (Decidues) والى عديمة الغشاء الساقط (Adecidues) ، فضلاً عن ذلك فان المشيمة يختلف شكلها في الحيوانات البونة فتكون « قرصية » كما في مرتبة القرد العليا والجناحية اليد ، أو على شكل « المنطقة » كما في الضواري أو « كبيرة الفصوص » كما في المجترّات ، أو « منبسطة » كما في الغليظة الجلد والخافر .

وقال بعده والسلي ينشأ من صفيحة الغشاء الجرثومي الظاهرة « الكوربون » فتحقق صفيحته المصلية بالجنين في اثناء انعطافه على نفسه ، وحينئذ تتكوّن ثنية تتجه نحو الوراء على الوجه الظهري فما احاط بالرأس يسمى : « بالسقي Capauchon Cephalic » ، وما احاط بالبدن يعرف بالغرس Capauchon Caudal وسماه القزويني باللفائفي . وهما يلتقيان حيث يحدان السرة السلوية ثم يتحد احدهما بالآخر ، فيكون الجنين مغلفاً في هذا الكيس عائماً في السائل الذي يتضمنه وهو ما سمي بماء الرأس . انتهى

وعليه ارى ضرورة في المحافظة على كلمة « مشيمة » للبلاسة منعاً لتشويش الذهن عند مطالعة الكتب القديمة ، واذا كان ثمة من خطأ في ترجمة الخورويّد فلفظة المشيمة تبقى وتحافظ على المقصود ، وعلى كل الخطأ المعروف خير من الصواب المهجور ، واذا لم تقنعكم بياناتي ، ارجو نشر السؤال في المجلة لعلّ غيرنا يتوفق لما قصّرنا نحن عنه والسلام .

ثم في محرم الحرام سنة ١٣٤٦ هـ الموافق لشهر تموز سنة ١٩٢٧ م ، نشر الألب الكرملي في الجزء السابع من المجلد الرابع في صفحة (٤٨٥) ، جواباً قال فيه :

اولاً : طلب صاحب مجلة المعهد الطبي العربي في ١٩٣٠/١/٤ ان يقال الكلام الفصل في السُّخْد والمشيمة ، وقد ذكر الطبيب عبدالرحمن الكيالي ان المشيمة هي المسماة بالفرنجية (بلاسته) واستشهد لذلك بنصوص من كلام

الاقدمين كقولهم ان الدواء الفلاني يخرج المشيمة ، وطبيخ النبات الفلاني يدفعها الى الخارج ، وغير ذلك ، وفي جميعها لم نجد سوى ان المشيمة هي الغرس على ما شرحها صاحب تاج العروس ، أي كل ما يخرج مع الولد من الاقدار . ولم ينص احد على انها البلاسنته ، أي السخند . فأين وجد حضرته ان المشيمة فيما ذكره من النصوص هي البلاسنته وحدها دون غيرها .

ثانياً : للسخذ عدة معانٍ كما نقلناها عن السلف ، وكذلك للمشيمة عدة معانٍ ، لكننا نرى بين معاني (السخذ) شيئاً لم يذكره اللغويون لسائر الالفاظ التي تعود الى الموضوع ، وهذا الشيء هو المسمى عند الافرنج بالبلاسنته . فهل وجد مثل هذا المعنى للمشيمة ؟ ولهذا يحسن بالمدقق ان يخصص معنى دون آخر اذا لم تيسر له الفاظ تقيد مفاد ما يريد ، فيفرض اللفظة مع معناها الجديد فيتسع المجال في موضوع ، ويهتدي سريعاً الى الضالة المشوذة في موضوع آخر . فهل وجد حضرة المعترض مثل هذا الأمر في المشيمة ؟ .

ثالثاً : لم يصرح احد بان المشيمة هي كعكة طويلة ، بل اظهر السيد مرتضى في تاجه انها الغرس ، وفسر الغرس بما نصه : الغرس بالكسر ما يخرج مع الولد كأنه مخاط ، وقيل : ما يخرج على الوجه . وقال الازهري : الغرس جلدة رقيقة تخرج مع الولد اذا خرج من بطن أمه . وقال ابن الاعرابي : الغرس المشيمة ، أو الغرس جليدة رقيقة تخرج على وجه الفصيل ساعة يولد فان تركت عليه قتلته ... اه . ولم نجد انه قال الغرس أو المشيمة كعكة !

رابعاً : الدليل القاطع بل القاتل هو ما ذكرناه في تعريب الخوريون ، وليس الكوريون . أما ان حضرته يشتق الخوريون من Cutis ، فلا نوافقه عليه بل الكلمة يونانية ومعناها الجلد أو الجليدة لا الكعكة أو الكميكة . ويقابل اليونانية Chorion ، اللاتينية Chorium بالمعنى المذكور .

خامساً : قول حضرته ان المشيمة لم يرد لفظها مقابلاً للطبقة الثانية من

الأمين بل وردت مشيمية بالنسبة يخالفه دوزي الذي يستشهد بكلام احد
الاقدمين فليراجع .

سادساً : ان خالف الكاتب رأي صاحب الجوهر فهذا لا ينقض شيئاً
من حقيقة المشيمة ، فهذه غير البلاسنته ، كما ان هذه غير تلك .

سابعاً : ازيد على ما تقدم ان لا معنى لهذه المجادلة الفارغة ، فان
الحققيين قد فرغوا من هذا الأمر ، ولا فائدة من العودة الى اعادة النظر فيه .

ثامناً : ان الذي لا يبغي شكاً في ان السخند هو البلاسنته ان (السخند)
محوطة عن الشهد على لغة من يجعل الهاء خاء (راجع المزهري طبمع بولاق
(١ : ٢٢٥) . وأما قلب الشين سيناً مهملة فأشهر من ان يذكر . وانت
تعلم ان الشهد هو القرص الذي يتخذ النحل في خليته فهي حلوى طبيعية ،
بينما ان البلاسنته حلوى مصنوعة . وبعد هذا التحقيق اذا اراد احد ان
يصر على رأيه فهو مخير ، لكن الحق أحق ان يتبع والسلام على من رأى طريق
الهدى فاهتدى .

وقد اطلعت على ما جاء في بياناته ، فتبين لي ان الأب المذكور لا يريد ان
ينصاع للحق ، وانه تمرد على الحقيقة ، واستخرج الباطل دفاعاً عن رأيه
السطحي وفلسفته اللغوية المتعجرفة ، وتهكمه الخارج عن طريق البحث العلمي ،
فأردت ان اهديه للنور ، وان اكشف له عن سوءه فيما ذهب اليه ، واين
الحقيقة كما هي ، فكتبت المقال الآتي مفصلاً ، رداً على ترهاته وذلك في ١٩
كانون الثاني سنة ١٩٢٨ ، فنشرته المجلة في المجلد الخامس (ص ٢٣٠) ، ومن
بعدها لم اطلع على نقد له ، ولذا اثبتته خدمة للغة والعلم .

قلت في المقدمة ، كنت بينت لحضرة الزميل الطبيب مرشد خاطر ،
الاسباب التي دعيت الى الاعتراض على لفظة (السخند) وأدليت بحجتي فلم يقبلها
حضرة اللغوي الأب المستاس الكرملي متعللاً بما يأتي :

١ - انه لم يجد في جميع ما قلته ، سوى ان المشيمة هي (الفرس) على ما شرحها صاحب التاج ، أي كل ما يخرج مع الولد من الاقدار ، ولم ينص احد على انها السخذ ، ويسألني أين وجدت ان المشيمة هي البلاسته .

٢ - انه وجد للسخذ معاني كثيرة وفي جملتها معنى لم يجده فيما قبل عن المشيمة ، ولذلك يرجح كلمة السخذ ترجمة للبلاسته دون غيرها .

٣ - لم يقل أحد بان المشيمة هي الكعكة .

٤ - ان الدليل القاطع ، بل القاتل (كذا) هو ما ذكره حضرته في تعريب الخوريون .

٥ - لا معنى لهذه المجادلة الفارغة ، فان المحققين على زعمه ، وهو خاتمهم قد فرغوا من هذا الأمر ، ولا فائدة في العودة اليه .

٦ - ان السخذ لفظة محولة عن الشهد ، على لغة من يجمل الماء خاء ، وحيث ان الشهد هو قرص النحل ، وانه مدور ، والبلاسته مدوورة ، فاذاً يجب ان يكون الشهد هو السخذ ، والسخذ هي البلاسته .

هذا ما ادلاه من الحجج والبراهين رداً على اعتراض ، وسيعلم القارئ خطأه في الاستدلال والاستنتاج ، فأبين ما هو المفهوم من أغشية الجنين ، ليصح اطلاق الاسماء التي وردت في كتب اللغة والطب ، ثم ابين ما فهمه العرب من تلك الاغشية وما وصفوه ، واقارن بين مسمياتهم ومسميات الطب الحديث ، ومسميات اللغويين من العرب ، وعندها يتضح الحق فيما قصدت .

اولاً - ما هي اغشية الجنين ؟ :

ذكر علماء التشريح ، وعلماء الفيسيولوجيا ، وعلماء الاجنة ، وفن الولادة ، بان للجنين ثلاثة أغشية تحيط به ، وقد سموها الاول الامنيون Amnion وسموا الثاني خوريون Chorion ، وسموا الثالث بلاسته Placenta .

فالأمنيون : هو الغشاء القريب من الجنين دون بقية الأغشية ، يبطن الوجه الجنيني للبلاستة ، ويتركب نسجه داخلاً من طبقة واحدة من خلايا اندوتيليوم Andothelium ، اي البشرة المخاطية الباطنة المسطحة ، التي يتجه وجهها نحو تجويف الأمنيون وخارجاً من طبقة موصلة Connective خلاياها مغزلية طويلة ، او نجمية ذات نواة مستطيلة تندمج في مادة ليفية ، ولا يتشوه انتظام وضع طبقة الخلايا البشرية الباطنية الا في نقاط محدودة حيث يستند الأمنيون الى البلاستة فتتكوّن هنالك الخلايا وتشكل نتوءات شبيهة بالزغبية تكون خالية من أوعية الدم .

والخوريون Chorion اصل لفظة يونانية معناها الغلاف الخارجي للبذور او الجلد الخارجي ، ويقابله باللاتينية لفظ خوريوم اي الجلد او الأدمة (قاموس سبنسر) . واما الكيوتيس Cutis فهي لاتينية ومعناها البشرة ، والمعلوم ان الخوريوم والكيوتيس يشكلان الديرما اي الجلد او الغلاف الخارجي. ولذا يقارب معنى الخوريوم والكيوتيس من حيث ان كل واحد منهما جزء لكل .

اما الخوريون كغشاء ، فهو الثاني والمتوسط بعد الأمنيون ، ويقسم الى قسمين : (الخوريون الكاذب ، والخوريون الحقيقي) ، والكاذب يتكوّن عند دخول البويضة الى جوف الرحم وانغماها في غشائها المخاطي الكثيف، وعندها ترسل من جدارها الكشيف ذي الخلايا البروتوبلازمية استطالات تنفذ الى النسيج الموصل (لغشاء الرحم الساقط فتثبت حيث غرست وتجذب ما يلزمها من الغذاء من اوعية الدم في الرحم . ولذا يكوّن الجدار ذو الخلايا مع نتوءاته الشبيهة بالزغبات «الخوريون الكاذب» ، ويتكوّن الحقيقي بعد اختفاء الكاذب واستبداله بطبقة من خلايا الطبقة الخارجية للغشاء الجرثومي بلاستوديرم Blastoderm المحيط بالبويضة أي الجرثوم الغذائي تروفوبلاست Trophoblast فيمتد منها ، اي من الطبقة ، نتوءات - زغبات - تكون في الاول عديمة الاوعية لكنها فارغة ثم تأتي اليها لداخلها من الجنين اوعية بارزة من اطراف البويضة بواسطة «السلي السجقي Allantais ليمتص الجنين غذاءه من كافة الغشاء الساقط المنعكس حتى الشهر الثالث . ثم ان زغباته ذات

الطبقتين السيئسيتيوم Lyncitium ولاغهام Langhan تضمّر وتحتقن ، ولا يبق منها الا ما كان في القسم الطرفي للبويضة المماس مباشرة للغشاء الرحمي الحقيقي Decidua - Seratina فتتمو وتشكل منها البلاسته .

فغشاء الخوريون الحقيقي يبق موجوداً للشهر الثالث ، ثم يضمّر ويحتقن ، وينمو قسم منه فيشكل البلاسته .

وهذا الاخير ، اي الخوريون الحقيقي ، يكون شفافاً رقيقاً ويصبح ليفياً قبل الولادة لان اصله من باطن الخوريون .

الاولى : البلاسته — هي عضو مستقل . وكما عرفنا منشأها من الخوريون الحقيقي ، يبتدأ وجودها من بعد الشهر الثالث حيث تتمو الزغبات التي بقيت ماسة للغشاء الساقط الرحمي الحقيقي بسرعة زائدة ويحدث على سطحها براعم خلايا ايشيلية تسمى السيئسيتيوم تنقلب الى زغبات جديدة وتفرق الى شعبات كثيرة الاطراف تتجه في كل جهة وتنفذ الى كل منها عروة من اوعية الدم ، ثم يتخلل ما بين الزغبات نتوءات آتية من الغشاء الرحمي الساقط التي تذهب الى قاعدة الخوريون بين النتوءات الاصلية الخوريونية ، وتحمل معها عرى الشعريات الدموية الواردة من الدم ، ومتى ذابت طبقة « لاغهام » تبقى طبقة السيئسيتيوم محيطة بالزغبات فتسبح في دم الأم بواسطة شرايين الأوعية الدموية التي تنفتح مباشرة في اول تكوين البويضة الى اتساعات « نقر الرحم » ، ما بين الزغبات البلاستية ، ويكون وزن البلاسته عند الولادة $\frac{1}{3}$ كيلو وقطرها $\frac{17}{1}$ سم وثخنها $\frac{1}{1}$ سم ، وهي كتلة مدورة لون سطحها الجنيني قاتم ، ويشاهد عند الجدل السري منها غشاء براق يتصل بغشاء السطح المذكور ، هو غشاء الأمنيون ، ويوجد في سطح البلاسته الجنيني ثلمات تقسمه الى فصوص ذات مساحات غير محدودة ومنظمة تسمى « فلقات » ، ويعلو سطح الأم غشاء رقيق مائل لليباض يتشكل من خلايا الساقط الرحمي الحقيقي .

فالوصف المتقدم يفيدنا ان البلاسته هي الجسم المدور الثقيل في كثافته المستقل في وظيفته ، وان هذا الجسم يتشكل من بقايا الخوريون الذي نما في

محلات مخصوصة والتصق مباشرة بغشاء الساقط الرحمي الحقيقي ، وامتدت منه الزغبات الى داخله ، وان اصل الخوريون - اي الغشاء المتوسط - لا يوجد عند الولادة ، وانما يوجد في محله غشاء ليفي يقع بين البلاسنته والامنيون . وان الغشاء الاخير هو المحيط بالجنين ، ينشق عنه الولد عند الولادة ، بعد ان كان يسبح في مائته .

ويتفق علماء العرب بوصفهم التشريحي للبلاسنته واغشية الجنين مع علماء الغرب ويطلقون لكل اسم ، فيسمون البلاسنته « بالمشيمة » و « الخوريون » « باللفافني » و « الامنيون » « بالانفس او الساياء » . وهذا ما وجدته بعد اعادة النظر فيما كتبتة مصححاً اياه ، كما جاء في كتبهم على الوجه الآتي .

ثانياً — ما قاله اطباء العرب الاقدمون عن المشيمة واللفافني والساياء :

١ — قال ابن سينا في كتابه القانون الجزء الاول « واعلم ان الجنين تحيط به اغشية ثلاثة : المشيمة وهو الغشاء المحيط به وفيه تنتج العروق المتأدية ضواربها الى عرقين وسواكها الى عرق يسمى فلاس Villus وهو اللفافني Chorion وينصب اليه بول الجنين ، والثالث يقال له انفس Amnion ، وهو مضيق العروق ، ولم يحتاج الى وعاء آخر لفصل البراز اذا كان ما يتغذى به رقيقاً لا صلابة له ولا ثقل ، وانما ينفصل منه بول وعرق . واقرب الاغشية اليه الغشاء الثالث Amnion وهو ارقها ليجمع الرطوبة الراشحة من الجنين وفي جميع تلك الرطوبة - ماء الامنيون - فائدة في اقلالها ، كيلا يثقل على نفسه وعلى الرحم ، وكذلك في تنفيذ ما بين السرة والرحم ، فان الغشاء الصلب ليؤلمه بماسه ، كما يؤلم الماسات ما كان من الجلد قريب العهد معد النباتات على القروح .

واما الغشاء الذي يلي هذا الغشاء الى الخارج فهو اللفافني Amnion لانه يشبه اللفاف ، وينفذ اليه من السرة مصب البول ، وليس من الاحليل . « راجع ما تقدم من وصف الخوريون عند الولادة » .

فهنا يتجلى لك الاتفاق بين القدماء والمحدثين بان الجنين ثلاثة اغشية « المشيمة » اي البلاسته وهي الغشاء الخارجي ، « والفايني » وهو الخوريون ، اي الغشاء المتوسط ، « والأتفس » وهو الأمنيون ، اي الغشاء الداخلي . وقد قال ابن سينا بوجود الفلاس اي ال Villus في الفاييني ، وفي المشيمة وهو صحيح ، لان الثانية مشتقة من الاول ، ولم يقل بوجود الاوعية الدموية في الأتفس ، اي الامنيوس ، وذلك يطابق رأي العلماء المتأخرين .

٢ — ويؤيد صحة اطلاق العرب اسم المشيمة « على البلاسته » ، لا على غيرها ، ما جاء في الجزء الاول من القانون « ص ٥٨٠ » ، عند وصفه كيفية اخراج المشيمة ، قول ابن سينا ، ذكر بعض الحكماء قولاً حكيماء بلفظه ، قال « لايدوس » فان بقيت المشيمة في الرحم بعد اخراج الجنين ، فان كان فم الرحم مفتوحاً ، وكانت المشيمة معلقة قد التفت وصارت مثل الكرة في جانب الرحم فخرجها سهل ، وينبغي ان تمسح اليد اليسرى وتدهن وتدخل في العمق وتفتش بها حتى توجد ، فان كانت لاصقة في عنق الرحم ، فيجب ان لا تجذب على الحذا لانا نخاف انقلاب الرحم .

٣ — وقال عن المشيمة في باب عسر الولادة ما نصه : « عسر الولادة اما ان يكون بسبب الجبلى ، او بسبب الجنين ، او بسبب الرحم ، او بسبب المشيمة ، او بسبب المجاورات والمشاركات ، او بسبب وقت الولادة ، او بسبب القابلة ، او باسباب بادية » .

وابن سينا قد توفي سنة ٤٢٨ هـ ، فجاء من بعده صاحب كتاب الكامل في الصناعة لأبي العباس المعروف بالمجوسي ، فذكر في الباب التاسع عشر من الجزء الثاني لتدبير الحوامل ما نصه : « واذا ولدت وبقيت المشيمة فينبغي ان تعطس المرأة بادخال فيلة من قرطاس في الانف ، او بالكندس فان سقطت ، والا فاطبخ الابهل على الحلبة واسقيها » انتهى .

٤ — ثم ذكر صاحب كتاب « شفاء الاسقام ودواء الآلام » لصاحبه رئيس الاطباء في المارستان المنصوري في القاهرة « خضر بن الخطاب المتوفى

سنة ٨٠٠ هـ ، في بحث تشريح الرحم ما يأتي : «والجنين تحيط به اغشية ثلاثة احدها المشيمة» وهو الغشاء الاول ، و«الثاني الذي ينصب اليه بول الجنين» و«الثالث الذي هو مفيض العرق» ولم يحتج الى وعاء آخر لفصل البراز اذا كان ما يقتضي به رقيقاً لا صلابة له ولا ثقلية وانما ينفصل عنه مائة بول او عرق تام . ويلى الخارج الغشاء الثاني وينفذ اليه من السرة مصب البول ليس من الاحليل ، لان مجرى الاحليل ضيق . والمشيمة ذات صفاقين رقيقين ينتسج فيما بينهما عروقه المبادية ضواربها الى عرقين وسواكها الى عرقين ، والطبقة الظاهرة اقرب الى العصب وكل من الطبقتين ينقبض وينبسط ورقبة لفظة اللحم وهو لحم ممزوج بالعضروف فهو اصلب من سائر اللحوم . انتهى .

٥ - وذكر صاحب كتاب المحجة العفيفية لمؤلفه سنة ٩٣٣ هـ في تدبير النفاس : «واما اذا احتبست المشيمة فينبغي ان تدهن القابلة يدها بالدهن وتدخل وتلزم المشيمة بها الى ما فوق بالرفق حتى تبريها ثم تأخذها بلا عنف فان لم تنجذب ، وصعب عليها اخذها فتخرج بالأدوية المسقطة للجنين» انتهى .

٦ - وجاء في كتاب الموجز للإمام علاء الدين بن ابي الحزم المخطوط سنة ٨٠٨ هـ في اسباب سقوط الجنين قوله : «لان تعلق الجنين انما هو بالمشيمة وتعلقها بفواه العروق التي تسمى «نقر الدم» إذ منها يأتي الغذاء الى الجنين فاذا كانت تلك النقر مملوءة من الرطوبة لم يمكن ان تثبت بها المشيمة بل تزلق عنها وتدفع الى اول الرحم» .

٧ - وقال الطبيب شاني زاده في كتابه «مرآة الابدان في تشريح اعضاء الانسان» المطبوع في الاستانة سنة ١٢٣١ هـ : «للجنين غلافان يسميان في اللسان اللاتيني «خوريون» و«امينوس» وفي اللسان العربي «السلا» على الاطلاق اما الخوريون فهو غلاف كثيف واسفنجي كثير اوعية الدم ، وقد سماه العرب اللفافي ، وهو خارج السلى . والامينوس هو غشاء ثان يطن اللفافي ويكون رقيقاً شفافاً ملاصقاً للخوريون ومتصلاً به . ويحيط بالرطوبة المائية التي يسبح فيها الجنين . والمشيمة تسمى بالخلاص ، تتركب من أوعية دموية لا اعداد لها ونسجها وعائي وشكلها كروي يلاصق قعر الرحم ، انتهى .

ثانياً - يتبين من هذه الاستشهادات والاقوال الثابتة ان العرب استعملوا منذ تسعة قرون لفظة المشيمة للغشاء الثالث المستدير ذي الأوعية الملتصق بقعر الرحم ، اي البلاسته ، ولا يزال الناس كافة يستعملونها الى اليوم .

فهل يعترف الأَب المحترم ، ان اطباء العرب لم يقصدوا في قولهم المشيمة ما ادعاه حضرته « هو ما يخرج مع الولد من الاقذار » ، بل قصدوا ذلك الشيء المستدير المسمى « البلاسته » ، اي الكعكة كما ذكرت « دائرة المعارف البريطانية » .

لقد نقلت ما وجدته في الكتب الطبية ، فان لم يطلع عليها الأَب ، او اطلع ولا يريد ان يقتنع بها ، فعذري انه حريص لا يقنعه شيء .

رابعاً - ما قاله علماء اللغة العربية عن المشيمة والسُخْد والسلي والسبايا :

السلي : قيل عنها جلالة رقيقة يكون فيها الولد وجمعها اسلاء « من كتاب المخصص » ، وقيل انها « المشيمة » عن ابن دريد . وخص الاصمعي السلا بالماشية والمشيمة بالناس ، واتفق الجوهري والازهري على انها خاصة بالمواشي والمشيمة خاصة بالناس . وقالوا ان اتقطع السلي في البطن وخرج سلمت الناقة والولد . اذاً السلي يفيد معنى الخوريون والأمينون سواء ، أو هو المشيمة في الحيوانات .

السُخْد : تضاربت فيه اقوال ائمة اللغة ، فأبو عبيدة وغيره قال ان السُخْد معناه « الماء الثخين الذي يخرج مع الولد » ، ومنه قيل رجل مسخد اذا كان ثقيلاً من المرض « عن المخصص » .

وقال ابو عمر : السُخْد او السُخْد للماشية . وجاء في المخصص « انها هنة كالطحال او الكبد مجتمعة تكون في السلي ربما لعب بها الصبيان »

وهذا المعنى كما يظهر ، حمل سيدنا الأب على اطلاق السُخذ بدل المشيمة ، في حين ان السلى العاشية ، وانه جلدة رقيقة ، وان الهنة التي تكون في السلى معناها شيء حقير ربما من الشحم ، لأن سلى الغنم فيها عقد غددية مدوِّرة كثيرة العدد يجوز ان يلعب بها الاولاد ، ولهذا قال : التي تكون في السلى ولم يقل في الانسان . فهل من المنطق اطلاقها على ما سميناه مشيمة ، وعلماء اللغة خصصوا المشيمة للناس ؟

ولو عرف حضرته التشريح التقابلي في الحيوانات لما أدركته هذه الهفوة . جاء في لسان العرب ان السخذ هو دم وماء في السابياء ، وهو السلى الذي يكون فيه الولد ، اي الجلد الرقيق . وقال ابن احمر : السُخذ الماء الذي يكون على رأس الولد . وقال ابن سيده : السخذ ماء اصفر ثخين يخرج مع الولد ، وقيل هو ماء يخرج مع المشيمة ، ومنه قيل رجل مسخذ مورم مصفر ثقيل من مرض او غيره ، لأن السخذ ماء ثخين يخرج مع الولد .

وفي حديث زيد بن ثابت ، كان النبي يحيي ليلة ١٧ من رمضان ، فيصبح وكأن السخذ على وجهه ، وهو الماء الغليظ الذي يخرج مع الولد . ومثله في تاج العروس عن ابن سيده .

فيتضح ان الرأي السائد المجمع عليه بين علماء اللغة ، هو ان السُخذ ماء اصفر ثخين لا يكون للانسان خاصة ، بل وللحيوان يخرج معه عند الولادة ، فاذاً يجب ان نطلقه على ماء الامنيوس لا سواه .

المشيمة : ذكر الاصمعي انها بالانسان خاصة كالسلى للحيوان . وقال في القاموس انها محل الولد وجمعها مشيم ومشائم . وخصصها بالناس ابن سيده ، والازهري ، والجوهري ، وتبعه صاحب التاج ، ولم يقل احد بانها ما يخرج مع الولد من القاذورات والاوساخ ، ولا وصفوها بانها ماء ثخين اصفر ، ولا بانها جلدة رقيقة ، بل هي محل الولد ، لذا استعملها اطباء العرب كافة بمعنى البلاسته ، ولم يستعملوا السخذ اصلاً .

الساياء : قال مختار الصحاح ، الساياء هي التاج . وجاء في التخصص انها الماء الذي يكون على رأس الولد . وجاء في القاموس هي المشيمة التي تخرج مع الولد ، او جلدة رقيقة على انفه ، ان لم تكشف عند الولادة مات . وذكر الزمخشري في اساس البلاغة أنها الجلدة التي يخرج فيها الولد .

خامساً : الخلاصة :

ان العرب لم يعرفوا في جاهليتهم تشريح الاجنثة ، ولم يظهر أمام أعينهم عند الذبح للحيوانات ، او الولادة الا ثلاثة امور : شيء مستدير ، وماء ثخين اصفر ، وجلدة رقيقة وحبل متصل بين الشيء المستدير وبين الجنين ، فاختلفوا بتسميتها حسب انقسامهم الى قبائل ، وحسب انقسام الحيوانات ، فبعضهم سمي الشيء المستدير « مشيمة » وخصه الانسان ، وسماه بعضهم « سلى » وخصه للحيوانات .

وقد جاء في الحديث ، من ان بعض المشركين جاءوا بسلى الجذور فطرحوه على النبي وهو يصلي . قيل في تفسيره ، السلى الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه . وقيل وهو في الماشية السلى ، وفي الناس المشيمة . والاول اشبه ، لأن المشيمة تخرج بعد الولد ، ولا يكون فيها حين يخرج . انتهى من لسان العرب لأبي منظور الافريقي المتوفى سنة ٧١٦ هـ ومثله في النهاية لابن الاثير .

وقال في لسان العرب ، نقلاً عن أبي زيد ، ان السلا لفافة الولد من الدواب والابل وهو من الناس المشيمة ، وسموا الماء الأصفر الثخين ، اي ماء الأمنيوس « السُخْد » ، وهذا متفق عليه . وسموا الجلدة الرقيقة التي تنشق عن الولد ساعة خروجه « الساياء » وهي الأمنيوس . والخوريون الذي لا يوجد بعد الثلاثة اشهر من الحمل لانه ينعدم ، وتنشأ عنه البلاسته ، فقد سماه اطباء العرب « اللفايف » لمشايمته اللفايف .

سادساً : لماذا سمي اطباء العرب الخوروييد بالمشيمية :

نجيب على سبب تسميتهم الطبقة الثانية للعين بالمشيمية ، مع انها الخوروييد اي الشبهة بالخوريون ، بان اليونان الاقدمين اطلقوا عليها هذا الاسم لمشايتها للخوريون ، قبل ان يتحول الى البلاسنته ، فلما جاء اطباء العرب وارادوا ترجمتها لم يقولوا شبه « اللفايني » بل قالوا المشيمية بالنسبية ، والمشيمة اصلها من الخوريون فاكتفوا بالنسبة لمشايتها لها في الاصل ، وان لم تكن هي الخوريون بعينه ، ومع ذلك فلا يشوش علينا استعمالنا المشيمية للخوروييد ، لانه لا يوجد في مسميات الطبابة تعابير اخرى غير خوريون وخوروييد وخوروييدتس ، أي التهاب المشيمية .

سابياً : اما الجواب على قوله ، لا معنى لهذه المجادلة الفارغة ، فان المحققين قد فرغوا من هذا الامر ، ولا فائدة من العودة اليه ، فنتركه للقارىء الكريم ، بعد ان يقرأ ما حققناه وتقلناه ، الا اننا نقول ، اذا كان حضرته عنى بالمحققين « دوزي » وهو رجل غربي ، فدوزي ليس حجة ، ولا ثقة في كلام العرب .

ثامناً : وفي الختام ، أذكر حضرته الأئب ، بان تخرجه كلمة السُخذ ، وجعلها محولة من الشهد ، لم تذكره كتب الأئمة الثقاة واللغويين الاثبات ، مثل ابن منظور صاحب اللسان ، والجوهري مؤلف الصحاح ، والفيروزابادي صاحب القاموس ، والزبيدي شارحه ، وابن سيده صاحب الخصاص ، والزحشري رب الاساس . ولو اردنا ان نسلم بما قاله ، نخلقنا لأبناء الضاد ، لغة لا تليق إلا برجال الأحلام ، وعندئذ نعود الى تفسير رموزها ومعانيها لمذهب « فرويد »...

انتهى الجزء الاول من كتاب اضواء وآراء

ويليه الجزء الثاني

وأوله [عناصر القومية العربية في ميزان التحليل والنقد]



فهرس الكتاب

في

الدرجات والمواضيع

صفحة

٣

المقدمة

البحث الأول - قرارات النفس

- ٦ تحديد قرارات النفس
٦ قرارات النفس - الدليل على وجودها وعلى تأثيرها
٧ معرفة النفس وتعدد الذات
٩ عدم امكان تعداد القرارات النفسية
٩ اسباب عظمة رجال الفن والعلم وسر تقدسنا لهم ولآثارهم
١٠ بعض قرارات النفس - تعرض كموضوع للبحث
١٢ غرائب احكامنا وختام البحث .

البحث الثاني - فيسيولوجيا الواعية

- ١٣ الواعية من الوجهة النفسية ، والوجهة المادية ، واختلاف العلماء في تعيين ماهية العقل ومركزه ، وكيفية عمله
١٤ نظرية الاستاذ هاليبرتون رداً على ان العقل افراز فيسيولوجي
١٦ مظاهر العقل الثلاثة : الاطلاعية ، والعطفية ، والارادية
١٧ حالات الوعي وما تدل عليه ، والفرق بين الظاهر والباطن

١٨	الذات وفعاليتها ، مجرى الفكر وفعاليتها ، الدوافع العصبية وعملها
١٩	اختباراتها الأولية وماهيتها
٢١	الخواص لوقوع الاحساسات وانواعها ، الادراك وكيفية حصوله
٢٣	قانون « وهر » ، لادراك الاحساسات

البُحْثُ الثالِثُ - « فرويد » او مذهب التحليل العقلي

٢٧	لمحة عن حياة « فرويد »
٢٩	تاريخ نشوء علم التحليل العقلي
٣١	التنويم المغناطيسي ، والتنظيف البسيكولوجي
٣٣	العناصر البسيكولوجية المولدة للهستيريا
٣٤	أقول طريقة التنويم المغناطيسي بوجود طريقة التحليل العقلي
٣٧	اهمية الجنس بمعناه الواسع
٣٨	علاقة التحليل العقلي بعلوم الطب وسائر اقسام العلوم
٤٠	الرغائب المشقية والاعراض الاليمية
٤٠	البسيكولوجي الحديث
٤١	توضيح وظيفة الرؤيا والامثلة على ذلك
٤٤	الاعتراف بعلم التحليل العقلي رغم المعارضة
٤٥	التحليل العقلي يستعمل دواءً في الطبابة
	التحليل العقلي يولد رغبة جديدة لوضع قيمة سامية لعم معالجة الامراض العقلية
٤٧	
٤٧	النور يضيء في تاريخ نشوء المعاهد التهذيبية وارتقائها
٤٨	المواقفة بين بعض الاعتلالات العصبية والاديان
٥٠	النزاع بين الانسان والعالم الخارجي انتج الاساطير والشعر والفن

البحث الرابع - الرؤيا وكيفية وقوعها

- ٥٢ ماقاله الاوائل عن الرؤيا واسبابها . نظرية ابن خلدون ، والرازي
٥٣ ماقاله ديمقريئوس اليوناني ، وماقاله ارسطو وابيقراط وعلماء الهند
٥٤ ماقاله فلاسفة اوروبا ، وماذا يستفاد من اقوال ابن خلدون والرازي
البحث عن الرؤيا بلسان العلم الحديث ، هل العقل شيء مستقل ام شيء
آخر يفرزه الدماغ ؟
٥٥
٥٨ هل يمنع النوم من دوام المجرى الفكري ؟
٥٩ اثبات نظرية ان الرؤيا هي تخطرانا التي يحفظها العقل
٦١ الاحلام هي متمات مجاري الفكر

البحث الخامس - الدوافع المرضية للجرائم والجنايات ووجعها القانونية

- لماذا يجب البحث عن الدوافع المرضية للجرائم والجنايات ، وماقاله العلامة
الدكتور «شيلي شميل» عن المجتمع وأمراضه
٦٣ ماهي الاسباب لارتكاب الجريمة ؟
٦٥
٦٦ ماهي اسباب الدوافع المرضية ، ومن هو مريض العقل ؟
٦٧ ماهو الاستحواذ المرضي وصفاته ؟
٦٨ اوقات الاستحواذ
٧٠ ماهي نتائج الاستحواذ المرضي ؟
٧٣ ماهي العوامل الروحية في ناقص العقل ؟
٧٧ ماهي آراء علماء الطب في مسؤولية مريض العقل ؟
٧٨ مسؤولية مريض العقل في فترة الصحو

البحث السادس - مايجب ان نعرفه عن الاجرام والمجرمين

- ٨٣ المؤثرات الطبيعية للاجرام والمجرمين

٩٠	المؤثرات الاجتماعية في الاجرام والجرمين
٩١	العوامل السياسية
٩٣	العوامل الاخلاقية
١٠٠	العوامل الاقتصادية

البحث السابع - فكرة اللوهمية في الانسان، كيف نشأت ومتى ابتدأت ؟

ما هو التلبث ، اصد وتطوره ؟

١١٥	هل الدين ظاهرة اجتماعية ؟ وماذا تدل تكونات وجه الانسان الاول ؟ هل فيها ما يشير الى مقدرة صاحبها على ادراك الكائنات ؟
١١٦	ما هو الانسان الاول في نشوء الفكرة الباحثة عن المجهول ، وهل كان في اوروبا ام في آسيا ؟
١١٧	الاحلام والخوف من الاشباح والقوى الطبيعية قد تكون الجرثومة الاولى لتكوين العقائد والاديان ، الرواية وكيف تغدو جزءاً من الايمان ، الامثلة على ذلك .
١١٨	قصة آدم وحواء وقدمها في العالم وكيف تداولتها الاقوام ، وشيوع الاساطير والخرافات بين الكثير من الامم في اوروبا ، وافريقيا ، وآسيا ، وامريكا
١٢١	العرب الوثنيون وما كانوا يعتقدونه ، وظهور الاسلام ودعوته للوحدانية ، العصر الحديث ووجود الاضطراب بين الفكر والعقائد
١٢٢	نشوء المانية ، والافلاطونية الحديثة ، وتعدد الفرق المسيحية ، الغنوسية ، والمونتانية
١٢٢	الديانة المسيحية وماذا كانت تؤمن به في اول عهدها ، وتطور اعتقادها بالاله الواحد الى القول بالتثليث

- اختلاف العقائد بسبب الثورات الدموية والحوادث الانقلابية . الميل الديني
امر وراثي ، يتأثر صاحبه بالمحيط اكثر مما يتأثر بالعقل والتحري عن
الحقيقة ١٢٣
- ماقاله فلاسفة اليونان عن الالهية « فيلمون ، وهيرودوتس ، وسيزرو ،
ومياندر ، وايومريديس ، واوغوستين ، وبورفيري ، وارسطو ، وبلوتارخ ،
واصحاب الافلاطونية الحديثة ١٢٤
- مايقوله العقليون واصحاب مذهب وحدة الوجود عن الله ١٢٦
- عقيدة الفيثاغوريين ، بأن اوليات الاعداد هي اوليات الموجودات ، وان
الكون ليس إلا عدد وتناسق ١٢٧
- ماقاله ارسطو عن الفيثاغوريين ١٢٨
- ماقاله كستيوفان عن الاله الواحد ١٢٨
- رأي براتوغوراس عن الآلهة ، ورأي هيسيود عن ذلك ١٢٩
- رأي لوكريتيوس عن طبيعة الانسان وطبيعة الحياة وعلاقتها بالقوة العامة ١٣٠
- كازميروس برازيسكي ومحاكمته بحسب عقيدته والحاده ، وروح الاضطهاد
وما كان لها من تأثير ١٣٢
- ماذا انتهت اليه قضايا التحري عن نشأة الالهية وما اكتشفه العلم
الحديث عن ان الاديان في بدء تكوين المجتمع ظهرت تحت تأثير الفرائز
والميل ١٣٥
- « فرويد ، ونظرياته في نشوء الاديان ١٣٦
- التوراة وماقالته عن الله ١٣٧
- ماذا ترينا دراساتنا للاديان ، اكثر الشعوب كونت لنفسها فرضيات خاصة
عن اصل الخليقة وعن الآلهة التي تحكم العالم ١٣٨
- أقدم الآثار المكتوبة وجدت في المنطقة الواقعة حول البحر المتوسط ،
والهند وما وجد في كتبها المقدسة ١٤٠

- التوراة وماذا يتبين من دراستها . الطوفان وما كتب عنه ، ومتى ظهرت
 ١٤١ فكرة التثليث
- ١٤٤ القرآن وتعاليمه
- الاديان السماوية تجمعها خصال حميدة . البوذية وتطورها وجوهر ما ورد
 ١٤٥ فيها . الفرق بين بوذية الالاما ، والصين واليابان والهند
- ١٤٦ ماهي الشينتوية ، والكونفوشية
- قضية الاعتراف باله واحد وما يقال عنه ، وعدد اتباع كل من البوذية
 والكونفوشية ، والشينتوية ، والطائوية ، والاديان المنتشرة في آسيا ومعظم
 ١٥١ افريقيا ، والديانة الانيمية ، والديانات الاخرى
- العقيدة القائلة ان الارض مليئة بالارواح والشياطين ، وعبادة الجنس
 ١٥٢ واين جرت محاربتها؟
- ١٥٤ « التثليث » اصله ، وتطوره
- اصل عقيدة « الدين » في نظر القرن العشرين . ما يقوله « العقاد » ، وما
 يقوله « فريد وجدي » . وما يستنتج من قوليهما ، وبما تقدم من العرض
 ١٥٨ عن فكرة الدين والالوهية
- « قانون الصدفة » وما هو ؟ الاسباب التي دعت للقول به ما هي ؟ هل هو
 ١٦٥ قصور العقل عن فهم المجرد الكامل ام خبرة العلماء والفلاسفة ؟
- قد تكون الاسباب التي اوردها الفلاسفة والعلماء هي التي جعلت قضية
 الالوهية واثبات وجود الاله قضية لا تدخل في نطاق البراهين العقلية
 ولا المادية ولا في براهين الحيرة والشك ولا القول بالمصادفة ، فالى أين
 ١٧٣ يجب ان يتجه الانسان ؟
- ١٧٤ ما هو رأيي في ما تقدم ؟

الشخصية وتكوينها

- المعرفة العلمية ، والفرق بين المعرفة الشعورية والمعرفة العلمية ١٧٨
تأثير الشخصية في مجرى الحياة الاجتماعية ١٧٩
سبب خذلان العرب في سياستهم وموقفهم ١٨٠
ما هي الثقافة ؟ ما هي الشخصية ؟ ١٨٠
بيان عناصر الشخصية ١٨٢
عوامل الشخصية : « البنية ، المواد البيولوجية - الكيميائية ، فعل الغرائز
وعدها ، العقل الواعي وتأثيره ١٨٣
كيف يعرف الانسان شخصيته و « مقياس الشخصية » ١٨٨

وعى الانسان في الافراد والجماعات

- ما هو الوعى ، وما هو العقل ، وما هي النفس ؟ ١٩٢
العقل الواعي ، والعقل غير الواعي ١٩٣
المجرى الفكري وكيف تتكون الأفكار ؟ علاقة الوعى بالجهاز العصبي ١٩٤
هل العقل فعل من افعال الدماغ ؟ ام هو مستقل يتوقف ظهوره على سلامة
الدماغ ؟ ١٩٧
بماذا نعرف العقل ؟ ١٩٨
ما تتركب منه المظاهر العقلية الثلاثة : الغرائز وعلاقتها بالعقل ١٩٩
المصائب واسباب الشرور ٢٠١
وعى الجماعات ٢٠٢

ما أفاده العلم للانسان

- ما أفاده العلم هو نتاج العقل ، لماذا يجحد طلاب العلم الحقيقة ؟ معنى السلب
والجحود والحقيقة ٢٠٥

٢٠٦	مثال لجهلنا بما هي عليه معرفة دودة القز
٢٠٦	انقسام العلماء الى ماديين وروحيين
٢٠٧	الموجودات التي تشكل منها القدسية : « الحقيقة ، الجمال ، الخير ،
٢٠٧	غاية العلم وسبب تباين العلماء
٢٠٨	ما هي الفلسفة الحقيقية ؟
٢٠٨	تحول السالم وانقسام العلماء فرقاً لدرس الاشياء ونتيجة ذلك
٢٠٩	ما تراه العين « عين العلم » من فضاء الكون
٢٠٩	المادة وانقسامها وانقسام العلوم
٢١٠	الحياة ومصدرها
٢١٠	ماذا نتج عن الحياة
٢١١	افعال الحياة
٢١٢	استحالة الاحاطة بكل العلوم
٢١٢	الادب والفن ومكاتبهما
٢١٣	الحقيقة والمادة
٢١٤	ما قاله لابلاك وما قاله نيوتون
٢١٤	ليس من السهل قبول مدعي المادية
٢١٥	الحياة وماهيتها
٢١٦	الحياة مادية فرضية
٢١٧	العقل ورمزاياه
٢١٨	ماهية العقل ومظاهره
٢٢٠	المادة حمولة العقل

مقاييس المادية

٢٢١	مقاييس المادية
٢٢٣	ما هي المادية ؟
٢٢٤	المقاييس الثلاثة لتقدير المادية

المبادئ وتطورها وتأثيرها في الافراد والجماعات

٢٢٩	ما هو المبدأ
٢٣٠	انقسام المبدأ الى قسمين : المبدأ الخاص والمبدأ العام . خواص المبادئ
٢٣١	تأثيرات المبادئ . التأثيرات الظاهرة والتأثيرات الباطنة
	تطور المبادئ وأسبابه والمثال على ذلك . مبدأ الحب ومبدأ الدين ومبدأ
٢٣٢	العلم
٢٣٤	العلماء الذين ساعدوا على تطور العلم في الشرق والغرب
	التأثيرات الحاصلة من هذا التطور ، الاول يتعلق بالمجتمع الانساني ، والثاني
٢٣٥	يتعلق بالفكر الانساني
	استقرار المبادئ العلمية على اساس التجربة والاستقراء والقياس الصحيح
٢٣٦	وتأثيرها في ٩ امور اخرى
٢٣٦	ما هو الوجدان ؟
٢٣٨	الوجدان الفردي والوجدان الاجتماعي والمثال على ذلك
٢٤١	قوة المبادئ واثرها في العقول والارواح

الديموقراطية واهدافها في التعليم والتربية

٢٤٣	الغاية من الاستقلال
-----	---------------------

٢٤٤	ما تتطلبه الديمقراطية ؟
٢٤٤	ما هي الديمقراطية ؟
٢٤٥	ما يقوله ادوار بنيش عن الديمقراطية
٢٤٦	مبادئ الديمقراطية
٢٤٦	اهداف التعليم والتربية
٢٤٧	ادلة الرقي والمدنية
٢٤٩	صلاح التعليم وشروطه
٢٤٩	كيف يرّدي رجال التعليم هذه المهمة ؟
٢٥٠	حاجتنا الحاضرة
٢٥٥	الخلاصة

التطور الاجتماعي في سوريا

٢٥٦	كلمة التطور
٢٥٧	معنى كلمة الاجتماع
٢٥٨	اسباب تشبيه المجتمع بالجسم الحي
٢٥٨	ما هي عوامل التطور الاجتماعي ؟
٢٥٩	مقاييس التطور الاجتماعي
٢٦١	مبدأ البحث عن التطور الاجتماعي
٢٦١	النواحي الاجتماعية التي يجب معرفة التحول فيها لتقرير المصير
٢٦٤	المظاهر الدالة على تطور عقلية المجتمع السوري
٢٦٨	ما وجد في تواريخ حلب من الحوادث ؟
٢٦٩	ما هي المظاهر الدالة على بناءية المجتمع السوري
٢٧٧	المظاهر الدالة على تطور نفسية المجتمع
٢٧٩	المظاهر الدالة على تطور المجتمع السوري

تطور التربية والتعليم في ادوارهما المتعددة

- اليونان وتربيتهم ٢٨٤
- الرومان واصول تربيتهم ٢٨٥
- الامة المصرية وتربيتها ونتائجها ٢٨٦
- العرب ومبادئهم ورسالتهم وما أدوه للتربية من خدمات ٢٨٨
- التربية والتعليم في عصر النهضة ٢٩٠
- إراسموس وتعاليمه ٢٩١
- المدارس اليسوعية وتأثيرها ٢٩٢
- باسكال ولافونتين وتأثيرهما في يقظة الافكار . جان ميلتون وفرانسوا رابليه ومدرسة الواقعية ، واتجاه التربية الواقعية ايام مونتاني ورسالته التعليمية ٢٩٢
- فرنسيس بيكن ، والمؤرخ كارل فون كرومر والتجديد وعملهما في التربية الواقعية ومبادئها ٢٩٣
- بيكن وطريقته لاكتشاف الحقيقة ٢٩٤
- رتك الالماني واسلوبه في الاستقراء وخلاصة طريقته ٢٩٤
- جون كومينوس المتوفى سنة ١٦٧٠ وتقسيمه ادوار التربية الى اربعة . ٢٩٥
- جون لوك المتوفى عام ١٧٠٤ ونظريته الجديدة في الترويض الفكري ٢٩٥
- سبنسر وهاكسلي والمدرسة الطبيعية ٢٩٦
- بستولوزي واصول تعليمه ومبادئه في التربية ٢٩٧
- هربارت ونظريته في وحدة العقل ٢٩٨
- « فروبل » وحدائق الأطفال . اتجاه التربية في القرن التاسع عشر الى النزعة العلمية . هاكسلي وسبنسر المتوفى عام ١٨٩٥ ونظرته في الحياة الانسانية ٢٩٩

فرويد ومدرسته في الغاية من التربية ، والخلاصة من كل ما تقدم

الأسباب المرضية للعقل

- ٣٠٢ تأثير العبادات والترايل في النفس علم الأطفال وما يحويه من مباحث
 ٣٠٣ التشويشات ومنبتها . الانفعالات النفسية وتأثيرها في البدن
 ٣٠٤ قانون البقاء الاجتماعي وما يقول به
 ٣٠٥ ما وجده المتخصصون بمباحث علم الطفولة عن وراثة الطفل
 ٣٠٦ الهياجين الصحي وما يحتوي عليه . تأثير المدارس في عقل الطفل
 حالة مدارسنا بالنسبة لأساليب التعليم ، وما يستحقه الطفل من العناية اذا
 ٣٠٧ كان من ذوي الذهنيات العلمية ، والتفاضل الذهني العظيم
 التفريد في اصول التعليم . التشويش الفيزيكي وتأثيره . أسباب الجليجلة
 ٣٠٨ والملل ، والاضطراب من الاحوال الشاذة وكيف يمكن منعها ؟
 ٣٠٩ الوسائل المؤدية لمعرفة الاسباب والتدابير الشفائية لها .

ما يجب على الطالب والطالبات أن يعلموه

- ٣١١ الوصايا الاثني عشرة الموجهة للطلاب والطالبات والمعلمين والمعلمات
 ٣١٤ ما هي الاهداف التي تضمن النجاح ؟
 ٣١٥ ما هو المطلوب من الثقافة العامة ؟
 ٣١٥ ما هو المطلوب من الوحدة الوطنية ؟
 ٣١٦ ماذا يفهم من المساواة في الفرص
 ٣١٦ ماذا تعني كلمة تقوية الخلق الادبي
 ٣١٧ ماذا يقتضي لتنوير الذهن ؟
 ٣١٩ ماذا يجب على الطلاب والطالبات ان يتعودوه لانماء شخصيتهم ؟

التحقيق الوافي بأن كلمة « المشيمة » ترادف كلمة البلاسنته « Placenta » لا كلمة « السُخْد » . سبب الاعتراض على كلمة « السُخْد » التي استعملها اطباء الجامعة في دمشق بدلاً من كلمة بلاسنته وجواب الاستاذ الدكتور مرشد خاطر عليه

٣٢٠

جوابي على بيانه بأن كلمة المشيمة هي الصحيح وليست كلمة « السُخْد »
جواب الاستاذ الاب الكرمل على اعتراض

٣٢٥

جوابي على ما نشره الاستاذ الاب الكرمل ، ونقدي لبياناته مع الادلة القاطعة التي تؤيد الادعاء بأن كلمة البلاسنته هي « المشيمة » وليست كلمة « السُخْد » .

٣٢٧

٣٣٩

فهرس الكتاب



مِطْبَعَةُ الضَّادِ

حلب : الجميلية - شارع الفارابي

الهاتف : ١١٢٨٦



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074067800